CATHERINE GILDINER

د. كاثرين جلدنر

صباح الخير أيها الوحش

مُعالِجة نفسية تُشارِكنا قصصًا باهرةً عن التعافي



GOOD MORNING MONSTER



مكتبة

ترجمة: عصام الدين سامي



صباح الخير
أيها الوحش



إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
Good Morning, Monster
- العنوان العربي: صباح الخير أيها الوحش
- طُبِع بواسطة:
Viking imprint of Penguin random house

- ترجمة: عصام الدين سامي
- تدقيق لغوي: هبة ممدوح
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 13309/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-282-9

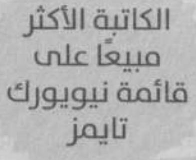


CATHERINE GILDINER

د. كاثريـن جلِدنر

صباح الخَيـر أيها الوحش

مُعالِجـة نفسية تُشارِكُنا قصصًا باهرةً عن التعافي





GOOD MORNING MONSTER



مكتبة

ترجمة: عصام الدين سامي

أود التعبير عن شكري للمرضى الموصوفين في هذا الكتاب، لقد انحدر هؤلاء الخمسة من ثقافات مختلفة، وخلفيات اجتماعية مختلفة تمامًا، والأهم من ذلك أن لكل منهم مزاجًا شديدَ الاختلاف، كانت لورا ومادلين على طرفي نقيض بالنسبة للطيف الاقتصادي، لكن كلًّا منهما ضرب مثالًا للجسارة الخالصة، كما أبهرني داني بطبيعته الرزينة، وكذلك بيتر بمغفرته، وألانا بقدرتها على التحمل، كان لكل منهم صفات بطولية كنت أتوق إلى اكتسابها، وقد تعلمت منهم عن استراتيجيات التكيف المختلفة ما لا يحصى، وكثيرًا ما استخدمت دروسهم، وقد غير كل منهم نفسي للأفضل.

لا يوجد كرم أكبر من مشاركة قصة حياتك، وأنا ممتنة للغاية لهؤلاء المرضى، وقد بذلت في المقابل جهدًا كبيرًا للحفاظ على سرية هويتهم، إذ كان من المهم للغاية ألا يعرفهم أحد.

هذا ليس كتابًا للأكاديميين، بل لعامة الناس، وعلى الرغم من رغبتي في أن يكون الكتاب مصدر إلهام في الأساس فقد رغبت كذلك في أن يكون أداة تعليمية، لقد أعدت بناء حواراتنا من خلال ما دونته من ملاحظات في حالة كل منهم، لكن نظرًا لاحتياجي إلى التحديد الواضح للحقائق النفسية التي أردت تناولها، ولتمويه هوية المرضى، فقد هجَّنت بعض الشخصيات بواسطة تضمين تفاصيل معينة من بعض حالاتي الأخرى حين شعرت أنهم عبَّروا عن وجهة النظر النفسية بوضوح، كما صغت كل حالة في قالب سردي، لذا أبرزت بعض التفاصيل وأسقطت البعض الآخر في سبيل الوضوح.

أشكرهم جميعًا على تشاركهم معاركهم معي ومع الآخرين، وأنا على يقين من أن بيتر -العازف- تحدث نيابة عن الجميع حين قال: «إذا كان تشارك قصتي سيساعد ولو شخصًا واحدًا يعاني فالأمر جدير بذلك».

خالص امتناني

كاثرين جلدنر


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

لورا

«قلبي ليس مسكنًا للجبناء».

- أنطوانيت فوي


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

1

محاطة بالمعاتيه

يوم أن افتتحت عيادتي الخاصة جلست في مكتبي معجبة بنفسي، شاعرة بقوة المعرفة التي حصَّلتها، مطمئنة بالقواعد العلاجية التي تعلمتها، ومتطلعة إلى مقابلة مرضى بمقدوري أن «أشفيهم».

كنت واهمة.

لحسن الحظ أنني آنذاك لم يكن لدي أي فكرة عن مدى الفوضوية التي يواجهها المعالج النفسي كل يوم، وإلا لكنت آثرت البحث العلمي البحت، فهو ميدان أستطيع فيه التحكم في المبحوثين والمتغيرات، ثم تفاجأت أنني يتوجب أن أكتسب المرونة، نظرًا لانبثاق معلومات جديدة كل جلسة تؤدي إلى تغييرات غير متوقعة، كما لم يكن لدي أي فكرة في ذلك اليوم الأول أن العلاج النفسي ليس عبارة عن معالج يحل المشكلات، وإنما شخصان يجلسان وجهًا لوجه، أسبوعًا تلو أسبوع، سعيًا للوصول إلى حقيقة نفسية يمكن الاتفاق عليها.

إن أفضل من ساعدني على فهم تلك القضايا هي لورا ولكس، مريضتي الأولى، التي أحالها إليَّ ممارس عام، قائلًا في رسالته: «سوف تطلعك على التفاصيل اللازمة». لا أدري أينا كان أشد خوفًا من تلك الجلسة الأولى، لورا أم أنا، آنذاك كنت حديثة التحول من طالبة ترتدي الجينز والتيشيرت إلى امرأة

مهنية ترتدي البدلة الرسمية ورافعات الأكتاف، وهو **الملبس التقليدي** في أوائل الثمانينيات، وأتذكرني جالسة هناك خلف مكتبي الكلاسيكي الضخم شاعرة بأنني مزيج من آنا فرويد وجوان كروفورد[1]، ولحسن حظي أن شعري أصابه بعض الشيب مبكرًا في عشرينياتي، مما أمدني ببعض الوقار الذي كان سلوكي في أمسّ الحاجة إليه.

حين قابلت لورا أول مرة رأيت امرأة طولها 150 سم بالكاد، قوامها أشبه بساعة رملية، عينان لوزيتان واسعتان، شفتان شديدتا الانتفاخ، لولا أن **حَقْن البوتكس** لم يَصدُر إلا بعد ثلاثين عامًا من ذلك الحين لشككت أنها قامت بإجرائه، شعرها الأشقر المتدلي حتى الكتفين مع بشرتها الناعمة المثالية ودكنة العينين كل ذلك يبدي تباينًا لافتًا، ماكياج مثالي وأحمر شفاه ساطع يبرزان ملامحها، أناقة متجلية في البلوزة الحريرية المفصلة، والتنورة الرصاصية، والكعب العالي.

قالت لورا إنها في السادسة والعشرين من عمرها، غير متزوجة، وتعمل في شركة استثمارية كبيرة، وأنها قد بدأت مسارها سكرتيرة ولكن تمت ترقيتها إلى قسم الموارد البشرية.

حينما سألتها كيف يمكنني مساعدتها ظلت مدة طويلة تنظر إلى النافذة فحسب، فانتظرتها لتخبرني بالمشكلة، وأطلت انتظاري فيما يسمى بالصمت العلاجي، وهو هدوء غير مريح من المفترض أن يستحث المريض على إخراج الحقيقة، وأخيرًا قالت: «أنا مصابة بالهربس».

سألتها: «الهربس النُطاقي أم الهربس البسيط[2]؟».

---

(1) آنا فرويد Anna Frued هي معالجة نفسية شهيرة، تعد من أوائل مؤسسي التحليل النفسي للطفل، وهي ابنة الطبيب والمحلل النفسي الشهير سيجموند فرويد Sigmund Freud، أما جوان كروفورد Joan Crawford فهي ممثلة أمريكية بدأت مسيرتها المهنية كراقصة استعراضية. (المترجم)

(2) الهربس النطاقي (والمعروف أيضًا بالحزام الناري) هو عدوى فيروسية تسبب طفحًا جلديًا مؤلمًا في مناطق معينة بالجسم، أما الهربس البسيط فهو ينقسم إلى الهربس الفموي الذي يؤدي إلى تقرحات حول الفم والوجه، والهربس التناسلي الذي ينتقل بالاتصال الجنسي ويؤدي إلى تقرحات بالأعضاء التناسلية أو الأرداف أو منطقة الشرج. (المترجم)

فردت: «النوع الذي يصاب المرء به حين يكون غاية في القذارة».

فأعدت صياغة كلامها بقولي «المنتقل جنسيًا».

حينما سألت لورا عما إذا كان شريكها الجنسي يعلم أنه مصاب بالهربس قالت إن إد (خليلها منذ عامين) نفى هذا الأمر، ورغم ذلك فقد عثرت على حاوية أقراص في خزانته اكتشفت أنها نفس الدواء الذي وصفه الطبيب لها، وحين ناقشتها في هذا الأمر كانت استجابتها كما لو أن هذا طبيعي ولا شيء يمكنها فعله حيال ذلك، قالت: «هذا هو حال إد، لقد انهلت عليه توبيخًا وتقريعًا، ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟».

هذه الاستجابة المتمثلة في اللامبالاة تشير إلى أن لورا معتادة على السلوك الأناني والمخادع، ومن اللافت للنظر قولها إنها أحيلت إليّ لأن أقوى الأدوية لم يكن يحد من استمرار تفشي المرض فارتأى طبيبها أنها بحاجة إلى مساعدة نفسانية، لكن لورا أعلنت بوضوح انعدام رغبتها في العلاج النفسي، إنها تريد حل مشكلة الهربس ليس إلا.

أوضحت لها أن **الضغط النفسي** عند بعض الناس هو الموقد الرئيس لهجمات الفيروسات الكامنة، فقالت: «أعرف ما تعنيه تلك الكلمة ولكني لا أعرف بالضبط كيف يبدو، لا أظن أنني كذلك، كل ما في الأمر أنني أواصل المضي قدمًا رغم العراقيل، ومحاطة بالمعاتيه»، كما أخبرتني أن أشياء قليلة للغاية تلك التي استطاعت أن تزعجها في معيشتها، ولكنها اعترفت بأن الهربس قد أدى إلى اضطراب حياتها بشكل لم تعهده من قبل.

سعيت بادئ ذي بدء إلى طمأنتها بإخبارها أن سدس الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و49 عامًا مصاب بالهربس، فكان ردها: «وما المشكلة في ذلك؟ نحن جميعًا في نفس مستنقع القذارة»، حينئذ رأيت أن من الأفضل تدوير الدفة فأخبرتها أنني متفهمة لسبب انزعاجها، لقد خانها رجل زعم أنه يحبها، هذا إلى جانب أنها تتألم جسديًّا، وبالكاد تستطيع الجلوس، لكن أسوأ جزء في هذا كله هو الخزي، سيتحتم عليها إخبار أي شخص تنام معه بأنها مصابة بالهربس أو حاملة له.

اتفقت لورا مع ما قلته، ولكنها أوضحت أن أسوأ جانب بالنسبة لها هو أنه رغم بذلها أقصى ما بوسعها للارتقاء بنفسها عن ظروفها الأسرية فإنها الآن تغرق في مستنقع القاذورات، تمامًا كحال أسرتها الدائم، وقالت: «الأمر أشبه

بالرمال المتحركة، مهما زحفت جاهدة للخروج من الوحل والقذارة، أجدني مسحوبة ومغموسة مجددًا، أنا متيقنة من ذلك، فلقد قمت بمحاولات مستميتة حرفيًا ولكن دون جدوى».

حين طلبت من لورا أن تخبرني عن أسرتها قالت إنها لن تتطرق إلى «المواضع النتنة تلك»، وأوضحت أنها شخص عملي وتريد تخفيف ضغوطها النفسية، **أيًا ما كان معنى ذلك**، حتى تتمكن من السيطرة على آلام الهربس، كانت خطتها أن تحضر هذه الجلسة فحسب، إما أن أعطيها حبة دواء وإما أن «أشفيها» من «الضغط النفسي»، فبينتُ لها أن الضغط النفسي، أو القلق، من السهل أحيانًا تقليل حدته ولكنه في أحيان أخرى يكون عنيدًا، وأوضحت لها أننا بحاجة إلى عدد من المقابلات حتى تتمكن من إدراك ما الذي نعنيه بالضغط النفسي وكيفية معايشتها له، واكتشاف منابعه، ثم العثور على سبل لتلطيفه، كما أخبرتها أن جهازها المناعي قد يكون منشغلًا للغاية بمكافحة الضغوط النفسية لدرجة أنه لم يتبق منه شيء لمحاربة فيروس الهربس.

فكانت استجابتها: «لا أصدق أنني مضطرة إلى فعل هذا، أشعر كأنني أتيت لمجرد خلع سن وبالخطأ انخلع دماغي كله معه»، بدت لورا مشمئزة ومتقززة من الأمر، لكنها أذعنت في النهاية قائلة: «حسنًا، احجزي لي موعدًا آخر».

من الصعب علاج مريض ليس لديه وعي بما يدور في عالمه النفسي، لقد كانت لورا راغبة في علاج الهربس فحسب، وكانت تنظر إلى العلاج النفسي بكونه وسيلة لتحقيق هذه الغاية، كما كانت عازفة عن إمدادي بتاريخها الأسري، إذ لم يكن لديها أي فكرة عن مدى صلته بالأمر.

هناك أمران لم أضعهما في حسباني بأول يوم لي بالعيادة، أما الأول فهو كيف يمكن لهذه المرأة ألا تكون على دراية بماهية الضغط النفسي وأما الثاني فهو أنني كنت قد قرأت المئات من الحالات الشارحة، وشاهدت العديد من الجلسات العلاجية المسجلة، وحضرت العشرات من المناقشات التعليمية، ورغم ذلك فلم يصادفني أيُّ مريض يرفض الإمداد بالتاريخ الأسري، ولا حتى في أثناء عملي بالمناوبات الليلية في المستشفيات النفسية وعنابرها، مأوى النفوس التائهة، لقد كان المريض يمنحنا تاريخه حتى لو كان يقول

إنه من «مدينة الناصرة» وأنه ابن مريم ويوسف[1]، لكن مريضتي الأولى الآن ترفض! حينئذ أدركت أنه سيتعين عليَّ السير بأسلوب لورا الغريب، وبوتيرتها الخاصة، وإلا ستختفي ولن أراها ثانية، وأتذكر أنني كتبت في مذكرتي: **مهمتي الأولى هي استحثاث لورا على الانخراط في الجلسة.**

***

لدى فرويد مفهوم يُسمَّى الطرح، وهو المشاعر التي تتولد لدى المريض تجاه معالجه، قد صرح بأنه حجر الزاوية في العلاج النفسي، أما الطرح المضاد فهو المشاعر التي تنشأ لدى المعالج تجاه مريضه، ولقد اكتشفت على مدار العقود التي أمضيتها في عيادتي الخاصة أنه إذا لم يكن بداخلك قبول صادق لمريضك، إذا لم تكن داعمًا له، فإنه يستشعر ذلك وهذا بدوره يؤدي إلى عرقلة العملية العلاجية، لن يقتدر أيٌّ منكما على استنبات الرابطة التفاعلية بين المريض والمعالج اللازمة لنجاح العلاج، قد يختلف معي المعالجون الآخرون، لكنني أظن أنهم يخدعون أنفسهم.

لقد حالفني الحظ، إذ تلامست فورًا مع ما قالته لورا، لقد ذكرتني بنفسي، بنبرتها الحازمة تلك، ومشيتها الجريئة، وأسلوبها الجاد، بالإضافة إلى ذهابها للجامعة ليلًا رغم عملها ستين ساعة أسبوعيًّا، واجتيازها مساقًا دراسيًّا تلو آخر، لتصير امرأة في طريقها لنيل شهادة التجارة وهي في سن السادسة والعشرين.

***

جاءت لورا في جلستنا التالية تحمل أربعة كتب عن الضغط النفسي ممتلئة بملاحظات، بالإضافة إلى لوحة ورقية ضخمة رسمت عليها جدولًا مرمزًا بالألوان، كتبت في الصف الأفقي العلوي «الضغط النفسي؟!»، ورسمت أسفل الصف عدة أعمدة، الأول ملون بالأحمر بعنوان «التعامل مع المخبولين»، ثم أدرجت عددًا من «المخبولين» في الفئات الفرعية، كان الأول رئيسها في العمل، كليتن، والثاني خليلها، إد، والثالث أباها.

---

(1) «الناصرة» هي مدينة فلسطينية تعتبر من أهم المدن المقدسة في الديانة المسيحية، أما «يوسف» هنا فهو «يوسف النجار»، خطيب «مريم» الذي لم يتزوجها، وفقًا للديانة المسيحية. (المترجم)

أخبرتني لورا -وهي حينئذ قد قرأت تلك الكتب عن الضغط النفسي- أنها تحاول تحديد أسباب الضغوط النفسية في حياتها، وأنها ظلت طيلة الأسبوع السابق تعمل على إنشاء هذا الجدول، ثم حين علقتُ بأنها لم تدرج أي امرأة في الجدول إذ بها تتفحصه بدقة وتقول: «ملحوظة جيدة، أجل، لم أتعامل مع امرأة مخبولة قط، وأظن أنني حين أقابل أيًا منهن فإنني أتجنبهن فحسب أو لا أسمح لهن بإزعاجي» حينئذ أشرت إلى أننا نقترب من تحديد ما تعنيه كلمة **الضغط النفسي** بالنسبة لها، وطلبت منها مثالًا على ما يؤهل هؤلاء الرجال ليندرجوا في قائمتها، فكان جوابها: «هم أناس لا يتَّبعون أي قواعد ولا يكترثون بتاتًا بإنجاح الأمور».

أخبرتها أنني راغبة في تكوين تاريخ حياتها بدءًا من طفولتها حتى يومنا هذا، خاصة وأن أباها في القائمة، لكن حينما سمعت لورا ذلك بدا عليها الضجر والتضايق، فتابعت مسيرتي وسألتها عن ذكرياتها القوية عن أبيها، فأجابت فورًا بأنها تتذكر حين سقطت من منحدر في سن الرابعة فانجرحت قدمها بجسم معدني حاد، حينئذ حملها أبوها برأفة وذهب بها إلى المستشفى لخياطة الجرح، ثم في أثناء وجودهم بغرفة الانتظار علقت إحدى الممرضات على الجروح الفظيعة التي أصيبت بها لورا وأشادت بجلادتها وعدم نواحها، حينئذ لفَّ الأب ذراعه حول لورا، ثم احتضنها وقال: «تلك فتاتي، أنا فخور بها، إنها شديدة الصلابة، ولا تشكو أبدًا».

تلقت لورا رسالة قوية في ذلك اليوم، رسالة لم تنسَها قط، الحب والمودة معتمدان على التجلد وعدم الشكوى، لكن حين أشرت إلى أن هذا سلاح ذو حدين قالت: «كل منا يُحَب لسبب ما»، من الواضح أن فكرة الحب غير المشروط -أن يحبك أبواك مهما كانت أفعالك- كانت مفهومًا غريبًا بالنسبة لها.

حين سألتها عن أمها قالت إنها ماتت حين كانت في الثامنة من العمر، ثم حين سألتها عن أحوالها وطباعها أجابت لورا بكلمتين لا غير، كلمتين ظننت أنهما غريبتان بعض الشيء، «نائية» و«إيطالية»، كما لم تستطِع استحضار ذكرى واحدة عنها، لكن بعد أن حثثتها قليلًا قالت إنها حين كانت في سن الرابعة أهدتها أمها لعبة موقد طبخ في الكريسماس وأنها ابتسمت حين فتحته لورا.

لم تكن لورا متيقنة من الكيفية التي ماتت بها أمها، ولقد تعين عليَّ أن أطلب منها شرحًا تفصيليًا لذلك الحدث، «كانت بخير في الصباح، ثم حين عدت أنا وأخي وأختي الصغيرين للبيت من المدرسة لم نجد الغداء، وهو أمر غريب، ففتحت باب غرفة نوم والديَّ فوجدتها نائمة، فهزهزتها ثم قلبتها على جانبيها، لا يزال بإمكاني تصور العلامات التي انطبعت على وجهها من ملاءة السرير المطرزة، لم أتصل بأبي لأنني لم أكن أعرف مكان عمله، لكنني طلبت من أخي وأختي العودة للمدرسة ثم اتصلت بالنجدة».

عثرت الشرطة على أبيها ثم جلبته إلى المنزل بسيارة الشرطة، وعبرت لورا عما حدث آنذاك قائلة: «غطُّوا وجه أمي بملاءة مطبوع عليها «**ملكية مستشفى تورونتو إيست العام**» -ليس لدي أي فكرة عن سبب تذكري لذلك- ثم حملها الرجال على نقالة ونزلوا الدرج، وبهذا اختفى جسد أمي».

- ألم يكن هناك عزاء أو جنازة؟
- لا أظن ذلك، خرج أبي ثم حل الظلام، ثم حان وقت العشاء ولم يكن هناك طعام.

اكتشفت لورا أن مهمتها هي إعداد العشاء وإعلام الأخوين الصغيرين بوفاة والدتهما، وحين أخبرتهما بذلك بكت الأخت ذات الست السنوات، لكن شقيقها ذا الخمس سنوات لم يصدر أيَّ رد فعل سوى سؤاله عما إذا كانت لورا ستصير هي أمهما الآن.

لم يحضر أهل أمها الجنازة ولا ساعدوا أحفادهم، وقد شرحت لورا سبب ذلك: «لم تتحدث أمي عن علاقتها بأهلها قط، لكنني استنتجت من تعليقات أبي الساخرة أنهم تبرؤوا منها»، كما قالت إنهم «بيت إيطالي قح، ذلك النوع الذي يتجول في «الحي الإيطالي» Little Italy بثياب سوداء معظم حياته حدادًا على شخص ما، لقد كانت أمي الفتاة الوحيدة بين خمسة إخوة، ثم مُنعت من الخروج من البيت حينما بلغت سن العاشرة، حيث تحتم عليها المكوث في البيت والطهي والتنظيف، كان يُسمح لها بالتسوق برفقة أمها لكنها كانت ممنوعة من الخروج بمفردها، لدرجة أن أحد الإخوة كان يتوجب عليه اصطحابها من المدرسة وإليها يوميًّا».

رغم صرامة التربية التي تلقتها أم لورا فقد صارت حبلى في سن السادسة عشرة، وكان والد لورا بالنسبة للعائلة الإيطالية شابًّا منحلًا أحبلها وهو في

سن السابعة عشرة، فلم يكن من إخوتها إلا أن أبرحوه ضربًا وهددوه بالقتل إن لم يتزوجها، وبعد يوم الزفاف لم يزُرْها أحد من عائلتها قط.

وُلدت لورا بعد خمسة أشهر من الزفاف، ثم جاءت أختها بعد عشرين شهرًا، ثم وُلد شقيقها بعد ذلك بعام، وحين سألت لورا عما إذا كانت قد ذهبت إلى «الحي الإيطالي» لزيارة جديها قالت إنها غير مكترثة بهما.

تساءلتُ ما إذا كانت أم لورا مصابة بالاكتئاب وبالتالي غائبة وجدانيًّا، من منا لن تصاب بالاكتئاب -بل بصدمات نفسية- بعد تعرضها في طفولتها لفرط الحماية وهيمنة الذكور العنيفين ثم الزواج برجل مرغم على الزواج بها، وهو نفسه غير مؤهل، وربما كان مسيئًا جسديًّا ووجدانيًّا، وممتعضًا منها ومتجاهلًا لها؟ ثم تبرَّأ منها والداها، ولم يسامحاها قط على إقحامهما في ذلك الوضع المخزي، ولم يكن لديها أحد تلجأ إليه، وحينما سألت لورا عن وفاة أمها (لاشتباهي في الانتحار) قالت إنها لا تدري ما حدث، وعلى حد علمها فلم يكن هناك تشريح للجثة.

من المثير للدهشة أن هدية الموقد ستظل ذكرى لورا الوحيدة عن أمها طيلة العلاج النفسي الذي استمر أربع سنوات، ولقد جربنا في أثناء ذلك التداعي الحر[1]، وكتابة مذكرات عن أمها، وزيارة قبرها، لكن لم نجد سوى الخواء.

***

عدنا لوالد لورا في الجلسة التالية، فأخبرتني أنه كان بائع سيارات، لكنه فقد تلك الوظيفة حين كانت صغيرة، وأنه لطالما كانت لديه مشكلات متعلقة بالخمر والمقامرة و«سوء الفهم»، وأنه استمر في الانحدار إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا رغم كونه أشقرَ وسيمًا أزرق العينين، شديد الذكاء والجاذبية.

انتقل الأب بالعائلة إلى «مدينة بوبكايجون» Bobcaygeon في العام التالي لوفاة الأم، وهي منطقة في شمال شرق تورنتو، ورأت لورا أنه فعل ذلك ليتجنب رجال تورنتو الذين يلاحقونه، لكنها لم تكن متيقنة. كانوا جميعًا يعيشون في كوخ صغير خارج المدينة تملكه عائلة لديها عدد من الأكواخ

(1) التداعي الحر هو استخدام الحديث أو الكتابة للتعبير عن محتويات الوعي دون أي رقابة، كوسيلة لمعرفة العمليات اللاواعية. (المترجم)

المتواضعة المتفرقة بملكيتها في أرجاء الغابة، ثم سعى للتكسب بشراء شاحنة لبيع الأطعمة لساكني الأكواخ الصيفية، كان الأخ والأخت يلعبان في باحة السيارات في حين كانت لورا تقدم المقليات، لذا كان يدعوها «ذراعه اليمنى».

هنالك ابتدأ الأشقاء الثلاثة الدراسة في سبتمبر، حين كانت لورا في سن التاسعة، لكن مشروع الشاحنة لقي حتفه حين رحل ساكنو الأكواخ، فلم يكن أمامهم سوى شراء مدفأة صغير للكوخ المكون من غرفة واحدة والاحتشاد حولها، ذكرت لورا أن رجلين طرقا بابهم ذات يوم، يطالبان بنقود شاحنة الأطعمة، لكن أباها اختبأ في الحمام، فتحتَّم على لورا التخلص منهما.

ذات يوم في أواخر نوفمبر قال أبوها إنه ذاهب بالسيارة إلى البلدة لشراء السجائر، لكنه لم يرجع إليهم ثانية منذ ذلك اليوم، آنذاك كان الأطفال دون طعام ولم يكن لدى كل منهم سوى نوعين من الملابس، ومن اللافت للنظر أن لورا لم تعرب عن خوف، أو غضب، أو أي مشاعر من أي نوع وهي تسرد هذه القصة.

عزفت لورا عن إخبار أحد أن والدهم قد هجرهم خوفًا من انتهاء الأمر بهم داخل دور التبني، لذلك واصلت روتينهم اليومي، كانت الأكواخ -الواقعة في أعماق الغابة- مملوكة لعائلة لديها ثلاثة أطفال، كانت جلندا -الأم- لطيفة مع لورا حين لعبها مع ابنتها كاثي، أما رون-الأب- فقد كان رجلًا هادئ الطبع وكثيرًا ما كان يصطحب كريج -شقيق لورا ذا الست سنوات- للصيد برفقة ابنه.

انزعجت لورا بشدة وهي تقول إن تريسي -أختها الصغرى- لم تتوقف عن الأنين وأرادت الذهاب إلى منزل جلندا ورون لتخبرهما أن أحدًا ما قد اختطف أباهم وتسألهما عما إذا كان بإمكانهم العيش معهما.

لكن لورا -على عكس شقيقيها الصغيرين- كانت على دراية بأن والدهم قد هجرهم، ووصفت الأمر قائلة: «لقد حوصر في الزاوية، غارقًا في الديون، والله وحده يعلم ماذا أيضًا». من الجدير بالذكر أن الأطفال حين أساؤوا التصرف بعد وفاة أمهم هددهم أبوهم بتركهم في دار أيتام، وأدركت لورا أنه ليس تهديدًا فارغًا، حينئذ لم يرشدها تفكيرها سوى إلى أن مهمتها هي المحافظة على سير القافلة. وحينما سألتها عن شعورها تجاه التعرض للهجر

نظرت إليَّ كأنني درامية أكثر من اللازم، وقالت: «نحن إلى حد ما لم نتعرض للهجر، لقد علم أبي أنني موجودة وسأتدبر الأمور».

فقلت لها: «لقد كنت في سن التاسعة، ودون مال، ووحيدة في الغابة. ماذا تسمين هذا؟».

- أعتقد أنه من الناحية الفنية كان هجرًا، لكن أبي اضطر إلى مغادرة بوبكايجون، ولم يكن راغبًا في مفارقتنا، لكن لم يكن لديه خيار.

أدركت في تلك اللحظة مدى ارتباط لورا بأبيها ومدى حرصها على حماية نفسها من أي شعور بالفقد، ويمكننا القول إن الارتباط نزوع عام لدى الحيوانات والبشر نحو التعلق، نحو القرب من الأم/الأب والشعور بالأمان عند وجود ذلك الشخص. ما لفت انتباهي هو أن لورا لم تتذكر اتقاد أي «مشاعر» لديها آنذاك، لم يكن لديها سوى «الخطط»، وبعبارة أخرى: لقد تركت غريزة البقاء تتولى زمام الأمور، ورغم كل شيء فقد كان لديها طفلان صغيران بحاجة إلى الطعام والملبس خلال فصل الشتاء الكندي في البرية. لقد واصلت لورا السخرية من استفساري المستمر عن مشاعرها، مشيرة أكثر من مرة إلى أن المشاعر ما هي إلا رفاهيات لدى أولئك الذين يعيشون حياة سهلة وغير مضطرين إلى «استخدام دهائهم»، على حد تعبيرها.

***

استطعت الترابط مع ما قالته لورا عن الخطط مقابل المشاعر، إذ حين عايشت انقلاب الحظ في حياتي الشخصية لم يكن لدي وقت لاستكشاف مشاعري، لم يكن هناك وقت سوى للتصرف، لقد ترعرعت في أسرة ثرية، لكن حينما صرت في باكورة المراهقة تفاجأنا أن أبي صاحب الحكمة اللامتناهية، الذي كان يمتلك شركته الخاصة، بدأ يتصرف كمريض نفسي، ثم اكتشفنا أنه مصاب بورم دماغي غير قابل للاستئصال، وحينما اتصلت بمحاسبه أعلن أن أبي فقد كل أمواله، آنذاك تعين عليَّ البقاء في الدراسة والاشتغال بوظيفتين للمساعدة في إعالة الأسرة، وإنني بصراحة -شأني شأن لورا- لا أتذكر أيَّ مشاعر من أيِّ نوع، فلقد كان شغلي الشاغل هو التفكير فيما يجب فعله لتغطية النفقات.

انضممت في باكورة علاج لورا إلى إحدى مجموعات إشراف الأقران -وهي مجموعة من الإخصائيين النفسيين يجتمعون لمناقشة الحالات ومحاولة

إعطاء مؤشرات لبعضهم بعضًا- ثم فوجئت حينما ارتأى معظمهم أنني لا ألج مشاعر لورا كما ينبغي، وأنني «أصدق دفاعاتها»، فأدركت وجوب أن أفتش في ذهني للتأكد من أن رد فعلي تجاه صدماتي لا يلقي بصبغته على العملية العلاجية، ربما يكون أقراني على حق من ناحية، لكنني من ناحية أخرى أردت أن أسألهم هل سبق أن غرقوا في مأزق مربك، حيث يضطرون إلى صب تركيزهم بأكمله على اجتياز مصاعبهم وإلا تعرضوا لأضرار جسيمة، لا شيء يشحذ تركيز العقل أكثر من الحاجة إلى النجاة.

ورغم ذلك فلا أنكر أن عدم ولوجي لمشاعر لورا قد صعب العملية العلاجية، وسرعان ما أدركت أن وظيفتي الأولى لم تكن تفسير مشاعرها، وإنما ولوج مشاعرها، ثم تفسيرها لاحقًا.

حين دونت أحداث الشهر الأول في ملاحظاتي لخصت الأمر على هذا النحو: **لدي منتفعة عازفة عن الانخراط في العلاج، وليس لديها ذكريات واضحة عن أمها التي عاشت معها ثماني سنوات -وهو أمر غير مذكور في المراجع- ولا تدري ما هو الضغط النفسي لكنها تريد التخلص منه، وليس لديها ولوج لما شعرت به حين تعرضت للهجر، إن أمامي كثيرًا من العمل.**

***

حين واصلت لورا وصف محنتها تجلى أنها قد حافظت على اتزان تفكيرها في تلك الأثناء، لقد أدركت أن معظم الأكواخ قد تم إخلاؤها بالفعل لفصل الشتاء، لذلك انتقلت هي وأخواها إلى أحد أبعد الأكواخ، كوخ من المستبعد فتحه حتى قدوم الربيع، وأخذوا المدفأة معهم، كما أدركت وجوب التزامهم بروتينهم المعتاد وإلا انكشفت الحقيقة، لذا ظلوا يقطعون ما يقرب من 1.5 كيلومتر مشيًا على الأقدام يوميًّا لركوب الحافلة المدرسية، وعلاوة على ذلك فقد كانت لورا تتحدث للعالم الخارجي عن أبيها كأنه عاد وماكثٌ في الكوخ، وأمرت أخيها وأختها بفعل الشيء نفسه.

حينئذ قلت: «إذن فقد تُركتم للعيش بمفردكم في كوخ وأنتم في سن التاسعة والسابعة والسادسة، إن كنت تبحثين عن أحداث ضاغطة فربما يندرج ذلك في القائمة».

فردت لورا: «أولًا لقد انتهى الأمر، ثانيًا أنا لا أزال واقفة على قدمي، وسن التاسعة في الواقع ليس قليلًا».

- كم استمر ذلك؟
- ستة أشهر أو سبعة.

لخصت في نهاية جلستنا منظوري للموقف بقولي: «لقد كنت شجاعة. يبدو أن حياتك كانت صعبة، بل مرعبة في بعض الأحيان، لقد تعرضتم للهجر، وتُرِكتم بمفردكم، في غابة، وأصبحت مسؤولة عن صغيرين لم تكوني كبيرة بما يكفي لتربيتهما، لقد مررتِ بكل مخاطر قصة «هانسيل وجريتل» باستثناء فتات الخبز».

رغم أن العلاج قد استمر قرابة خمس سنوات فقد كانت تلك إحدى المرات المعدودة التي اغرورقت فيها عيناها بالدموع، وإن كانت دموعًا غاضبة، ثم ظلت صامتة دقيقة كاملة قبل أن ترد سائلة: «لم تقولين **تلك** الأشياء؟».

فقلت إنني أتعاطف معها، وإذ بها ترفض بحدة قائلة: «هذا شيء تقولينه للناس حين يموت شخص ما، اسمعي يا دكتورة، إن كنت تودين عودتي لهنا ثانية فلا تفعلي ذلك مجددًا أبدًا، وإلا تركتك وخرجت، أبقِ تعاطفك هذا أو أيًّا ما كان لنفسك».

فسألتها (في حيرة صادقة): «لماذا؟».

فقالت بنبرة حازمة: «حينما تقولين أشياء متعلقة بالمشاعر أرى انفتاح باب غرفة ملأى بالعفاريت، ولن أدخل تلك الغرفة أبدًا، يجب عليَّ مواصلة المسير، إن بدأت في التعثر -ولو مرة واحدة- فسأغرق، هذا بالإضافة إلى أن ذلك لا يفيدني بشيء».

ظللت أومئ برأسي في أثناء توضيحها، ثم أضافت: «قبل مغادرتي اليوم عليك أن تعديني بأنك لن تفعلي ذلك مجددًا، وإلا لن أستطيع العودة».

- إذن ما تقولينه هو أنك لا تريدين أبدًا أي لطف أو تعاطف أو تراحم مني؟
- أجل، إن أردت تعاطفًا فسأحصل عليه من بطاقات التهنئة بجرعة يمكنني تحملها.

تذكر أيُّها القارئ أن لورا مريضتي الأولى، لم أرغب في إجراء صفقة مع الاحتياجات المرَضِية لمنتفعتي، ولكنني رأيت أنها جادة بشأن ترك العلاج النفسي، فلقد كانت قطرة التعاطف مني بمنزلة فيضان بالنسبة لها، مما أرعبها، وكان ذلك ككسر الصفقة.

لو أنني آنذاك كنت معالجة متمرسة لصغتُ المعضلة لها كما أراها بالضبط، ولاقتدرنا -وفقًا لفريتز بيرلز مؤسس العلاج النفسي الجشطالتي[1]- على التعامل مع تلك المشكلة بما يسمى «هنا والآن»، يعتقد بيرلز أن الدينامية التي تتشيد في الجلسة بين المعالج والمريض هي الدينامية نفسها التي يشيدها المريض بينه وبين بقية العالم، وبالتالي كنت سأقول: «لورا، أنت تطلبين أن أتصرف مثل أبيك، الرجل الذي لم يكن مكترثًا لألمك، لقد اعتدتِ على عدم استجابة أحد لحزنك، لكني لا أريد هذا الدور، وأشعر الآن أنني في مأزق».

لكنني بدلًا من ذلك قلت: «أوافق على احترام رغباتك، فمن الواضح أنك عاقدة العزم، كما أريد تهيئة جو مريح لك حتى نتمكن من العمل معًا. ولكنني لن أوافق على فعل ذلك طيلة مدة العلاج».

جاءت لورا في الأسبوع التالي مسلحة بكتبها مجددًا، وحددت أن بيئة العمل هي ما يسبب الضغط النفسي الذي لديها، ثم أوضحت قائلة: «لدي مهام كثيرة يجب إنجازها كل يوم، لكن رئيسي كليتن يأتي متأخرًا ثم يقضي ساعتين في تناول الغداء مع السكرتيرة التي تربطه بها علاقة غرامية غير شرعية، ورغم ذلك يغادر العمل في الخامسة، وبالتالي آتي مبكرًا عنه وأغادر بعده بساعات لإتمام المهام».

- هل سبق أن تحدثت إلى كليتن بخصوص هذا؟
- **طبعًا!** بل أصيح به، لكنه لا يبالي.
- إذن تقومين بأعمال كثيرة.

---

(1) هو أحد مدارس العلاج النفسي يركز على الشخص وعلى حياته وتحدياته الحالية، بدلاً من الخوض في التجارب السابقة، ويؤكد هذا المنهج على أهمية فهم سياق حياة الشخص وتحمله للمسؤولية بدلًا من إلقاء اللوم على الآخرين. وعلى الرغم من أن إعادة النظر في الماضي جزء مهم في تحديد ما يحتاجه الفرد من أجل الشفاء، فإن العلاج الجشطالتي مرتكز إلى حد كبير على تجربة الفرد في الهنا والآن. (المترجم، مقتبس بتصرف من موقع sotor.com)

- ليس لدي خيار في الواقع، أنا مضطرة إلى القيام بعمله وعملي.

فاختتمتُ الحوار بقولي: «إن شعور المرء بأنه لا يملك خيارًا لهو أمر ضاغط».

لقد أمضينا وقتًا طويلًا في استكشاف كيفية التعامل مع كليتن، لكن لورا -في قرارة نفسها- لم ترَ منه أيَّ تغير، وعلى حد قول خليلها إد: «يجد كليتنكل شيئًا يسير على ما يرام. فلماذا يتغير؟».

فقلت «هذا مثير للاهتمام، كونه قادمًا من إد».

فسألتني: «ولماذا؟».

- حسنًا، يلقي إد بالأشياء عليك هو الآخر، وفي حين أن كليتن يكبُّ عليك نفايات العمل فإن إد يكبُّ عليك نفايات الهربس، ولم يفعل شيئًا سوى تركك تتدبرين أمورك، وحينما غضبت منه نفى علمه بإصابته بالفيروس، وحينما أوقعت به مستدلة بدواء الهربس قدم عذرًا واهيًا مفاده أنه ظن أنه ليس معديًا، هذا أمر غاية في الغرابة لدرجة أن من يفكر هكذا لا شك أنه من كوكب آخر أو في حالة إنكار شديد.

- على الأقل تأسف إد على ما فعل، لقد أرسل إليَّ باقتين اثنتين من الورود إلى مكان عملي مصحوبتين ببطاقة مكتوب بها: **لأنني أحبك**.

هل رأت لورا أن هذا يشفع عن الهربس؟ فقلت لها: «ألا يعمل إد لدى «وكالة جاكوار» Jaguar؟ لقد أخبرتني أنه حينما تأتي امرأة لتجربة قيادة سيارة فإنه يرسل إليها الورود في اليوم التالي، هذا سهل».

- هل تسعين إلى إغضابي؟

فطمأنتها بأنني لا أقصد إغضابها، وإنما أتساءل عما شعرت به تجاه سلوك إد.

- ما المفترض عليَّ فعله؟ ألا أسامحه أبدًا؟

أشرت إلى أن حوارنا قد ابتدأ بما قاله إد، الذي هو شخص غير مسؤول إلى حد ما عن كليتن، الذي هو أيضًا غير مسؤول، أردت أن ترى لورا المفارقة الساخرة في تعليق إد بأن كليتن ليس مضطرًا إلى التغيير لأنها تقوم بالعمل كله، فأومأت لورا بيديها، مشيرة إلى أنها لم تستوعب هذه النقطة، فسألتها: «من منكما يجاهد للحفاظ على العلاقة، أنت أَم إد؟»، فاعترفت بأنها من تفعل ذلك، فالتزمتُ الصمت، ثم أخبرتني في نهاية المطاف أنني انحرفت عن الهدف الأساسي سالكة مسارًا آخر.

فأوضحتُ قائلة: «أنت تغفرين لإد تأخره المستمر، ومغازلته للنساء، وإصابتك بالهربس»، ثم ساد الصمت طويلًا، فسألتها لماذا لا تتوقع من الرجال سلوكًا محترمًا وراشدًا.

فكان ردها: «إنه على الأقل يتأسف، وهذا عظيم مقارنةً بوالدي»، ثم نظرت إلى النافذة، وقالت: «لم يكن في الواقع أبًا بذلك السوء، لقد أبقانا معه بعد وفاة والدتنا، لاتّصل كثيرون غيره بخدمات حماية الطفل».

- حسنًا، لقد ترككم بالفعل في بوبكايجون لتتجمدوا داخل كوخ صغير.

فردت بنبرة معارضة كأنني أركز على تفاصيل تافهة: «سبق أن أخبرتك، لقد تدبرنا أمورنا»، لقد استخدمت لورا فنية سيكولوجية تُسمّى إعادة الصياغة، وهي التقاط المفهوم ثم إعادة وصفه لتغيير معناه، لقد أعادت تأطير ما اعتبرتُه إهمالًا ووصفت مخاوفي بأنها «مفرطة الحماية».

فقلت لها: «حينما أتيت إلى هنا لأول مرة تحدثتِ عن «المخبولين في حياتك»، أيمكن أن نكون أكثر تحديدًا؟»، ففوجئت بالتشوش باديًا على لورا، لذا نمقت سؤالي: «هل المخبول -كما تحبين استخدام هذا المصطلح- شخص يأخذ منك ولكن لا يرد؟ شخص لا يلبي سوى احتياجاته الخاصة؟».

- كل الناس لا يريدون سوى مصلحتهم، كان ذلك أحد شعارات أبي.
- لقد كان يُطبِّع سلوكه، كم أبًا يذهب لشراء السجائر ثم لا يعود؟
- لا بد من وجود آباء مثله، أعني دور الأيتام **موجودة**، كيف ينتهي المطاف بآلاف الأطفال داخل «هيئة معونة الأطفال» Children's Aid؟ يتركهم آباؤهم، هكذا يحدث الأمر!
- كم شخصًا لديه رئيس عمل يتهرب من واجباته ورغم ذلك يظل محتفظًا بوظيفته لأن مساعده يعمل ساعات إضافية لتغطية تقصيره؟
- حسنًا، لو مارست ضغطًا شديدًا على كليتن سيطردني.
- كم شخصًا يكذب خليله عليه بخصوص شيء مريع كالهربس؟
- ما يساوي عدد الذين ينفقون أموالهم بلا جدوى على النفسانيين.

حزمت لورا أغراضها غاضبة للمغادرة، أومأت برأسها ولهثت ثم قالت: «آسفة على موقفي تجاه الحديث، لكن لا أصدق أنني مضطرة إلى المرور بكل هذا الهراء الذي لا جدوى منه»، ثم أضافت أن أباها كان حاضرًا في حياتها

باستثناء «بضع فجوات»، ثم أشارت (بنبرة مفعمة بالحماس) إلى أنها كانت تقابله وتتحدث إليه كثيرًا.

كانت لورا لا تزال المريضة الممانعة التي تقاوم العملية العلاجية بدفاعاتها، وكنت لا أزال المعالجة المستجدة التي تسعى بشدة إلى إزالة دفاعاتها، آنذاك بدأت أستوعب أن رؤيتي لعلة المنتفع ليست مهمة البتة، إذ يتمثل فن العلاج النفسي في استحثاث المنتفع على رؤيتها، وإذا استعجلت ستوصد الأبواب في وجهك، لقد استغرقت لورا وقتًا طويلًا لتشييد تلك الدفاعات، وسيستغرق الأمر وقتًا لإزالتها، طبقة تلو أخرى.

آنذاك وقعت في معضلة سيكولوجية، كنت بحاجة إلى التحلي بالصبر بصفتي معالجة نفسية، لكن في قرارة نفسي تقبع شخصية «النوع أ» Type A personality، هناك نوعان من الشخصيات، «النوع أ» و«النوع ب» Type B personality، «النوع ب» متسم بالاسترخاء وعدم التنافس، أما «النوع أ» فهو متسم بالطموح، والعدوانية، والحاجة إلى السيطرة (هذا تعميم واسع، وكثير من الناس يقعون في موضع ما بين «أ» و«ب»)، كما أن «النوع أ» يكون متلهفًا لفعل شيء ما، وهذا الدافع قد يتحول إلى ضغط نفسي، في الواقع غالبًا ما ترتبط سمات «النوع أ» بالأمراض المرتبطة بالضغوط، فعلى سبيل المثال لقد أدت ضغوط لورا إلى اندلاع هجمات الهربس.

يعتقد كثير من إخصائيي علم النفس الاجتماعي أن نوع الشخصية أمر جِبلي غاية في الرسوخ، مما يعني أن الطفل يولد بنزعات معينة لا تتغير مع نموه، لا شك أن ترتيب مولده بين إخوته، والتربية، والمتغيرات الاجتماعية، قد يخفف من حدة نوع الشخصية الذي ينتمي إليه، ولكن ليس كثيرًا، وبعبارة أخرى فإن النوع «أ» يظل «أ» طيلة حياته. أنا ولورا من «النوع أ»، والجانب الجيد هو أننا نعمل بجد وننجز الأمور، أما الجانب السيئ فهو أننا مفتقرين إلى الصبر والتعاطف، نحن نميل إلى دهس الآخرين في أثناء سيرنا صوب طموحاتنا الخاصة، وبالتالي توجب عليَّ الحرص على عدم الدخول مع لورا في صدام «أ» ضد «أ»، إن كنت راغبة في أن أكون معالجة ماهرة فيجب أن أتعلم كبح جماح سماتي الشخصية، لأن الصبر -الذي يعد صفة شحيحة لدى «النوع أ»- سيكون أمرًا بالغ الأهمية.

2

إلى الغابة

غالبًا ما يجلب المرضى إلى جلساتهم العلاجية مرجعيات ثقافية، قد يروون أحلامهم المتعلقة بالشخصيات التلفزيونية -على سبيل المثال- أو يتماهون مع الشخصيات أو المواقف السياسية في الأخبار، وافتراضهم الطبيعي أنني مشتركة في هذا النسيج الاجتماعي، ورغم ذلك فغالبًا ما أكون غافلة تمامًا عما يتحدثون عنه، فلقد ظللت عقدين من الزمان -طوال السبعينيات والثمانينيات- لا أشاهد التلفزيون أو أستمع إلى الراديو إلا نادرًا، لم يكن لدي تلفزيون حينما ذهبت إلى الجامعة، إلى جانب انشغالي الشديد بالعمل بوظائف مختلفة في أثناء الدراسة، ثم إنجابي ولدًا في أثناء تحضيري للدكتوراه، ثم إنجابي ولدين توءمين بعد عام واحد، كنت أنا وزوجي -الذي كان طالبًا هو الآخر- نسكن في مكان عملنا برفقة عربة أطفال ثلاثية وثلاثة مقاعد سيارات، كما كنت مضطرة إلى إنهاء رسالة الدكتوراه في وقت معين، لذا اعتدت على ضبط المنبه على الساعة الرابعة والنصف صباحًا وأن أعمل بين جداول الأطفال، لم يكن لدي ولا لدى زوجي وقت للتلفزيون أو الراديو، إذ كنا نستغل كل ثانية فراغ إما في رعاية أطفالنا وإما في العمل، وبهذا كنت في موقف غريب متمثل في معرفة الكثير عن علوم القرن التاسع عشر -وتحديدًا عن داروين وفرويد- والجهل التام بالثقافة الشعبية التي أعيش فيها فعلًا، لكنني بعد سنوات عديدة وجدت أنني لا أفتقد ذلك، فلقد عوضت ذلك بالقراءة.

لكنني كنت أقوم برحلة سنوية إلى متحف التلفزيون والراديو في مدينة نيويورك، الذي كان يحتوي على نسخ من كل البرامج التلفزيونية (طبعًا لم يكن «اليوتيوب» YouTube موجودًا آنذاك)، هنالك يستطيع الجمهور اختيار البرنامج ومشاهدته في غرف العرض، مما مكنني من استعراض جميع البرامج التي تحدث عنها مرضاي ورؤية الشخصيات التي ساعدت في تشكيل شخوصهم، لقد كان من الرائع مشاهدة برنامج تلفزيوني في سياق كيفية تأثيره على مريض معين، إذ كان العديد من المرضى مفتقرين إلى التوجيه المناسب من الآباء والأمهات وبالتالي تأثروا إلى حد كبير بكيفية تفاعل الناس في البرامج التلفزيونية والأفلام.

كانت لورا مثالًا نموذجيًا على ذلك، لقد افتتحت أحلامها التلفزيونية مسارًا جديدًا في العلاج النفسي، وكالمعتاد لاقيت صعوبة في حثها على إبلاغي بأحلامها، إذ حين سألتها عن أحلامها قالت إن الأحلام لم تراودها قط. ورغم ذلك فلم يسعها إلا الاجتهاد، وجاءت لجلستنا التالية مرتدية حذاء ذا كعب عالٍ وبرفقتها سرد كتابي لأحدث أحلامها، يتضمن عبارات رئيسة مظللة بالأصفر، ثم هوت على الكرسي وقالت: «هذا الحلم بخصوص العقيد بوتر».

فسألتها: «هل لديك قريب في الجيش؟».

فقالت: «آه، بالله عليك، لا شك أنك على دراية بأنه العقيد في المسلسل التلفزيوني «ماش» M.A.S.H، وحين بدا عليَّ الجهل التام قالت: «لا تقولي إنك لا تعرفين العقيد بوتر، آمل أنني لا آتي إلى معالجة نفسية قادمة من المريخ».

ثم أوضحت أن هذا المسلسل عبارة عن مواقف كوميدية تحدث لفريق طبي أمريكي في الحرب الكورية، وأن العقيد بوتر -رئيس فريق الضباط- كان ضابطًا بالجيش وجراحًا أيضًا، ثم وصفته لورا بأنه شخص لطيف ولا يصدر أحكامًا على الآخرين مهما كان نوع الشخص الذي يتعامل معه.

فقلت: «إذن فقد كان رجلًا نبيلًا ويمكن الاعتماد عليه»، موضحة لها الصفتين المفقودتين لدى رئيسها، وخليلها، وأبيها.

فقالت: «كان العقيد بوتر في الحلم مرتديًا إحدى القبعات المميزة التي يرتديها الصيادون، المطبوع عليها صور الطعوم السمكية، أما أنا فكنت أمشي عرجاء في ممر أحد المستشفيات مرتدية زي العمليات، وإذ به يقابلني

مرتديًا زيه العسكري ذاته الذي يرتديه في المسلسل باستثناء قبعة الصيد، فربت بيده على كتفي ثم قبضه بيده وأنا أعرج، لكنه لم ينبس ببنت شفة، ثم استيقظت شاعرة براحة شديدة».

- ما الذي يعنيه لك العقيد بوتر؟

- آه، لا أريد التحدث عن هذا، بالله عليك، أشعر بالخزي مما فعلته بعد رحيل أبي، وذلك متعلق بتلك الفترة.

لعلمي بأن لورا تحب الحلول الواضحة العملية قلت لها: «لقد ظننت أنك ترغبين في التحسن بأسرع وقت، لكن الخزي أشبه بمادة النابالم[1]، سائل لزج يحرقك ثم يلتصق بك للأبد، لذا فإن أفضل حل هو أن تنتزعيه قطعة بقطعة، إن استطعت».

فسألتني: «هل الخزي مماثل للضغط النفسي؟»، كانت لا تزال متخذة المسار العملي المتمثل في تصنيف ضغطها النفسي كي تتخلص من آلام الهربس.

فكان ردي عليها: «يمكنني القول إن الخزي يسبب الضغط النفسي، إن الخزي ألم متمثل في الشعور بالحقارة أو الاكتراب نتيجة فعل شيء يعتبره المجتمع محرمًا نوعًا ما، يقول فرويد إن الخزي يشعرك بأنك لن تُحَب، وبهذا فالخزي أشد ضررًا من الشعور بالذنب، فالأخير شعور مؤلم متعلق بأفعالك، أما الخزي فهو أشد تدميرًا من الناحية السيكولوجية لأنه شعور سيئ تجاه شخصك».

آنذاك رفعت لورا أحد حاجبيها ثم أومأت برأسها كأنها أدركت أنه ينبغي لها التفتيش في ذلك.

فتابعت كلامي قائلة: «حسنًا، فلنعد للكوخ حيث كنت -في سن التاسعة- تعيشين برفقة أختك ذات الثمانية أعوام وأخيك ذي الستة أعوام».

فقالت: «هذا أشبه بالنزول في بحيرة شديدة البرودة، الأفضل أن تغوصي فحسب وتسبحي، لذا لا تقاطعيني، دعيني أسكب ما لدي فحسب، إثر سماعك لما حدث ستقولين: «لا عجب أنها مصابة بالهربس، فهي تستحق ذلك»»،

(1) مادة شديدة الالتهاب تستعمل في القنابل المحرقة. (المترجم)

كانت عبارتها الأخيرة تلك هي المزيج المعهود المتألف من الشعور بالذنب والخزي، المؤدي إلى كراهية النفس.

نظرت لورا إلى النافذة، متجنبة التواصل البصري، ثم بدأت في رواية قصتها بنبرة رتيبة: «بعد بضعة أيام من مغادرة أبي أدركت أننا بحاجة إلى الطعام، هذا إلى جانب أن معلمة كريج جاءت إلى حجرتي الدراسية وسألتني لماذا لا يملك كريج غداءً؟»، ثم وصفت أن كريج بدأ في الانتحاب فتبرع الطلاب الآخرون ببعض الغداء، ثم لاحظت المعلمة أنه يضع البسكويت في جيبه، «فسألتني المعلمة عما إذا كانت أحوالنا الأسرية بخير، فقلت إن كل شيء على ما يرام وأن أبي سيحصل على راتبه في ذلك اليوم، كما أرادت أن تجري مكالمة هاتفية لبيتنا، ولكنني أخبرتها أننا لا نملك هاتفًا»، فطلبت منها المعلمة أن تطلب من أمها مهاتفة المدرسة.

ثم تابعت لورا قائلة: «آنذاك كنت أسرق النقود من صندوق جمع الحليب، كانوا يمررونه إلينا ومن المفترض أن يضع كل منا نقوده بداخله، لكنني كنت آخذ نقودًا منه، لكنني لم أكن أفعل هذا كثيرًا وإلا كشفوا أمري، ثم بعد المدرسة أعطي نقودًا لأختي تريسي لتشتري بعض الحلوى من المتجر، فتشتت هي العامل وأسرق أنا اللحوم المعلبة وغيرها من الأطعمة المختلفة، ولقد كنت بارعة في ذلك، إذ طُفت في جميع أرجاء البلدة إلى متاجر مختلفة كيلا أصير موضع اشتباه من أحد».

ثم وصفت لورا كيف تمكنت من الحفاظ على ارتداء أخويها ثيابًا نظيفة، دون مغسلة، فقالت: «كان برنامجنا التلفزيوني المفضل هو «عالم ديزني الرائع» The Wonderful World of Disney، لذا كنت في كل ليلة «ديزني» أدفع كلًّا منهما للاستحمام ثم أتخلص من ملابسهما ثم أذهب إلى متجر «جيانت تايجر» Giant Tiger في الليلة السابقة لإجازة نهاية الأسبوع وأسرق ثيابًا جديدة للأسبوع الجديد، كنت لصة خارقة كوالدي بالضبط، أظن أن ذلك وراثي، لقد شاهدت ذات مرة هذا الفيلم المسمى «ذا باد سيد» The Bad Seed، الذي بطلته ماتي باكورماك، وأدركت أنه يصفني، جميلة ولطيفة من الخارج لكن خبيثة وسيئة من الداخل».

كنت حريصة في أثناء هذه التصريحات على عدم مقاطعة لورا بتفسيراتي، استمعت فحسب، وفقًا لطلبها.

«كانت تريسي تبكي طيلة الوقت، لكن كريج لم يكن ينطق بشيء سوى أنه جائع، لكن كان يبلل فراشه، كنت أصيح به في بداية الأمر، لكن لاحقًا تجاهلت الأمر فحسب وتركته ينام في بلله. هذا وقد فعلت أشياء أخرى مثل تهديدي بأنني سأهجرهما إن لم يفعلا ما آمرهما به، ولقد أجدى هذا نفعًا، وبهذا صرت الأم».

لقد صعقتُ بعدم تدخل أي موظف في الأمر سوى معلمة كريج، التي لم تتتبع الأمر بعدئذ قط.

أشاحت لورا ببصرها أرضًا، كان بمقدوري الشعور بخزيها، ليس من عادتها أن تبدو متألمة، ولكنني جزمت بأن ما كانت على وشك قوله قد أثر فيها بعمق: «لم أكن أمًّا جيدة، لم أكن أسمح لأحد أن يتكلم عن بابا أو عن مغادرته، وحين كانا يجهشان في البكاء أقول إنه يجب علينا مواصلة المسير، كنت أتصدى لكل من يتذمر».

إن ما ساعد لورا على أن تصير رحيمة بأخويها هو ما تعلمته من مسلسل «ماش»: «قال العقيد بوتر إن الهدايا ليست ذات شأن إذ أنهم معًا»، فبدافع من اليأس بدأت لورا في الاستماع إلى العقيد بوتر وهو ينصح رادار -جندي شاب في فرقته- ووصفت ذلك قائلة: «لقد كان أشبه بأب لرادار، فتظاهرت أنه أبونا كذلك، لقد تظاهرت أنه أرسل إلى الحرب وأن علينا مشاهدته في التلفزيون لنستقبل رسائله، وأخبرت نفسي أنه مهما كان ما يقوله فسأفعله، يجب أن أحيط به علمًا قلبًا وقالبًا كي أستطيع أن أقول لنفسي: «ماذا سيفعل العقيد بوتر في هذا الموقف؟»».

طبقت لورا هذا الأسلوب على تبليل كريج لفراشه، ووصفت ذلك قائلة: «لقد تظاهرت أن كريج هو رادار وأنني العقيد بوتر، فقلت: «حسنًا يا بني، ما علتك؟»»، وحين لا يجيب كريج تلف ذراعيها حوله وتقول له إن كل شيء سيكون على ما يرام، ثم في غضون أيام اختفى التبليل».

ثم تابعت: «بعد ذلك بدأت في التحدث مع العقيد بوتر بشأن سرقاتي فيقول لي أشياء مثل: «يمكنك رد كل ما سرقتِه حينما تنتهي هذه الحرب»، ويخبرني بأنني لست سيئة، إنها حرب وقد فعلنا ما تحتم علينا فعله، ثم يقول: «سينتهي كل ذلك يومًا ما، وسنعود جميعًا لأوطاننا، حيث ينتظرنا أحبابنا»»، فبدأت لورا في ترديد تلك العبارات المطمئنة على مسامع تريسي وكريج:

«قلت لهم إننا جميعًا سوف نكبر ونتزوج شخصًا شبيهًا بالعقيد بوتر، يحبنا ويرغب دائمًا في الأصلح لنا، وقد ساعدنا ذلك على اجتياز الأزمات»، وظلت لورا تحلم بالعقيد بوتر خاصة حينما تشعر بالوحدة أو تحاصرها المشكلات.

اتكأت لورا على الكرسي ونظرت إليَّ متسائلة: «حسنًا، أنت الشخص الوحيد الذي يعلم هذه الملحمة العجيبة بأكملها، أعلم أن ذلك معناه أنني لصة ولكن أيعني ذلك أنني مجنونة، لطالما تملكني الخوف من أن المجانين يسمعون أصواتًا، ثم إن النظر إلى العقيد بوتر باعتباره والدك إلى جانب تخيل صوته فهذا أمر خطير وجنوني».

حينئذ حان الوقت لإعادة التأطير: «يمكنني القول إنك أبعد ما يكون عن الجنون، في الواقع يمكنني القول إنك واسعة الحيلة، لقد فعلت ما تحتم عليك فعله لإنقاذ السفينة، لقد أردت الحفاظ على شمل أسرتك، وقد فعلت أمورًا أكبر مما يقدر على فعله معظم من هم في سن التاسعة، أرى أنك كنت بطلة».

تجاهلت لورا ما قلته، وحينما لم أستكمل قالت بسخرية: «كفى يا جابرة الخواطر». إن المرضى الذين لم يتلقوا مديحًا في طفولتهم إلا نادرًا لا يثقون حين يكبرون في الأشياء الإيجابية التي يقولها الناس عنهم، إذ أن مفهوم الطفل عن نفسه يتشكل في طفولته، ويتطلب تغيير ذلك المفهوم وقتًا طويلًا إلى جانب العديد من الأمثلة الإيجابية. ثم اعترفت لورا قائلة: «ما زلت أشعر بالرعب الذي كان يتملكني في أثناء سرقتي لتلك اللحوم المعلبة، وما زلت أشم رائحة الورق المقوى المبتل الذي كان يضعه صاحب المتجر لامتصاص الطين».

- لقد فعلت ذلك لنجاة أختك وأخيك، أظن أن العقيد بوتر كان أبًا مثاليًا، ونحن نتعلم من الاقتداء بالنماذج التي أمامنا، إن هذا لهو أشد أشكال التعلم قوة، وقد كنت حكيمة بما فيه الكفاية لاختيار قدوة شديدة النفع لك ولأختك وأخيك.
- لكن معاملتي لهم كانت دنيئة.
- لقد كنت واقعية، لم يكن بوسعك تحمل الكثير من البكاء والأنين وإلا غرقتم أجمعين، لقد فرضت قوانين صارمة، لكن انظري إلى الطيبة الشديدة التي تحليت بها في تعاملك مع تبليل كريج لفراشه إثر حصولك على التعليمات اللازمة من العقيد بوتر.

لكن لورا لم تقبل ما قلته وعقبت بقولها: «لم أكن في الواقع أمًّا جيدة، لقد أفسدت حياة تريسي وكريج، لم تكمل تريسي المرحلة الثانوية وهي تعيش في مكان بشع في الريف وتعمل في انتزاع أحشاء الديوك الرومية بأحد المصانع، وهي مرتبطة برجل حِرَفيٍّ اسمه أندريو، وكلاهما غاية في البساطة، ليس لديهما أي فكرة عن كيفية إقامة علاقة أو حتى التعايش معًا.

هذا وقد أنجب أخي كريج طفلًا، لكنه لا يعيش مع الأم، كما أنه متهرب من الإنفاق على أسرته، إذ أن عمله موسمي، جَرْف الثلج، وعلاوة على ذلك فهو مدخن شره.

- هل تدركين أنك كنت تبلغين من العمر تسع سنين فحسب حين صار من المتوقع منك أن تصبحي ولية أمر؟
- وماذا في ذلك؟! يتحتم على كثير من الفتيات تربية الصغار وهن في سن التاسعة، فيتدبرن أمورهن.

من الجلي أن الخزي العميق الذي شعرت به لورا كان مبنيًّا على توقعها أنها كان بمقدورها أن تكون أمًّا جيدة في سن التاسعة، وغالبًا ما تكون أشد آلام الناس مبنية على فرضية خاطئة، لذا قلت: «ليس دون مساعدة، لقد أُجبرت على القيام بوظيفة لم يمكنك بأي شكل معرفة كيفية فعلها، لقد كانت خطة محكوم عليها بالفشل».

مما يدعو للأسف أن إحدى القضايا التي لم تحلها لورا بشكل تام هي توهمها بأنها لم تكن أمًّا جيدة لأخيها وأختها، لقد كانت عاجزة عن قبول أنها كانت فتاة صغيرة وغير مجهزة لتلك الوظيفة.

***

لقد وجدت على مرِّ السنين أن الأحوال التي يتولى فيها الطفل الصغير مسؤولية الراشد ثم يفشل في ذلك لا محالة فإنه يصير قلقًا على الدوام بشأن تلك المهمة في مرحلة الرشد، ولا يتقبل أنه كان شديد الصغر للقيام بهذه المهمة، وإنما ينصهر مع فشله، وبالمثل فقد ركزت لورا على فشلها في التربية ونادرًا ما ذكرت صدمة التعرض للهجر، ولم ترَ يومًا أن أباها كان مهملًا، بل أوقعت كل اللوم على نفسها.

أردت أن أوضح للورا كم كانت صغيرة وكم كانت توقعاتها هي وأبيها غير واقعية، فاصطحبتها لزيارة أطفال يبلغون من العمر تسع سنين في إحدى المدارس، لقد اتفقت مع إحدى صديقاتي -ناظرة المدرسة- على أن ترتب لنا رحلة ميدانية لزيارة الصف السادس الابتدائي، فانصعقت لورا حين لاحظت الفتيات ذوات التسع سنين في تنوراتهن وبناطيلهن الضيقة، لكن حين غادرنا لم تقل أنها تقسو على نفسها -كما توقعتُ بالضبط- وإنما قالت: «يا إلهي، إنهن غير ناضجات»، بعد ذلك اصطحبتها إلى ثلاثة صفوف دراسية مختلفة، ثم في نهاية المطاف -في أثناء عودتنا بالسيارة- قالت: «إن سن الثامنة والتاسعة أصغر بكثير مما أتذكره».

أظن أن دفاعاتها الصلبة قد تصدعت بعض الشيء بعد تلك الزيارة المدرسية، لقد كانت شخصًا راشدًا في ذكرياتها الضالة عن حياتها داخل الكوخ، أما الآن فقد أدركت حقيقة الطفلة الصغيرة التي عايشت تلك الظروف، وقد كان ذلك شعلة منيرة تبين كيف أن الاحتياجات اللاشعورية تغوص في بحر الذكريات وتغيرها، لقد أقنعها أبوها بأنها شخص راشد لأنه بحاجة إلى أحدهم في حياته، وبالتالي رأت نفسها كذلك.

***

كانت تلك مريضتي الأولي وكنا في منتصف العام العلاجي الأول، بدأت لورا رويدًا رويدًا في رؤية أن حياتها كانت شديدة الاختلاف عن حياة معظم الناس، ووصفت ذات مرة تلقيها دعوة لحفلة عيد ميلاد حيث كان كل من في الصف السادس مدعوًّا، فأخبرت لورا فتاة عيد الميلاد أن أباها سيصطحبها إلى مباراة بيسبول في تلك الليلة، وبالطبع فلم يكن هناك مباراة بيسبول في فصل الشتاء في كندا، وعلى الأرجح أن أم الفتاة استشعرت وجود مشكلات، فلقد جاءت تلك المرأة إلى المدرسة في اليوم التالي للحفلة وجلبت للورا قطعة كعك، وبالونة هيليوم مكتوب عليها اسمها، وحقيبة ملأى بالهدايا الصغيرة، ووضعت كل ذلك على مقعدها قبل وصولها، اندهشت لورا من المجهود المبذول لكنها شعرت بعدم الارتياح تجاه ذلك، ولم تختبر تلك الفعلة كنوع من اللطف إلا بعد ذلك بسنوات، بل كانت تختبئ في الحمام متى رأت أم الطفلة منتظرة بجوار الملعب لاصطحاب ابنتها، إلى أن تغادر، وحين سألتها عن السبب قالت: «لقد بدا ذلك شديد الغرابة، إذ لم يكن لدي أي فكرة عما

كانت تريده مني»، من الواضح أن لورا كانت ماهرة في وضع النجاة، لكن اللطف الإنساني كان يصيبها بتشوش شديد.

لم يبدُ أن لورا تكتسب استبصارات كبيرة، بل بدا أنها تواجه أحجية معقدة، كانت هناك قطعة تتحرك إلى مكانها المناسب بين الحين والآخر لكن ذلك لم يكن كافيًا لها لرؤية الصورة الكبيرة.

***

وصفت لورا في جلستها التالية كيف انتهت تلك الأسطورة المرعبة لعيشهم داخل الكوخ: «أخفقت، أمسكوا بي في أثناء سرقة سراويل داخلية لكريج في «جيانت تايجر»»، ومن الجدير بالذكر أن ذلك قد حدث في شهر إبريل، أي أن هؤلاء الأطفال قد عاشوا بمفردهم ستة أشهر.

لكنني أعدت تأطير ما ارتأته إخفاقًا بوصفه نجاحًا، فقلت: «إذن فقد تمكنت من النجاة بمفردك خلال الشتاء الكندي من نوفمبر إلى إبريل وأنت في سن التاسعة وبرفقة أخويك».

تذكرت لورا ما حدث قائلة: «حين أمسكت بنا الشرطة أعادونا إلى الكوخ، فكانت تلك صدمة شديدة لهم، ولم يكن منهم إلا هز رؤوسهم، ثم طرقوا باب جلندا ورون -مالكي الكوخ- وسألوهما عما إذا كان بمقدورهما إيواؤنا حتى تتخذ «معونة الأطفال» ما يلزم، أو حتى يستطيعوا العثور على أبينا واتخاذ الإجراءات» (لن يعود والدهم للظهور إلا بعد أربع سنوات، وسأذكر تفاصيل ذلك لاحقًا).

كان لدى رون وجلندا من الأبناء ثلاثة، وجزمت لورا أن تريسي وكريج كانا سعيدين بعيشهما هناك، لكن ذلك أزعجها وقالت: «رأيت أننا كنا على ما يرام بمفردنا، إلى جانب أنني لم أكن معتادة على أن يخبرني أحد بما ينبغي أن أفعل، كنت أنا من بين ثلاثتنا التي أعاني مشكلات تأقلمية».

مما أدهشني أنهم مكثوا هناك أربعة أعوام، لكنني حاولت إخفاء اندهاشي من قبول تلك الأسرة بانضمام ثلاثة أطفال إليهم فسألتها عن طباعهم، فكان جوابها: «أحسبهم لطفاء»، ثم عللت ذلك بأنهم كانوا ملتزمين بالانضباط والنظام، كما قالت: «ما زالت تريسي وكريج ينظران إليهما باعتبارهما أبويهما ويزورانهما في الكريسماس، أما أنا فلا، لقد كانت جلندا -الأم- تفرض الكثير من القواعد وتريد منا فعل الأمور كيفما تشاء».

حينما سألت لورا عن السبب الذي جعل أختها وأخيها أفضل تأقلمًا مع الوضع الجديد قالت إنها كانت المفضلة لدى أبيها: «لم يعاملني أبي معاملة دنيئة قط، لذا كنت شديدة الولاء له، كما كان يتجاهل تريسي، بل كان يعامل كريج معاملة دنيئة»، لقد كان أبوهم يلقب كريج -الذي كان هزيلًا وضعيفًا- بـ «المدلل».

أما الرجل الذي آواهم في بيته آنذاك فقد كانت معاملته لهم رائعة: «كان رون -مالك الأكواخ- رجلاً هادئًا وطيبًا، لقد ظل يصطحب كريج للصيد ولم يحاول قط الاستهزاء به لزيادة لعثمته (صار كريج يتلعثم في كلامه بعد وفاة أمه)، ومن اللافت للنظر أن جميع مشكلات كريج اختفت حينما كنا هناك، وأعترف أنني شعرت بالارتياح لتوفر ضروريات الحياة».

ثم سألت لورا عن علاقتها بجلندا فقالت: «رأى كريج وتريسي أن جلندا كائن ملائكي، فلقد كرست وقتًا هائلًا للتعامل مع عدم اطمئنان تريسي في أمور كثيرة»، لكن لورا أقرت أن مشاعرها هي كانت مختلفة: «كما ترين، لقد كان الأمر بأكمله أنا وأبي».

- هل سبق أن كان أنت وأمك؟

- كلا، قط، لذا أظن أنني لم أكن أفقه شيئًا عن معنى أن يكون لديك أم.

ثم صمتت لورا هنيهة، ثم قالت ضاحكة: «ويحك، أنصتي الي! لقد تحولت إليك، إنني أحلل نفسي!»

وصفت لورا كيف قاومت اهتمام جلندا بها فقالت: «كانت جلندا تقول أشياء مثل: «الجو بارد في الخارج، أنت بحاجة إلى قبعة»، لكنني لم أكن مدركة ما تفعله، ولا أزال غير مدركة، فلقد فات الأوان بالنسبة لي ليعاملني أحدهم كطفلة، فقد سبق أن أدرت منزلًا بمفردي، وبهذا كنا أشواكًا في حلقي بعضنا لكن بأسلوب هادئ».

لكن لورا كانت ممتنة لرون، وقالت: «كان معتادًا على اصطحاب الفتيان كلما ذهب للصيد، ويرتدي قبعة الصيد ذات الطعوم السمكية المثبتة، لم يقل رون شيئًا مشجعًا لي قط، لكنه من حين لآخر كان يقول لجلندا: «دعي لورا وشأنها يا جلندا، إنها تفعل الأمور بطريقتها الخاصة».

حينئذ أشرت إلى أن العقيد بوتر في أحلامها يرتدي قبعة صيد ذات طعوم: «أيمكن أن يكون الرجل في أحلامك عبارة عن جزء من العقيد بوتر وجزء من رون، مزيج من الطيبة؟».

بدا على لورا الانبهار فابتسمت وقالت: «أجل، ربما، إنها قبعة رون بالضبط في الحلم، انتبهت لذلك للتو حين فكرت في الأمر، أحيانًا أتخيل أنني سأكبر، وأصبح ثرية، وأشتري لرون قاربًا ضخمًا، شيئًا لطالما اشتاق إليه لكنه لم يقدر على تكلفته».

***

كان عامنا العلاجي الأول على وشك الانتهاء، لذا كنت بحاجة إلى الإفصاح التام عن خطتي العلاجية للورا ورسم الطرق اللازمة لتحقيقها. لقد كانت متعلقة تعلقًا شديدًا بأبيها، لكنَّ هذا التعلق مفعم بالعواطف، فلقد غفرت له آثامه، واهتمت بشؤونه، وتصرفت كأنها ولي أمره، بل لم تعتبره مسؤولًا عن إهماله أو أنانيته، لقد سبق أن تعرضت للهجر لذا تتشبث بأبيها تشبث الغريق، ولكنها متبنية دور المنقذ في علاقتهما، فنظرًا لافتقارهم إلى راشد في الأسرة فقد اضطلعت هي بهذا الدور كي يتمكنوا من مواصلة المسير، لقد ماتت الأم، وأدى توقف نضوج الأب إلى انحباسه في طور المراهق غير المسؤول، لذا تعين على لورا دعمه ومساندته، وما الذي اكتسبته من ذلك؟ **النجاة.**

كانت لورا بطلة حقيقية في أسرتها، لكن المشكلة أنها اتخذت دور المنقذ ذاته في علاقاتها بالرجال، إذ رأت أن هذا هو السلوك الطبيعي، لكنه ليس كذلك، لقد كان سلوكًا تكيفيًّا، لقد سمحت لإد (خليلها) ولكليتن (رئيسها) أن يصيرا غير مسئولين، وكانت وظيفتها إنقاذهما، كما حدث بالضبط مع أبيها، لذا كانت وظيفتي الوصول بها إلى التعرف على احتياجاتها اللاشعورية المدفونة في أعماقها، المتمثلة في كونها المنقذ، وكيف أن عقلها اللاواعي قد اختار رجالًا ضعفاء وأنانيين -كأبيها- بحاجة إلى الإنقاذ.

تتمثل مهمة المعالج في الإشارة إلى الأنماط، ولقد كان سيناريو الرجل الضعيف -أو السيكوباتي- أحد الأنماط الواضحة في حالة لورا، لكن استحثاث لورا على رؤية ذلك سيكون عسيرًا لعدة أسباب، أولًا: لقد التحقت بالعلاج النفسي باعتباره سبيلًا للتعامل مع الهربس، وليس لحل مشكلات طفولتها،

وثانيًا: لقد كانت غاية في الولاء لأبيها، لدرجة أنها رفضت الاندماج مع الأبوين المتبنيين الذين عاملاها بلطف هي وأخويها، وبالرغم من حقيقة أن أباها اختفى ولم يحاول التواصل مع أطفاله قط لأربع سنوات فقد ظلت مرتبطة به، إلى جانب أنها قد سعت إلى إنقاذ الأسرة توفية لحق المقدار الضئيل من الحب الذي بذله لها ولم يكن لديه غيره، ستكون هذه دينامية صعبة الكسر، لأن البشر يبذلون أقصى ما بوسعهم لأجل الحب، سنستمر في الاضطلاع بالدور الذي أحبتنا أسرتنا لأجله، أيًا ما كان هذا الدور، ورغم الضريبة التي تلحقنا.

رغم أن لورا ترى أنها هي التي كانت مسؤولة عن حياتها فلقد كانت في الواقع طفلة عجية[1] تعرضت للهجر، والغدر، والاستغلال، ونظرًا لكل ما سبق فقد اتضح أن كلًا منا أمامه الكثير من العمل.



(1) العجيُّ هو الطفل الذي ماتت أمه، أما اليتيم فهو الطفل الذي مات أبوه. أما الطفل الذي مات كلا والديه فيسمى لَطِيمًا. (المترجم)

3

بئس الضيف

حين ابتدأ العام العلاجي الثاني للورا ابتدأ كذلك عامي الثاني في مهنة العلاج النفسي، آنذاك كنت أتعلم الكثير عن الطبيعة الارتجالية للعلاج النفسي، لقد كنت غافلة تمامًا عن الانحرافات النظرية العديدة اللازمة لمجاراة المريض قبل افتتاح عيادتي الخاصة، لكنني سرعان ما أدركت أن النقاء النظري عبارة عن غلو أكاديمي متحجر، وصرت أستعين في العلاج النفسي بأي سلاح أعثر عليه في أي ميدان.

رغم حصولي على التدريب النظري اللازم فقد كنت أواجه عقبات أحيانًا عند التطبيق، كان لدى لورا قدر كبير من الغضب بحاجة إلى التصريف، وكنت أقضي وقتًا مفرطًا في التعبير عن الحنق من دون اكتساب الاستبصار، كما كنت ألاقي صعوبة في توجيه الجلسة بأسلوب خفي، وهي مهارة تكتسب بالممارسة، ويصف مالكوم جلادويل في كتابه «طرفة عين: قوة التفكير دون تفكير» Blink: The Power of Thinking Without Thinking كيف يتنامى الحكم الحدسي على مدار سنوات الخبرة، وأن الخبرة علم لا تجده في أي كتاب، وبهذا فلم أتقن كيفية صب التركيز على النقاط الضرورية للتعافي إلا بعدما صرت معالجة متمرسة.

أخبرتني لورا إثر موسم الكريسماس أن إد قد أهداها ملاءات مصنوعة من الساتان الأسود، ثم حين سألتها عن الأهمية النفسية لهديته تلك قالت: «أتعلمين، أنت قاسية جدًّا على إد الطيب»، وأضافت أنه شريك جنسي عظيم، وقالت: «أحيانًا أعود من العمل فأجده قد جهز الشموع في أرجاء الغرفة، كما أنه يشتري لي قمصان نوم، ويرقص معي، إلى جانب أنه شديد الحرص على استمتاعي».

فتصديت لذلك قائلة: «تلك هدية مثيرة للاهتمام، لأنها مصبوغة بالجنس، فلقد آذاك إد عبر الجنس أشد الإيذاء، بتمريره الهربس لك وبخيانته لثقتك».

- ألا تضعين الأمور وراء ظهرك أبدًا؟ ألا تقولين مثلًا: «ويحك، لقد مضى ذلك، لمَ البكاء على اللبن المسكوب؟»، لقد اخترتُ إعطاء الرجل فرصة ثانية، فلقد شعر بالسوء الشديد تجاه موضوع الهربس.

ثم دافعت لورا عن إد حينما فقد وظيفته في «وكالة جاكوار»، قائلة إنهم طردوه لأن هناك رجل مبيعات آخر لم يستطِع منافسته فلفَّق له تهمات تسببت في فصله، بعد ذلك بدأ إد في بيع الكوكايين كي يتمكن من البقاء في شقته الفاخرة إلى حين حصوله على وظيفة أخرى.

استطردنا أنا ولورا كثيرًا فيما يتعلق بالحدود النفسية، وهي الحدود التي يضعها البشر لتحديد السبل الآمنة والمنطقية التي يتعامل بها الآخرون معهم، كلما قويت حدود الشخص اشتدت عافيته النفسية، وازدادت قدرته على تنبيه الآخرين بشأن المقبول وغير المقبول، لقد تعدى إد حدود لورا الشخصية تعديًا واضحًا، إذ لم تكن موافقة على شربه المفرط للخمر، وبيعه للمخدرات، وبطالته، لكنها كانت عاجزة عن قولها له: «إد، لقد تجاوزت خطوطي الحمراء بالهربس، والمخدرات، والبطالة، ما بيننا قد انتهى». رغم أن سلوك إد كان يسبب لها ألمًا نفسيًّا فقد كانت غافلة عن أن لديها الحق في طلب التغيير منه، هذا ولم يحصل إد على وظيفة أخرى بعد مرور عدة أشهر، لكنني لم أذكر ذلك الأمر مجددًا، آملة أن تقيم لورا بعض الحدود بمفردها حين نستفيض في الحديث عن الحدود.

كان لدى لورا حكومة ثلاثية متمثلة في الذكور القاصرين في حياتها الذين كرَّست لهم نفسها، ورأيت أن أضعف رابطة في تلك السلسلة هي رئيسها كليتن، لو كان بمقدورها توكيد نفسها والهروب من دور المنقذ مع

أحدهم فكليتن هو الخيار الأفضل، ليس بمقدورها تغييره، ولكنها تستطيع تغيير سلوكها نحوه، لذا بدأت في التركيز على المهام الخاصة بها وتوقفت عن تغطية قصوره.

بدأ كليتن يمارس ضغوطًا على لورا، ونظرًا لأنها لم تتعلم قط إقامة الحدود النفسية فقد أدى تلاعبه النفسي إلى إشعارها بالقلق والذنب، كان لديها معتقد باطن بأنه ينبغي لها القيام بأعمال كليتن، وانتابتها الحيرة بشأن ما إذا كان تصرفها هذا قاسيًا، لقد كانت جاهلة بالقواعد الأساسية لسلوك الانخراط الاجتماعي السليم، وكان السلوك العادي، حيث يحدث المنح والأخذ بين الناس، يبدو مصطنعًا ومتكلفًا بالنسبة لها.

حينما سألتها عن سبب عدم وجود قواعد في حياتها عبرت عن حيرتها قائلة: «ولِم نضع الحدود إذا كان الجميع يتعدونها، غير تاركين وراءهم سوى الحطام؟ لن يفعل أحد ما أريده **أنا**، ولِم ينبغي لهم؟» صاغت لورا للتو تعريفًا مثاليًّا للعجز، والعجز في العلاقات هو أحد الأسباب الرئيسة للقلق والضغوط النفسية.

إن القيام بتغييرات سيكولوجية يؤدي إلى استحثاث القلق، يصعب جدًّا كسر العادات، لا سيما حين تكون قد أقلمت نفسك على نمط معين يبقيك -رغم كونه معطلًا- على قيد الحياة، إن اللاشعور شديد القوة، وهو يقاتل باستماتة لتثبيت الأنماط القديمة.

كنا أنا ولورا نحرز تقدمًا في تفسير أحلامها، وذات يوم جاءت ضامة كتيب أحلامها إلى صدرها قائلة: «رغم أن فرويد كان وغدًا من نواحٍ عدة فقد اكتشف أمرًا مهمًّا بخصوص الأحلام، لقد راودني حلم مفعم بالحياة لدرجة أنني استيقظت وقلبي يخفق وظننت لعدة دقائق أن ذلك قد حدث حقًّا».

«كنت واقفة على منصة مسرح وكان الجمهور بالمئات، كانت ملابسي رثة ولا أضع أحمر الشفاه، مما أشعرني بالإحراج، كما كانت هناك قطة سوداء ضخمة على المنصة مصنوعة من الفخار، ثم ظللت أركل تلك القطة في فمها إلى أن بدأت في التشقق والتكسر والانهيار في أثناء ما كانت فرقة «بويزن» Poison تعزف أغنيتها الجديدة «بئس

الضيف[1]» فصفق بعض الجمهور، لكنني شعرت بالسوء وتعجبت من سبب فعلي لهذا، رغم أنني لم أستطع منع نفسي».

قالت لورا خلال تحليلنا لهذا الحلم إنها لم تجد صعوبة في اكتشاف مصدر المعزوفة الموسيقية، إذ كانت قد سمعتها مؤخرًا في بيت أختها، فسألتها ما الذي تعنيه لها عبارة «بئس الضيف»، حينئذ علت وجهها سحابة سوداء وقالت: «قالها لي أبي حين ذهبت إلى السجن لزيارته».

اندهشت من هذا الخبر المفاجئ بأن أباها كان مسجونًا، وحين قرأت تعبيرات وجهي استدركتني قائلة بأنها لا تعرف إلى يومها هذا سبب دخوله السجن، ثم تذكرت ما حدث: «كان الطريق إلى السجن يستغرق ثلاث عشرة ساعة بالحافلة، آنذاك كنت سن الرابعة عشرة، وكنت قد ادخرت من مالي أشهرًا عديدة للقيام بهذه الرحلة، ثم حين دخلت السجن أخذ الرجال يصفرون، ولم يكن من أبي إلا أن ضحك وقال: «(آه، آه، بئس الضيف)».

- كأنك أنت المشكلة؟

- واصل السخرية فحسب، رغبت في التعبير عن غضبي منه لكن ما الغاية؟ فلقد كان في حالة يرثى لها بالفعل، لذا تنازلت عن كبريائي وحاولت تسيير الأمور، هذا إلى جانب أن أقرب موعد قادم للعودة بالحافلة كان في اليوم التالي، ثم حينما أخبرته أنني مضطرة إلى المبيت في محطة الحافلات إذ به يرد عليَّ قائلًا: «حسنًا، ملابسك مناسبة لذلك»، وهذا لأنني أرتدي الجينز المرقط -وكانت تلك هي الموضة آنذاك- لكنه يبغضه، وكانت تلك آخر زيارة مني له في السجن.

- أظن أنك كنت غاضبة، لقد اشتد غضبك في الحلم بما يكفي لركل تلك القطة في فمها.

علت السحابة السوداء وجه لورا مجددًا وقالت: «أردت أن أقول في حلمي: «سأريك ما يمكن أن يفعله الهلفوت»، ودمرت تلك القطة الفخارية، يا له من وغد أناني، بالإضافة إلى أن بقية المساجين كانوا إلى حد ما يحدقون إليَّ بنظرات شهوانية، ولم يقل: «تلك ابنتي التي تحملقون إليها، فلتنصرفوا عنا»، بل ظل يتباهى -بأسلوب رخيص- أمام حفنة من الفاشلين، لقد ذل عزيز القوم».

---

(1) تعبير يدل على الانزعاج من حضور شخص ما.

- لقد كنت ترينه عظيمًا، لا شكَّ أن رؤيتك له وهو بهذه الوضاعة كانت صعبة عليك.

تنهدت لورا وقالت: «أظن أنه لم يكن عظيمًا قط، كل ما في الأمر أنني كنت أراه كذلك».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تعبر فيها لورا تعبيرًا صادقًا عن غضبها وخيبة أملها في أبيها، وقد كانت هذه لحظة مهمة في العلاج، قطعة كبيرة من الأحجية تسقط في مكانها الصحيح.

- إذن فلقد ذهبت لزيارته في السجن، ودفعت تذكرة الحافلة من مدخرات وظيفة ما بعد المدرسة، وسافرت ساعات عديدة بمفردك في سن الرابعة عشرة وبعد كل ذلك يهينك، ويسخر منك، ولا يحميك من السجناء، كنت تشعرين أنك شعثاء وأن النزلاء يرمونك بنظرات شهوانية، إن «عدم وجود أحمر شفاه» في الحلم و«الجمهور» يمثلان النزلاء الآخرين الذين يرونك منكشفة من دون حماية أبيك، ثم ينتابك الغضب في الحلم وتركلين القطة التي هي والدك، ومع ذلك تشعرين بالذنب، ثم صفق البعض بينما لم يصفق البعض الآخر، ما الذي يدور حوله كل ذلك؟

- حين أغضب منه أشعر بالذنب، لكنني أعلم أنك تريدينني أن أغضب منه، ما يشفع له هو أن موقف السجن ذاك كان المرة الوحيدة التي انتقدني فيها طيلة حياتي.

تصديت لذلك الدفاع بتصريحي بأنني أريد منها أن تنظر إليه بواقعية، إذ بهذا ستتمكن من تكوين علاقة جيدة لكل منهما، كما أخبرتها أنهما يؤديان رقصة لا شعورية، بكونه غير مسؤول وكونها مفرطة المسؤولية.

- إنك -شأنك شأن كل ابنة في العالم- مرتبطة بأبيك، يشير داروين إلى أن الترابط يحدث في جميع الكائنات، لقد كان ارتباطك بأبيك عاديًا تمامًا وضروريًا، ورغم ذلك أظن أنك التبس عليك الترابط والحب، إن الترابط ليس خيارًا، إنه ضرورة بيولوجية، أمر لازم للنجاة، أما الحب فهو اختيار، حين تقابلين رجلًا غير كفء وبحاجة إلى رعاية منك تشعرين تلقائيًا بالدفء تجاهه لأنك مرتبطة بذلك السلوك، لقد برعت في دور الاعتناء بالرجل، وأحببت نتيجة قيامك به، لكن الحب يولد حيث

تحدث رعاية متبادلة بينك وبين الآخر، حين تعجبين بصفات حبيبك، لكن لا تحمينه من مصائب العالم الحقيقي، لقد أحبك أبوك -بقدر استطاعته- لاعتنائك به، لكن الرجل سيحبك لصفاتك كلها، وليس فقط لتلك التي ستغطي تقصيراته وأخطاءه.

استوعبت لورا ذلك، وبدا عليها الاسترخاء، وقالت: «رغم أن هذا يبدو لي مثل عبارات جبر الخواطر فلقد وجدت في الأشهر القليلة الماضية أن هناك موضعًا صغيرًا في قلبي يتوق إلى ذلك حقًا».

***

حينما تبدأ الدفاعات المَرَضية في الانهيار خلال العلاج النفسي يسمح المريض بظهور المزيد من قضايا ماضيه التي كان يدافع عنها، فتظهر فجأة ذكريات لم تكن متاحة في بداية العلاج، حينما كانت لورا مصرة على الدفاع عن أبيها ظلت تحجب الكثير من الذكريات السلبية عنه، لكن الآن -بعد عامين من العلاج- شرعت تلك الذكريات الأليمة في الاندلاع كالحمم البركانية الملتهبة.

حين كانت لورا وإخوتها يعيشون في بوبكايجون حاولت جلندا، ورون، ووكالة خدمات الطفل تحديد مكان والدهم لكن دون جدوى، وفي نهاية المطاف استسلموا وتبنوا الأطفال، كانت تلك السنوات رائعة، حيث عاش كل من لورا، وتريسي، وكريج، حياة مزدهرة، وخصوصًا كريج الذي كان في أفضل حالاته برفقة رون وتعلم كيف يكون حِرفيًا، كما ازداد تكلمه، وكان ينتظر بصبر عند النافذة حتى يعود رون للمنزل ليلًا.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة -بعد أربع سنوات من إقامتهم هناك- سمعوا طرقًا على الباب، وحين فتحه رون وجد والدهم، الذي دخل وقال (وفقًا للورا): «مرحبًا يا أطفال! لقد تزوجت، وحان وقت حزم أمتعتكم والعودة للمنزل»، وحينما لم يتزحزح أحد من أمامه قال مبتهجًا: «لديكم أم جديدة!».

بدا الحزن فجأة على لورا وهي تروي أن أخويها كانا راغبين في البقاء لدى متبنيهما، وأنها هي من أصرت على فراقهما لرون وجلندا، ثم قالت: «أدرك الآن أنه كان قرارًا سيئًا لأختي وأخي، فقد دمر حياتهما، لم يحب أبي أيًا منهما قط، أما كريج فقد كان في أفضل حال مع رون لكونه أبًا طيبًا ومتسقًا»، ثم اغرورقت عيناها بالدموع للمرة الثانية في العلاج.

انتقلوا إلى «مدينة تورونتو» Toronto، وآنذاك كان والدهم في حالة يرثى لها، مدمن خمر بالكاد يقدر على أداء وظائفه، ويعيش أعلى حانة فاسدة في منطقة سيئة، وبينما كانوا يصعدون السلالم الرطبة في الظلام إذ بشابة تكبر عن لورا بضع سنوات فحسب، كانت شديدة النحافة، وشعرها أشقر مبيض ذو جذور داكنة، وترتدي ثوبًا شفافًا من البوليستر الذهبي فوق حمالة صدر سوداء، كانت ليندا في الحادية والعشرين من العمر وكان والد لورا في الثلاثينيات من عمره، رغم أن لورا لاحظت أن علامات التقدم في العمر بدأت تظهر عليه قبل أوانها، لدرجة أنهم حين كانوا يذهبون إلى مكان ما كأسرة واحدة يظن الناس أن ليندا هي الابنة الرابعة.

مشت ليندا تجاههم متمايلة في حذائها ذي الكعب العالي ثم قالت بصوت طفولي: «أهلًا يا أحبابي، أنا أمكم الجديدة». قال كل من تريسي وكريج مرحبًا، لكن لورا البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا ظلت تحدق فحسب إلى تلك المنافسة التي تبلغ من العمر 21 عامًا، ثم ذهبت إلى غرفتها، وهنالك توجب على لورا مشاركة غرفة نومها مع أخيها وأختها، كما لم يكن للغرفة باب، مجرد خيوط خرزية متدلية من السقف المتلطخ ببقع المياه المترشحة.

ظلت ليندا تشرب الخمر إلى السكر معظم الوقت خلال العامين التاليين، وعلى عكس الصمت الذي ساد حياة أم لورا فقد كانت ليندا سكيرة دنيئة، كانت تصرخ وتصيح بأنه كان بإمكانها الزواج من أي رجل في العالم لكنها انحبست برفقة فاشل مسن، كما كان والد لورا يسكر هو ويبرح ليندا ضربًا، ثم تحضر لورا الثلج لشفتيها أو لعينيها.

وفي إحدى الليالي، بعد ثلاثة أيام من السكر المتصل، خاض والد لورا شجارًا مع ليندا، ووصفت لورا النمط المعتاد حيث كانت ليندا تهزأ به بمقارنته جنسيًا بالرجال الآخرين، وتذكرت ذلك قائلة: «كانت تعلم يقينًا أن هذا يفقده صوابه، وكان يفقده دائمًا، لكنها لم تعلم قط متى تضع الحذاء في فمها، وكانت تدفع ثمن ذلك، كان يواصل أمرها بالصمت وإلا ستندم».

تذكرت لورا أنها كانت في غرفتها تقرأ «هل أنت هنا يا الله؟ إنها أنا، مارجريت» Are You There God? It's Me, Margaret حين سمعت صوت لكمات وأشياء تتكسر ثم جلبة في بئر السلم، ظلت تريسي وكريج في الغرفة، لكن لورا خرجت فوجدت ليندا ساقطة بلا حراك أسفل السلم، أما أبوها فقد كان جالسًا على طاولة المطبخ ممزق القميص، يلهث ويتصبب عرقًا، ويداه

على رأسه، فنزلت لورا السلم ركضًا، وكان سلمًا أشبه بالنفق، ضيقًا مع جدار في كل جانب، ثم وصفت لي ما حدث: «كانت ليندا جثة هامدة، فاقدة للوعي، ورقبتها منحنية بزاوية غريبة»، لم تجد لورا نبضًا لديها فركضت للأعلى واتصلت بالنجدة، ثم نظرت إلى أبيها وأدركت أنه ربما كان قد دفع ليندا على السلم، ثم وصفت لي ما فعلته: «قلت له أن يخلع قميصه، ثم خبأته في غرفتي وأحضرت له آخر ليرتديه، كما جففت الدماء من ذراعه حيث خمشته بأظفارها، ثم أخبرت تريسي وكريج أن ينفيا حدوث أي شجار حين تأتي الشرطة».

فسألتها: «ماذا كان يفعل أبوك طيلة ذلك الوقت؟».

- كان غاية في السكر.

حينما وصل فريق الطوارئ أعلنوا أن ليندا ماتت من انكسار الرقبة، وقالت لورا للشرطة إنها سقطت على الدرج، ثم حين سألوا لورا لماذا تبدو كأن أحدهم قد أبرحها ضربًا أوضحت أنها رأسها ارتطم بكل سلمة في الدرج، ثم وصفت لورا لي بنبرة واقعية: «كانت ليندا سكيرة شهيرة في المنطقة تسبب المشاكل حين تشرب في الحانات، لذا تم التخلص منها ولم يرها أحد مرة أخرى».

«في اليوم التالي قال أبي -الذي أفاق حينئذ- إنه ينبغي لنا توخي الحذر عند صعود السلم ونزوله لأنه محفوف بالمخاطر، لأن بعض العتبات ليست مثبتة جيدًا، بعد ذلك أحضر كريج مطرقة وأصلح العتبات المتأرجحة، وأصبحت أسطورة العائلة أن ليندا وقعت على السلم».

فسألتها: «أسطورة؟»، متسائلة عما إذا كانت لورا تقر بأن أباها قد دفع ليندا على السلم.

-إلى يومنا هذا لست متيقنة هل دفعها على السلم أم وقعت بمفردها، فلم يرَ ذلك أحد.

فأشرت إليها قائلة: «ولكنها وقعت بسرعة كافية لقتلها».

فكان ردها: «أجل، ولكنها كانت خفيفة الوزن، 38 كيلو جرام تقريبًا، إلى جانب أن الناس يقعون على السلالم بمفردهم ويموتون، هذا يحدث دائمًا».

- بم شعرتِ تجاه موت ليندا والظروف المحيطة به؟

- كي أصدقك القول فلم ترق لي ليندا قط، لقد كانت أنانية، وتسبب عبئًا على من حولها، وسكيرة دنيئة، لم تقم بإعداد طعام لنا قط، كما كانت شخصًا صعبًا آخر يتعين عليَّ التعامل معه.

- رغم كل ذلك فلا شك أن هذا الحدث كان صادمًا نوعًا ما، لقد كانت هذه المرة الثانية التي تتصلين فيها بالنجدة لموت زوجة أبيك، إحداهن أمك والأخرى ليندا.

فقالت لورا إنها لم تشعر بصدمة، وأن ذلك لم يكن سوى أمر آخر يتوجب عليها تدبره.

- هذا هو المعتاد؟ هل شككت في أبيك، أو شعرت بالغضب أو الخوف منه؟

- أعلم أنك ترينني غريبة، لكنني لمت نفسي، لقد كانت الصدمة النفسية الحقيقية بالنسبة لي -بما أنك تحبين استخدام تلك الكلمة- هي أنني أعدت كريج وكريسي لتورونتو حين كان ذلك وقتًا شديد السوء بالنسبة له، إذ لم يكن أبي قادرًا على التعامل مع أي شيء، كان ينبغي لي إدراك ذلك وعدم تحميله ذلك العبء.

- لذا تلومين نفسك على تحميله ذلك الضغط الكبير، ولا تلومينه لاحتمال قتله ليندا!

- بعد انقضاء عامين من العلاج النفسي أدرك أن هناك مغالطة منطقية في ذلك المنظور، لكن ذلك ما أشعر به صدقًا؟

ما أدهشني بكوني معالجة هو صلابة إنكار لورا، مهما بلغ إدراكها لما يمكن لأبيها فعله فقد ظلت محجمة عن تحميله المسؤولية، وآنذاك بدأتُ أدرك أنني لست أمام تفتيت لوح ثلجي وإنما جبل جليدي.

* * *

كنا في نهاية السنة العلاجية الثانية ونحرز تقدمًا، لكن لا يزال علينا الغوص في أعماق علاقة لورا بأبيها، لا شك أن حلم «ركل القطة» كان بداية رؤيتها له رؤية أكثر واقعية، لكنني خفت من أنها ستظل تكرر ذلك الدور مع الرجال الآخرين إلى أن تقلع عن حماية أبيها.

وعلى الصعيد العملي بدأت أتساءل هل كان أبوها -الذي من الواضح أنه سيكوباتي أكثر من كونه سكيرًا تعيس الحظ- قد قتل كلًّا من ليندا وزوجته الأولى، وتساءلت هل كان حجب لورا لجميع ذكرياتها عن أمها عبارة عن وسيلة لحماية أبيها، وأنها على المستوى اللاشعوري تعلم أمورًا أكثر مما هي واعية بها؟

4

تجليات

يستطيع المعالجون الاستعانة بوسائل متنوعة -وفقًا لبعض النظريات السيكولوجية- لعلاج مرضاهم، وخلال السنوات الأولى من عملي بعيادتي الخاصة كنت معتمدة في أغلب الأحيان على النموذج الفرويدي، الزاعم بأن اللاشعور موجود، لكن بمرور الوقت تحليت بالانتقائية، فأدمجت الفنيات الجشطالتية، كلعب الأدوار والتركيز على ما يحدث في الحاضر -بين المعالج والمريض- باعتباره انعكاسًا لكيفية تعامل المريض مع الخلافات في العالم الخارجي، كما وظفتُ أسلوب كارل روجر المرتكز على المنتفع، حيث يعتبر المنتفع خبيرًا في تحدياته الخاصة، مع اضطلاع المعالج بدور مناقش الأفكار في أغلب الأحيان.

وباختصار، لقد اكتشفت أن التشبث بتوجه وحيد يشكل قيودًا، فلقد كنت بحاجة إلى التفكير في كل قضية وتقدير الأفضل بالنسبة للمنتفع، إذ لم يكن لدى المرضى في بعض الأحيان استبطان عميق، كما كانوا يواجهون صعوبة في ولوج مشاعرهم في أسلوب التداعي الحر الفرويدي، لذا كنت أنصرف من هذه المقاربة الموجهة للاستبصار إلى الفورية والصعق في أسلوب لعب الأدوار، حيث نقحم المريض في أحد الأدوار ويتوجب عليه الاستجابة، وعلى سبيل المثال فإن كان المريض يشعر بالغضب تجاه رئيسه أتظاهر بأنني ذلك الرئيس، وعادة ما تنبثق مشاعر المريض الحقيقية في أثناء هذا التدريب،

وإن كان المريض قد تعرض لحرمان شديد في طفولته ولم ينصت إليه أحد أستخدم مقاربة كارل روجرز، بالإنصات المحض كوسيلة لإمداده بالرعاية اللازمة للنمو، تتطلب كل حالة إعادات تقييم متكررة، وحين لا نحرز تقدمًا نفسيًّا يتوجب علينا محاولة فنية أخرى، فكما يقول آينشتاين في عبارته الشهيرة: «إن تعريف الجنون هو القيام بنفس الشيء مرارًا وتكرارًا وتوقع نتيجة مختلفة».

نجد من المفيد أحيانًا أن نرى الحالة من منظور علم الاجتماع بدلًا من منظور علم النفس، فعند إعادة تعريف حالة لورا من زاوية علم الاجتماع نجد أن أباها ينتمي إلى مجموعة اسمها «مدمنو الخمر»، في حين تنتمي لورا إلى مجموعة «الطفل الراشد لمدمن الخمر»، تفترض «منظمة مدمنو الخمر المجهولون» Alcoholics Anonymous أن مدمني الخمر لديهم سمات معينة، كما يتكون لدى أطفالهم سمات معينة استجابة لإدمان أبيهم أو أمهم للخمر، بل توجد مجموعات حول العالم مخصصة لمساعدة الراشدين الذين ترعرعوا في بيت مدمن للخمر.

لذا أعطيت لورا كتاب جانيت وويتيتز: «الأطفال الراشدون لمدمني الخمر» Adult Children of Alcoholics، وأردت منها رؤية القواسم المشتركة لدى كثير من الأطفال الراشدين لمدمني الخمر، خاصة الابنة الكبرى التي تكون ولي أمر بديل.

وصلت لورا إلى جلستنا التالية متوترة من اكتشافها أن كل سمة في القائمة منطبقة عليها، كما رسمت شكلًا بيانيًّا آخر وبدأت تردد على مسامعي كل سمة كأنها عريف في الجيش يتفقد حضور طابور الصباح، ولقد بدأت سردها قائلة: «يفعل الأطفال الراشدون لمدمني الخمر ما يلي»:

1. **لا يعلمون كيف يكون السلوك الطبيعي.**

- لم أكن مدركة أنه ليس من الطبيعي أن يضطلع ذوو الثمانية أعوام بدور ولي الأمر.

2. **يصدرون أحكامًا منزوعة الرحمة على أنفسهم.**

- أكره نفسي لأنني كنت ولي أمر سيئًا ولإصابتي بالهربس.

3. **يجدون صعوبة في المرح والاستمتاع.**

- المرح؟ ما أنا! طفلة في مرحلة الروضة؟ أنا موظفة!

4. **يأخذون جميع الأمور على محمل الجد إلى حد بالغ.**

- ينتقدني من أعمل معهم وكذلك أبي لأنني لا أتقبل المزاح.

5. **يلاقون صعوبة في العلاقات الحميمة.**

- لا أسمح لأحد بالتقرب مني ولا بالتعاطف معي، لكن هذا يؤدي إلى غياب ما يسميه هذا الكتاب **الحميمية**، أيًّا ما كان **ذلك**.

6. **يبالغون في رد فعلهم تجاه التغيرات التي ليس لهم عليها سيطرة.**

- ولم لا أفعل ذلك؟ كل التغيرات سيئة، إما مقتل أحدهم وإما مجيء الشرطة وأمرهم لنا بالانتقال من مسكننا وإما هروبنا من جامعي الديون.

7. **يلتمسون الاستحسان والقبول من الآخرين طيلة الوقت؟**

- أبذل جهدًا لاستحسان إد وكليتن رغم أنهما أحمقان، ومع أن أبي في الواقع ليس أحمقَ بمعنى الكلمة لكن يمكن اعتباره كذلك.

8. **يشعرون أنهم مختلفون عن الآخرين.**

- **أنا** مختلفة، لا يزال جميع من حولي في مرحلة روضة الأطفال، أما أنا فقد فعلت أمورًا ليس بمقدورهم تخيلها.

9. **يحملون أنفسهم مسؤولية هائلة.**

- أستميت في إنجاز المهام ولا أرى أبدًا أنني أتممتها كما ينبغي، وأستيقظ وسط الليل قلقة مما يجب عليَّ فعله غدًا في العمل.

10. **لديهم ولاء تام لغيرهم، حتى عند وجود دليل على أن الشخص الآخر لا يستحق مثل هذا الولاء.**

- حسنًا، هذا أوضح من أن نناقشه، لقد كان لدي ولاء لكليتن، وإد، وأبي، كل الرجال الذين ينبغي لهم نيل جائزة «أخرق هذه السنة».

كان الكتاب وقائمة الأعراض صاعقة منيرة بالنسبة للورا، إذ شعرت بأن محتواه يصفها كأن المؤلفة سبق أن غاصت في أعماق روحها.

لقد ظللت غافلة تمامًا عن أنها لم تكن فريدة من نوعها حتى قرأت ذلك الكتاب، ثم حين انتهت من قراءة قائمتها ارتفع صوتها بنبرة من انكشف أمامه سر كوني: «**أنا مجرد نتاج بيت مدمن للخمر، لم أدرك ذلك إلا الآن**».

***

أبلغت لورا في إحدى الجلسات بأن جدتها قد ماتت، لكن حين قدمت تعازي قالت إن هذا غير ضروري نظرًا لأن كلا جديها كانا «مخبولين»، ثم صمتت بضع دقائق ثم قالت: «أعلم ذلك يقينًا، فلقد عشت معهما، إذ بعد وفاة ليندا انخرط أبي في بعض القذارات التافهة وانتهى به المطاف في السجن، لذا نقلونا إلى «بلدة أوين ساوند» Owen Sound لنعيش برفقة والديه حين كنت في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة».

كان جداها يعيشان في إحدى ساحات الشاحنات، وقالت: «إنهما أغبى من الحمير، وإن وصفتهما بأنهما حثالة فقد ظلمت تلك الكلمة، لا عجب أنهما التقيا لأن كلًّا منهما أبله تمامًا كالآخر، إن لم تفعل بعض الأشياء الغبية كيفما يشاءان يفقدان صوابهما تمامًا».

تعرضت لورا لضرب مبرح بالحزام ذات مرة حين عادت من المتجر لشرائها ذرة بالقشدة بدلًا من رقائق الذرة، ثم حُبست في الخزانة لأربع وعشرين ساعة (لا تزال الأماكن الضيقة والمغلقة ورائحة النفتالين تصيبها بضيق في التنفس)، كما كانت هناك أمثلة عديدة على هذه السلوكيات، بل وكانا يخبرانها في أثناء ضربهما لها أنها عديمة النفع مثل أبيها.

لم تكن لورا معتادة على القسوة الجسدية والإيذاء اللفظي، لم يعاملها أبوها بقسوة قط، حتى خلال الفترة التي عاشتها مع ليندا، ولا كان شخصًا تربويًّا حازمًا أبدًا، بل كان يمدحها في أغلب الأحيان، إذ كان الإهمال هو أسلوب عيشه في الحياة.

ذكرت أن جدها كان «غريبًا من الناحية الجنسية» نحوها، وحين طلبت منها توضيح ذلك قالت: «كان يقول إنني أشبه «العاهرات الإيطاليات» مثل أمي، وأنها لو لم توقع ابنهما في فخها وتدمر حياته لصار ناجحًا في حياته»، ومتى ما عدت للبيت من موعد غرامي كان يقول إنه سيتحقق من عذريتي، لكنني ذات مرة أمسكت بسكين وهددت بأنه لو حاول لمسي لأتصلن بالأبوين المتبنيين روم وجلندا وستأتي الشرطة وتلحقه بابنه في السجن، كان جدي

شديد الغباء فلم يستوعب أنني عاقدة العزم على ذلك، لكن جدتي كانت تعلم من أين تهب العاصفة فقالت له: «دعها وشأنها، أبعدنا عن عفانة جسدها»».

كانت تلك المرة الأولى التي تذكر فيها لورا سلوكًا جنسيًّا غير لائق، وحين يحدث هذا فغالبًا ما يدل على وجود أمور أخرى لا يفصح عنها المريض.

- هل يمكن أن تخبريني أكثر عن الكلام الجنسي الذي كان يقوله جدك؟

فأومأت لورا برأسها بالنفي وقالت: «لم يفعل شيئًا قط، لقد كان في قرارة نفسه جبانًا، أما جدتي فقد كانت هي من يمتلك سلطة إصدار الأحكام المريضة».

سعيت إلى الحذر في خطواتي، كيلا أزرع أي أفكار، لكن في نهاية المطاف قلت إن الذين يعيشون حياة فوضوية غالبًا ما يتعرضون للانتهاك الجنسي لأنهم يكونون أكثر تعرضًا نتيجة افتقارهم إلى حماية ولي الأمر، بالإضافة إلى أنهم يكونون غافلين تمامًا عن السلوك المعياري، أو لا يدركون أن لديهم الحق في الاعتراض.

- ليس أنا، لو اقترب أحد مني لقطعت رقبته، وأظن أن الرجال يدركون ملامح هذا التأهب.

لقد وقعت لورا ضحية، لكنها لم تضطلع قط بدور الضحية، وتلك هي البطولة الباهرة في قصتها، فرغم أنها ظلت تناضل لسنوات عديدة فلقد كانت تستيقظ كل صباح عازمة على الارتقاء بنفسها.

لكن رغم أنها كانت بطلة في أحد الجوانب فإن إنكارها النفسي لألمها له مثالبه، إذ لم تكن تشعر سوى بالغضب، بدلًا من أن تختبر مشاعرها الحقيقية المدفونة: الخوف، والوحدة، والهجر، والغضب ليس شعورًا، بل اندفاعة، فحين يعجز المرء عن الإقرار بمشاعره الحقيقية لأنها شديدة الإيلام يحمي نفسه منها بواسطة الغضب، وبهذا كانت وظيفتي استحثاث لورا على ربط مشاعرها الحقيقية بما قد حدث لها.

* * *

إن أحد الأشياء التي تعلمتها في حالة لورا هو أن المعالج النفسي لا يصدر الأحكام، نحن جميعًا نصدر الأحكام بدرجة ما، إنها الوسيلة التي يصنف البشر بها المواقف ويقيمونها، كان بمقدوري وسم والد لورا بأنه «سوسيوباتي سكير

توقف نماؤه عند مرحلة المراهقة»، أو وصفه -بمصطلحات الشخص العادي- بأنه أناني فحسب، ولكن إثر سماعي عن أمه السادية، وأبيه الفاسق العاطل أدركت أنه سبق أن خاض معركة شاقة، ولم يجهزه أحد لحياة الراشدين، بل كان أفضل من والديه فيما يتعلق بالأبوة، ورغم أنه لم يكن يعلم سوى ما فعله له أبواه في طفولته، ولم يكن لديه قدوة يحتذي به، ولا معالج نفسي، ولا أدوات من أي نوع، فقد واصل السعي -بطريقته المحدودة- لإعادة التواصل.

خلال النصف الثاني من السنة العلاجية الثالثة انبثقت بعض المعلومات المتعلقة بماضي الأسرة لتؤثر على الرحلة العلاجية، لم تكن تريسي على ما يرام خلال السنوات القليلة الماضية، كما كان لديها طفل يبلغ من العمر عامين قد أصيب بالتهاب الدماغ في العام المنصرم ودخل في غيبوبة مما أدى إلى حدوث تلف طفيف في دماغه، بالإضافة إلى إنجابها توأمين مؤخرًا، إلى جانب أن زوجها كان عديم النفع ومكتئبًا ومنخفض الأداء، فكانت لورا تسافر إلى منزل تريسي الريفي بضع مرات خلال عطلات نهاية الأسبوع لتساعدها في رعاية التوأمين الوليدين.

أردت توضيح الأمور لها فقلت: «ما الذي تطلبه منك تريسي؟».

- المساعدة، وسأمنحها إياها، سوف أذهب إلى منزلها الريفي المتهاوي في كل عطلة أسبوعية وأقدم لها يد العون، يا إلهي، لا أجد دقيقة فراغ هناك، وعلاوة على ذلك فقد اضطررت إلى دفع ثمن الحفاضات لأنها تحاول الاقتصاد في استخدامها، أف، إنها لا تسعى أبدًا للتغلب على العقبات.

فواجهتها باستفسار مبدئي: «أتفق معك في أنها بحاجة إلى العون، وإنها لمحظوظة بوجودك بجانبها، فليس هناك من هو أفضل منك في تنظيم الأمور أو بذل الجهود، لكن ماذا بشأن المساعدة الوجدانية؟».

- حين أناقشها في الأمور المعنوية تبكي فحسب.

حينئذ ذكرتُ لورا بأن تريسي قد عايشت نفس الفقدانات التي عايشتها، موت أمهم، هجر أبيهم، موت ليندا العنيف، ودخول والدهم السجن، ثم أشرت إلى أن لورا كانت المفضلة لدى أبيهم في حين أنه كان يتجاهل تريسي، ويسميها «الآنسة: شكاءة بكاءة»، بالإضافة إلى أن لورا كانت الأخت الجميلة الأنيقة ذات الإرادة الفولاذية الفاتنة، أما تريسي فلم يكن لديها أي من تلك الهبات، لذا اقترحتُ بلطف أنها ربما تكون بحاجة إلى الدعم الوجداني من لورا.

- إنني أفعل ما بمقدرتي، ولقد أخبرتها بالفعل أننا سنتجاوز هذه المحنة.

ما كانت تصفه لورا هو التشجيع، ليس الحميمية، لذا قررت أن أعرض عليها هذا الموضوع مجددًا، وتبادلنا الرؤى حول كلمة **الحميمية** ثم قرأت عنها، لكنني ظللت مستبعدة أنها قد استوعبت معناها الحقيقي، كما كنت مدركة وجوب الحذر الشديد لأن مشاعرها الكامنة محاطة بدفاعات شديدة، وأنها حين توصد أحد أبوابها يصير من الصعب جدًّا فتحه مجددًا. رأيت أن لورا ربما تكون راغبة في مشاركة مشاعرها الداخلية مع أختها، فأشرت إلى أنها قد تلقت علاجًا نفسيًّا لمدة ثلاث سنوات أما تريسي فلم تتلقَّ أي شيء من هذا ثم أردفت ذلك بقولي: «هل سبق أن أخبرتِ تريسي أنك تتلقين علاجًا نفسيًّا؟».

- يا إلهي! **كلا**.

فذكرتها أنها قد جاءت للعلاج كي تتعلم كيف تتعامل مع الضغط النفسي والقلق وقد نجح الأمر، ولم يقتصر النجاح على قلة هجمات الهربس، فقد تعلمت أيضًا أمورًا كثيرة عن نفسها وعن كيفية تحسين جودة حياتها، لكنها لا تزال بحاجة إلى التعمق، ثم جازفتُ بقولي: «سبق أن قرأتِ عن مفهوم الحميمية ذاك، حيث يشارك الناس مشاعرهم».

- **أعرف** ما يدور حوله، فأنا لست من الأورك[1].

رغم ذلك بدا التشوش عليها، فقلت: «تحدث الحميمية حين تكونين على دراية بمشاعرك، ثم تشاركين مشاعرك، ومخاوفك، وخزيك، وآمالك، ومباهجك مع شخص آخر».

- يا إلهي! ولم لا أرقص عارية في الشارع فحسب؟

فتجاهلت ذلك وقلت: «ستلاقين صعوبة في فعلها أول مرة، إذ لم يسبق أن عبر لك أحد عن مشاعره في طفولتك، بل تحتم عليك حجب مشاعرك كي تتدبرين أمور حياتك، لا عجب أن من الصعب عليك تعلم ذلك».

ثم وضحت لها أن الانخراط في حوار حميمي يشبه تعلم لغة جديدة، كلما مارستها سهلت.

لكن لورا كانت مثبتة على الوضع العملي، وطلبت مني إعطاءها مثالًا، فقلت: «حين شاركتِ معي خزيك العميق من الهربس كنت متعاطفة مع مشاعرك»، ثم ذكرتها بأنها حرمت التعاطف تمامًا في مستهل العلاج النفسي.

---

(1) الأورك هي كائنات خرافية في روايات الأدب الفانتازي يصورها الكتاب على أنها مسوخ أو شخصيات شديدة القسوة والوحشية، سادية ومتعطشة لسفك الدماء. (المترجم)

فأومأت برأسها وضحكت كأن ذلك قد مرَّ عليه آلاف السنين.

ثم سألتني: «ماذا لو استخدمها الناس ضدك؟».

- ستظل هذه احتمالية دائمة، لذا ينبغي ألا تظهري الحميمية إلا لمن تؤمنين بأنك تستطيعين الوثوق به، ويكون هذا حجر بناء لمزيد من الثقة، لكن سيتعين عليك القيام بقفزة إيمانية بسيطة في هذه العملية.
- بصراحة، هذا يبدو محفوفًا بالمخاطر، لكنني استوعبت الأمر، قد يزيد من التقارب وقد ينفجر في وجهك.

فقلت لها: «حين يشارك الناس مشاعرهم يشعرون بالارتياح ويهدأ قلقهم وضغطهم النفسي، إن كنت تخططين للارتباط بشريك حياة فإن الحميمية الوجدانية هي الغراء الذي سيربطكما ببعضكما زمنًا طويلًا بعد خفوت الحميمية الجسدية».

حينئذ أشارت تعابيرها الوجهية إلى أنها ترى هذه الفكرة بعيدة المنال بعض الشيء.

تدربنا أنا ولورا على كيفية إجراء حوار حميمي، ومنحتها بعض المفردات لاستخدامها في المحاورات، كما قلت لها: «من المحتمل أن تريسي تجهل كيف تكون حميمية، مثلك بالضبط، ربما تستخدم الانتحاب كما تستخدمين أنت الغضب، كآلية دفاعية»، فأخبرتني لورا أن تريسي حين وجدت زوجها معلقًا في الحمام كان رد فعلها الأول «من سيساعدني الآن؟»، ولم تقل شيئًا بخصوص فقدان شريك محب، لقد كانت تريسي وزوجها -من منظور الحميمية- روحين غريبتين تمامًا.

ها نحن في السنة الثالثة، وقد قطعت لورا شوطًا طويلًا في ميدان الحدود، لكننا كنا لا نزال نناقش الأفكار الأساسية للحميمية، ظل هذا المفهوم بغيضًا بالنسبة لها، فرغم كل شيء فلقد كانت ذكراها الأولى هي انجراح قدمها وتصريح أبيها لها بأنه يحبها لتحلِّيها بالجلادة، لم تكن مشاركة الألم -من منظور لورا- منطوية على أي قوة، أما أنا فقد كنت أطلب منها إنزال درعها، وكان ذلك معاكسًا لما ظلت تتعلمه داخل أسرتها ومدرستها لبضعة وعشرين عامًا، لسنوات ملأى بلكمات قاسية، لا أحد يقول للملاكم في المباراة أن يُنزل ذراعه المدافعة.

***

ألغت لورا جلستها التالية، وهو شيء لم يسبق أن فعلته، إذ كانت تشير إلى جلساتها بأنها «شريان حياتها»، ثم جاءت بعد بضعة أسابيع متصنعة الابتهاج، لكنني جزمت من تعابير وجهها أن هناك مشكلة ما.

قلتُ إنني أشعر بتيار خطر خفي يسري داخل الغرفة، وأضفت بأنني متيقنة من أن هناك أمرًا ملحًّا قد حدث نظرًا لأنها لم تحضر جلستها السابقة، ظلت جالسة بضع دقائق ناظرة إلى النافذة، وإذ بها تطلق العبارات التالية كأنها رصاصات: «حاولتُ استخدام فكرتك **الهوجاء** بأن أحاول أن أكون حميمية مع أختي، لقد كنت على يقين بأني لم أفتح صندوق الحميمية المتفجر ذاك لأسباب وجيهة»، ثم لكمت مسند ذراع كرسيها بقبضتها ورمقتني بنظرة اتهامية، فالتزمتُ الصمت، فتابعت: «لقد ذهبت إلى بيت تريسي، كنت أرضع أحد الطفلين وترضع تريسي الآخر في منتصف الليل، كان الظلام حالكًا، وكنا نجلس على كرسيين هزازين متجاورين، فابتدأتُ الحديث بقولي إن طفولتنا لم تكن سهلة، وأنني لم أدرك ذلك إلا بعد التحاقي بالعلاج النفسي، فتفاجأت بسماع ذلك مني، نظرًا لأنها كانت الشكاءة البكاءة على الدوام ولم أكن أسمح بذلك، وقالت إنها ظنت أنني كنت سعيدة لأنني «حظيت بكل شيء»».

صرحت لورا لتريسي بأن الأمر لم يقتصر على التحاقها بالعلاج النفسي، فلقد بدأت تدرك أيضًا أن أباهم لم يكن ولي أمر مثالي في جميع الأحيان، وقالت: «ربما فعل كل ما بوسعه، لكن ذلك لم يكن كافيًا، كما أخبرتها أنني أدركت أن إد لم يكن سوى نسخة أخرى من **بابا**، لقد كان الوسيم الجذاب، لكنه خانني وأصابني بالهربس».

ثم نظرت لورا في عيني وقالت: «أجل يا د. جلدنر، لن تنتهي المعجزات أبدًا، لقد أخبرتها عن الهربس، ثم تابعتُ قائلة بأن مهنة إد كانت هي ذاتها مهنة **بابا**، ثم انخرط -مثل **بابا**- في أمور إجرامية، كما قلت إنني واصلت التماس الأعذار له كما كنت ألتمسها لأبي بالضبط، وحين بدا الارتباك على تريسي عرجت على جميع التفاصيل المملة المتعلقة بالترابط، **فلقد كان لدي الليل بطوله، أليس كذلك؟**».

اعترفت لورا أنها تعذب نفسها لأنها كانت أمًّا سيئة لأختها وكريج، إذ كان تركيزها منصبًّا على النجاة وليس على عافيتهم النفسية، وقالت بهدوء: «أخبرتها عن مدى أسفي، ثم توقفتُ هنيهة، وأملتُ أنها إما تسامحني وإما تقول إنني لم أكن سوى طفلة صغيرة وفعلتُ أفضل ما بوسعي، كما قلتِ

لي مرارًا». لكنها لم تفعل، لقد ظلت صامتة فحسب كتمثال جامد، فبدأت أشعر بالانزعاج، لقد صرحتُ بشيء مدفون لكنها صمتت فحسب كسيارة خربة، وفي النهاية حثثتها على التحدث قائلة: «تريسي، أترغبين بمشاركة شيء معي؟»، ثم ساد الصمت، كان صرير الكرسيين واضحًا، لكنها قالت أخيرًا (بنبرة فاترة تمامًا): «لقد مارس أبي الجنس معي مرات عديدة حين كنا أطفالًا»».

آنذاك حان دوري في الصمت المشدوه، كانت تلك صدمة مباغتة، لقد صعقتُ كما انصعقتْ لورا، وحين لمحتْ لورا اندهاشي أومأت لي بأن أنتظر حتى تنتهي، ثم قالت: «التزمت الصمت وزجاجة الإرضاع تهتز في يدي، وانتظرتها أن تكمل، لكنها لم تنطق بكلمة أخرى، فشعرتُ برغبة في الصياح بأنها تكذب، لكنني علمت بأن هذا ليس ما ينبغي فعله، ظل قلبي يخفق بشدة ولم أستطِع التفكير بشيء، فواصلت الانتظار في صمت طال جدًّا حتى أحسستُ بأن الدم قد تجمد في عروقي».

وأخيرًا نطقت تريسي قائلة للورا: «ذات مرة فتحت أمُّنا الباب واكتشفت ما يجري، لكنها لم تفعل شيئًا سوى النظر بضع ثوانٍ ثم إغلاق الباب».

فسألتها لورا كيف أنها لم تعلم بذلك، نظرًا لأنها كانت تنام مع أختها في الغرفة ذاتها، فأجابت تريسي بأنه كان يفعل ذلك عند غياب الجميع، لكنه كان أيضًا يجازف مجازفات كبيرة أحيانًا.

قالت لي لورا: «سألتها عن سبب عدم إخبارها لي بهذا من قبل»، ثم غرقت لورا في الصمت. لكن لورا لم تبدُ متألمة، وإنما حانقة، وفي نهاية المطاف استحثثتها للرد على جواب تريسي.

فسردت لورا ما حدث: «هزت تريسي كتفيها بأسلوبها الخامل المعتاد، ثم قالت: «لما صدقتني، فلقد كنت ترينه كائنًا ملائكيًّا»، فظللتُ أستفسر منها بأساليب عديدة لكنها لم تزِد على ذلك، ثم فكرتُ فيما قلته عن الحميمية، وآثرت عدم استجوابها منطقيًّا وعبرتُ لها فحسب عن أسفي الشديد لما حدث لها، ثم بكت وبكيت، ورأيت دموعها تنهال على وجه التوأم الذي بين يديها، ولم يكن أمامي سوى الحفاضة الجافة لأمسح دموعها بها».

فقلتُ لها: «لا بدَّ أن هذا كان صدمة كبيرة لكِ، بم تشعرين تجاه هذا الانكشاف؟».

لكن لورا بدلًا من أن تجيب على سؤالي ذكرت أنها أخذت إجازة من العمل ثلاثة أيام لتسافر شمالًا للتحدث إلى أبيها، كان يعيش مع معلمة اسمها جين، وهي أرملة ثرية، في «مدينة سو ساينت ماري» Sault Ste. Marie.

ثم قالت: «بدا في تمام السعادة من رؤيتي وسألني عن أحوالي، وابتهج حين أخبرته بالترقية التي حصلت عليها في العمل، كما حزن حين أخبرته أنني فارقت إد، إذ كان يظن أنه «شعلة نشاط»، كان مرتديًا أحد أزياء الطبقة الوسطى، كما كان يشرب صودا الحِمية في **كوب زجاجي**، وأفترض أنها لم تكن ممزوجة بالكحول، لم يكن لدي أي فكرة كيف سقط منتصبًا على قدميه هكذا، على الأرجح أن هذا لن يدوم طويلًا».

ثم أوضحت لورا لجين أنها ترغب في مناقشة بعض الأمور العائلية مع أبيها، فخرجت جين لزيارة أختها، وبعد ذهابها سألت لورا أباها بهدوء: «هل انتهكتَ تريسي جنسيًّا؟ فهي تقول إنك قد فعلت».

فانفجر أبوها صائحًا: «**يا إلهي! كلا!** من السهل عليَّ الوصول إلى النساء، ولم أكن لأتجه إلى أطفالي، هذا بؤس مقرف، لطالما كانت تريسي هي الضحية، مهما حدث، كل في الأمر أنها منزعجة من أنني وجين نرفض المكوث برفقتها لمساعدتها في رعاية أطفالها، لقد اتخذت قراراتها وعليها تحمُّل تبعاتها»، ثم تابع أبوها قائلًا بأنه يرفض جر جين «في كل اتجاه صوب مساعدة شخص يظل سفيهًا وحزينًا على الدوام مهما فعلت له»، ثم ضرب المنضدة بكفه ضربة شديدة لدرجة أنها ظنت أن زجاجها سينكسر وقال: «أعلم أنها تود الانتقام، وتلك هي الحبكة المثالية، لقد أعيت زوجها بتبنيها دور الضحية، فشنق نفسه، وأغلب الظن أنه فعل ذلك ليريها «**من الضحية الآن يا تريسي؟**»».

ثار في أرجاء الغرفة صائحًا: «إن كانت تريسي راغبة في تلفيق تلك التهمة لي فصدقيها إن شئتِ، لكنني آمل أنك على دراية تامة بتريسي وبحالها الدائم، لطالما كانت هي وأمها الطرف المظلوم، ولو سألت كريج لأخبرك أن هذا محض هراء.

فقلت لها: «لا علاقة لكريج بهذا».

فتابعت لورا قائلة إنها التقطت حقيبتها للرحيل، لكنها في أثناء مغادرتها أخبرت أباها بأنها «لم تصل إلى استنتاج نهائي بعد».

ترقبت أن تقول لورا شيئًا آخر، لكنها نظرت إليَّ فحسب وهزت رأسها، ثم قالت بنبرة غاضبة: «أعلم أنك تظنين أنني أدافع عنه لكن أقسم إن تريسي لم تُتْرك بمفردها معه قط وأنها حقًا تلعب دور الضحية على الدوام»، ثم قلدتْ صوت تريسي الشكاء: «لماذا فعل زوجي هذا **بي**؟» و«لماذا أصيب ابني **أنا** بالتهاب الدماغ؟».

فسألتُ لورا أنى لها التيقن من أن تريسي لم تُترك مع أبيها قط، إذ أن لورا كان لديها العديد من الصديقات، وكانت تذهب إلى الحفلات واجتماعات اللعب في حين كانت تريسي تمكث في البيت.

فتغير وجهها، مبديًا إقرارها على مضض بأن ما قلته صحيح.

فتابعتُ قائلة: «السؤال الأهم هو: **هل تريسي كذابة؟**، هل كذبت بشأن كونها ضحية؟ كلا، لم تكذب، لقد ارتكب زوجها الانتحار حقًا كما **أصيب** ولدها بمرض فتاك».

هزت لورا رأسها باشمئزاز وقالت: «خلال إقامتنا في بيت جدتي لم يطلب منها أحد من الشباب الخروج معه، وكانت تعلل ذلك بأننا نعيش برفقة مجنونين داخل شاحنة، لكنني خرجت مع شباب كثيرين، وفي صغرنا كانت تقول إنها لا تدعى إلى حفلات عيد الميلاد لأن أمَّنا لا تتواصل قط مع الأمهات الأخريات، لكنني كنت أتلقى الدعوات، لطالما امتلكت أعذارًا ولم تخطئ هي في شيء قط».

فأوضحت لها قائلة: «هذا ليس كذبًا».

- لطالما كانت غيرانة من علاقتي بأبي، ربما يكون هذا أسلوبًا مثيرًا للشفقة لتستخدمه تريسي لتنافسني، قائلة: «انظري لقد كُنت قريبة منه أيضًا»، أنت لا تعرفينها يا د. جلندر، إنها تريد التنازل عن التوأمين لـ«معونة الأطفال»، يا إلهي، ظللت أحاول معها بأنها **تستطيع** أن تكون ولي أمر جيد لهم، كما أخبرتها أننا لا نريد نكون عائلة تخلف أجيالًا من الأطفال المهجورين.
- لا شك أن ذلك قصور -وفقًا لوصفك- لكنه ليس كذبًا.
- تالله إني لأصدقه، وأعلم سؤالك التالي، كلا، لم يفعل شيئًا كهذا بي، قط، ولا قريبًا من ذلك حتى، وحين كان يقول أحدهم إنني جميلة لم يكن يعلق قط.

- باستثناء موقف السجن، حين شعرتِ أنه يستغل جمالك.
- يا إلهي، ذاكرتك تشبه الفخاخ الخاطفة، هل أنا في صندوق الشهود أم في غرفة علاج نفسي؟

لقد كانت محقة، لذا تعين عليَّ تلطيف هذه الأجواء المحتدمة والتركيز على السعي وراء الحقيقة **النفسية**، وليس الحقيقة **اللغوية**.

لا نملك في الواقع طريقة لمعرفة الحقيقة، لا شك أن تريسي كانت معوزة وقاصرة، إنها الشخص المثالي الذي يختار المفترس انتهاكه، لقد علم أن لورا لن تطيق ذلك بتاتًا، ولو حاول ذلك لطاردته بأحد سكاكين المطبخ، وتوصلت في تحليلي النهائي إلى إنني سأصير منحازة إلى أحد الطرفين إن أشرت إلى أن لورا تقاوم تصديق تريسي في سبيل حماية أبيها، وأنني سأخرج من دور المعالجة النفسية إن قلت أي شيء آخر بخصوص ما إذا كان إتيان المحارم قد حدث حقًّا، إن وظيفة المعالج هي الإشارة إلى الأنماط في السلوك، وقد سبق أن ذكرتُ لورا بأن لديها نمطًا متمثلًا في الدفاع عن أخطاء أبيها وعدم رؤيته بواقعية، لقد منحتُ لورا الأدوات اللازمة، والآن صار الأمر متروكًا لها لتقرر استقصاء الحقيقة.

تجلى لي أحد التفاصيل بخصوص إتيان المحارم، وهو وصف تريسي أن أمها فتحت الباب ثم أغلقته بهدوء فحسب ولم تذكر ما رأته قط، فتصورتُ تلك الأم المسكينة التي لا تعرف أحدًا تلجأ إليه، رغم علمها بأن ابنتها تتعرض لانتهاك جنسي، ربما كانت مصابة باكتئاب شديد، أو لم تكن قوية ولا لديها نفوذ في العلاقة لتحمي ابنتها، وتساءلت مجددًا هل كان موتها انتحارًا، لكن لم يحدث تحقيق في وفاتها، ولم يكن هناك ما يشير إلى نشاط إجرامي، وفور سماعي عن وفاة الزوجة الثانية تساءلت -مجددًا- هل ماتت أم لورا هي الأخرى على يد زوجها، إذ لم أصل قط إلى السبب العميق وراء عدم وجود ذكرى واحدة لدى لورا عن أمها.

توجب عليَّ الحذر الشديد عند هذا المنعطف، إذ أردت عدم زرع أفكار في رأس لورا، وآنذاك كنت قد قضيت ثلاث سنوات في مزاولة المهنة لكن لم يسبق أن واجهت حالة إتيان محارم، كما تحتم عليَّ تذكير نفسي بأن العلاج النفسي ليس متمحورًا حول الحقيقة، وهذا يوافق مقولة جاك نيكلسن الشهيرة في فيلم «ثلة من خيرة الرجال» A Few Good Men: الناس أحيانًا

«لا يستطيعون تحمل الحقيقة»، بل تتمثل القضية في كف اللاوعي عن التحكم في عقلك الواعي، فالعلاج النفسي الفعال متمحور حول تخفيض دفاعاتك حتى تتمكن من التعامل مع القضايا المنبثقة في حياتك.

ساد الصمت العلاجي طويلًا، لقد أدى بنا هذا الكشف الصاعق إلى الجلوس في صمت والاستغراق في التفكير، على غير عادتنا، طيلة النصف الثاني من الجلسة، وأخيرًا -بعد قرابة عشر دقائق- قالت لورا (بنبرة يكسوها الغضب): «لن نعرف الحقيقة أبدًا، أليس كذلك؟».

فأومأت بالاتفاق.

آنذاك عدت لتلك الأمسية التي قضتها مع تريسي، وقلت: «أحد الأمور التي حدثت حقًّا هو أن تريسي حاولت أن تكون حميمية معك كما كنت معها، من الجلي أنها بحاجة إلى المساعدة، فسواء أكانت ضحية انتهاك أم لا فهي تظن أنها احتاجت وتحتاج إلى زيارة معالج نفسي».

عثرتُ على طبيب نفسي في أحد المستشفيات المجاورة لبيت تريسي، طبيب يجري معها جلسات بالمجان، لكن للأسف لم تحضر تريسي سوى بضع جلسات، بعد ذلك عثرتُ على مجموعة دعم لها، لكنها لم تحضرها سوى مرة واحدة، بعد ذلك تواصلتُ مع مجموعة دعم لأمهات التوائم ورتبت لها مع شخص ليصطحبها للمجموعة ويعيدها للمنزل بسيارته، لكن في اللحظة الأخيرة رفضت تريسي الحضور.

آنذاك أدركتُ أنني أوجه قدرًا كبيرًا من الطاقة النفسية نحو تريسي، التي ليست منتفعتي حتى، والمقاومة للعلاج النفسي أو أي نوع من المساعدة، كما تحتم عليَّ تذكير نفسي أنني من كنت بحاجة إلى فعل كل ما بالوسع لكشف كل غموض، ولم يكن هذا احتياج مرضاي، ثم توجب عليَّ النظر إلى عاملين، أما الأول فهو أن لورا قد اجتهدت في العلاج النفسي ولم تكن خائفة من العمل على الارتقاء بنفسها، وأما الثاني فهو أنها محقة، لن نعرف الحقيقة أبدًا، كانت هذه حقيقة مأسوية أنهينا عندها عامنا العلاجي الثالث، وصارت تسوية هذه المسألة متروكة لتريسي وأبيها.

5

بلا وظيفة

أحسست بأننا في المرحلة الأخيرة، لقد جاءت لورا للعلاج النفسي بادئ ذي بدء لتدبر أمر هجمات الهربس المتكررة، والآن انخفضت النوبات إلى واحدة أو اثنتين في السنة، مما دل على أنها قد تعلمت كيف تتعامل مع قلقها، كما شيدت حدودًا في بيئة العمل والعلاقات الشخصية، ولم تعد تسقط في بئر العجز كلما أثار أحد حنقها، كما سعت إلى بناء الحميمية والتعاطف مع الآخرين، واستوعبت أنها قد عاشت طفولة معطوبة، وانصب تركيزها على أن تغدو شخصًا متزنًا.

رغم ذلك ظلت هناك إخفاقات وانتكاسات، لقد دخلت لورا مكتبي ذات مرة تدبدب الأرض، فجزمت بأنها خرجت لتناول البيرة قبل مجيئها، إذ كانت تتحول إلى غضب مضاد متى شعرت بالتهديد من شيء ما في سبيل حماية كبريائها الهش، لكنني سبق أن تعلمت من السنوات السابقة ألا أتدخل بين لورا ومخاوفها اللاشعورية، لأنها حينئذ تقاتل، نفسيًّا وجسديًّا، لقد أخبرتني أنها ذات مرة كانت بمفردها عند رصيف المترو ليلًا وإذ برجل يحاول سرقة حقيبتها، فلم يكن لها إلا أن ركلته تحت الحزام ثم أسقطته في **مجرى القطار**، ثم ضغطت على جهاز الإنتركوم وقالت: «أخرق في مجرى القطار» ثم استقلت سيارة أجرة وعادت للبيت.

سألت لورا عن سبب غضبها الشديد فأشارت إلى أن ذلك الأسبوع كان «محرجًا»، ثم بدأت بإخباري أن كاثي -ابنة المتبنيين رون وجلندا- صارت معلمة للمرحلة الابتدائية في تورونتو، وأن خليلها طالب دراسات عليا في علوم الحاسب، ثم أخبرتني أنها دعت كاثي وخليلها لتناول العشاء، فجلب خليلها صديقًا له اسمه ستيف، الذي كان قد انتهى للتو من الدراسات العليا في المجال ذاته، ثم وصفت لي أن هذا مهين لأن كاثي -كما هو واضح- قد دعته لمقابلة لورا، وقالت: «لقد كان هذا خطأً فادحًا وإحراجًا بالغًا في جوانب عديدة لدرجة أنني محتارة من أين أبدأ».

لم تكن لورا مفعمة بالعواطف قط، بل وصفت موت أمها وزوجة أبيها بعبارة واحدة هادئة.

فحثثتها على التفسير قائلة: «الجانب الأول؟».

- بادئ ذي بدء، أنا ملكة متوجة، ولست بحاجة إلى كاثي، المَهينة، في تدبر أمر احتياجاتي الغرامية، لست يتيمة مثيرة للشفقة.

- والجانب الثاني؟

- هذا الرجل لا يناسبني، يبدو أنه قد ترعرع في «مسلسل عائلة والتن» The Waltons (مسلسل تلفزيوني عن أسرة أمريكية فقيرة ولكن متقاربة، ومحبة، ومتمسكة بالقيم الأخلاقية العليا، تعيش محنة «الكساد الكبير» Great Depression، وبطل المسلسل هو الابن الأكبر، واسمه جون بوي)، لقد حاول أن يكون **الرجل اللطيف المحترم**، إذ قام بتنظيف المائدة في أثناء ما كان خليل كاثي يصلح تلفزيوني وتستخدم كاثي ماكينة الخياطة الخاصة بي، ثم أخبرته أن يترك الأطباق فحسب، لكنه قال: «دعينا ننتهي من أمرهم، نحن جميعًا لدينا عمل في الصباح»، ثم قالت بنبرة مغتاظة: «لقد واصل غسل الأطباق حتى بعد قولي له إنني سأغسلها.

فسألتها: «هل أمامنا الكثير حتى نصل إلى الجزء السيئ؟».

- فلتتحلي بالجدية، لا أحد يتصرف هكذا.

- هل سيساعد العقيد بوتر زوجته إذا رأى أنها قد أعدت عشاءً ثلاثيًّا، وتأخر الوقت، ولديها عمل في الصباح؟

فصمتت لورا لبضع ثوانٍ ثم أجابت: «أجل، قد يفعل ذلك، لكنني أحب العقيد بوتر بصفته أبي، وليس شريكي الجنسي».

فقلت: «حسنًا، دعيني أتأكد من أنني استوعبت ذلك: يدخل حياتك رجل حاصل على الماجستير في ميدان تنافسي ويساعدك في غسيل الأطباق لأنه يدرك معنى أن تكوني مجهدة في الصباح، ومن نباهته نظف المائدة شكرًا لك على العشاء، ما هذا؟ فاشل؟ فلتساعديني في هذه النقطة».

فقالت: «ما أقصده أنه ليس مثيرًا للحماس، ليس مجازفًا».

- أنى لك علم ذلك؟ لست ألمِّع هذا الرجل، لكنني بحاجة إلى معرفة سبب استخدامك أمثلة لطفه لاستبعاده من حياتك.

ظلت صامتة، فلم أستطِع مقاومة إتباع ذلك بقولي: «ثم ماذا تعلمين عن مجازفاته؟».

- أعلم أن إد قد أخفق كثيرًا، لكن لطالما كانت لديه أفكار جامحة وكان يعلم كيفية إنجاح الأمور.

- كنقل عدوى الهربس لك، وتعرضه للطرد من كل وظيفة، كما كان أبوك ما تسمينه «مثيرًا للحماس» ورغم ذلك لم يتضمن طموحه وحماسه الاعتناء بأطفاله، أو اتباع القانون، أو كسب قوت العيش، لكن التنافس في ميدان علوم الحاسب يتطلب شجاعة ونضوجًا.

حين قلت هذا أدركت أنني قد تجاوزت حدودي، فلقد كنت مغتاظة من تشبث لورا بأبيها بأنه قدوة يحتذى به، وازدادت حدة نبرتي، لذا اعتذرت على تسلطي بدلًا من سعيي لتفسير وتوضيح ما قالته.

فاتقدت شرارة الغضب في عينيها وقالت: «أنت تركبين موجة نجاحك الآن، أطلقي ما بداخلك بلا حرج، أعطيني ولو لمرة واحدة فائدة المال الذي أدفعه».

- لورا، لطالما أبعدتِني حين اقترابي جدًّا من ألمك، تستطيعين حماية ذلك الألم لبقية حياتك، لكن هذا لن يساعدك على الارتياح.

- اعذريني، ماذا كنت تقولين؟

- أظن أنك مرتبطة بالسلوك المشابه لسلوك أبيك، فلقد تحتم عليك تحمل ذلك، إذ لم يكن لديك أم، وكنت في مأزق، ماذا ستفعلين؟ وأين

ستذهبين؟ فأبليتِ بلاءً مذهلًا في شَقِّ طريق عبر صحراء مهلكة، ولم يكن لديك ولي أمر في فترة لا ينبغي لأحد ألا يكون لديه ولي أمر، ومن كان قدوتك؟ لقد كنت شديدة الدهاء وبالغة المتانة لدرجة أنك اكتشفت العقيد بوتر وكنت نبيهة بما فيه الكفاية لاستخدامه كقدوة، لا يستطيع بلوغ ذلك الدهاء و**ابتكار** ولي أمر عند احتياجه سوى قلة قليلة من البشر.

فقالت بسخرية: «من المؤسف جدًا أنك لست المسؤولة عن «أوسمة القلب الأرجوانية[1]» Purple Hearts».

رغم تحسن لورا في كثير من النواحي فقد ظل لديها عَرَض جامح ينبغي التغلب عليه، علاقتها بالرجال، ظلت منجذبة لنوع «الباد بوي»، الذي أطلقت عليه مصطلح «مثير للحماس» بدلًا من «سيكوباتي»، وها هي الآن تشعر برفض نفسي تجاه رجل ساعدها في غسيل الأطباق، ولا يسمح لها بتقلد دور المنقذ الذي اعتادت عليه.

شعرت بالإحباط من هذا العناد، فقررت التصدي لها بتفسير سلوكها تجاه ضيفها، وقلت: «أظن أن ستيف غير مهتم بك لأنك لا تعلمين ما دورك في العلاقة، فقد لا يتوجب عليك إنقاذه»، ثم سكتُّ هنيهة ثم قلت بنبرة حادة: «**ستكونين بلا وظيفة**».

اتكأت لورا بظهرها على كرسيها كأنها تلقت لكمة في صدرها، فواصلت دفعها قائلة: «لم كنت المفضلة لدى أبيك؟».

- لقد اعتنيت بشؤونه، كانت أسرتي سيارة متهالكة، وكنت أواصل المسير، مصلحة أعطابها باستخدام أي قطع غيار أعثر عليها، حتى لو كانت العلكة التي نمضغها.

عند انتهاء جلستنا طلبت منها أن تتأمل فيما ستفعله مع رجل لا يحتاجها وإنما يحبها فحسب.

***

(1) وسام القلب الأرجواني هو وسام عسكري أمريكي يمنحه الرئيس لمن جُرحوا أو قتلوا في أثناء خدمتهم. (المترجم)

خلال الأسابيع القليلة التالية بدأت لورا تقابل ستيف على نحو منتظم، ثم اشترت أول حذاء تزلج لها، كما كانا يطبخان أطعمة شهية في الإجازات الأسبوعية ويمرحان، هذا وكانت تتعلم كيف تسير العلاقات الطبيعية، فلقد كانت مشاغل ستيف كثيرة، لكن حين يدرك أنه سيتأخر يتصل بها ويعلمها بذلك، لكنها في بادئ الأمر كانت تسخر من تلك السلوكيات كأنه موسوس وشديد الاهتمام بالتفاصيل، فأشرت إلى أن هذا ما يفعله الراشدون لمراعاة مشاعر بعضهم بعضًا، فهو يدرك أن وقتها ثمين كوقته، لم يكن لديها خط أساس تقيس عليه، لذا كنت أنا نافذتها المطلة على الأمور الطبيعية في العلاقات.

كانت لورا تلاقي صعوبة في أن تكون حميمية وجدانيًا مع أي أحد، لكنها حاولت ذلك مع ستيف بمشاركة بعض من ماضيها، وقد بدا قبوله لمعظم الأمور، ولم يضغط عليها قط بخصوص الجنس، رغم أنهما قد فعلا كل ما سوى الإيلاج، ثم أخبرتني لورا أن أعذارها أوشكت على النفاد، وأنها ستضطر إلى إخباره بشأن الهربس، وأنها فكرت كثيرًا في مفارقته حتى لا تعاني من إهانة مفارقته هو لها. لكنها اندفعت للأمام بقوة وأفصحت عن حالة الهربس التي لديها، فجلس ستيف في صمت، وكانت صدمته واضحة وضوح الشمس، ثم غادر بعد هنيهة، ثم انقطع تواصله معها، ومر أسبوع، واثنان، وثلاثة ولم يتواصل معها.

ثم في الأسبوع الرابع من صمته الصاخب قالت لورا: «يبدو أن جون بوي فر هاربًا وهو الآن في طريق عودته إلى بيت عائلته»، كانت تسخر من المسلسل ورغم ذلك تشاهده، لقد كانت تدرس طيبة عائلة والتن وسلوكها الأخلاقي كما يحلل عالِم الحيوانات قبيلة القردة في أحد برامج «ناشونال جيوجرافيك» National Geographic.

فسألتها عن شعورها تجاه انصراف ستيف، فقالت دون أن تتردد برهة: «ارتحت»، وحين سألتها عن السبب قالت: «لم أعد مضطرة إلى أن أكون طبيعية، فلقد أجهدني ذلك، إلى جانب أنه كان بخيلًا، اسمعي هذا: ذات مرة أعدَّ الفشار قبل ذهابنا إلى السينما، فقلت إنني من المستحيل أن أدخل الصالة حاملة كيس الفشار الخاص بي، يا إلهي».

- حسنًا، لقد حصل على وظيفته الأولى ويمتلك منزلًا يؤجره للطلاب، كما يمتلك هذا الكوخ الذي يرممه مع أبيه خلال الصيف في كل إجازة

أسبوعية، وهذه ممتلكات كثيرة بالنسبة لشخص في عامه الأول من العمل.

فكان ردها: «أجل، وهو بالغ الشح، فحين نذهب إلى الكوخ نظل نعمل من الفجر إلى الغسق في إصلاحه، ولا يوقد مكيف الهواء حتى لو كانت درجة الحرارة فوق الستين»، ثم مالت إلى الوراء في كرسيها وربعت ساقيها كأنها متكئة على أريكة مريحة، ثم صعدت زفرة طويلة وقالت: «سلامات».

- لورا، ماذا يكمن تحت هذا الارتياح وهذا الكبرياء المتباهي؟

ظلت صامتة هنيهة ثم قالت (وهي تنظر في ساعتها): «ألم ينته وقتنا؟». فأومأت برأسي بأن كلا.

آنذاك كانت لورا قد أمضت ما يزيد على ثلاث سنوات في العلاج النفسي، وتعلمت كيفية النفاذ إلى عقلها اللاشعوري، فأملتُ في أنها ستتمكن من فعل ذلك، رغم أنه جرح نازف، وذكرتها بأن الجروح لا تندمل بل تتقيح إن لم نتركها مفتوحة.

وأخيرًا، صعدت زفرة عميقة أخرى وقالت: «أنا منجرحة وشاعرة بالخزي، كما كنت في أول جلسة لي هنا، لأن أسرتي العفنة لوَّثتني بقاذوراتها وهو يريد الانسحاب، لم أكن لأقدر على تقديم عشيرتي المهترئة أمام تلك العائلة، حيث تعمل أمه معلمة للمرحلة الابتدائية، ويلقي أبوه دروسًا في الفنون الصناعية، بل كان يدرب فريق الهوكي الذي انضم إليه ستيف، ويملأ برفقته حلبة التزلج التي في فنائهم الخلفي كل ليلة، إلى جانب أنهم عاشوا في البيت نفسه طيلة حياتهم، وكان أبواه لطيفين ونسختين **حقيقيتين** من العقيد بوتر».

كاد قلبي أن ينخلع لأجلها فقلت: «لانجرح أي أحد في موقفك هذا، لكن الجانب المشرق هو أنك اعترفت بمشاعرك الحقيقية».

- أظن أنني أملت أنه مكترث بي، لقد كنا نعشق إصلاحنا للكوخ معًا، كما كان مغرمًا بالأفكار الديكورية التي اقترحتها، وأنا بارعة في ذلك، كل منا نحلة عاملة بطبعه.

- ربما كان مكترثًا، لكن الهربس مثل له عقبة شديدة، هل سبق أن فكرت أنه ما زال يقيِّم خياراته؟

- فلتتحلي بالجدية!

- ليس كل الناس طائشين، وإنما أنت المعتادة على ما تسمينه عفوية، لكن لو قلبتِ تلك الكلمة وأعدتِ تأطيرها يصير معناها الطيش، يتوخى بعض الناس الحذر في تقييم قراراتهم المهمة بمرور الوقت، ثم سألتها: «لو أصيب أبوك بالهربس، هل سيخبر أحدًا؟ هل أخبر إد أحدًا».

- لم يفعل إد، ولم يكن أبي ليفعل.

- حسنًا، أما أنت فقد فعلت، وهذا يجعلك مختلفة عن أبيك وإد، تذكري أنك لا تستطيعين التحكم إلا في سلوكك أنت.

- أجل، لم أصب إلا بنوبة واحدة هذه السنة، وهذا ليس سيئًا، ما يدهشني هو أن هذه الهجمات ترتبط دائمًا بالضغط النفسي.

- هل يعلم ستيف كل شيء عن عائلتك؟

- أجل، كل العفانات، كبيرها وصغيرها، لكنني لم أخبره عن إتيان المحارم المتعلق بتريسي لأنني لا أصدق ذلك، ولا أظن أن أبي قتل أمي، كما أن قضية ليندا لم تتضح حقيقتها حتى الآن.

تأثرت بما تمر به لورا، فلقد فتحتْ قلبها ثم تعرضت للرفض، لقد قضت وقتًا طويلًا في طرق باب الحياة الطبيعية ولا شك أنها مجهدة.

حين جاءت لورا في الأسبوع التالي وجلست بدت على وجهها ابتسامة متناهية الصغر، ثم قالت: «ستيييييييف عاد!»، ثم شرحت لي أن ستيف اضطر إلى الانتظار ليحصل على موعد مع طبيب، الذي قدم إليه معلومات جمة عن كيفية ممارسة الجنس الآمن، ثم قالت: «تحتم عليه التفكير بشأن التعهد بالالتزام، وقد استغرق ذلك منه وقتًا».

***

سارت العلاقة بسلاسة لبضعة أشهر، حتى عيد الحب، حين أهدى ستيف وردة واحدة فقط للورا، مما أثار حنقها، فعلل ذلك بأن عائلته تدخر المال للأغراض الدائمة ولا تشتري سوى الهدايا الرمزية، وشعر أن أعظم هدية أهدتها أسرته له هي دفع تكاليف الأعوام الجامعية الأربعة والدراسات العليا.

سبق أن تعلمت لورا وضع أهداف بعيدة المدى لنفسها، فلقد جاهدت بقوة لسنوات عديدة لنيل الشهادة الجامعية، لكنها لم تكن معتادة على ذلك من **الرجل**، فلقد ظنت أن البزخ في الإنفاق -بطريقة ما- من سمات الرجولة،

وكانت تنظر إلى هذا النوع من الكرم بأنه علامة على الحب الرومانسي، لكن ستيف كان يراه تبذيرًا.

وبطبيعة الحال لم يعتذر ستيف، وصرح بأن هذا هو أسلوبه، وأنهما إن تزوجا في أي وقت فسيصير بيتاه وكوخه ملكًا لها هي أيضًا.

قالت لي لورا: «هذا محض هراء، إنه بخيل ليس إلا، لقد أنفق أبي كل ما لديه من مال ليشتري للينداالحقيبة التي رغبت فيها».

لم أستطِع مقاومة قولي لها: «قبل مقتلها المحتمل على يديه أم بعده؟».

- كانت تلك حادثة، أغلب الظن، أتعلمين، تستطيعين الفوز بلقب ملكة ضربات تحت الحزام.

وقد كانت محقة في ذلك.

***

صمد ستيف ولورا خلال عاصفة وردة عيد الحب، ثم جاء الكريسماس، وزارت لورا بيت عائلة ستيف في «بلدة باري ساوند» Parry Sound -وهي مدينة صغيرة في شمال تورونتو- وأخبرتني أن أمه قد حاكت لها سترة وصفتها لورا بأنها شيء يرتديه الناس في «مسلسل بيت صغير في البراري» Little House on the Prairie، فقلت: «ما مدى غرابتها؟»، لأنني على دراية بأن لورا لا ترتدي سوى أرقى الأزياء.

فردت قائلة: «وددت أن تسألي»، ثم فتحت معطفها لتريني، كانت ترتدي سترة كريسماسية مرسوم عليها منشدو التراتيل الإنجيلية الذين يرتدون قبعات مختلفة مزينة بنسيج شُعيري ومخملي بارز، ويحمل المنشدون في أيديهم كتيبات الترانيم المنسوجة بطبقة بيضاء بارزة ويغنون تحت عامود إنارة. لم أستطِع منع نفسي من الضحك، فقالت لورا مستبشرة: «هل بإمكاني السخرية من هذا أمام ستيف؟».

- هل قابل عائلتك؟

- أجل، كلهُم باستثناء كريج.

- هل علق بأي شيء سلبي؟

- بتاتًا.

فالتزمت الصمت.

ظلت تفكر لدقيقة ثم قالت: «لقد التصقت بهذه السترة، بل ستكون إطلالتي المميزة في كل شتاء نكون فيه معًا».

***

شرعت لورا في التأقلم مع حياة الطبقة الوسطى، كما بدأت تقدر قيمة أن يكون في حياتها شخص تستطيع التعويل عليه، وتقدر الأهداف بعيدة المدى، ومدخراتهم النامية، وكان ستيف مقدرًا لأخلاقيات العمل التي لديها، كما كان مغرمًا بحسها الفكاهي التلقائي المتقد.

لكنها كانت متضايقة من أنه لم يخبرها قط بأنها جميلة، وهو شيء كانت معتادة على سماعه، فأوضحت لها أنها بحاجة إلى التواصل الفعال، لأن الناس في العلاقات الطبيعية يضطرون أحيانًا إلى إخبار شريكهم بما يرغبون فيه، لكنها أجابت بأنها لن تشحذ منه الإطراء، فأخبرتها أن رغبتها في الشعور بأنها محبوبة هو أمر طبيعي تمامًا.

لكن حين أخبرته بذلك في النهاية قال لها إنه كثيرًا ما يتأمل في مدى جمالها، لكنه ترعرع في عائلة بعيدة عن «التملق»، فقالت إنه ما دام يقصد حقًا ما يقوله فلا يكون هذا تملقًا، كان ستيف سريع التعلم، فصار يعبر للورا كثيرًا عن مدى حبه لها وشدة جمالها، وقالت لي: «إن الغريب والمضحك في الأمر أنه يبدو قاصدًا لذلك حقًا»، آنذاك كانا يعيشان معًا قرابة عام.

ذات يوم جاءت لورا باديًا عليها الشحوب وفاقدة لبريقها المعتاد، فجلست على حافة الكرسي وقالت إن ستيف قد فارقها، وأنها لم يكن لديها أي فكرة عن أنه على وشك الانفجار، وأوضحت قائلة: «حين يشكو لا يعلو له صوت، فأفترض أنه ليس منزعجًا لهذه الدرجة».

فسألتها هل حدث شيء محفز، فأوضحت أنها كانت على وشك تحضير العشاء ورأت في الثلاجة العلبة البلاستيكية المخصصة لحفظ المتبقي من صلصة المعكرونة، فقامت بتسخين الماء وغليه لطهي المعكرونة، لكنها حين فتحت العلبة وجدت أن ستيف لم يختزن سوى ملعقة صغيرة من الصلصة، فصاحت به وقذفت الصلصة على الجدار، فأخبرها ستيف بهدوء أنه سيغادر لمدة أسبوع، وأن تتخذ قرارها بشأن ما إذا كانت ستواصل التعامل مع غضبها بهذه الطريقة التي لا يطيقها، وإذا كان الأمر كذلك فهما أمام مشكلة خطيرة جدًا.

سألتها عن معدل تكرار انفجارها فقالت: «مرة أو مرتين في الأسبوع، أي ليس بهذه الكثرة. أعني –وأصدقيني القول- من يختزن ملعقة صلصة؟».

ثم نظرت لورا تجاهي، وبدا عليها تشوش صادق، وقالت: «فلتتحلي بالجدية يا د. جلدنر، لو فعل زوجك ذلك لفعلت الأمر نفسه، لفعل أي أحد ذلك».

كنت غافلة تمامًا عن أن لورا تتصرف بذلك الأسلوب، إن أحد مزالق العلاج النفسي هو أن المعلومات تأتينا عبر فلتر المريض، الذي قد يكون راويًا غير موثوق، فإذا أبلغنا المريض أن الأمور تجري على ما يرام فليس ذلك سوى منظور واحد، ولو نظرنا من منظور آخر في هذه الحالة لرأينا أن مزاجها جامح، إذ كانت عائلة لورا تتعامل مع الأمور كلها بواسطة الصياح والمجابهة، وسرعان ما ينحون ذلك جانبًا ويمضون قدمًا، ومن الغريب أن أباها لم يعاقبها قط حين تهشيمها لزجاجات الخمر خاصته أو سكبها في البالوعة، أو حين ذهابها إلى الحانات التي يسكر فيها وصياحها به أمام الآخرين، لقد بدا أنه يشعر بالارتياح لوجود من يتولى زمام الأمور، لذا حين تولت لورا أمر العشاء الأول احتارت في سبب عدم اتباع ستيف لقواعدها وابتهاجه بتولي مسؤوليات كثيرة.

اقترحتُ أن ننظر إلى العقيد بوتر باعتباره معيارًا للسلوك الطبيعي، ومن العجيب أنها متى ما استحضرته في ذهنها اقتدرت على التصور التام لما سيقوله، وكان هذا يعكس صورة الوضع الطبيعي، لذا جعلتها تلعب دوره، فقالت (بنبرة العقيد بوتر): «ستيف، رجاءً لا تترك كمية ذرِّية من الطعام في الثلاجة إذ من السهل أن يلتبس عليَّ الأمر فأحسبها علبة كافية لوجبة كاملة، أنا متفهمة لرفضك التبذير، لكن هذا يربكني».

كانت المشكلة أن الكلام البسيط بدا للورا كمسلسل تلفزيوني سخيف، واعتبرت أن ذلك لا تأثير له على كيفية تفاعل الشريكين مع بعضهما، لذا أخبرتها أن تفعل أمرين اثنين، أما الأول فهو أن تزيِّفه حتى تتقنه، وذكرتها بأنها منحدرة من بيت معطوب وأن السلوك الطبيعي يبدو غريبًا ومصطنعًا، لكن لو تواصل فعله فحسب سيبدو لها طبيعيًّا بمرور الوقت، أما الثاني فقد أخبرتها بأنها متى ما شعرت بالغضب فينبغي أن تتذكر أن الغضب دفاع، وليس شعورًا، وأن تحلل ما هو الشعور الذي يستره الغضب.

أخبرت لورا ستيف أنه لو يعود للبيت ستفعل كل ما بوسعها لتتحكم في ثوراتها المزاجية بل سترتدي سترة الكريسماس أيضًا، فعاد للبيت مشترطًا وجوب أن تتخذ بعض الخطوات في كيفية تعاملها مع الإحباط.

***

ثم ظهرت مشكلة أخرى ليس لها صلة معتبرة، لقد رغب ستيف -الذي يعمل لدى شركة ضخمة للتقنيات- في إنشاء شركته الخاصة مع محلل حاسوبي آخر، لكن لورا خافت من تلك المخاطرة، فلطالما كان التغيير اضطرابًا وخسارة بالنسبة لها، فمتى ما حدثت أمور جديدة في طفولتها -التنقل بين ثمانِ مدارس في المرحلة الثانوية، بيت التبني، الانعزال في الشمال، الجدان الدنيئان، التنقل المتواصل- كان هذا معناه ضغوطًا نفسية، إلى جانب أن جميع أفكار أبيها المهنية الهوجاء قد فشلت نتيجة سوء التخطيط، ثم يرغب ستيف الآن في أن تمنحه مباركتها قبل أن يترك وظيفته الموثوقة.

في نهاية المطاف منحته لورا المباركة على مضض، ثم تعجبتُ خلال جلستنا مما حدث لستيف الصلب الذي جاهد للحصول على وظيفة **ثابتة**، فأشرت إلى أنه لا يقوم بمجازفات غير ضرورية، وأن هذه مخاطرة محسوبة، وأنه ليس طائشًا، بل واثق بنفسه بما يكفي لتأسيس شركته الخاصة، وبعبارة أخرى إن تصرفاته متزنة، ولو ترعرع المرء داخل عائلة تؤدي وظائفها أداءً سليمًا لوجد سلوك أبويه نموذجًا يحتذي به ولكبر متشرِّبًا الأسلوب الطبيعي للسلوك الشخصي، ولكنني طمأنتها بأنها سريعة التعلم، وحثثتها على النظر إلى كل ما أتقنته منذ أول جلسة لها قبل خمس سنوات.

ارتقت لورا في نهاية المطاف إلى **الوضع الطبيعي**، وفقًا لتسميتها، وسار عمل ستيف على ما يرام، كما اقترح أن يتزوجا في الكريسماس التالي، آنذاك تحتم على لورا تقديم أسرتها لأسرة ستيف، وقد سبب لها هذا الترقب أول نوبة هربس في تلك السنة، دعت لورا الأسرتين لتناول عشاء الشكر في منزلهما، وظلت تدعو ألا يأتي أبوها سكران، وألا يكون كريج منتشيًا بالمخدرات، وألا تدخل تريسي في وضع الشكوى والبكاء، ولقد أصر والد لورا على إحضار ديك رومي لعشاء الزفاف نظرًا لأن لورا، وستيف، وعائلة ستيف هم من تحملوا تكاليف الزفاف (بدت تلك صفقة عادلة بالنسبة إليه)،

ثم أخبرتني لورا أنه وصل متأخرًا قبل أن يبدؤوا في الأكل بربع ساعة فحسب، ثم أسقط كيس الديك الرومي المجمَّد على المنضدة.

فقلت (متصورة مدى إحراجها): «يا إلهي!».

فقالت: «ربما صرت أكثر طبيعية، لكنني لست غبية، كنت قد طهيت ديكًا روميًا محشوًا، وحفظته في الفرن ليكون جاهزًا للأكل، آنذاك شكرته، وأخذت كيس الديك الرومي ورميته في مجمد الثلاجة، ثم بدأ العرض».

***

انتظرت لما بعد زفاف لورا كي أشير إلى أن عملنا قد انتهى، فاغرورقت عيناها بالدموع، لكنها أومأت بالموافقة، كانت لورا منتفعتي الأولى، والأطول مدة، كنت أمًّا وأبًا لها في بعض الأحيان، وتشاركنا معًا كثيرًا من الضحكات والآلام الشديدة في أثناء ما كان كل منا ينمو نحو دوره.

كان سلوك لورا في الجلسة الأخيرة رسميًا، شأنها شأني، ثم ابتسمت وتصافحنا قبل مغادرتها، لكنني بعد ساعة ذهبت إلى غرفة الانتظار فوجدتها هناك منتحبة، وحولها أكوام من المناديل الورقية، فعانقتني، ثم احتضنتني احتضانًا طويلًا قبل رحيلها إلى مغامراتها المنتظرة، ولقد اغرورقت عيناي بالدموع أيضًا.

ما من معالج نفسي ينسى مريضه الأول، فهذا أشبه بولادة طفلك الأول، وما من تعليم يستطيع تجهيزك للإبحار في تلك المياه المجهولة، لقد كنا شخصين لا تربطهما أي صلة في هذا العالم ثم صارت بيننا الآن رابطة الطبيب والمريض، وتقلد كل منا دورًا مختلفًا، وحين ترى مريضك الأول جالسًا قبالك، باديًا عليه الطموح والاستبشار، ترتطم بمسؤولية المهمة التي تحملتها، لقد سلمك أحدهم حياته، ودورك هو تحسين تلك الحياة.

***

كانت لورا أول بطل أقابله في مهنتي -وليست آخر بطل-، لقد اقتدرت في سن التاسعة على العيش في غابة لستة أشهر برفقة أخوين صغيرين، لم يكن لديها نموذج تحتذي به، ولا راشد واحد تقتدي به وتستمد منه النصح والإرشاد، ورغم ذلك لم تستسلم، لقد نفذت إلى التلفزيون وانتزعت العقيد بوتر من «ماش»، ثم درسته جيدًا، ثم قلدت سلوكه، وتطلب ذلك مزيجًا نادرًا

من الإبداع والخيال. من المثير للاهتمام أن لورا اختارت زوجًا -ستيف- شبيهًا إلى حد مدهش بالعقيد بوتر في أسلوبه الهادئ الرزين المطمئن.

إن عزيمة لورا، إلى جانب شجاعتها وصلابتها الفطريتين المتمثلتين في عدم الفتور مهما قابلت من عقبات، كل ذلك جعلها مناضلة حقة، وساعدها في ذلك ما لديها من مواهب فطرية، كالجمال، والذكاء، والطبع المقاتل، بالإضافة إلى كونها أول مولودة بالأسرة، فلقد توجب عليها أن تكون الأم لأنها الأكبر، واختارت أن تكون (الشخص المسؤول)، كما فطنت لأخطاء أبيها وأدركت كيف تستقبل القدر القليل الذي لديه من الحب، وتتعامل وفقًا له.

***

كانت لورا تراسلني من حين لآخر بعد انتهائها من العلاج النفسي، ثم تلقيت ظرفًا بريديًا بعد مرور ست سنوات على جلستنا الأخيرة، بداخله مقال إخباري لإحدى الصحف عن العقيد بوتر:

لوس أنجلوس: هذا الأربعاء أسقط قاضي «محكمة بلدية لوس أنجلوس» West Los Angeles Municipal Court دعوى ضرب الزوجة المرفوعة ضد الممثل هاري مورجان، كان القاضي قد وعد بإسقاط القضية بشرط التحاق نجم «ماش» بأحد برامج مشورة العنف وإتمامه، وقد أتم هاري مورجان برنامج مشورة مدته ستة أشهر للعنف المنزلي وإدارة الغضب.

هذا وأرفقت لورا بذلك المقال ورقة لاصقة مكتوب عليها: «اختياراتي عظيمة كالعادة».

وبعد بضع سنوات تلقيت صورة لقارب صيد ضخم، وعلى ظهرها التوقيع الآتي:

كنت أستمع البارحة إلى أغنية «بوبكايجون» لـ «فرقة تراجكلي هب» Tragically Hip فتذكرت حين كان رون -الأب الذي تبناني- يصطحبنا للصيد فجرًا، ورؤيتنا للكواكب والنجوم المتجلية في السماء، كما تصف الأغنية، ورأيت أنك ستعجبين بهذا القارب الذي اقتدرت على شرائه لرون، الأحلام تتحقق فعلًا!

كانت المرة الأخيرة التي قابلت فيها لورا حين أخبرتها أنني سأذكرها في كتابي الذي يدور حول البطولات النفسية، ورتبنا موعدًا نلتقي فيه بأحد المطاعم، فميَّزتُها فور دخولها، فلقد بدت بالهيئة ذاتها التي كانت عليها منذ عقود، شعر ممشط باحترافية وثوب غاية في الأناقة، ولا تزال متحلية ببريقها بعد كل هذه السنين وتلفت الأنظار في المطاعم، ثم حين جلست اغرورقت أعيننا بالدموع.

أخذت تطلعني على آخر أخبار أسرتها وخلال ذلك أعلمتني أنها ما زالت تعيش في سعادة مع زوجها ستيف، الذي صار ناجحًا للغاية في ميدان الشركات الحاسوبية، وأنهما أنجبا ولدين، أحدهما قد تخرج في «مدرسة رابطة اللبلاب» Ivy League وحصل على شهادة الهندسة ثم أنشأ شركته الخاصة، أما الآخر فقد صار محامي تقاضي في تورونتو (فقلت إنني أعلم يقينًا من أين جاءت قدرته على الجدال).

هذا وأخبرتني أن أباها توفي بالسرطان قبل أربع سنوات تقريبًا، وبكت وهي تخبرني بهذا، ووصفت أنها مكثت داخل المستشفى بـ «مدينة سوساينت ماري» Sault Ste. Marie لأسابيع عديدة قبيل وفاته، وأنه في الشهر الأخير لم يستطِع التعرف على أحد سواها، كما قالت وسط الانتحابات إنه حين مات شعرت أن جزءًا منها قد رحل معه، ثم علت لورا بناظرها إليَّ وقالت (بعدما رأت على الأرجح تعابير وجهي): «أعلم أنك تظنين أنني مجنونة لتعلقي الشديد به، أعلم أنه كان لديه عيوب ضخمة، لكنني اخترت التغاضي عنها واستقبال ما بمقدوره منحه فحسب»، ثم سكتت هنيهة ثم أضافت (بنبرة الصلابة التي أعرفها جيدًا): «لقد وُلدتُ مقاتلة، وقد قاتلت لإبقائه في حياتي».

سألتها عن سبب ملازمتها القرب الشديد منه طيلة حياتها رغم ما فعله، فتذكرت مجددًا مشهد مستشفى الطفولة حين أعطاها تلك الرسالة المتمثلة في أنه يحبها لصلابتها وعدم شكواها من قدمها المجروحة، وقالت: «قلت لنفسي: أيًّا ما كانت المهمة فبمقدوري فعلها، ولطالما حصلت على حبه في

المقابل، أكان أفضل أب في جميع الأحيان؟ **كلا**. لكن هل منحني كل الحب الذي لديه؟ **أجل**».

هذا ورأت لورا أنها لو لم تتلقَّ العلاج النفسي لتزوجت بشخص لا يعول عليه مثل أبيها، ولم تكن لتتزوج ستيف وتعايش حبه غير المشروط، ثم قالت: «ستيف هو ملجئي في الأزمات، وهو الذي يخبرني على الدوام بأنني لست مضطرة إلى أن أكون مثالية وحياتي خالية تمامًا من الأخطاء، بل ويخبرني أنه يحبني لشخصي، وأن الاجتهاد هو أحد جوانبي التي يحبها».

حين سألت لورا هل هي نادمة على شيء قالت إنها تتمنى لو أنها نضجت نضوجًا شديد السرعة ولم تصبح عبدة لاستبداد ضبط النفس، إذ أن السعي للمثالية مرهق، وأدركت أنها خسرت الطفولة الخالية من الهموم التي حظي بها ولداها، لكنها قالت إنه لو أتيحت لها فرصة عيش الحياة من جديد لرفضت أن تكون الحياة مختلفة بأي شكل من الأشكال.

فارتبت من ذلك وقلت: «حقًّا؟».

فرفعت لورا يديها محتجة وقالت: «أنصتي فحسب لما قدرتُ عليه في العقود القليلة الماضية وستفهمين ما أقصده، دعيني أبدأ بأخي كريج»، ثم وصفت أنه مات كما عاش، وحيدًا، بهدوء خلال نومه، في سن السادسة والأربعين لسبب مجهول، ثم عقبت ذلك بقولها: « كانت حياته حزينة».

أما تريسي -الأم التي تربي بمفردها ثلاثة أطفال، أحدهما لديه درجة طفيفة من الإعاقة العقلية- فقد صارت مدمنة خمر، وزنها أقل من أربعين كيلو جرام، وتعيش بالمعونة الاجتماعية، في ذلك المنزل الريفي بعد انتحار الأب.

ذات يوم حين كانت تريسي تجمع الخشب للوقود انجرحت ساقها بمسمار، فتجاهلت الجرح الذي تطور بالعدوى وأدى في نهاية المطاف إلى مرض تآكل العضلات، مما تسبب في بتر كلتا ساقيها، ثم بعد بضع سنوات توفيت هي أيضًا خلال نومها، وعقبت لورا: «قال الأطباء إن قلبها متضخم نتيجة شرب الخمر والتدخين، أعتقد أنها استسلمت، أنا الوحيدة التي ما زلت حية من بين جميع أفراد الأسرة».

تبنت لورا وستيف أطفال تريسي الثلاثة خلال المرحلة المدرسية، كما منحاهم كل عون اقتدرا عليه، ولقد كانوا جميعًا ذوا «احتياجات خاصة» بشكل

أو بآخر، لكن لورا كرثت وقتًا كبيرًا لتلبية تلك الاحتياجات، وقالت: «تعلمين أنني حين أركب موجة النجاح لا أستطيع التوقف، لقد أنشأت مؤسسة لخدمة المصابين بالتلف الدماغي وجمعت التبرعات لها، كما حصلت على جميع الجوائز الممكنة لقاء الجهود التي بذلتها في هذا المجال، ويصر ستيف على تعليقها في حجرة المعيشة، وهو أمر محرج للغاية.

إذن، كما ترين، أنا مسرورة نوعًا ما لأنني عشت حياة أوجبت عليَّ إصلاح الأمور وإنجاحها، وتعلمت في صغري أنه لن يفعل أحد ذلك نيابة عنك، صار لدي الآن شركات راعية، تطلب الأمر مني سنوات عديدة لضمها، ثم منحوني موافقتهم في نهاية المطاف، لأنني لم أستسلم قط مهما حدث». (وجدت نفسي أتمنى أن لو يسمع تلك الكلمات مرضاي المتذمرون من الأحداث الهينة التي عاشوها في طفولتهم).

في أثناء انتظارنا للفاتورة أوضحتُ للورا سبب رؤيتي أنها بطلة، لكنها قاطعتني قائلة: «أتعلمين، أظن أن موضوع بطولتي هذا كله قد ترك بداخلي أثرًا»، ثم تلت عليَّ القصة الآتية: «في إحدى حفلات العشاء الخاصة بالشركة علق أحد شركاء زوجها بأنها محظوظة نظرًا لأنها قد «ترقت بهذه الزيجة»، فقالت لي بنبرتها الجسورة المميزة: «انزعجت بشدة من ذلك، لو أنني سمعت ذلك قديمًا لشعرتُ حينها بأنه قد اكتشف أسراري الصادمة، ولشعرت بالخزي، لكن الآن هيهات هيهات أن تراودني تلك المشاعر»، ثم أخبرتني أن ذلك الرجل قد حظي بأبوين ثريين وداعمين ألحقاه بمدارس خاصة، ورحلات ممولة لأوروبا، كما دفعا له تكاليف جامعة مرموقة، فلا عجب أنه صار مدير شركة، لقد ردت على هذا الشخص قائلة: «أتعلم، الحياة عبارة عن غابة، وقد سلكها راكبًا «سيارة البابا[1]»، أما أنا فقد تجولت في أدغالها مشيًا على الأقدام، وبفأس صغير شققت طريقي في قلب الظلام، عبر مستنقعات ملأى بثعابين وتماسيح، واكتسبت معرفة هائلة عن تلك الغابة، معرفة لا يقدر على اكتساب عُشرها ولو حاول طيلة حياته، فلقد اضطررت إلى دخولها بمفردي، وسلكت كل المنعطفات الخاطئة حتى أحطت علمًا بمسالكها ذهابًا وإيابًا، ثم في نهاية المطاف خرجت منها على قيد الحياة، أود رؤيته وهو يفعل ذلك،

---

(1) هي مركبة ذات تصميم خاص يستخدمها بابا الكنيسة الكاثوليكية خلال المناسبات العامة. (المترجم)

ربما لا يُعد ذلك عملًا بطوليًّا، لكنه إنجاز ضخم، لذا يا حبيبي إياك وقول إنني ترقيت بهذه الزيجة!».

فسألتها: «لم تظنين أنك اقتدرت على الخروج منها في حين عجز كل من أختك وأخيك؟».

ظلت تفكر طويلًا ثم قالت: «أظن أنني وُلدت ببعض السمات المعينة، ثم صقلها أبي ومنحني ما لديه، وأظن أن ما لديه كان كافيًا، لا تنسي أنه حين كان يسكر كنت أنا من أحل المشكلات، وكان يمدحني لذلك، **وأي** مدح يدفعني دفعة كبيرة إلى الأمام، كما إنني كنت الابنة الكبرى، فتعين عليَّ الانتباه لكل كبيرة وصغيرة تجري حولنا وأن ألتقط منها ما أحتاجه، بالإضافة إلى أن تلقي خمس سنوات من المساعدة المتخصصة قد أحدث فرقًا كبيرًا، فلقد كنت قبل العلاج النفسي غافلة تمامًا عن دوافعي»، ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: «كي أصدقك القول فكل ما في الأمر أن كريج وتريسي لم يحصلا على ما كانا بحاجة إليه، لو بقيا برفقة رون وجلندا -الأبوين المتبنيين- لكان حالهما أفضل بكثير».

بعد ذلك خرجنا من المطعم إلى النسيم الخريفي البارد ومنظر الأوراق الخريفية البارقة في ضوء الشمس الغاربة، فقالت لورا: «كدت أنسى إخبارك بهذا الحدث الغريب الذي وقع السنة الماضية، لقد تذكرتك لحظة حدوثه: كانت شركة ستيف راعية لأحد الأنشطة في مسرح كبير بتورونتو، وجاءت سيارة ليموزين لاصطحاب المديرين وأزواجهم من المطعم إلى المسرح، وحين انفتح باب الليموزين وجدت المئات من رواد المسرح مصطفين وحولهم المتسولون الذين يشحذون الفكة، كان أحدهم ذا شعر أشعث تملؤه الشحوم ويبدو مألوفًا لي»، ثم سكتت هنيهة ثم قالت: «لقد كان إد، فمضيت في طريقي مباشرة وتجنبت التواصل البصري كيلا أحرجه، ثم جمع المصور الجهات الراعية لالتقاط الصور الإعلامية، وحين انتهى التصوير اختلست نظرة لمكانه، لكنه كان قد رحل».

صمتت لورا هنيهة ثم قالت: «وجدتني هناك واقفة بين حياتين على طرفي نقيض».



«تتبدل الوحدة أُنسًا فور سماع الموسيقى».

- روبرت دراوننج

«الأعمال الشعرية الكاملة لدراوننج»

The Complete Poetical Works of Browning

1

محبوس

إن علم النفس شبيه بعلم الآثار في كثير من النواحي، فحين تحفر وتتعمق في الطبقات، ثم تنفض الغبار بحرص عن الأثريات المستخلصة، تعثر في نهاية المطاف على عالم مدفون بأكمله، عالم أشد غرابة من الخيال.

عام 1986 تلقيت مكالمة من أحد أطباء جراحة المسالك البولية متخصص في العجز الجنسي، وأخبرني أن لديه حالة غير مألوفة، أنه يحيل إليَّ رجلًا صينيًّا في الرابعة والثلاثين من العمر اسمه بيتر تشانج، يعاني العجز الجنسي، رغم أن بيتر كانت حالته الجسدية طبيعية، وقادرًا على الاستمناء والشعور بالنشوة الجنسية، فلم يقتدر قط على الانتصاب بأي شكل في وجود امرأة، ولقد انصعق طبيب المسالك حين أبلغه بيتر بنتيجة الدواء القوي الذي كان قد أعطاه له ليحقنه في قضيبه قبل ساعة من الجماع: «على مدار سنوات عملي كلها لم أرَ هذا الدواء يفشل قط إلا عند وجود مشكلة في الأوعية الدموية»، لكن بيتر لم تكن لديه أي من هذه المشكلات، بل إن أحد المضاعفات المكتملة لهذا الدواء هو أن يُحدث عكس هذا الإخفاق أحيانًا، بأن يستمر الانتصاب لمدة ثلاثة أيام، لكن هذا الدواء المأمون لم يكن له أي تأثير على بيتر تشانج، فاستنتج الطبيب الآتي: «أيًّا ما كان في رأسه فلا بدَّ أنه شديد القوة ليمنع تأثير هذا الدواء الخارق».

ثم أبلغني أنه أخبر بيتر بأن فريق طب المسالك بعدما أجرى فحوصات مجهدة استنتج أنه ليس لديه مشكلة جسدية في الأداء الجنسي وإنما مشكلة نفسية، وأنه سيحيله إلى إخصائي نفسي، ثم أخبرني الطبيب بأنه سيرسل إليَّ إحالة كتابية واقترح أن نعقد اجتماعات تعليمية معًا إذا تمكنت من اكتشاف السبب الخفي لهذه المشكلة، التي تركتْ فريقه بأكمله مشدوهًا، ثم قال في توقيعه: «هذه حالة مدهشة، حين يظن أحدنا أنه أحاط علمًا بكل شيء إذ بشخص يأتي ليثبت أنك لا تعلم شيئًا عن الظاهرة الإنسانية».

رغم أن هذه الإحالة جاءتني قبل اختراع الفياجرا فقد كان لدي في السنوات الأخيرة أيضًا مرضى يستخدمون الفياجرا لكن دون أي جدوى مهما كانت الجرعة (وقد طمأنني طبيب المسالك بأن تأثير الفياجرا يعد بسيطًا مقارنة بتلك الحقن القديمة)، إن أدوية العجز الجنسي لا تجدي نفعًا إلا عند وجود مشكلة جسدية، يجب أن تتناغم النفس مع الجسد في أي استجابة جنسية، ولن يؤدي أي ازدياد في جريان الدم إلى حل المشكلات النفسية.

***

كنت متلهفة لتلك المقابلة، لذا حجزت لبيتر أقرب موعد متاح، وحين دخلت غرفة الانتظار وجدت رجلًا صينيًّا متوسط الحُسن، رقيق الصوت، يلبس زيًّا غير مميز، عبارة عن بنطال جينزي، وحذاء رياضي، وتيشرت أسود مطبوع عليه صورة إحدى دراجات السباق البخارية، ثم حين دخل مكتبي قدم إليَّ تاريخه بأسلوب تفصيلي لكن دون تواصل عيني، كما سرد بعض التفاصيل المزعجة كمن يقرأ بحثًا أكاديميًّا، وليس كشخص يتحدث عن نفسه.

كان بيتر يعمل موزع إيقاع في فرقة يعمل معها منذ خمسة عشر عامًا، وكان يحسن دخله بوظيفة نهارية في إصلاح آلات البيانو، هذا ويعيش بمفرده في شقة وليس لديه أشخاص معتبرين في حياته، ثم حين سألته كيف يمكنني مساعدته أجاب قائلًا: «أنا وحيد، وأرغب في تكوين علاقة مع امرأة، لكنني مهما حاولتُ أعجز عن تحقيق ذلك».

فسألته هل يقصد العلاقة الجنسية، فأجاب بهدوء وهو ينظر أرضًا: «أجل، أنا غير قادر على الجماع، لكنني أرغب أيضًا في علاقة وجدانية، أريد شخصًا أتكلم وأشارك الأمور معه».

وحين سألته هل سبق أن حاول تكوين علاقة أجاب بأنه قد فعل، لكن بطريقة محدودة جدًّا فحسب، ثم أضاف بابتسامة مُحرَجة بعض الشيء: «معظمها في ذهني».

أخبرت بيتر أنه مهما كانت المشكلة فدائمًا ما يجمع الإخصائيون النفسيون معلومات عن تاريخ عائلة المريض، لأن تلك العلاقات تُشكل أحجار البناء لعلاقاته الأخرى، فأخبرني أن والديه الصينيين سافرا إلى كندا من فيتنام عام 1943، ثم أنجبا طفلين بحلول عام 1952، وأن أخته -التي تكبره بأربع سنوات- متزوجة ولديها طفل، كما كان بيتر حريصًا على الإشارة إلى أن زوج أخته لم يكن صينيًّا.

توفي والد بيتر حين كان في التاسعة من عمره، وحين سألته عن التفاصيل عبس، وأخذ يبحث عن الكلمات، وفي نهاية المطاف وصفه بأنه «نوع من الانتحار، كان أبي مصابًا بمرض السكري ورافضًا للحرص في أكله، كما كانت أمي تُعد له الحلوى يوميًّا وتُخبره بأن موعد موته قد حان، ثم أصيب بسمنة مفرطة ولم يعد قادرًا على المشي بقدميه المتورمتين، فظل قعيدًا، ويغلي من الداخل في صمت، لسنوات عديدة فيما أظنه اكتئابًا، وفي نهاية المطاف أصيب ذات يوم بنوبة قلبية ومات».

حين تعاطفت مع بيتر بقولي إن وفاة أبيه وهو في سن التاسعة أمرٌ مؤلمٌ قال: «كنت حزينًا، لكن أمي قالت إن موته أفضل للأسرة».

لقد وصف بيتر شوق أمه لوفاة أبيه، ثم إطعامها له الحلوى وهو مصاب بالسكري لتسريع العملية، وتعبيرها في النهاية عن موته أخيرًا كأن ذلك طبيعي، أما أنا فقد انصعقت من سلوك أمه الشرير، لكنني لم أرد التعبير عن هواجسي في الزيارة الأولى، إذ كنت بحاجة إلى تشييد الوئام العلاجي مع بيتر وجمع تاريخ الحالة، فأشرت -بأسلوب شديد اللطف- إلى أن أمه كانت قاسية بعض الشيء، لكن بيتر دافع عنها قائلًا: «كانت أمي تريد الأصلح لنا وتعمل ثلاث وظائف ذوات دوام كامل»، وحين أشرت إلى أن ساعات اليوم لا تتسع لتلك الوظائف أجاب بأنها كانت تفعل اثنتين في الوقت نفسه وبعد ذلك تتجه إلى الثالثة، لقد كانوا يمتلكون المطعم الصيني الكندي الوحيد في مدينة صغيرة بـ «محافظة أونتاريو» Ontario اسمها «ميناء الأمل» Port Hope، وهو اسم اتضح لاحقًا أنه مفارقة ساخرة.

أخبرني بيتر خلال حديثه أن أباه كان طباخ المطعم في حين كانت أمه تقوم بدور النادلة وتفعل كل ما يلزم للحفاظ على سير العمل، وحين يكون لديها وقت فراغ تقوم بأعمال خرزية معقدة لتبيعها في متجر فاخر في تورونتو، كما أنها كانت تزرع أغلب طعامهم (الخضراوات الصينية) في البساتين الشاسعة في أثناء الصيف وتبيعها بالجملة لموردي الأغذية الصينية، ثم سكت بيتر هنيهة ثم قال: «لا يزال بمقدوري تذكر نفسي وأنا أنظر من النافذة، في منتصف الليل، لأرى أمي مرتدية كشاف عمال المناجم، تقطف الخضراوات بيديها وتزيل الأعشاب الضارة لساعات عديدة».

- إلى جانب ثلاث وظائف ورعاية الأطفال أيضًا؟

تردد بيتر، ثم أوضح بهدوء أن أخته كانت تمكث في مهدٍ لها داخل المطبخ كما كان لديها مقعد أطفال في المطعم، ولم يكن مسموحًا لها بالتكلم أو إصدار أي ضجيج، ثم أضاف قائلًا: «لطالما كانت طفلة جيدة، أما أنا فقد كنت غاية في السوء، حين كنت صغيرًا -دون سن الثانية- كنت أجلس على الكراسي الدوارة وأواصل تدويرها أما أختي فقد كانت تجلس بهدوء في مقعدها، وأتذكر أنني ذات مرة صنعت طائرة من لائحة الطعام وحاولت تطييرها، لكن أمي بطبيعة الحال لم تكن لتسمح بسلوك كهذا في المطعم، فهذا يزعج الزبائن وهي مرهقة ونافدة الصبر، كل ما في الأمر أنني كنت جامحًا».

أشرتُ إلى أن الصبيان غالبًا ما يكونون أكثر نشاطًا من الفتيات وأن سلوكه كان طبيعيًا ليس إلا، فأومأ برأسه بلطف ثم كرر شعاره: «لقد فعلت أمي الأفضل للأسرة»، حينئذ لاحظت أنه قد تشرب رسالة أمه، مقتنعًا أنه كان «غاية في السوء» لفعله ما يفعله كل صبي طبيعي في تلك المرحلة العمرية، ثم حين سألته عما فعلته أمه حيال سلوكياته تلك رد قائلًا: «أقصى ما أتذكره -باستثناء الذكرى الوحيدة المتعلقة بتلك الطائرة- هو أنها حبستني بمفردي في سقيفة المطعم، وكانت توصل إليَّ طعام اليوم في الصباح، وفي المساء تحملني في أثناء نومي لنعود للبيت»، وحين سألته كم طالت تلك العزلة قال إنها استمرت حتى صار في الخامسة من عمره، وعلل بيتر ذلك بأن أمه كانت تحبسه كل يوم لأن أبويه يتوجب عليهما العمل من الثالثة صباحًا حتى منتصف الليل.

التقطت أنفاسي واعتدلت في جلستي، مدركة أن أمامي حالة نادرة، رجل ظل محبوسًا معظم المراحل الحرجة في طفولته، لقد افترض إريكسون وجان بياجيه -وهما اثنان من رواد علم نفس الأطفال- وجود مراحل حرجة في نماء الطفل، كل مرحلة مبنيَّة على ما سبقتها، إذا كان بيتر قد تعرض للعزل قبل بلوغ سن الثانية حتى بلوغه الخامسة فسيلاقي صعوبة في اللحاق بالركب، فلقد فاتته المراحل الأولى وهي: التعلق، والترابط، والنماء اللغوي، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، في أثناء الطفولة يكون لدينا ما يسمى بـ «النوافذ المفتوحة»، التي نتعلم من خلالها بعض المهام الحساسة للوقت، وتلك النوافذ تنغلق شيئًا فشيئًا، فإذا فوت الطفل إحدى هذه المراحل زمنًا طويلًا يلاقي صعوبة هائلة في تعويضها، وكذلك فالأطفال الذين تعرضوا لعزل تام -على سبيل المثال- لا يقتدرون غالبًا على تعويض القصور اللغوي.

بعدما استوعبت معلوماته الصادمة صرت أنظر إلى بيتر من منظور مختلف تمامًا: لدي مريض عجزه الجنسي ليس سوى غيض من فيض، وإذا أشعرته أنه غير طبيعي سيرتعب، لذا تقدمت متوخية الحذر وطلبت منه وصف ما يستطيع تذكره بشأن عيشه وحيدًا في تلك الفترة.

فقال: «كان الجو باردًا في الشتاء وشديد الحرارة في الصيف، كانوا يتركونني في المهد، وأتذكر بوضوح اليوم الذي تعلمت فيه رفع ساقي فوق الحواجز الجانبية والخروج من المهد، شعرت بالسعادة، لكنني ما لبثت أن حزنت حين وجدت الباب مقفلًا».

-ما الذكرى المتقدة لديك بشأن تلك الفترة؟

رد بيتر قائلًا: «تلك ذكرى محرجة، لكنني أريد الصدق»، ثم أكمل واصفًا اضطراره إلى استخدام علبة صلصة فارغة ليتغوط فيها، وذكر أنها كانت علبة صفيحية صغيرة الحجم ذات حواف شديدة الحدة لدرجة أنه لم يكن يستطيع الجلوس عليها، وعبر قائلًا: «كنت شديد القلق خلال ذلك لأنني إن أخطأت التصويب غضبت أمي، وإن جرحت نفسي غضبت أيضًا».

فقلت: «نظام مرحاضي لا فوز فيه».

بدت على وجهه ابتسامة صغيرة واتفق مع ما قلته، ثم تبدل وجهه إلى القناع الأصلي وقال: «أتذكر ارتعابي من تلك العلبة لأنني حين كنت أتسبب لأمي في جهد زائد كانت تضربني بسوط خيزراني يسبب لي نزيفًا وندوبًا».

وحين قلت إن ذلك يبدو أليمًا شدد بيتر على ترنيمته المتمثلة في أن أمه لم يكن لديها خيار إذ كانت تسعى لكسب قوت العيش، ولم يكن بوسعها إهدار الوقت معه، ثم تجهم وقال: «لقد أبرحتني ضربًا حين قشرت جزءًا من طبقة العازل الحراري لأرضية الشقة كي أصنع دمية منه، كنت راغبًا في شيء أحمله وألعب به ليس إلا».

تدخلتُ وقلت إنها لو أعطته دمية لساعده ذلك، فرد بيتر بأنهم كانوا فقراء، وأن كل المهاجرين الصينيين تحتم عليهم تقديم بعض التضحيات، فقد كانت هذه الطريقة الوحيدة للنجاة في كندا.

مما لا شك فيه أن هذا لم يكن صحيحًا، لم يكن المهاجرون الصينيون مضطرين إلى حبس أطفالهم في سقيفة بمفردهم لثماني عشرة ساعة في اليوم، لسبعة أيام في الأسبوع، لبضع سنوات، بل كان بيتر -كما كانت لورا من قبله- يطبِّع سلوك أبويه المرَضي، لقد بدا الإهمال طبيعيًا في نظرهما كما كانا راغبين في حماية ولي أمرهما.

***

مع تتابع جلساتنا شرعت في سؤال بيتر عن تفسيره لتجارب المهاجرين الصينيين، وفي نهاية المطاف سألته هل يرى حقًا أن كل الذكور الصينيين حُبسوا في غرف طيلة السنوات الخمس الأولى من عمرهم، وإذ به يصعقني برده الهادئ: «كانت تلك غلطتي، كنت ألعب بالكراسي الدوارة المحيطة بالطاولات وأركض في أرجاء المكان، ولم تكن أمي لتتحمل أن يراني أحد الزبائن هكذا، لقد تعلمت أختي الجلوس الهادئ، لكنني لم أفعل»، كان من الجلي أنه لم يكن مستعدًا لرؤية ما يوصف ببساطة بأنه انتهاك وإهمال للطفل.

لقد كانت أقوى ذكريات طفولته -الذكرى الوحيدة التي استطاع تصنيفها بأنها ذكرى سعيدة- هي رؤيته لأمه من نافذة السقيفة في الصيف وهي جالسة على السلم الخلفي للمطعم تقطع الخضراوات، وأنها كانت تصعد أحيانًا إلى الطابق الثاني لإحضار حقيبة من الأرز المخزن، وسماعه صوت خطواتها وتلهفه لمجيئها إلى سجن سقيفة الطابق الثالث، ووثبات قلبه الآملة في قدوم أمه إليه، لكن ذلك كان نادرًا جدًّا (لم تكن تأتي إلا بعد منتصف الليل

لتحمله إلى بيتهما الملاصق للمطعم، ثم بعد الفجر تحمله -وهو نائم- للعودة للعمل)، ثم غرقان قلبه في اليأس حين نزولها عائدة للمطعم.

ثم قال متذكرًا تلك السنوات: «كان أسوأ شيء هو الوحدة، إذ كان الضرب والبرد زائرين عابرين، أما الوحدة فقد كانت دائمة، لم يفارقني هذا الشعور الموجع قط».

ثم تذكر رؤيته للسناجب التي تتسلق على الأشجار واستجدائه لهم للمجيء إلى نافذته، وعبَّر قائلًا: «لم أكن أعلم أي كلمات، لكني أتذكر تعلمي كلمة **الوحدة** بعد زمن طويل من مغادرتي السقيفة، في سن السابعة أو الثامنة تقريبًا، حين كنت أشاهد مسلسل «الرجل الأخضر الخارق» The Incredible Hulk على التلفزيون، حين قال إنه وحيد لأنه اضطر إلى العزلة كيلا يكتشف أحد أنه الرجل الأخضر، كما كانت الموسيقى عند انتهاء المسلسل -حين اضطر إلى فراق المدينة- حزينة جدًّا، أتذكر أنني انصعقت بمعرفتي أن الآخرين يشعرون بالوحدة مثلي، كما اكتسبت حينئذ كلمة، وسمًا اسمه **الوحدة**، لذلك الشعور البغيض».

مع استمرار جلساتنا العلاجية سألت بيتر هل سبق أن فعلتْ شيئًا لطيفًا له، فقال إنها ذات مرة أهدته لعبة بيانو أبيض صغير، لكن أخته أخبرته بعد سنوات عديدة أنه ذات يوم جاء بعض الزبائن للمطعم وبرفقتهم طفل صغير ثم نسوا هذا البيانو هناك، لقد كان البيانو وعلبة الصلصة كل ما لديه طوال السنوات التي قضاها في تلك السقيفة الحقيرة، ولقد عبر قائلًا: «لقد أحببت البيانو وتظاهرت أنه صديقي».

حين سألت بيتر كيف كان البيانو صديقه رد قائلًا: «كان اسمه بيتر الصغير، لم أكن أعلم أي اسم آخر، لأنني لم أقابل فتى غيري قط باستثناء أبي، ورغبت في أن يتحدث معي بيتر، لذا أخذت أعزف به وأتظاهر أن الرنين المعزوف حوار يجري بيننا، كنت مقتدرًا على إحزان بيتر الصغير وإسعاده (كلما سمعتُ أغنية جون هاريسون «حين ينتحب جيتاري بدموع رقيقة» تذكرت بيتر الصغير).

تحسنتْ حياة بيتر النفسية بعدما حصل على البيانو، فلقد صار لديه صديق عزيز، كما قل جدًّا اعتماده على الأم التي لا يهدأ غضبها وتشعر أنه عبء عليها.

كنت أذهب بين الجلسات إلى المكتبة المرجعية للبحث عن بيانات بيتر الشخصية (كان ذلك في الثمانينيات قبل زمن طويل من الانتشار الواسع للحواسيب)، فاكتشفت أنه ضابط إيقاع مشهور في إحدى الفرق الموسيقية المرموقة، كما أشارت إليه إحدى المراجعات أنه رجل يستطيع جعل الموسيقى تتكلم، أو تنتحب، أو تصرخ، أو تقفز من الفرح، ولقد ذهلتُ من مطابقة تلك المراجعة للواقع نظرًا لما قاله بيتر عن الدور الذي لعبه بيتر الصغير في حياته.

كان بيتر الصغير الصديق الأقرب والوحيد لبيتر، أو «الجسم التعلقي الانتقالي» transitional attachment object إذا ربطنا ذلك بلغة علم النفس، إن تعلق الطفل بأمه شيء معقد لكنه عملية نفسية بالغة الأهمية، ذلك أن الأم -في النماء الطفولي الطبيعي- تكون في بادئ الأمر عالم الطفل بأكمله، ثم -في وقت ما بين السنتين والثلاث- يدرك الطفل أنه منفصل عن أمه ويختبر قلق الانفصال، حيث يبكي حين لا يراها في محيطه، لذا غالبًا ما يتبنى جسمًا يمثل له الأمان الموجود في تعلق الطفل بالأم، ويصبح هو الجسم التعلقي الانتقالي، وعادة ما يكون ملاءة أو لعبة على شكل حيوان، يصطحبها الطفل معه أينما ذهب، خاصة عند خلوده إلى النوم، وبهذا يساعد الجسم الانتقالي الطفل على سد الفجوة بين الاعتمادية والاستقلال.

لكن تعلق بيتر بأمه كان مضطربًا، فهي لم تعبر له قط عن أي مودة، بل تركته وحيدًا وهو غاية في الصغر، ثم حين كبر قليلًا ظلت تعاقبه متى ما جمحت حركته أو علا صوته أو مارس المرح أو جهر بحديثه في المطعم، ما من أحد سمح له بالتعبير عن أي شيء سوى بيتر الصغير، لذا كان ينقل كل شيء للخارج عبره، وبمرور الوقت صار بيتر متعلقًا ببيتر الصغير تعلقًا شديدًا.

نظرًا لأن بيتر لم يقل شيئًا عن والده فقد سألته عن موضع أبيه في الصورة، فرد قائلًا: «لم يكن لأبي أي علاقة بي ولا بأحد في الأسرة، لكنه لم يكن رجلًا سيئًا، ولم يقل لي شيئًا جافًا أو يضربني قط، لم يكن يفعل شيئًا سوى الطهي في المطعم، لكنه كان يستمع بكثرة إلى موسيقى الجاز الأمريكية في الراديو، وكانت الموسيقى في الصيف -حين تفتح شبابيك المطبخ- تصل إلى سقيفتي فكنت أحاول إعادة إنتاجها بواسطة بيتر الصغير، وكنت أستمتع للغاية بالحفلات الموسيقية الصيفية».

حين سألته عما وقع وأحدث تلك الفجوة الكبيرة في علاقة أبويه رد قائلًا: «ادخرت أمي كل مالها المتأتي من الوظائف الثلاث ولم تنفق قط قرشًا واحدًا في شيء غير ضروري، هذا وكنا نستمد جميع ملابسنا -بما في ذلك ملابس أبوي- من أبناء عمومتنا في تورونتو، لم يكن لدينا سيارة، فكانت أمي تمشي في المدينة حاملة حقائب ثقيلة، ولم تستقل حافلة قط، كما كان أبي يذهب إلى تورونتو مرة في الشهر ليجلب لنا الإمدادات، إلى يومنا هذا لست متيقنًا مما حدث بالضبط، لكن أبي في إحدى رحلاته استثمر الأموال في مشروع تافه متعلق بشركة وهمية لاستيراد الملابس فخسرا أموالهما كلها، كانت أمي قد ادخرت 31 ألف دولار والآن تبخر كل شيء».

علَّقتُ في مذكراتي بأن 31 ألف دولار ادخار مذهل في الخمسينيات، وخصوصًا أن أمه لم تكن تتحدث الإنجليزية كما أن متوسط سعر المنزل في كندا كان 7000 دولار تقريبًا، ثم حثثت بيتر على استكشاف المزيد بشأن ما كان أبوه متورطًا فيه، ولكنه كان بالغ الصغر حينها فلم يقدر على التذكر، لم يكن يعلم هل وقع أبوه في مشكلة مخدرات أو قمار أو مجرد سوء استثمار، لم يتضح الأمر قط، استشاطت أمه الكادحة غضبًا، وظلت تعبر كل يوم عن شدة تمنيها لموت زوجها.

تحتم على الأسرة بيع المطعم لدفع ديونهم وبهذا اضطروا إلى البدء من الصفر، آنذاك أخرجوا بيتر -الذي صار في سن الخامسة وقتها- من العزل بعد انتقالهم إلى تورونتو، حيث عملت أمه في مصنع، وكانت تصطحب إلى البيت أعمالًا بأجر إضافي وتظل تكدح حتى منتصف الليل، ثم أسست مجددًا بعض أعمال استيراد الأطعمة، التي لم يفهمها بيتر قط، أما والده فلم يعمل في شيء مجددًا بعد مغادرتهم المطعم، هذا وكانوا يعيشون في أفقر منطقة بـ «مدينة تشاينا تاون» Chinatown داخل بيت أبناء العمومة العدائيين الذين كانوا رافضين لاستضافتهم لكن قبلوا على مضض.

ابتدأ بيتر مرحلة الروضة بعد أقل من شهر في ترونتو، وحين شرع في سرد هذه النقطة بدا متألمًا، أشد تألمًا مما كان في أثناء تحدثه عن انعزاله، ثم قال هامسًا: «رسبت في الروضة، ذلك خزيي الأكبر، لقد قالت أمي إنني غبي وأمثل إهانة لها في المجتمع الصيني».

***

استغرق الأمر بضع جلسات لاكتشاف ما حدث في الروضة، لكن يبدو أن بيتر كان مرتعبًا، نظرًا لأنه نادرًا ما اختلط بالأطفال الآخرين، باستثناء أخته وأولاد عمومته في الأسابيع القليلة السابقة لبداية السنة الدراسية، إلى جانب أنه لم يكن قادرًا على التحدث لا بالإنجليزية ولا بالصينية، لأنه لم يسمع في السنوات الأولى من حياته سوى بضع عبارات كل يوم، ومن الجدير بالذكر أنه وأخته لم يتعلما الصينية قط، مما كان يشعرهما بالحرج خاصة في حفلات الزفاف والمناسبات الرسمية الصينية.

حينما تناقشت في هذا الأمر مع الخبراء اللغويين أخبروني أن الطفلين إما أنهما تلقيا معاملة شديدة السوء لدرجة منعتهما من استقبال اللغة، وإما أنه نادرًا ما كان يحاورهما أحد لدرجة أنهما لم يستوعبا اللغة في العمر الحرج لاكتسابها (لقد التزم أبوهما الخرس التام بعدما خسر أموال الأسرة)، ثم حينما كبر كل منهما لم يصادق أو يتزوج أحدًا من الصينيين، بل كان بيتر يشعر ببعض القلق حينما يسمع الصينية، وعبر قائلًا: « أرتعد خوفًا إلى يومنا هذا متى ما سمعت امرأة تتحدث الصينية، بل أكاد أموت من الخوف حين أسمع صياح امرأة».

إذن فقد ابتدأ بيتر الروضة دون القدرة على التواصل اللفظي، فلم يكن يفهم الأطفال حين تحدُّثهم إليه بالصينية، ولا كان يفهم الإنجليزية، بل حين اللعب كان يخاف من تشبيك الأيدي لتكوين الدائرة، ووصف ذلك قائلًا: «اضطررت ذات مرة إلى الذهاب إلى المرحاض، لكنني كنت معتادًا على علبة الصلصة والتعرض للضرب أيًا كان ما فعلت، لذا بللت بنطالي لجهلي بما ينبغي فعله».

كان بيتر يخاف من التواصل البصري، ووصفه بالشعور بالتعري وسط الناس، كان يختبره بأنه حميمية مفرطة ويشعر بالرغبة في الاختفاء متى ما نظر أحد في عينه، هذا ولم يكن قد تعلم شيئًا عما هو طبيعي بخصوص مشاركة المساحة مع الآخرين، فنظرًا لأنه عاش وحيدًا طيلة حياته فقد رأى أن كل الناس على مقربة شديدة منه، ومتى ما عجز عن تحمل ذلك كان يختبئ تحت البيانو الأسود الضخم الموجود في حجرته الدراسية ويمسك بأجزائه الخشبية ليستمد منها الراحة، لقد كان هذا البيانو -بالنسبة لبيتر- أحد الأمور الإيجابية القليلة المتعلقة بالمدرسة، إذ كان يعتبره أبًا لبيتر الصغير ويشعر

بالشوق إلى ملامسته، والتربيت عليه، واحتضانه (كان جسمًا تعلقيًّا أضخم بكثير).

من المؤسف أن بيتر كان على قناعة تامة بأنه ناجح قبل أن يسمع الخبر الصادم بأنه قد رسب في الروضة، فلقد كان هناك تأثير إيجابي آخر -إلى جانب البيانو- متمثلًا في المعلمة الطيبة، التي كان مذهولًا من طيبتها الشديدة، كان يخاف منها في البداية وينكمش خوفًا في حضورها، لكنها كانت تبتسم له -وهو شيء لم يره قبل- فأدرك بحدسه أن هذا معناه إشارة القبول، كما أدركت حبه للبيانو، وحين كانت تعزف «الفأر الأعمى» كانت تسمح له بالوقوف بجانبها، فكان يضع يده على جانب البيانو ويشعر بأنه يهتز ويتنفس، بل كان يتشبث به كما يتشبث الطفل بيد أمه، كما كان بيتر ينظر إلى مفاتيحه البيضاء الضخمة باعتبارها أسنانًا وأن البيانو بأكمله يبتسم بشدة ويرحب به، كانت تلك أشد لحظات السمو الروحي التي اختبرها في حياته، إذ كان سماع المقطوعات وهي تتحول إلى أغنية يفجر الدمع في عينيه، إذ رأى أن البيانو يتحاور معه، كان هذا -بالنسبة له- أول شيء يفهمه وسط النشاز الذي يعيشه في الروضة.

حين اكتشف بيتر أنه قد رسب تدمر نفسيًّا، فلقد ظن أن المعلمة تستلطفه، لكنه الآن رأى أنها تكرهه، ثم أخبرته أمه بأن جميع من سواه قد نجح، وسيتوجب عليه الآن الذهاب إلى الروضة فتى كبيرًا وسط مجموعة من الأطفال الصغار، وبهذا رأى بيتر أنه قد فشل في العالم، كأبيه تمامًا، وصرح قائلًا: «شعرتُ بمهانة شديدة حين اكتشفت أنني عاجز عن ذلك».

سعيت إلى التوضيح له بأن النجاح في الروضة ما هو إلا تراكم لعديد من السلوكيات، سلوكيات لا يمكن لأحد اكتسابها في عزلة داخل السقيفة، لقد فاتته خطوات عديدة بحيث صار من المستحيل له أن يكون متجهزًا للروضة، ولقد التقطت المعلمة ذلك، لذا منعته من القفز إلى المرحلة التالية، ثم أخذتُ أشرح له أن استقلال المرء في العالم يتشيد عبر مراحل، وإذا اضطربت تلك المراحل -كما حدث لبيتر- يتأخر النماء.

بادئ ذي بدء: إن حب الأم لطفلها ضروري لاقتداره على خوض غمار العالم بأساليب صحية، لكن بيتر كان يحتجُّ متى ما قلت هذا، مصرًّا على أن أمه قد أحبت أفراد الأسرة، إذ أن كل الأعمال التي قامت بها كانت من أجل

الأسرة، لذا أوضحتُ أنها كانت عاجزة عن حبه حبًا **مباشرًا**، وأنه لم يستطِع الشعور بحبها في أثناء انعزاله طوال اليوم.

يجب أن تحمل الأم طفلها وتشعر أنها متعلقة به والعكس، يدرك الأطفال في سن الثانية أنهم منفصلون عن أمهم، فيبدؤون في الاختلاف مع من حولهم بقول «لا» كي يجربوا عضلات الفردية (ولذلك اشتهرت عبارة «فظيعين عند السنتين»)، ومن ينجح من الدارجين[1] في الانفصال عن أمه يكتسب بذلك القدرة على قول: «لا، لن آكل ما ترغبين به، لن أرتدي حذائي، لن أفعل ما تقولينه، أنا شخص منفصل». تساعد هذه المرحلة الأطفال على تعلم مفهوم «الملكية»، وليس هذا فحسب، فهي تمثل أيضًا جزءًا من تعلم توكيد الذات، لكن بيتر لم يجد فرصة لتكوين ذات منفصلة عن أمه، بل أخبرني أنه الآن لا يخطر بباله -ناهيك بطفولته- أن يطلب منها شيئًا، أن يمايز نفسه بأي طريقة.

كما كان بيتر خائفًا من الأطفال الآخرين، وجاهلًا لكيفية اللعب معهم، لقد بدت له قواعد البيسبول وغيرها من الألعاب أمورًا شديدة التعقيد والغموض بحيث لن يقدر على تعلمها، فأوضحتُ له مجددًا أنه لم يكن غبيًّا، إذ أن معظم الأطفال يكونون قد تلقوا أربع سنوات من السلوك الجماعي قبل دخولهم الروضة، وأن الآباء والأمهات يدحرجون الكرة لأطفالهم ليركلوها أو يصطحبونهم إلى الحديقة ليشاهدوا الأطفال الآخرين وهم يلعبون، وأن رؤية الأطفال وهم يمرحون على الزلاقة تعلم ذوي العامين والثلاثة معنى الدور، وأن ولي الأمر يكون موجودًا في المرة الأولى التي يتزحلق فيها الطفل على الزلاقة، لكن بيتر كان جاهلًا تمامًا معنى «الدور»، كما كان عاجزًا عن أن يلعب مع الأطفال لعبة القرد في الوسط، فلقد ظن أنه ينبغي عليه الدوران حول نفسه وهو واقف مكانه، كان ذلك شديد الفوضوية بالنسبة له.

أوضحت له أن الدماغ ينبني قطعة قطعة، وأنه لا يكون مكتمل التشكل حين الولادة، ويفترض أن يشيد الطفل في الأعوام الأربعة الأولى ما يسمى بـ «الوظائف التنفيذية»، يجب أن تنشئ القشرة أمام الجبهية ممرات في الدماغ كي تؤسس الاتصالات التي تربط بين كل ما تتعلمه، فالوظائف التنفيذية

(1) الطفل الدارج toddler: طفل يتراوح عمره بين 12 شهرًا و36 شهرًا. وفي هذا العمر يتكامل نماء الإدراك والعواطف والتطور الاجتماعي. (المترجم)

تساعد -على سبيل المثال- على تنمية الانتباه الانتقائي، وهو تعلم تجاهل الأصوات غير ذات الصلة وتحديد الأولويات حين تُعدد المطالب، إن العالم معقد، ونحن نتعلمه بخطوة صغيرة في كل مرة.

***

تحسن حال بيتر كثيرًا بعدما أعاد مرحلة الروضة، فلقد حظي بمعلمة أخرى شعر بأنها تعامله بطيبة خيالية، وحين سألته ماذا يعني بـ «طيبة خيالية» رد قائلًا: «لم تكن تصيح بي أو تضربني بسوط خيزراني»، كانت المعلمة شابة وكثيرًا ما تعزف الأغاني بالبيانو، بما في ذلك مقطوعة «العجلات على الحافلة» The Wheels on the Bus التي كان يحبها، ورأى أنه وبيتر الكبير يقضيان وقتًا رائعًا معًا.

ذلك البيانو استجلب واقعة غيرت حياة بيتر، عادة ما كانت أخته تصطحبه من المدرسة، لكنها ذات يوم لم تحضر، لم يعلم هو والمعلمة أنها في مكتب الممرضة تضمد جرحًا أصيبت به بعدما وقعت في الملعب، فذهبت المعلمة للاستقصاء في الأمر وتركت بيتر بمفرده في الغرفة الدراسية مع البيانو.

هرول بيتر إلى البيانو واحتضنه، فانضغط أحد المفاتيح في أثناء معانقته له مصدرًا نغمة، حينئذ شرع بيتر في العزف، قال إنه في بادئ الأمر عزف «العجلات على الحافلة» بالأسلوب المبتهج الذي عزفت به المعلمة، لكن بعد ذلك عزفها بأسلوب حزين، كأن الحافلة تسير متعبة وضلت طريقها، ورغم أنه لم يكن يعلم معنى سعيد أو حزين فقد استطاع توليد ذلك بواسطة البيانو، لم يكن بيتر على دراية بأنه قادر على عزف المقطوعة بغير اللحن الذي راقب المعلمة بحرص وهي تعزف به، بعد ذلك عزف «ثلاثة فئران عُمْي»، مرتجلًا أن ركض الفئران نوع من موسيقى الجاز، ومن العجيب أن قدميه كانتا شديدة القصر فلم يكن قادرًا على الوصول إلى الدواسات مما اضطره إلى الانزلاق على كرسي البيانو حتى يصل إلى بعض المفاتيح ثم العودة سريعًا لوضعه السابق، لم يكن واعيًا بمقدار الوقت الذي انقضى، لكن حين علا بناظريه وجد بضعة معلمين واقفين بجوار الباب يشاهدونه، بالإضافة إلى أخته، وممرضة المدرسة، والناظر، والبواب، حينئذ بدأ البواب في التصفيق ثم تبعه الباقون كلهم.

وُلدت في تلك اللحظة حياة بيتر العازف، كانت هذه إحدى أسعد الذكريات التي عاشها طوال حياته، بل شعر أنه شخص مختلف في أثناء عودته للمنزل، فلقد تحدث بيتر الكبير نيابة عنه ثم -بأعجوبة- فهم الآخرون ما يريد قوله، كما تذكر أنه كان أحد أيام الخريف، وأن كل أوراق الشجر ظلت تلوح له، وأن ألوان الأشياء بدت شديدة الوضوح، بل أدرك أنه قبل تلك اللحظة كان يرى العالم بالأبيض والأسود وبمنظور ضيق، كما أخبرني أن إدراكه للعمق قد تحسن أيضًا، وأنه لم يعد أخرقَ كالسابق، كانت تلك المرة الأولى التي ينجح فيها في توصيل مشاعره، ولقد كان شعورًا عظيمًا.

2

أحد أفعال الحب

انقضت أربع سنوات تقريبًا بعد انتقال عائلة تشانج من ميناء الأمل إلى تورونتو، رغم أن بيتر -الذي صار الآن في سن التاسعة- لم يعد محبوسًا فإن حياته الأسرية ظلت محفوفة بالمحن، فلقد غادروا منزل أبناء العمومة ليعيشوا في أقصى الغرب في شقة مهينة بها غرفة نوم واحدة بـ «شارع كوين ستريت»، حيث يظل يشاهد هو وأخته تلفزيونهما الصغير بعد رجوعهما من المدرسة إلى أن تعود أمهما للبيت، هنالك تحسنت إنجليزية بيتر من خلال المدرسة، والتلفزيون، والمحاورات التي دارت بينه وبين أخته، كما كان يصطحب لعبة البيانو معه أينما ذهب، ويعيد توليد كل أغنية يسمعها، بل وصف لي ذلك قائلًا: «لم يكن لدى بيتر الصغير سوى ثمانية مفاتيح، لذا شعرت بالفخر حين عزفت اللحن الرئيس في «مسلسل جزيرة جِلِجان» وميزته أختي وصفقت لي».

بمرور الوقت صار والد بيتر -الذي لم يبرز إلى الآن في أحاديث مريضي إلا قليلًا- بدينًا ومصابًا بالسكري وغير مكترث بجرعات الأنسولين بل يأكل الحلوى التي تقدمها له زوجته، لقد أهمل مرض السكري منذ مغادرتهم مطعم ميناء الأمل، ثم اكتسب سمنة مفرطة، كما أصيب باكتئاب مشلٍّ جعله عاجزًا عن العمل بأي وظيفة، لذا كان يجلس صامتًا على كرسيه طوال اليوم ويستمع

إلى شرائط موسيقى الجاز، لكنه كان بين الحين والآخر -عند وجود معزوفة رائعة- يشير إشارة مبهمة إلى الشريط، فيفهم بيتر أن أباه -الذي لم يعد يجري اتصالًا عينيًّا إثر خسارته أموال العائلة- يحاول مشاركة الموسيقى معه، وعلم بيتر من أبناء عمومته الكبار أن أباه كان عاشقًا للموسيقى في طفولته وأنه يستطيع قراءة الألحان المكتوبة، لكن من حوله ثبطوه عن السعي للعمل بتلك المهنة لأنهم كانوا يرونها تفاهة وجزءًا من الغرب الفاسد.

لم تفوت أم بيتر أي فرصة لإذلال أبيه -الذي دمر مستقبل الأسرة- ولم تكن تعطيه أي مال، حتى لو سيشتري به سجائر أو شرائط الموسيقى المحببة له، ثم علم بيتر لاحقًا أن أباه منحدر من عائلة محبة للموسيقى، التي فسدت -وفقًا لقول زوجته- بسبب الموسيقى الغربية واشتُبه في تورطها في تجارة الأفيون في فيتنام، وقد رأت زوجته كل الموسيقى الغربية جزءًا من الفشل والتبدد الذي صار إليه أبوه.

ذات يوم عادت للبيت من العمل في غير موعدها المعتاد فوجدت أخت بيتر مشغولة بالأعمال الخرزية في حين كان بيتر وأبوه -اللذان لم يُكلَّفا أي مهام- جالسين يستمعان إلى الجاز، فاستشاطت الأم غضبًا، ووصف بيتر ذلك قائلًا: «كان غضبها الشديد مفهومًا، فرغم كل شيء فلقد كانت في الخارج تعمل أما نحن فقد كنا مستلقيين، قالت إنني وأبي حبة فول انقسمت نصفين، وإن الأفكار والموسيقى الغربية قد أفسدت كلًّا منا وإننا لسنا خيرًا من الفرنسيين المنحطين وباقي القذارات الأوروبية» (لقد كانت فيتنام مستعمرة فرنسية حين كانت أمه طفلة)، استشاطت أمه غضبًا، واصطبغ صوتها بالنبرة الخطيرة المعهودة التي ترعب بيتر، وتذكر ما حدث قائلًا: «اندفعت هائجة إلى غرفة المعيشة وأخذت تكسر شرائط أبي واحدًا تلو الآخر على ركبتها، حينئذ وقفت، متسمرًا، آملًا أنها لن تنقلب علي، لكنها فعلت، نظرت تجاهي فور انتهائها من تحطيم مجموعة الشرائط، واندفعت ثائرة إلى غرفة نومي، ثم التقطت بيتر الصغير ثم قذفته من النافذة»، لقد قذفته بقوة شديدة لدرجة أن سلك الشباك انفصل وطار معه.

كان بيتر في سن التاسعة ويعاقَب ظاهريًّا على عدم القيام بالأعمال الخرزية الدقيقة، لقد عوقب -في حقيقة الأمر- على مشابهته لأبيه، فسألتُه هل شعر بالدمار لفقدانه بيتر الصغير، فقال إنه كان معتادًا على الفقد، وإنه لم يختبر سوى غياب الشعور، ثم شرح قائلًا: «من الصعب توضيح ذلك، لقد

نظرت من النافذة وشعرت بالأسف على بيتر الصغير، وعبر قائلًا: «لم أشعر بالحزن، بل بالخواء فحسب»، ثم قال وهو متردد يبحث عن الكلمة المناسبة: «بدا ذلك كأنني لم أكن داخل جسدي».

أشرت إلى أن موت بيتر الصغير هو الشيء الوحيد الذي يتذكره من بين ملايين الذكريات الموجودة في خمسة وعشرين عامًا، وأنني أعتقد أن ذلك لأن الحدث قد سبب له صدمة نفسية شديدة، ثم أوضحت قائلة: «كنت تعاني من «تبدد الشخصية» Depersonalization، وهو ما يحدث حين تشعر بأنك منفصل عن ذاتك الشخصية، حينها لا يكون لديك أي أحاسيس جسدية أو مشاعر، كما يبدو العالم ضبابيًّا، وينهار اتصالك بنفسك».

- أصاب بذلك أحيانًا كثيرة، ما السبب؟
- صدمات الطفولة التي عادة ما تحدث في المراحل المبكرة من تمايز الذات، التي يصاحبها قلق شديد.

ثم أوضح بيتر أن الدقة الشديدة لتلك الذكرى ناتجة عما حدث في الأيام القليلة التالية: آنذاك كانوا في الإجازة الدراسية الصيفية، وكانت أخته تقوم بأعمالها الخرزية من الفجر حتى المساء، وذات يوم أشار الأب إلى بيتر بأن يتبعه، ورغم أن الأب كان في الثلاثينيات من عمره حينئذ فقد كان يلاقي صعوبة شديدة في المشي، ويعرج مستندًا إلى عكاز، ثم مشى هو وبيتر رويدًا رويدًا حتى وصلا إلى مركز التسوق، كان الأب منهكًا، متورم القدمين، ويتصبب عرقًا، ثم توجها إلى متجر المعدات الموسيقية، ثم التقط الأب أحد أنواع البيانو الكهربائي وخرج إلى الساحة المشتركة لمركز التسوق، فـأوقفهما حارس الأمن واتصل بالشرطة، أدركت الشرطة وجود خلل ما لدى الأب، الذي لم ينبس ببنت شفة خلال استجوابهم له، فطمأن بيتر الشرطة أن لديهما في البيت المال الكافي لدفع ثمن البيانو، لذا اصطحبت الشرطة بيتر وأباه بالسيارة إلى بيتهما وبرفقتهما البيانو، ثم أوضح لي قائلًا: «الآن حين أعود بالذاكرة أظن أن رجال الشرطة علموا أننا لسنا سارقين، وإنما يوجد عطب عقلي لدى كل منا، إذ لم يفعلوا شيئًا سوى إيصالنا إلى البيت في صمت وأنا متشبث بشدة بالبيانو الكهربائي»، من حسن الحظ أن أم بيتر لم تكن في البيت آنذاك، فذهبت أخته إلى مدخراتها ودفعت ثمن البيانو، نظرت الشرطة بارتياب إلى أكوام الأعمال الخرزية الضخمة المتناثرة في أرجاء الغرفة، كأن البيت مصنع، ثم سألونا عن سبب بقاء أختي بمفردها في البيت وانخراطها

في عمالة الأطفال، ثم سمعهم بيتر يقولون لبعضهم بعضًا إن ذلك ربما يكون مجرد «عادة صينية»، لقد بدا عليهم التشوش، لكنهم لم يرفعوا دعوى قضائية، ثم وصلت أمي، فشرحت لها الشرطة الموقف قبل مغادرتهم بلحظات.

أخبرني بيتر أنها فقدت صوابها تمامًا، كانت أمه امرأة مرعبة في أفضل أحوالها، لكنه لم يسبق أن رآها بمثل هذا الإرهاب، لقد هاجمت أباه بشراسة وأخذت تضربه حتى سقط أرضًا، ظلت تصرخ بالصينية، ولم يفهم بيتر شيئًا مما قالته، ثم نهض أبوه، وأخذ يترنح، ثم هوى أرضًا مسندًا ظهره إلى الحائط، وبدأ يتنفس بصعوبة لبضع دقائق، ثم أصيب بنوبة قلبية ومات، أخبرني بيتر أنه لطالما شعر أنه المسؤول عن موته لأن أباه لو لم يشترِ البيانو الكهربائي لظل على قيد الحياة.

لم يكن لدى بيتر سوى القليل من ذكريات الطفولة، لكن سرقة أبيه للبيانو كانت إحداها، كما حرص على إيضاح أنه شعر بالمذلة لأن السرقة شيء لا يقبله أحد، وأنه لم يقابل في حياته أحدًا سرق شيئًا، لكنه -بطريقة ما- رأى ذلك فعل الحب الوحيد الذي تلقاه في حياته القصيرة، لم يكن لدى أبيه مال لكنه أحس بالاحتضار فرغب في أن يحصل ابنه على بيانو ليعوضه عن ذلك المقذوف، وبكل بساطة ظل يعرج حتى وصل إلى المتجر ثم التقط البيانو، بل لم يتكلف إخفاءه، ونظر بيتر إلى ذلك باعتباره أحد أفعال الحب اليائسة من شخص يحتضر.

كما اعترف أن موت أبيه كان عبارة عن انتحار بطيء، فسألته كيف كانت استجابة أمه بقولي: «ربما كانت مشتاقة إلى موته، لكن ربما راودها شعور مختلف حين حدوثه؟»، فصعَّد بيتر زفرة مديدة ثم قال: «مستحيل، لم تكن من ذلك النوع، كانت راغبة في موته وارتاحت حين مات، قائلة إن أعبائها قد خفت واحدًا، بل لم تشر إليه مجددًا قط بعد وفاته، إلا حين قولها لي إنني كسول وغبي مثله».

- هل كنت مشابهًا لأبيك؟

رد بيتر بأن أجل، أن كلًّا منهما لديه موهبة موسيقية، أنهما يستطيعان قراءة الألحان والعزف بمجرد الاستماع، بالإضافة إلى أن كلًّا منهما كان هادئ الطبع، وشغوفًا بالموسيقى، ولا يكترث كثيرًا بجني المال أو المنافسة، بعد

تلك الواقعة لم يعزف بيتر بالبيانو الكهربائي خارج غرفته قط خشية من تدمير أمه له إن أدركت أنه مهم بالنسبة له.

***

في غضون بضع سنوات من موت أبيه اشترت الأم مبنًى صغيرًا يشتمل على أربع شقق ثم مبنًى آخر مثله بعد أربع سنوات، وفي نهاية المطاف صار لديها صف من المباني المماثلة، كانت تقوم بنفسها بالصيانات، والإصلاحات، وجمع الإيجار، وتكافح بمفردها هيئة مراقبة الإيجارات في المدينة، ثم حين صار بيتر في العشرينيات من عمره أهدته شقة في أحد المباني لا تبتعد كثيرًا عن شقتها، وظلت تعد له العشاء كل ليلة، حيث تهرع عائدة للبيت لتحضير الطعام، ثم تهرول إلى وظيفتها التالية، وفي غضون ذلك تزوجت أخته رجلًا غير صيني فور اقتدارها على مغادرة البيت، وصارت ربة منزل، وهو أسمته أم بيتر «الطريقة الكندية الكسولة».

اعتقد بيتر أن أمه تراه عبئًا عليها، فلقد كانت تصفه بـ «عديم النفع» وتستحثه طيلة الوقت على الحصول على وظيفة حقيقية، لكنه في حقيقة الأمر كان قد قطع في شوطًا معتبرًا في عالم الموسيقى رغم إهماله لشؤونه المالية وعدم اكتسابه مالًا كثيرًا من التجول برفقة الفرقة في مختلف البلدان.

من الواضح أن أم بيتر كانت تراه طفلًا سيئًا، وكسولًا، وبطيئًا منذ كان رضيعًا وحتى بعدما قطع شوطًا كبيرًا في مرحلة الرشد، ولم تقتنع بأي دليل يشير إلى عكس ذلك، لم أتمكن حتى الآن من معرفة أكان ذلك بسبب كرهها لزوجها ومشابهة بيتر له، أم اعتقادها أن الموسيقى الغربية شيء شرير، أم بغضها للرجال في العموم، لكن الشيء الوحيد الذي أعلمه يقينًا هو أن الأم حين تصف ابنها بالسلبية فإنه يصدقها، فمن غيرها يشكل صورتك الذاتية؟

ورغم ذلك فمع مرور الوقت صار سلوك أمِّه مفهومًا بعد انكشاف المزيد من المعلومات المدهشة عن الحياة التي عاشتها، وكما يقول الفرويديون: «إذا عُرف السبب بطل العجب[1]».

***

---

(1) لقد نشأ العلاج النفسي الفرويدي في فيينا، حيث افترض فرويد أننا لو دققنا البحث في ماضي المريض فسنجد أسباب اضطرابه الحالي. (المترجم)

كنا على وشك الانتهاء من السنة العلاجية الأولى، صار صوت بيتر أكثر تجليًا خلال تلك الفترة، بل بدأ في الشهور القليلة الماضية في إجراء التواصل البصري، ونظرًا لأن بيتر قد تعرض لحرمان وجداني شديد فقد استغرق سنة كاملة ليثق بي، إذ تعين عليه إدراك أنني أكترث لأمره، وأننا سنعمل معًا للوصول إلى الشفاء.

رغم ذلك كنت مهمومة بشأن مآل حالة بيتر، فلقد فوت خطوات نمائية عديدة لدرجة أنني قلقت بشأن ماذا سنبني مع تلك الندرة الشديدة للمواد التأسيسية؟ إن بناء الذات فوق أساس بهذه الهشاشة لهو أمر محفوف بالمخاطر، لذا انقدح بصدري خوف مماثل لما سيشعر به مهندس معماري يشيد بنيانًا على شفى جرف هار.

إن أحد الأمور التي منحتني أملًا هو الرحمة الشديدة التي كانت لدى بيتر، كان إذا رأى أحدًا بحاجة إلى المال يقرضه، وذات مرة وجد امرأة تبكي في غرفة الانتظار بعيادتي، فلم يسألها ما خطبها وإنما خرج وابتاع لها كوب قهوة، ثم أخبرها أن الأمور ستكون على ما يرام، هذا إلى جانب أن ولاءه لأمه -رغم أنه في غير محله- كان مؤثرًا، إن الرحمة والمغفرة عظيما النفع لمن يتحلى بهما.

كان بيتر يصاب بنوبات تبدد الشخصية والقلق الشديد كلما واجه اقترب منه أحد جسديًا، وشككت أن هذه النوبات هي أيضًا منبع عجزه الجنسي، فلقد كان قلقه شديدًا لدرجة تشعره بأنه خارج جسده، وكي يتمكن المرء من النجاح في الجنس يتوجب أن يكون داخل جسده ويشعر بالاستثارة.

كان الهدف العلاجي هو بناء الأنا كي يتمكن من التكيف ولا يغادر جسده مغادرة نفسية في أوقات الضغوط، والأنا -الذي هو حس المرء بذاته- مفهوم مجرد، ومن الصعب وضع تعريف محدد له، لكن يمكننا تصوره بأنه بيت يُبنى حجرة حجرة، ويحميك من ضغوط العالم الخارجي، فهو يوفر لك بيتًا مجازيًا تأوي إليه، بقعة آمنة، لو كانت أم بيتر سوية نفسيًا لأخبرته أنه شخص براق، وحساس، ورحيم، ودقيق الحدس، وذو موهبة موسيقية، ولساعد مدحها لتلك السمات الإيجابية على تشييد أساس قوي، وحين يأتي الذئب طارقًا باب بيتر -كالخنزير في قصة الأطفال- يظل بيتر محميًا في منزله الحجري المتين.

لكن أمَّه ظلت تردد على مسامعه لعشرات السنين أنه كسول، وغبي، وعاجز عن مواكبة الحياة، وبهذا لم يكن لديه أحجار صلبة في أساسه، بل كان يعيش في بيت من القش، لذا فحين يوشك بيتر على الانخراط مع الآخرين أو ممارسة الجنس يشعر أنه غير محمي في بيت القش، لأن الأنا ليست قوية بما يكفي، فيضطر إلى مغادرة جسده ويصاب بتبدد الشخصية.

أملتُ في أن ننجز شيئين خلال العلاج النفسي: أما الأول فهو أنني أردت أن يدرك بيتر أن أمه كانت مضطربة ورأته بمنظورها المشوه، وأما الثاني فهو أنني أردت أن أؤدي دور «الأم الجيدة» التي ستساعده على الانتقال من بيت القش إلى البيت الحجري، لقد أردت أن يقتدر على أن يقول للذئب: «أنا بيتر تشانج وهذا بيتي الآمن، ولست مضطرًا إلى مغادرته، بل أنت المضطر».

***

حين ولجنا السنة الثانية آن وقت التركيز على مشكلة العجز الجنسي لدى بيتر، عجزه عن الانتصاب عند محاولة ممارسة الجنس مع النساء، نظرًا لأنه يعمل في فرقة موسيقية فقد كانت لديه فرص وفيرة لمقابلة النساء، بل كثيرًا ما كن يبدين انجذابهن الجنسي له، لكن بيتر قال إن هذا منعدم الصلة بكونه جذابًا، فهذا «ما يحدث لرجال الفرق الموسيقية».

كان بيتر مشتاقًا إلى ممارسة الجنس، لكن قربه الجسدي من أي امرأة يصيبه بتوتر شديد، لذا ناقشنا تكوين العلاقة رويدًا رويدًا وبناء الصداقة، بعد ذلك يمكنه ركوب موجة أكبر يستطيع التعامل معها.

أخبرت بيتر أننا بحاجة إلى النظر في ملفه النفسي بأكمله منذ الولادة كي نتعامل مع مشكلة عجزه الجنسي، لقد سبب له الحرمان الأمومي ما سماه جون بولبي -الطبيب النفسي البريطاني الشهير- «اضطراب التعلق»، والتعلق الأمومي أهم شيء بالنسبة للطفل، أهم من الطعام، وسيضحي الطفل بكل شيء في سبيل الحصول عليه، إذ دونه يصاب بالتوتر ويعجز عن استكشاف العالم أو التعامل معه بأي طريقة طبيعية، كما أن اضطراب التعلق لا يؤثر فقط على العلاقة بالأم، بل يؤثر أيضًا على جميع جوانب النماء الاجتماعي، والوجداني، والمعرفي، وحين لا يختبر الطفل التعلق يصير عاجزًا عن المضي قدمًا إلى الخطوة الثانية، وهي الوثوق بالآخرين، والتعلق الوجداني بهم، ثم

-في نهاية المطاف- التعلق الجنسي بالآخرين، وبعبارة أخرى: لن تتمكن من النمو الوجداني ما لم تكن حصلت على التعلق الطفولي.

قد أشار عالِم الحيوانات كونراد لورينز -وهذا جزء مما أكسبه جائزة نوبل- إلى أننا نستطيع فهم التعلق داخل السياق التطوري، حيث توفر الأم الأمان للطفل، فالتعلق شيء تكيفي، يزيد من فرصة نجاة الطفل، وبالتالي فهو مدمج في الدماغ، وبهذا فالطفل بحاجة إلى أن تحمله الأم، وتحبه، وتحتضنه.

لكن بيتر كان يلاقي صعوبة في ربط سلوكه المضطرب في الروضة -ناهيك بعجزه الجنسي- بالحرمان الأمومي الباكر، أحيانًا ما يرتطم المعالج النفسي بجدار إسمنتي، فيتوجب عليه إحداث تغيير جذري عبر فعل شيء غير تقليدي لحث المريض على رؤية النمط، وكذلك فعلتُ لأساعد بيتر على استيعاب فكرة التعلق الأمومي، إذ رتبت لنا موعدًا خاصًّا لمشاهدة أفلام «قردة هارلو» Harlow Monkeys التي جرى تصويرها في خمسينيات القرن الماضي، وهي أشهر الأفلام على الإطلاق التي خرجت من مختبر إخصائيي علم النفس الاجتماعي، اتفقنا على أن نشاهد عرضًا خاصًّا في جامعة تورونتو (حيث كنت أقوم بالتدريس أحيانًا)، ووافق عارض الأفلام على الاضطلاع بالإيقاف المؤقت متى ما رغبت في توضيح شيء لبيتر، ورغم أن هذه التجارب تُعتبر غير أخلاقية بمعايير اليوم فقد فتحت نافذة فريدة لرؤية اضطراب التعلق، كانت مشاهدة تلك الأفلام محصورة في العادة على طلاب علم النفس، لكنها الآن صارت متاحة للجميع على «اليوتيوب».

أحدثت أفلام هارلو نقلة محورية في علاج بيتر، لقد ابتدأ الفيلم بالبروفيسور هارلو الذي يشرح مفهوم الترابط الأمومي -الحب- الذي بمقتضاه يرتبط الأطفال بأمهم، ثم اشتملت التجارب على تنشئة حديثي الولادة من القردة داخل أقفاص تحتوي على أُمَّيْن اصطناعيتين، «أم سِلْكِيَّة» تحمل وعاء لبن، ويتعين على القرد الوليد القفز فوق هذه الأم ليحصل عليه، و«أم قماشية» مصنوعة من هيكل سلكي أيضًا، لكنها مغطاة بمنشفة، وبدلًا من الطعام توفر له حس التلامس كما يستطيع القرد معانقتها واحتضانها، لقد انصعق هارلو وزملاؤه حين اكتشفوا أن الاحتضان انتصر على الطعام، كان صغار القردة يعانقون الأم القماشية تسع عشرة ساعة في اليوم تقريبًا، ولا يذهبون إلى الأم السلكية إلا لدقائق قليلة لشرب اللبن، بل حين أزيلت الأم

القماشية من القفص ظل القرد الرضيع يبكي ويصرخ مرتعبًا لمعاناته من قلق الانفصال، ثم حين أزيل كل من الأم القماشية والسلكية ظل القرد الصغير ينتفض للأمام والخلف، ويجرح نفسه.

حينئذ بدأ بيتر -الذي كان صوته لا يزال رتيبًا بعض الشيء- في التحدث بحماسة، فلقد رأى نفسه في ذلك القرد الذي ينتفض للأمام والخلف ويعض نفسه، وحيدًا في مهده، كان هو الآخر معتادًا على خبط رأسه بجدران المهد، ثم أنقذه البيانو الصغير، وعبر عن ذلك قائلًا: «كان بيتر الصغير الأم القماشية التي تغني لي، وتهدئ من روعي، وتعانقني بموسيقاها»، بل تذكر أو تخيل هذا البيانو وهو يعزف أصواتًا مريحة للتلطيف من خرابه الداخلي، ثم صرح بأنه لم يعقل تمامًا أنه هو من كان يعزف ويصدر هذه الأصوات، إذ كان يرى البيانو جسمًا نابضًا بالحياة، كائنًا حيًّا يريحه.

حين واصلنا عرض الفيلم شاهدنا إخراجهم للقرد الرضيع من قفصه للمرة الأولى ثم حبسه في غرفة أخرى، بعيدًا عن الأم القماشية. كانت الغرفة محتوية على أشياء كثيرة يستمتع بها القردة في العادة، كالسلالم والأرجوحات، لكن القرد ارتعب من ذلك كله وتقهقر إلى زاوية الغرفة منكمشًا، حيث ظل يرتجف مرتعدًا، لكنه إثر إعادة إدخال الأم القماشية لغرفته تسلقها وعانقها، وبمجرد استمداده بعض اللحظات المريحة منها صار القرد الصغير منفتحًا على استكشاف بيئته.

طلب بيتر إيقاف الفيلم مجددًا وقال: «يا إلهي، تلك هي، الروضة، كان لدى الجميع أم قماشية ولم يكن لدي شيء، كنت أنكمش مرتعبًا في الزاوية، أشعر **بالأسف الشديد** على ذلك القرد الصغير، الآن أتذكر تعجبي لماذا لم يكن الأطفال مذعورين مثلي، كانوا يركضون في الأرجاء ويطاردون بعضهم بعضًا في ذلك النفق الدودي القماشي الذي كنت أكاد أموت من الخوف منه».

ثم عرض الفيلم التالي هيكل وحش يشبه حشرة معدنية عملاقة ذات أسنان ضخمة ورأس دوار، آنذاك هرع القرد -المرعوب- لمعانقة الأم القماشية، وبعد استمداده -من تعلقه بها- الاحتضان الكافي والاطمئنان التف وشرع في إصدار ضوضاء مهددة تجاه الوحش الضخم.

أشار بيتر إلى أنه يريد إيقاف الفيلم مؤقتًا مرة أخرى ثم أخبرني: «كنت أتعرض للتنمر، ولم يكن لدي بقعة آوي إليها لاستمداد الراحة، فكنت أختبئ ليس إلا، وبذلك صرت أدور في حلقة متزايدة التنمر».

ثم شاهدنا بضعة أفلام أخرى لهارلو، التي كشفت أن تلك القردة التي تعرضت للحرمان الأمومي شبَّت عاجزة عن الدفاع عن أنفسها، لكن الصاعقة الكبرى أنها نفرت من ممارسة الجنس، وحين أرغموها على الجماع والولادة كانت جاهلة تمامًا لكيفية التصرف كوالد/والدة، كما اتسم كل من الذكور والإناث بقسوة الطبع، إذ كانوا مؤذين جسديًّا ومنسحبين وجدانيًّا، بل تحتم إخراج نسلهم من قفصهم للحفاظ على سلامتهم.

انتهى الفيلم، وأُشعلت الأضواء، لكن بيتر ظل جالسًا في صمت فحسب، فحدقت إلى وجهه المصدوم، فنظر إليَّ في ذهول قائلًا: «**ينفرون من ممارسة الجنس، يا إلهي!**».

كانت تلك لحظة انحلال ألغازه المستغلقة، فقال: «هذا صحيح، الجنس هو المرحلة النهائية، في البداية تكون بحاجة إلى الحب، ثم الاحتضان، ثم التقارب، ثم الحماية، حتى تتمكن من خوض غمار العالم وانتهاز الفرص، أما حين يتعرض الناس للانعزال في طفولتهم فإنهم يفوِّتون كل هذه الخطوات، وبعد بلوغ مرحلة الرشد يبدو الجنس مرعبًا».

ثم سألني بيتر: «هل لاحظتِ شدة خوف القرد الذي لم يكن لديه سوى الأم السلكية حين تعين عليه جماع القردة الطبيعية؟ **ذلك شعوري**». لاحظتُ بقعًا عرقية تحت إبطه وأن معدل رمشه قد تباطأ، كما كان شديد التوعك والشرود فلم يتمكن من مغادرة غرفة الفيديو، فلقد مر للتو برحلة مرعبة عبر طفولته الباكرة.

لقد صدق بيتر وصف أمه له بأنه عديم الفائدة، وغير كافٍ، وغبي، كما أن محاولاتي لإعادة تأطير تلك الصورة لم تزحزحه عن منظور أمه له، لكن أفلام هارلو وحدها هي ما جعلته يستوعب أنه قد فوت خطوات بالغة الأهمية في نمائه، بل أخبرني بيتر لاحقًا أنه ما من شيء ترك بداخله أثرًا أقوى مما تركته دراسات قردة هارلو، كانت تلك قفزة ناجحة في العلاج، ومن حينها صرنا نقول «قبل وبعد هارلو».

***

شرع بيتر في إدراك أنه لم يكن غبيًا، ولا فاشلًا، وإنما شخص لم يكن مجهزًا للحياة، ورغم ذلك فما كان يسبب له ارتباكًا هو «لماذا لم يعانِ الأطفال الصينيون الآخرون، الذين كان أولياء أمورهم يعملون، من المصير ذاته؟»، حينئذ توجب عليَّ التلطف في خطواتي، فلطالما شعر بيتر بالولاء لأمه، بل لم يقل كلمة سيئة واحدة عنها، كما كان شعاره الدائم: «لقد فعلت كل ذلك من أجل أسرتنا».

أما أنا فقد رأيتها امرأة تعرضت لديها غريزة الأمومة لتقويض بالغ، لكن لأنني معالجة نفسية فقد كنت على دراية بأن قول ذلك لبيتر لن يفيده بشيء، لأنه بحاجة إلى الوصول إلى ذلك الإدراك بنفسه وفي الوقت المناسب لاقتداره على قبوله، لو أشار المعالج إلى «الحقيقة» -لعدم وجود كلمة أفضل- للمرضى قبل اقتدارهم على سماعها أو الاعتراف بها فإنهم يفقدون ثقتهم به، فآنذاك تتولى دفاعاتهم السيطرة، ويكون تَحسُّنهم سطحيًا فحسب، كما أن المبالغة في التفسير للمنتفع تُعتبر إشارة إلى أن هذا المعالج مبتدئ أو غير مطمئن، وهذا لأن دور المعالج هداية المرضى إلى باب الاستيعاب، ولا ينبغي له أن يجرهم للداخل، لأن المرضى يدخلون حين يصيرون مستعدين.

كان العلاج عبارة عن رحلة بطيئة ومتعرجة، من تبدد الشخصية إلى التشخص، لم يتلقَّ بيتر معاملة الشخص، لذا لم يختبر نفسه كشخص في نهاية المطاف، بل كان ينظر إلى نفسه من خارج جسده، ثم كان العلاج النفسي مرشده في تلك الرحلة الطويلة نحو الشعور بالتشخص، نحو الشعور بأنه إنسان.

3

سؤال حارق

كانت فرقة بيتر في جولة بغرب الولايات المتحدة، هنالك قابل امرأة تعمل نادلة في حانة بـ «مدينة أركانساس» Arkansas، كان يعزف هناك طيلة الأسبوع، وذات مرة أحضرت له شرابًا وطلبت منه عزف أغنية «جورجيا» Georgia، وتشدقت قائلة: «أرني مدى افتقادك لـ «ولاية جورجيا»، فهي موطني»، فعزف بيتر الأغنية، وساد الهدوء المكان، وبعد انتهائه تحدث عبر مكبر الصوت قائلًا: «كانت هذه لميلاني، التي تفتقد بيتها في جورجيا»، فالتفت أعضاء الفرقة ناظرين إليه، في ذهول، فلقد كانت تلك هي المرة الأولى التي ينطق فيها بشيء في أثناء وقوفه على المنصة، على مدار الأعوام الستة عشر التي كانوا فيها معًا، عقَّب بيتر بأنه رأى مدى سعادتهم به، ورغم أنهم لم يكونوا على علم بأنه ملتحق بالعلاج النفسي فقد أيقنوا أن هذه قفزة هائلة.

انتظرته ميلاني بعد العرض، ثم احتسيا شرابًا، وأخبرني بيتر أنه حاول عدم التفكير في الجنس وأن يعيش في اللحظة الآتية فحسب، ثم سألته عن محل إقامته، فأخبرها باسم الفندق، فأومأت إيماءة هادفة ونظرت في عينيه، لكن بيتر أخبرني أنه فكر فيما سبق أن تحدثنا عنه خلال جلساتنا، أن بإمكانه تنظيم الأمور تدريجيًّا كي يستطيع تدبرها، لذا أخبرها أنه متعب بعد أدائه

تلك العروض الموسيقية، لكنه طلب منها تناول الغداء معًا في اليوم التالي، فقبلت.

ثم أخبر نفسه أنه غير مضطر إلى القلق بشأن ممارسة الجنس، وأن بإمكانه بناء علاقة أولًا، وفي أثناء الغداء تحدثا عن الموسيقى، وهو موضوع مريح بالنسبة له، ثم تواعدا بضع مرات، لكن دون جنس، كما أنه لم يصطحبها قط إلى غرفته الفندقية.

حين عاد بيتر لتورونتو ظل يراسلها مرارًا، ومن اللافت للنظر أنه اقتدر على بعض الانسيابية، بل تحلى بقدر من الغرامية في رسائله، ثم قرر أن يستقل طائرة في عطلة نهاية الأسبوع ليقابلها، وحين اقترب الموعد تدربنا على ما يقوله وأخبرته أنه ليس مضطرًّا إلى مناقشة مشكلته الجنسية، ليس عليه سوى أن يكون لطيفًا ومحبًا، كما طمأنته بأن ذلك سيكون سهلًا، نظرًا لأن الوداعة جزء من طبيعته.

فقلت له «أظن أن بداخلك شخصًا طبيعيًّا، ومحبًّا، ورحيمًا، شخص سيكون حبيبًا رائعًا وحساسًا، لقد عشت في طفولتك انعزالًا طويلًا وصدمات جمة، ورغم ذلك لا تزال راغبًا في المحاولة والتواصل، موسيقاك ملآنة بالمشاعر، والأحاسيس، والتعابير، إذن فتلك الصفات موجودة بداخلك، وتذكر: صحيح أنك أُصبت برضوض، لكن عظامك لم تنكسر».

تناقشنا في ماهية الاحتضان، وكيفية أدائه دون أن يبدو متكلفًا، كانت ابنة أخته الصغيرة تعانقه كثيرًا -أو بدا ذلك كثيرًا بالنسبة له-، فأخذ يراقب المعانقة بحرص كي يعيد إنتاجها، إذ لم يكن شيء من ذلك جزءًا من طبيعته.

اصطحب بيتر ميلاني للعشاء بأحد المطاعم، ثم قالت له إنها ترغب في العودة لغرفته الفندقية لأنها تعيش برفقة ثلاث فتيات أخريات، هنالك استلقيا على السرير، لكن لسوء الحظ اتقد شعور تبدد الشخصية لدى بيتر مجددًا، ورأى نفسه مستلقيًا على السرير، كأنه ينظر عبر عدسات كاميرا تضيق بؤرتها شيئًا فشيئًا، ثم فقد الشعور بأنه موجود داخل جسده، وفي نهاية المطاف خلد كلاهما للنوم.

في صباح اليوم التالي خرجا معًا، توجب على ميلاني الذهاب للعمل بالحانة تلك الليلة، من الثامنة حتى الثانية، فوافق على مقابلتها هناك، لكن حين انتهت مناوبتها ذهبت إلى قارع الطبول وغادرت برفقته، آنذاك قال

له النادل -الذي كان على دراية بأن بيتر ينتظرها-: «آسف، ولكن الرجال الصينيين غير مرحب بهم هنا»، رأى بيتر أن النادل قال ذلك لمواساته، ولم يكن لديه أي فكرة عن مدى الإهانة المضمنة فيما قاله.

شعرتُ بالأسف على بيتر، فلقد أخبرته أن ينظر إلى الأمر باعتباره اختبار قيادة، لأن الجنس لم يكن سوى قمة الجبل الجليدي، وأن 90% من الجبل الجليدي يكون تحت سطح الماء، في اللاوعي، وبهذا ينبغي علينا التركيز على ذلك.

***

سعيتُ إلى حث بيتر على ولوج أحلامه، فهي أفضل الطرق لدينا لولوج لا وعيه، وأخبرته أن يترك بجوار سريره قلمًا وورقة كي يدون في الصباح أفكاره الأولى، لقد كانت أحلامه -كما اتضح لاحقًا- متشابهة للغاية، إذ دائمًا ما يقع حادث خارج عن سيطرته.

«كنت ممتطيًا حافلة تندفع متمايلة بسرعة هائلة كأنها سفينة في بحر متلاطم الأمواج، كنت أحاول العثور على شيء أتشبث به لكن لم يكن هناك مقابض، كنت أنقذف ذات اليمين وذات الشمال عند تحول الحافلة من مسار لآخر، حاولت الصياح بالسائق، لكنني لم أجد لديَّ صوتًا، وأخيرًا تحركت ببطء شديد تجاه مقدمة الحافلة، عند التقاء السقف بالنافذة الأمامية، ثم انحنيت وحدقت عبر الزجاج الأمامي، ففوجئت بأن السائق ليس موجودًا».

كلما راود بيتر هذا الحلم استيقظ مرتعبًا، فتحدثنا عن حياته وجوانبها المحتملة المشابهة لتلك الحافلة، الخارجة عن السيطرة، وحين قال إنه عاجز عن بناء علاقة أشرت إلى أن ذلك ليس صحيحًا، وإنما هو عاجز عن ممارسة **الجنس**، فهو لديه علاقة بي، وأخته، وبأعضاء فرقته، الذين يبدو أنهم يحبون بيتر ويحترمونه، لقد كان أعضاء الفرقة يتواصلون عبر موسيقاهم، ولم يواجه بيتر مشكلة في فعل ذلك، بل كانت موسيقاه حميمة وتصل إلى قلوب كثير من الجماهير، إلى جانب أن الوقت الوحيد الذي لا يصاب فيه بتبدد الشخصية كان هو الوقت الذي يعزف فيه بالبيانو، مهما كان حجم الحضور.

لكن بيتر عقَّب بأنه لم يكن لديه مشاعر حقيقية تجاه الآخرين، فأنَّى له تكوين علاقة حقيقية؟ حين غادرت ميلاني برفقة رجل آخر في الحانة لم

يشعر بالحزن، كان هذا ما حدث ليس إلا، بل حين كان يرى صورته مطبوعة على غلاف إحدى المجلات الموسيقية المشهورة لم يكن يشعر بالسعادة، وحين يريها لأمه تقول إنه لا يقرأ مجلات الموسيقى سوى مدمني الأفيون والأمريكان الشماليين الأغبياء.

***

في النصف الثاني من السنة العلاجية الثالثة وقع شيء أحدث تحولًا جذريًا في حياة بيتر وأخته، وتبين لاحقًا أن هذه الحادثة كانت نقطة محورية في العلاج.

كانت أخت بيتر طفلة هادئة، تجلس في مقصورتها الخاصة داخل المطعم، ترسم وتلون، وبهذا كانت الإنسان الآلي الصامت المطيع الذي طلبته أمها، ولكن خوفها كان أقل بكثير من خوف بيتر، فهي لم تُحبس قط، كما كانت قادرة على التفاعل مع الزبائن واستقبال المودة منهم، وحين بلغت مرحلة الرشد ظلت هادئة ومتمايزة، لكنها لم تسمح قط لأمها بإساءة معاملة ابنتها، بل كانت تفعل كل ما يلزم مكشرة عن أنيابها لحماية ابنتها، كان بيتر يزور ابنة أخته ذات الثلاثة أعوام ويستمتع بالتواصل معها، ويتعلم السلوك الطبيعي من خلال مراقبة أخته وهي تتفاعل بمحبة مع ابنتها الصغيرة.

ذات يوم شدت ابنة أخته وعاء الفلفل الحار الموضوع على الموقد، فتسبب ذلك في حروق بالغة في جسدها، وتوجب حجزها في المستشفى، تلك الحروق سببت صدمة نفسية للجميع، ثم أخبرني بيتر أنه، وأمه، وأخته ذهبوا إلى المستشفى معًا لزيارتها في جناح الحروق، ووصف لي أنه كان مذعورًا من مشاهدة الأطفال وهم يتلوون من الألم.

لكن أمه بدأت في التصرف بغرابة، ووصف ذلك قائلًا: «حين كنا نسير في الصالة بدأت أمي تضحك قائلة: «انظروا إليها!»، مشيرة إلى طفلة مصابة بجروح شديدة ومنهارة، فنظرت الممرضة إليها وقالت: «إما أن تتصرفي كالبشر وإما أن ترحلي»»، انصعق بيتر بأسلوب تحدث الممرضة لأمه، وعبر قائلًا: «فجأة تفجر في ذهني كل ما قلتِه عن أمي، صدقي أو لا تصدقي، لقد واصلت الضحك، فقالت الممرضة أنها إن لم تتوقف ستُحضر لها أفراد الأمن، آنذاك احتشدت باقي الممرضات، أما أختي فقد ظلت تتفرج في صمت فحسب، حينئذ شعرت بالأسف الشديد على تلك الطفلة الصغيرة ذات الندبات

الفظيعة، فانفجرت غضبًا على أمي قائلًا: «ما خطبك؟ هؤلاء الأطفال يعانون، اخرسي الآن وإلا اركبي حافلة حالًا وعودي للمنزل»، فالتزمت الصمت، ووضعت أختي يدها على ظهري، كنوع من الدعم».

للمرة الأولى كان بيتر واعيًا بغضبه من أمه (لا أستطيع تخيل مقدار الغضب اللاواعي الذي لا بد أن كان بداخله)، فأشرت إليه أنه رغم عدم شعوره بغضب تجاه ما فعلته به فقد صار لديه الآن مشاعر غضب متاحة تجاه معاملتها لضحايا الحروق.

ثم سألت بيتر عن طفولتها، لحيرتي في سبب تصرفها بتلك الغرابة، فأشار ضمنيًّا إلى أن ماضيها غامض تمامًا بالنسبة له، لم يكن يعرف شيئًا عن أبويها ولا إخوتها، كل ما كان يعلمه هو أن لديهم أبناء عمومة في تورونتو، لكنها قامت بإقصائهم جميعًا، بعد استغلالهم حين احتياجها إلى مكان تمكث فيه بعد تبديد زوجها لأموال الأسرة، والآن بعد أن صارت ثرية وتمتلك عدة مبانٍ سكنية ترفض إقراضهم المال لإنشاء شركتهم خاصة.

أخبرني بيتر أن رؤيته لأمه وهي تتصرف بهذا الأسلوب المنعدم الإحساس تجاه هؤلاء الأطفال المجروحين قد أطلق العنان لغضب عارم تجاه ما كانت قد فعلته به، لذا رفض الذهاب إلى منزلها ثانية لتناول العشاء.

بدا على الأم التشوش نتيجة انسحاب بيتر، فبدأت توصل العشاء إلى عتبة بابه ثم تغادر، لكن بمرور الأيام صارت احتجاجاتها هوجاء، فكانت تهاتفه وتصيح به بأنه يجب أن يأتي لتناول العشاء، وفي نهاية المطاف وافق بيتر على زيارتها، ثم سعى -وفقًا لاقتراحي- لاستكشاف سبب تصرفها الفظيع في جناح الحروق، لكنه حين فتح الموضوع قابلته بالضحك المهووس ذاته، فاتّقد حنق بيتر من تلك القساوة وشرع في التعبير بحرية عن شدة تألمه من الطفولة التي عاشها، وإذ بأمه تهز رأسها مجددًا، ضاحكة، قائلة إنه لا يفقه شيئًا عن الطفولة الأليمة، ثم أضافت أنها قامت بحمايته من كل سوء.

فسألها بيتر عن ماضيها، لكنها همشت الموضوع، ولم تقل شيئًا سوى إن إعالة المرأة لنفسها هي أهم شيء، كيلا يصير معتمدًا على زوجه أبدًا، كما قالت إنها لن تكون أبدًا «زوجة ثانية».

استغرق الأمر بضعة أسابيع حتى كشفت الأم عن قصتها: كانت جدته لأمه «الزوجة الثانية» لرجل أعمال صيني في فيتنام (كانت العائلة من الصينيين

الأصليين، لكنها عاشت في فيتنام لبضعة أجيال)، وكانت الزوجة الثانية في تلك الظروف شيئًا ما بين الزوجة والعشيقة، حيث ينفق الرجل الثري على المرأة مقابل فترات جنسية متناثرة يقضيها معها، ولم يكن الأطفال جزءًا من تلك الصفقة، كانت جدة بيتر جميلة، وجوهرة في تاج زوجها، لكنه حين خسر أمواله ساءت معاملته لها، بعدما انهارت مكانته المجتمعية، وفقد علاقاته كلها بسبب تلوث السمعة، كما رفض الإنفاق على زوجته الثانية أو السماح بأي حقوق قانونية للطفل غير المخطط له (أم بيتر)، لم يكن بيتر يفقه شيئًا عما تعنيه أمه بلفظ «حقوق»، ونتيجة للحاجز اللغوي لم يستطِع استيعاب ذلك، وعلاوة على ذلك فلم يكن مسموحًا لجدته بالعمل، أو الحصول على ترخيص تجاري أو أوراق رسمية، لأن الزوجة الثانية آنذاك لم تكن شرعية من الناحية القانونية، وفي نهاية المطاف فتحت وكر أفيون غير قانوني «للمنحطين» الأجانب، الذي كان -وفقًا لتعبير أمه- بقعة «للرجال المحبين للأفيون الساخن»، صرح بأنه لم يكن متيقنًا مما يعنيه ذلك، لكنه استنتج أنه وكر للأفيون والدعارة حيث يحرق الزبائن الناس كنوع من الشذوذ السادي، كانت أمه تستجلب الأفيون إلى بيت الدعارة -أو وكر الأفيون- وهنالك يحرق الزبائن الفتيات -ومنهن أم بيتر- بالسجائر الصينية.

صحت منصعقة: «بيتر!»، ثم سألته هل كان الزبائن فرنسيين، فافترض أنهم كذلك، لأن ذلك كان في «مدينة سايجون» Saigon في العشرينيات والثلاثينيات، حين كانت فيتنام لا تزال مستعمرة فرنسية، وكان العرق الصيني -الذي يمثل أضخم أقلية في البلد- يدير كثيرًا من التجارات كانت وظيفة أم بيتر إسعاد الرجال، أن تتعرض للحرق وتفعل أشياء سيئة، أو أيًا ما كان معنى ذلك، فقد وصفت الأمر بالإنجليزية بقولها «الجنس المنحرف» و«احتراق الأفيون الساخن»، ثم حين رأت ضحايا الحروق في المستشفى بتورونتو تذكرت بيتها، ثم سأل بيتر أمه هل كانت جدته نفسها تتعرض للحرق، فردت بكل بساطة: «ليس كثيرًا، لأن الفتيات الصغار يستجلبن أموالًا أكثر»، حينئذ رغب في معرفة كم كان عمر أمه الصغيرة والفتيات الصغيرات الأخريات آنذاك، لكنها تجنَّبت الإجابة بقولها «لا أفهم إنجليزيتك» (وهي عبارة كثيرًا ما كانت تقولها إذا رغبت في التعتيم).

ثم قابلت أمه زوجها في وكر الأفيون، لقد كان هو وأخوه يعزفان موسيقى الجاز في إحدى الفرق الموسيقية التي تقيم في الشارع ذاته وتأتي للوكر من

حين لآخر للتدخين، وحين عرض عليها الزواج والمجيء معه إلى كندا انتهزت الفرصة. ثم أخبرت الأم بيتر أن كل ما كان يهمها طيلة حياتها هو جني المال حتى لا تصير «زوجة ثانية»، إذ لم يكن لديهن نفوذ ولا حقوق ويضطررن إلى القيام «بأعمال منحرفة»، وفي نهاية المطاف سألها بيتر سؤالًا مهمًا: «هل سبق أن حبستك أمك؟» فكان ردها غاية في الكشف.

قالت: «كلا، أنت محظوظ لأنني حبستك، أما أنا فقد كنتُ أجيرة طيلة حياتي»، لم يكن مني إلا أن هززت رأسي وحدقت إلى بيتر.

فقال لي بيتر: «أعلم، لطالما قلتُ إنها فعلتْ ما بوسعها»، ثم أضاف الفكرة العابرة الآتية: «أظن أن أحد أسباب كرهها لأبي وأبناء عمومتي أنهم كانوا يعلمون ماذا كانت».

- هل سبق أن كان لها أي صلة بالرجال بعد موت أبيك؟
- إطلاقًا، كانت ترتدي الملابس المستعملة حتى حين ذهابها إلى حفلات الزفاف، كما قصرت شعرها إلى حد بالغ، ومتى ما منحها أحدهم اهتمامًا تقول إنه لا يريد إلا مالها، مالها هو محبوبها.

فأوضحتُ قائلة: «المال هو ما يحميها من الإحراق، لقد حظيت بأم قدمتها سلعة للمُتعة السادية، ومتى ما رأت جدتك الحروق ضحكت مع زبائنها، تمامًا مثلما ضحكت أمك في المستشفى».

لم تكن أم بيتر المسكينة تفقه شيئًا عن التربية، إذ لم تحظَ قط بولي أمر محب. ثم قلت لبيتر بعد صمت طويل: «أشعر بالأسف على أمك أيضًا، فلقد حرمت من أحد المشاعر الأشد إشباعًا وإرضاءً لدى البشر، الغريزة الأمومية والاستمتاع بالأمومة»، **ليست** الغريزة الأمومية شيئًا موجودًا بطبيعته دون شروط معينة، وإنما يتوجب على الأم إيقادها باستدعاء ذكرياتها عن تعلقها بأمها هي، وبرؤية ذلك التعلق أمامها في أسرتها أو في موضع ما بالمجتمع لتحتذي به».

ظل بيتر صامتًا زمنًا طويلًا، وفي النهاية قلت: «لا أنفك عن التفكير في سخرية أمك من ضحايا الحروق، فلقد كانت **هي نفسها** ضحية حروق، لا شك أن الزبائن كانوا يسخرون منها، فحذت حذوهم ليس إلا، فرغم كل شيء فلقد كان الزبائن يدفعون مقابل الميزة المزعومة المتمثلة في إحراق الناس، لم تكن أمك تفقه شيئًا عن كيفية التعلق بك لأنها لم تتعلق بأمها، فلقد حظيت

بأم هجرتها وجدانيًّا حين كانت رضيعة، بل قدمتها سلعة للرجال الساديين، فلا عجب أن أمك تشعر أنها قد قامت بحمايتك بالإنفاق عليك طيلة حياتك وحبسك بعيدًا عن الأذى».

فقال بيتر: «كما ظلت تنفق على أمها أيضًا».

- لقد واصلت الإنفاق على الآخرين طيلة حياتها.

- لا شك أن بداخلها شيئًا تجاه الرجال، فلقد كانت على ما يرام مع أختي

- أكانت؟ لقد أمرتها بالتزام الصمت وعدم الحراك.

- إن الأمر الوحيد الذي علمت كيفية فعله هو الإعالة المالية، ولا عجب أنها مقتت أبي حين خسر المال، فليس هناك ما هو أسوأ من ذلك، ثم تنهد بيتر قائلًا: «لماذا تصيح بي طيلة الوقت وتخبرني أنني فاشل؟».

- لِمَ برأيك؟

- أظن أنها تعبر عن مخاوفها، إنها مرتعبة من موضوع الموسيقى، لأنها تظن أن الأفيون أو الإحراق يتبعانه.

فأومأت بالموافقة، وقد كانت مفارقة ساخرة أن هذا التفسير بأكمله صدر من صبي رسب في الروضة.

ظل بيتر سنوات عديدة يرى أن أمَّه محقة بلا شك بخصوص نقائصه، وإلا فلِمَ عاملته بهذه الطريقة؟ لكنه الآن أبصر أن سلوكياتها لم يكن لها أي صلة به وأنها بأكملها متعلقة بطفولتها المأساوية.

حاول بيتر أن يجري حوارًا آخر مع أمه بشأن طفولتها الباكرة، لكنها ظلت تنفر في مناقشة ذلك مجددًا، وأسمته «الماضي الميت»، ثم حين سألها عن شعور جدته حين رحيلها إلى كندا برفقة والده، قالت: «لم تكترث أمي، فكل ما كان يشغلها هو غليونها التالي»، لم يدرك بيتر أن جدته كانت مدمنة إلا في تلك اللحظة.

***

صار لدى بيتر استبصار أعمق بشأن أمه وبات يعيد تأطير نظرته لنفسه، وبهذا حان الوقت لتقديم أسلوب جديد للتعامل معها، فأعطيته كتاب «أسر مسممة» Toxic Parents لسوزان فوروورد، ولا شك أنه ضرب وترًا حساسًا لديه، إذ أخبرني أن أمه حين كانت تشير إلى ساعي البريد قائلة: «ذلك رجل

غبي، هذه الوظيفة تناسبك» كان يشعر برغبة شديدة في الصياح، لكنه الآن -للمرة الأولى- يقول لي: «لم أعد أستطيع تحمل نغمة الفشل التي ترددها».

كانت تلك أخبارًا رائعة بالنسبة لي، فلقد كان يتصرف كما يتصرف الطفل الطبيعي إذا واصلت أمه مناداته بالفاشل.

فجهرتُ بتساؤلي: «أنى لك كفها عن ذلك؟ فلا مشكلة لديها في الجدال، إنه أسلوبها الوحيد للتواصل الوجداني، لأنها لا تعلم كيفية التعبير عن قلقها أو مخاوفها أو مودتها، إذ لم ترَ أيًّا من ذلك قط».

- ينتابها الفزع حين تحمل أختي مولودتها الجديدة زمنًا طويلًا، بل تقول لها أشياء غريبة مثل: «لن تتعلم المشي إذا حملتها» و«ما دمتِ تحملينها كلما بكت فلن تتوقف عن البكاء»، لكن أختي لا تدخل في جدال معها أبدًا، إلا إذا فعلت شيئًا وقحًا مع ابنتيها فحينئذ تستشيط غضبًا، لذا تعلمت أمي ألا تتدخل، والآن لا تفعل شيئًا سوى هز رأسها حين ترى أختي محتضنة مولودتها».

حينئذ أشرت إلى أن أمه تستطيع تعلم تغيير سلوكها تجاهه، فرغم كل شيء فلقد نجح هذا مع أخته.

اعتنق بيتر النظرة المصيرية المتمثلة في أنه لن يستطيع تغيير أمه أبدًا، وأن ما يستطيع تغييره هو كيفية تفاعله معها، فاقترحتُ أن يخبر أمه أنه يحبها ويقدر كل ما فعلته من أجله، لكنه لم يعد يطيق أن تتحدث إليه بازدراء، ثم أخبرتُه أن عليه أن يشرح لها معنى الوقاحة بالنسبة له، وأنها لو حطت من شأنه -كقولها إنه عازف منحط مثل أبيه- سيغادر ولن تراه أسبوعين. كان هذا صعبًا، لأنهما يعيشان في شقتين قريبتين جدًّا من بعضهما، إلى جانب أن بيتر حنون بطبعه ولم يرغب في جرحها، لكنني طمأنته بأنها بمرور الوقت ستستوعب الرسالة المنطوية على ما يمكنها وما لا يمكنها قوله، وحاولت إثبات ذلك له بتذكيره بأنها قد تعلمت عدم التدخل في الأسلوب الذي تستخدمه أخته في التربية، وأنها رغم مجيئها إلى كندا دون القدرة على التحدث باللغة ودون تعليم فقد تملكت أمه عقارات فاقت ما تملكه معظم الكنديون، إذن فهي تستطيع استيعاب تفاصيل الموقف.

كان بيتر نافرًا من محاولة هذا البرنامج، إذ لم يكن مقتنعًا بأنه سينجح، وقال إنه لو تحتم عليه إفراغ المحيط الأطلنطي من رمله تمامًا، جردلًا جردلًا،

لاستطاع فعل ذلك بالمثابرة ليس إلا، لكن حين يأتي الأمر إلى علاقته بأمه فهو يشعر أنه يرى المحيط والرمل لكنه لا يملك جردلًا، رأيتُ أنه يشعر بالتعب والإحباط، فأخبرته أنني بجانبه، وأنني سأقدم له جردلًا وسنحفر معًا، فوافق على المحاولة.

***

كانت إحدى الخطوات الإيجابية التي اتخذها بيتر هي مشاركة نجاحه المهني مع أخته، حين رأيتُ مقالًا جديدًا عنه وعن فرقته في إحدى المجلات الموسيقية اقترحتُ عليه تأطير تلك الصورة وإهداءها لأخته بصفتها هدية الكريسماس، فكانت استجابته نموذجية، أنه لن يفعل ذلك أبدًا، وأنها لن ترغب فيها، لكنني أوصيته بالقيام بتلك المجازفة، فوافق، حينما أهدى الصورة المؤطرة لأخته وزوجها لاقت حبهما، لدرجة أنهما علقاها في غرفة المعيشة، وبعد ذلك شرعا في حضور بعض حفلات بيتر.

اتضح فيما بعد أن تلك الصورة مثلت عاملًا حفَّازًا لتغيير الدينامية الجارية بين بيتر وأمه: في عشاء عيد ميلاد زوج أخته قالت أمه إنها لا ترى سببًا لتعليق أخت بيتر صورة ذلك المنحط، فأخبر بيتر أمه أن كلامها يزعجه، ثم نهض وغادر، كانت تلك إحدى المرات القليلة التي عبر فيها بيتر عن احتياجاته، لقد أخبرني أن ذلك كان مرعبًا، وأنه افترض أن لا أحد منهم سيفهم سبب مغادرته، لكنه انصعق في اليوم التالي حين هاتفته أخته وزوجها ليخبراه بما قالاه لأمه، أنها لو تنوي الاستهانة بإنجازات ابنها فلن تكون محل ترحاب في بيتهما.

لكن هذا ليس كل شيء، فلقد أخبرته أخته أنها على دراية بأنه كان ضحية لانتهاك الطفل، وأبلغني بيتر قائلًا: «أصابني الذهول فور سماع هذا ودافعت عن أمي، لكن أختي -الوديعة في العادة- أخبرتني أنني بحاجة إلى مواجهة ما قد حدث لي، وأبلغتني أن أمي اصطحبتني ذات مرة إلى طبيب أطفال حين كنت في سن الثالثة تقريبًا وأن أختي جاءت معنا لتقوم بدور المترجم، فقال الطبيب إن شكل جمجمتي المسطح لا يروق له ثم سأل هل أخرج من مهدي بما فيه الكفاية، فابتسمت أمي فحسب وتجاهلته»، فأرادت أخته أن تخبر الطبيب عن الوضع الحقيقي لأنها تعلم أن ذلك ليس صائبًا، ثم قال بيتر: «لكنها علمتْ أنها بهذا ستكون خائنة لأمها، بالإضافة إلى أنها ستبرحها

ضربًا، لذا التزمتْ الصمت، ثم صرحت أنها تشعر بالذنب منذ أعوام عديدة لأنها لم تصرح بالأمر».

أصبحت سياسات بيتر الجديدة إثر واقعة منزل أخته أنه لو قالت أمه شيئًا مدمرًا لرجولته سينهض ويغادر، ولن يقدم أي توضيح، فاستحسنتُ هذا التكتيك، وقلت له: «صدقني، ستستوعب أمك ذلك، فالفئران والجرذان تستجيب للتعزيز الإيجابي والسلبي في نهاية المطاف».

بدأت أم بيتر رويدًا رويدًا في الكف عن إهانته ومطالبته بالحصول على وظيفة مختلفة والزواج من فتاة صينية، لم تتحول قط إلى أم ودودة، لكنها تعلمت -بواسطة تعديل السلوك- ما ليس مسموحًا لها فعله إن كانت تنوي استدامة صلتها بابنها، كانت تبغض الوحدة، وترغب في منح بيتر الطعام والمأوى، لكن رفضه لذلك منها سيؤدي بها إلى البؤس في وحدتها الموحشة، لأنها ترى أن تلك هي مهمة الأم.

***

لقد حظينا بعام علاجي مليء بالأحداث والثمرات، حيث اكتشفنا طفولة أم بيتر ومدى الدمار الذي سببته لها، صار يتبدل بين الغضب والأسف عليها، وبدأ في إدراك أن ردود فعلها تجاهه لا صلة لها به على وجه الخصوص، إلى جانب أن دعم أخته له قدم له مساندة معززة، لقد صُعق حين قالت إنه ضحية لانتهاك الطفل، لكن هذا ساعده على فهم سبب وجود مشكلات كثيرة في حياته، هذا وقد تمسك تمسكًا صارمًا بالقواعد التي وضعها لأمه بخصوص التواصل ورأى النتائج في تحسن سلوكها، أي شيء يمكن تحقيقه أكثر من هذا؟



4

هجمة مباغتة

لا عجب أن بيتر بدأ يتفكر في الكيفية التي يعامله بها الآخرون خارج الأسرة إثر شروعه في إدراك ماهية السلوك ووضع حدود لأمه، لقد كان مضطرًا إلى تحمل قدر كبير من السلوكيات الاستحقاقية التي يفعلها المغني الرئيس بالفرقة، دوني، الذي يعامل بيتر باحتقار، والموهوم بأن الجمهور لا يأتي إلا لأجله، أما الفرقات الموسيقية الأخرى فقد كانت تتعامل مع بيتر في حفلات الاستضافة باحترام أكبر مما يتعامل به دوني معه، لكن بيتر في نهاية المطاف تصدى له، معلنًا أنه لم يعد بإمكانه طلب أو رفض المقطوعات الإضافية الختامية بمفرده، وأنهما من الآن فصاعدًا سيشتركان في اتخاذ تلك القرارات.

كان دوني في السابعة والثلاثين من العمر، وعلى الأرجح مدمنًا للخمر، يفتخر بعشقه للحفلات، وراغبًا في أن يكون أحد عازفي الروك أند رول، وفي ممارسة الجنس في كل مدينة يعزفون بها، لكن الخطأ الوحيد في شخصيته المظهرية المنحوتة بعناية أنه كان متزوجًا من أماندا منذ تسعة عشر عامًا ولديه ابن في الرابعة وابنة في السادسة من العمر، كما كان بيتر -الذي يعرف دوني وأماندا منذ المدرسة الثانوية- شديد الاستياء من كثرة كذب دوني على زوجته، وطلبه من بيتر أن يتستر عليه بالكذب عليها هو أيضًا.

أخبر بيتر دوني -في سعيه الجديد إلى أن يكون نفسه ويعبر عن احتياجاته- أن أماندا لو سألته فلن يكذب عليها بشأن الفتيات اللاتي يقابلونهن في رحلاتهم، لقد كانت أزمة الإيدز في أوج شدتها، ورأى بيتر أن دوني لم يكن حريصًا بما فيه الكفاية، فقال له دوني إنه ظن أنهما أصدقاء، فاتفق بيتر مع ما قاله، لكنه أخبره أن صداقتهما لا تتضمن الكذب على أماندا.

حين يعيش الأطفال داخل عائلات مسيئة كما في حالة بيتر، أو معطوبة كما في حالة لورا، يلاقون صعوبة في وضع الحدود، ذلك لأن أبويهم لم ينصتا لاحتياجاتهم، فلا يدركون أن العالم سيسمح لهم بوضع بعض القواعد المتعلقة بالانخراط الاجتماعي، لذا يتحتم عليهم إدراك أنهم غير مضطرين إلى أداء كل مهمة نيابة عن جميع من حولهم، ولذلك سررت بأن بيتر يضع حدودًا صارمة لدوني.

أسرت أماندا لبيتر بشأن شدة تجاهل زوجها لها وللأطفال، وذات مرة جاءت إلى استوديو التسجيل بمنزلهما في أثناء ما كانوا يتدربون وطلبت من دوني أن يأتي للطابق العلوي لحفلة عيد ميلاد ابنهما، فرفض دوني، وحين أصرت رفع يده ليصفعها، فطار بيتر من كرسيه واشتبك مع دوني، وقال إنه سأم من كون دوني «وغدًا».

كان هذا الغضب مرتبطًا بشيء آخر يزعج بيتر منذ سنوات، فلقد كان متعجبًا كيف اقتدر دوني على شراء منزل واستوديو متطور لتسجيل الصوتيات في حين كان هو بالكاد قادرًا على كسب قوت عيشه، فرغم كل شيء فكلاهما لديه الإصدارات الصوتية ذاتها، لذا طلب بيتر في نهاية المطاف الاطلاع على الحسابات.

بدا لي أن دوني كان يغش بيتر، لكنه حجب مشاعره تجاه ذلك، مثلما حجب مشاعره تجاه باقي الأمور، فهنأته على استجابته لمشاعره، ثم أخبرني بأن أحد الأشياء التي كانت أمه محقة بشأنها هو أن دوني لص، لقد ظل يسرقه ستة عشر عامًا، آنذاك كنت متابعة لأخبار الفرقة في وسائل الإعلام، فأشرت إليه أن الصحف نادرًا ما تذكر دوني، وأن جلَّ تركيزها منصب على بيتر.

كان بيتر ينمو وجدانيًا، فاتخذ آنذاك قرارًا مهمًا، مغادرة الفرقة وتكوين مجموعته الخاصة، مصطحبًا معه العضو البارع الآخر في الفرقة، وفي نهاية

المطاف حقق نجاحًا ماديًّا كبيرًا فلم يعد مضطرًا إلى العمل في إصلاح آلات البيانو، وصار عازفًا بدوام كامل.

***

لم يكن بيتر الوحيد الذي استجمع شجاعته لفراق دوني، فلقد رفعت أماندا دعوى الطلاق وحضانة الأطفال، ولم تتوقع أي معارضة من زوجها، بل أعطاها دوني مالًا مقابل استغنائها عن نصيبها في المنزل فانتقلت إلى إحدى المباني السكنية التي تمتلكها أم بيتر، وسكنت في الطابق العلوي لبيتر، ثم قامت بتوسيع أعمالها الناشئة في مجال المحاسبة، وكانت من حين لآخر تطلب من بيتر مراقبة الأطفال في أثناء مقابلتها للعملاء، بدأ بيتر في الارتباط بالأطفال، بل أخذ يعلِّم البنت ذات الستة أعوام عزف البيانو، لم تكن أماندا قادرة على الدفع له مقابل ذلك، لذا اتفقا على أن يكون درسًا مجانيًّا كل أسبوع في مقابل وجبة طعام بيتية.

ثم بدأ بيتر في اصطحاب الأسرة إلى الحفلات الموسيقية مثل «ديزني على الجليد» Disney on Ice و«كسارة البندق» The Nutcracker، كما كان يلعب هوكي الشارع مع ابن أماندا، وقد استجاب الطفلان -المشتاقان إلى الاهتمام الذكوري- بحماس إلى حنان بيتر واتساقه.

اعترف لي بيتر في إحدى الجلسات أنه منجذب لأماندا وأنه كان كذلك منذ الثانوية، قبل زمن طويل من زواجها بدوني الجذاب السطحي.

لكن أم بيتر كانت مستشيطة غضبًا من تلك العلاقة، قائلة إن أماندا لا تريد إلا وراثة ممتلكاتها، وأنه ينبغي لبيتر البحث عن فتاة صينية، فأشار إلى أنه لا يستطيع تحدث الصينية، ولا يعلم أي فتاة صينية غير أخته.

حين أتت «فرقة الرولنج ستون» Rolling Stones طلب بيتر من أماندا مرافقته، وطمأنني بأن هذا ليس موعدًا غراميًّا، ولكنه خائف من أن يغير من علاقتهما، وأن أماندا قد تظن أنه ينطوي على الجنس، كما اعترف أن لديه خيالات جنسية بشأنها لكنه لم يسعَ إلى تحقيقها لخوفه الشديد من الفشل، كما قال: «إنها جارتي وصديقتي منذ الصغر، بالإضافة إلى أنني أحب طفليها، وقد يتبخر كل هذا سدى».

استطعتُ فهم حذر بيتر، إذ أن فشل اللقاء الجنسي يمكن أن يسبب له تأخرًا كبيرًا، لكن هذه هي المشكلة التي جاء بها إليَّ منذ أربع سنوات!

فاقترحتُ أن يراقب بيتر بعناية ما تفعله أخته -التي كانت أمًّا جيدة- مع ابنتها الوليدة، فأبلغني بهذه السلوكيات التعلقية: الحمل، إصدار الأنغام الرقيقة، مشابكة الأيدي، الاستلقاء معًا، الابتسام، الدردشة، والتهدئة حين البكاء، فجازفتُ باقتراحي أنه إن كان ينوي ابتداء علاقة رومانسية مع أماندا فيمكنه فله أن يفعل معها بعض الأمور التي تفعلها أخته مع ابنتها، ثم أخبرته بأنه بحاجة إلى خطوات صغيرة بطيئة، إن الشعور الجنسي لا يُبنى في يوم وليلة، لذا يجب عليه أن يتعلم كيفية التعلق، وكيفية الوصول إلى الحميمية الجسدية، والجنس ما هو إلا تراكم لجميع السلوكيات الترابطية السابقة.

قال بيتر إن بعضًا من تلك السلوكيات ثقيلة جدًّا عليه، فمثلًا: هو لا يستطيع النظر في عينيها، بل يصاب بالتوتر بمجرد التفكير في ذلك.

لذا أعددنا قائمة، تسلسلًا هرميًّا للحميمية -من الأشد إلى الأخف- حيث وضعنا الجنس في القمة، نزولًا إلى مشابكة الأيدي، ثم إلى أسهل شيء، وهو التعبيرات اللفظية عن المودة، واقترحتُ أن يحاول بيتر إجراء بعض من السلوكيات التعلقية الموجودة في قاع الهرم مع ابنة أخته الوليدة، إلى أن يشعر أنها صارت سجية له، ثم طمأنته بخصوص موعده الغرامي مع أماندا، أن لا ضغط عليه في التنفيذ، وإنما الضغط موجود في ذهنه أكثر من ذهنها.

أبلغني بيتر لاحقًا بأنه ذهب برفقة أماندا إلى الحفل الغنائي واستمتعا، ثم حين عادا استلقيا على الأريكة، لكن ابن أماندا انبعث من غرفته راغبًا في معرفة كل ما حدث هناك، فشعر بيتر بالارتياح، ثم صرح بشعوره أنه كان في موعد غرامي ولم يرغب في المجازفة أكثر من ذلك.

ذكر بيتر في الجلسة التالية أمرًا أزعجه، أنه إثر فراغه من درس البيانو لابنة أماندا ظلَّا منتظرين حتى انتهاء أماندا من إعداد العشاء، وإذ بأحد عملائها يطرق الباب ليوصل إليها بعض دفاتر الحسابات، فقدمت أماندا بيتر إليه بقولها «هذا ابن صاحبة الشقة»، ثم أكملت حديثها مع العميل، اندهشتُ بعض الشيء من شدة غضب بيتر، فلقد مرَّ في حياته بما هو أسوأ بكثير من ذلك، لكنني سبق أن رأيت هذا الأمر في ممارستي المهنية، حين يفتح الشخص سدوده الوجدانية لأول مرة يندفع قدر كبير من المشاعر خارجًا بحيث يصعب إيقاف ذلك التيار المتدفق.

ظل بيتر هادئًا خلال العشاء، فانتبهت ابنة أماندا لانزعاجه، ثم سألته ما خطبه، فقال بيتر إنه لم يعجبه تقديمه بوصفه «ابن صاحبة الشقة»، فردت البنت قائلة: «كان ينبغي لماما أن تقول «مدرس البيانو الخاص بي»».

فقال بيتر: «أو صديق العائلة».

لم تنبس أماندا ببنت شفة خلال ذلك كله، بعد ذلك أضافت البنت قائلة: «أو «صديقي»».

تأثر بيتر من التواصل الوجداني المنبعث من الطفلة الصغيرة لدرجة أن عينيه اغرورقتا بالدموع، فرد قائلًا: «ولراق لي ذلك».

لكن أماندا -مجددًا- لم تنطق بشيء، استأذن بيتر بعد العشاء، قائلًا إنه يجب أن يتدرب، وودعته أماندا وداعًا باردًا.

بعد بضع ليالٍ طرقت أماندا بابه قرابة الساعة الحادية عشر، ولم تقل شيئًا سوى أنها جاءت متأخرة لأنها اضطرت إلى إنامة الطفلين، ثم جلست على الأريكة والدموع تنهمر من عينيها، لكنها رغم ذلك لم تنطق بشيء، أخبرني بيتر أنه أمسك يدها بسهولة ولف ذراعه حولها، وأنها أسندت رأسها إلى كتفه، ثم ظلا جالسين بتلك الهيئة طويلًا إلى أن غادرت، قائلة إنها مضطرة إلى العودة للبيت تحسبًا لاستيقاظ الطفلين.

فسألته: «ألم ينطق أي منكما بشيء؟».

- كلا.

فسألت بيتر عن شعوره، فقال (بنبرته المعتادة المفتقرة إلى التعابير): «كانت تلك أسعد لحظات حياتي».

حين عاد بيتر بعد أسبوع لإعطاء درس بيانو آخر أخبرته أماندا أن الطفلين في بيت أم دوني هذا الأسبوع، وأن تلك أول استراحة لها منذ الطلاق خالية من الأطفال، ساعدها بيتر على إعادة الألعاب إلى مواضعها وتنظيف المكان، ثم خرجا لتناول العشاء وتشابكا الأيدي خلال عودتهما للبيت.

تذكر بيتر بوضوح شديد كل ما حدث في تلك الأمسية، كأنها فيلم قد شاهده مرارًا وتكرارًا، لقد شاهدا «مسلسل ساترداي نايت لايف» Saturday Night Live لمشاهدة الفرقة الموسيقية التي يحبونها، ثم ذهبت أماندا إلى الحمام وطال غيابها جدًّا، وفي نهاية المطاف خرج بيتر إلى الصالة

فسمع صوتها تقول: «أهلًا، تعالَ وادخل»، كانت مستلقية في سريرها، مرتدية ملابسها، تدخن سيجارة محشوة، فقالت: «لا أستطيع فعل ذلك إلا حين لا يكون الطفلان بالبيت»، ثم شغلت إحدى الأسطوانات المدمجة، وظلا يستمعان إليها وهي مسندة رأسها إلى صدره، ثم أخبرته بأن دوني كان يقول إنها باردة للغاية، أما الآن، بعد رحيله، لا تشعر أنها باردة، وحين تقرأ الكتب أو تشاهد الأفلام تراودها مشاعر رومانسية، لكن هناك أمرين كانا قد حدثا لها في صغرها، لقد تعرضت لانتهاك جنسي من أحد أفراد العائلة، ثم أحبلها دوني -خليلها الأول والأخير- في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، فتزوجته، لكنها فقدت الجنين في الشهر السابع.

فقال لي بيتر: «قلت لها لا شك أن ذلك كان شديد الفظاعة، فقالت إن الجنس مخيف بعض الشيء بالنسبة لها، فأدركتُ أنها تعتذر لي عن عدم ممارسة الجنس قبلًا»، ثم قرر بيتر أن يخبرها قليلًا عن مشكلاته، لكن ليس بالقدر الذي يخيفها، فقال إنه ظل معزولًا لزمن طويل في طفولته وأن التروِّي يسعده، وأخبرني أن أماندا بدا عليها الارتياح، وبعد صمت طويل أخبرته عن إعجابها الشديد بموسيقاه، ثم قال: «ثم أخبرتني أن ابنتها سألتها عما إذا كان لديَّ خليلة صينية»، فأجابتها أماندا أنها لا تدري، فقالت ابنتها إنها ستبحث عن إحداهن في باحة السيارات، ثم نظر بيتر إليَّ فلمحتُ على وجهه ابتسامة لم أرَها قبلًا، ثم قال: «أخبرتها أنها ستظل تبحث طويلًا لأن خليلتي هنا».

سعدت كثيرًا لبيتر، وأخبرته أن بعض الناس يمارسون الجنس لكن لا يعيشون الحميمية الوجدانية طيلة حياتهم، كان كل من بيتر وأماندا أمينًا مع الآخر وبهذا صارا حميميْن وجدانيًا.

بعد بضعة أسابيع أبلغني بيتر أنه خاض لقاءً جنسيًا مع أماندا، كانا مستلقيين على السرير معًا ويدخنا سيجارة محشوة وإذ بأماندا تسأله هل لديه مانع في أن تخلع بلوزتها، أخبرني أنها كانت ترتدي حمالة صدر جميلة، فبدأ يشعر بالإثارة وبدأت هي تفكك أزرار قميصه، ثم علَّقت على أنه ليس لديه شعر صدر كثيف، فوصف لي ذلك قائلًا: «بعدما قالت ذلك شعرت بأنني غير كافٍ، وأنني فاقد تمامًا للسيطرة، ثم شعرت بنوع من الدوار، لكنني تمكنت من الرد بقولي إن الصينيين لا يكون لديهم شعر كثيف في منطقة الصدر»، فأومأت أماندا برأسها فحسب، وقالت: «امم»، بعدها شعر بالانطفاء، لم تخمد الإثارة فحسب بل بدأ جسده بأكمله في الانكماش، ووصف ذلك قائلًا: «كنت

أفارق جسدي بهدوء، وراودني ذلك الشعور الذي كان يراودني في السقيفة حين كانت أمي تأتي وفي يدها السوط الخيزراني، حينها لم أعد في جسدي»، وبهذا كان بيتر عبارة عن صبي وحيد في زاوية الغرفة ينظر إلى النسخة الراشدة من نفسه الجالسة على السرير مع أماندا، ثم قال: «وما إن اقتدرت على التقاط أنفاسي استأذنت للنهوض ثم عدت للبيت».

حين تحظى بأم انتقادية أو -كما يقول فرويد- «إخصائية» تصير مفرط التأهب للانتقاد، بل إن مجرد كلمة غامضة بعض الشيء مثل «امم» تجعلك تنكمش كسلحفاة، لذا أخبرتُ بيتر بأن عليه التحدث عن مشاعره مع أماندا.

كان التعبير عن المشاعر بمنزلة مخاطرة كبيرة لبيتر، لكنه بعد بضعة أيام ناقش فعلًا ذلك الموقف مع أماندا، كان شديد القلق من الإصابة بالدوار، لكنه تحلى بالشجاعة ومضى قدمًا، ثم اتضح أن أماندا ظنت أنه غادر لأن جسدها لم يعجبه، في حين أن بيتر رأى أنها قصدت أنه ليس رجلًا لأن شعر صدره ليس كثيفًا، كانت تلك الحادثة شبيهة بعض الشيء بقصص أوليفار هيناري، الزخيرة بسوء الفهم، ثم ضحك كل منهما على حساسيتهما المفرطة المشتركة.

جاءت أماندا في اليوم الأول من شهر أبريل إلى باب بيتر مرتدية معطفها الشتوي الطويل لتخبره بأن بطارية سيارتها قد نفدت، فأحضر بيتر سلك التوصيل لشحن البطارية، فأخذته منه، لكنها أشبكت أحد الطرفين بقميصه، وأشبكت الطرف الآخر بها، ثم أسقطت معطفها، وصاحت: «كذبة أبريل!»، هوى كل منهما على الأريكة، يضحكان ويتعانقان ويتبادلان القبلات، لم يحظ بيتر ولا أماندا بالمرح في صغرهما، لكنهما الآن تمكنا من الاسترخاء والاستمتاع بوقتهما، ثم تطورت الأمور حتى استمتع بيتر، أخيرًا، في سن الثامنة والثلاثين، بممارسة الجنس مع امرأة.

لكن بيتر لم يكن يحظى بخبرات جنسية رائعة في كل مرة بعد تطور علاقته بأماندا، وأدرك أنه ينبغي أن تكون الظروف مثالية، فلو كانت هناك مشكلات غير محلولة بينهما فلن يستطيع الشعور بالإثارة، وبهذا توجب عليهما حل كل خلاف كبير وصغير والشعور بالحميمية الوجدانية حتى يقتدرا على بلوغ الحميمية الجنسية، كان بيتر شبيهًا بزهرة السحلبية النادرة التي لا تزدهر إلا حين تكون الظروف مثالية.

استمرت أم بيتر في مجادلته بشأن أماندا، فأخبرها أنها إن لم تتوقف سيغادر المبنى، فسخرت منه، فقال لي بيتر: «لقد حذرتها، لكنها ترى أنني لست مجنونًا فلن أستأجر أبدًا شقة مع توفر المكان المجاني، تظن أنها أوقعتني في مأزق»، بعد ذلك جاءت أمه لإيصال الطعام له ولم تقل حتى مرحبًا لأماندا، وكانت تلك القشة التي قسمت ظهر البعير، غادر بيتر وأماندا والأطفال ملكية أمه ليعيشوا معًا في منزل مستأجر، وقال: «علمت أنني يجب علي تنفيذ تهديدي وإلا استخفت بي»، لكنه ظل يزورها كل أسبوع لتناول الطعام، عاش بيتر في سعادة مع أماندا واستمتع بكونه أبًا للأطفال، ومباريات الهوكي، ودروس العزف، ورابطة الآباء والمعلمين.

لقد عاش بيتر أبشع أنواع الجحيم، ورغم ذلك فقد صار الآن يرى أحلامًا يقود فيها الحافلة حرفيًّا، ولكن الطريق أحيانًا ما يكون شديد الضيق بحيث يستطيع بالكاد تسيير الحافلة في ممرها، أو يضطر إلى التوقف جانبًا، وفي أحد أحلامه وجدني معه أوجهه خلال ممر ضيق بين المنازل، لكنه جاهد ونجح دون تدمير الحافلة، أو الارتطام بشيء، أو الوصول إلى طريق مسدود، حينئذ أخبرته أنها إشارة لكلينا بأن العلاج النفسي قد انتهى، وأنه الآن يستطيع قيادة حافلته بمفرده دون التعرض للأذى.

***

لقد جاء بيتر إلى العلاج النفسي معتقدًا أن أمه لم تكن مخطئة في حبسه بالسقيفة، فتوجب علينا إعادة تأطير تلك الخبرة بوصفها انتهاكًا، ثم استحثاثه على استيعاب أن عواقبها سببت له الرسوب في الروضة، والمعاناة من الوحدة، والعجز الجنسي، ثم تولد فجره من رحم ظلامه فور رؤيته لأفلام هارلو التي تصور الدور المركزي للتعلق الأمومي، حينئذ توقف عن لوم نفسه، وقلَّت نوبات تبدد الشخصية، كما أن إدراكه للانتهاك الذي تعرضت له أمه في فيتنام أدى إلى تقليل ارتهابه منها، وأعتقد أن خطواته الأخيرة، المتجسدة في موقف شعر الصدر، كانت تحديد مشاعره، وتقدير قيمتها، والتعبير عنها، فلقد تمكن من ممارسة الجنس إثر تعافيه من تبدد الشخصية واقتداره على الشعور، وبهذا انتقل إلى جسده وإلى التشخص.

لقد ثبت أن الطرح الذي نشأ لدى بيتر في العلاج النفسي -حيث صورت الأم التي لم يحظ بها يومًا- كان ناجحًا، فلقد اقتدر على معاودة عيش كثير

من كوابيس طفولته في أثناء وجودي لأخفف عنه وأتعاطف معه، والآن صار نافرًا من مغادرة العلاج النفسي نظرًا لتعلقه بي، فأخبرته أن بمقدوره البقاء ما دامت رغبته، لكنني رغم كل شيء لست سوى أم قماشية، إلى جانب أن الراشدين يضطرون إلى فراق أمهاتهم وخوض غمار العالم الفسيح بأنفسهم، وأنه -دون أي اعتراض- خاض غمار العالم بمفرده بكل شجاعة.

***

يمكن أن يكون الناس أبطالًا بطرق مختلفة إلى حد الإدهاش، لم يكن بيتر -خلافًا للورا- محاربًا ساطعًا، بل تجسد شرفه في قدرته على الغفران، لقد ذكرني ببطلي الأول من أيام المدرسة الكاثوليكية -يسوع المسيح- الذي قال: «اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»، من السهل أن يتقلد المرء دور الضحية، لكن بيتر غفر للناس آثامهم، وأخذ ينزع الشوك من تاجه شوكة شوكة، ثم انبعث للحياة مجددًا بعد العلاج النفسي رجلًا أحرز نجاحًا باهرًا في ميدان الموسيقى، وأحب خليلته الجديدة، واستمتع بكونه أبًا للطفلين، وحافظ على حياة جنسية حميمة، وحقق أقصى سلام ممكن مع أمه.

أعتقد أن طبيعة بيتر الغفرانية كانت أشد ما نفعه في تعافيه، فلقد أحرز بيتر تعافيًا خارقًا للعادة، مقارنة بالآخرين الذين تعرضوا للحبس في المرحلة العمرية نفسها وللمدة نفسها، حيث أزاح الصخرة من قبره وانبعث للحياة مجددًا شخصًا شاعريًّا.

أخبرني بيتر ذات مرة أنه لو اضطر إلى إفراغ شاطئ المحيط الأطلنطي من رمله جردلًا جردلًا لاستطاع فعل ذلك بالمثابرة، وهو الأسلوب ذاته الذي جاهد به للوصول إلى اتزانه النفسي، رويدًا رويدًا وبمنهجية، لا بضربة واحدة، وإنما بضربات صغيرة عديدة متتالية، لم يكن ليقتدر على إقناع أمه بأنها آذته، فلقد أصيبت بدمار شديد يمنعها من رؤية ذلك، لكنه اقتدر حقًّا على تدريبها على عدم مخاطبته بأسلوب يؤذيه.

كاد قلبي أن ينخلع لأجلها، فلا شك أنك ستتألمين لو أدركت أنك كنت أمًّا «سيئة»، رغم جهلك التام بضلالك الطريق، إذ لم تقدمه أمه سلعة للساديين قط -مثلما فعلت أمها- بل جاهدت طيلة حياتها لتوفر لابنها المأوى، معتبرة ذلك حماية له من الأذى، بل تركت لبيتر مالًا كثيرًا في وصيتها نظرًا لأنها

سبق أن كانت طفلة تعيش دون حماية ولا مال برفقة أم مدمنة، هذا ورغم أن مخزونها الوجداني كان محدودًا للغاية فقد تجلدت وقامت بحماية طفليها.

إن كل أشكال الإساءات التربوية منبنية على أجيال متماثلة، فهؤلاء المسيئون في الغالب قد تعرضوا هم أنفسهم للإساءات، وهذا ما يفسر عدم وجود أعداء في تلك الحالات، وإنما طبقات من العطب بحاجة إلى التفكيك.

في الكريسماس التالي -بعد عام تقريبًا من إنهاء بيتر للعلاج النفسي- دخلتُ غرفة الانتظار بعيادتي فوجدت هدية، حافظة صينية حمراء ذات غلاف جميل وشريط أرجواني، كان بداخلها أسطوانة مدمجة جديدة عليها صورة بيتر، الذي انتقل إلى شركة صوتيات كبيرة، وكانت الأسطوانة المدمجة موضوعة داخل دلو بلاستيكي أحمر تصاحبه مجرفة بلاستيكية زرقاء، كان جردل شاطئ، من النوع الذي يستخدمه الطفل لجرف الرمل على الشاطئ.

***

قابلت بيتر بعد خمسة وعشرين عامًا لتناول الغداء في مطعم فيتنامي، آنذاك بدا أطول كثيرًا مما أتذكر، ومصقول الجسد من ممارسة التمارين الرياضية، دخل المطعم يمشي مترويًا مع ابتسامة عريضة على وجهه، وعلى الفور أجرى تواصلًا عينيًّا ثم عانقني، كنت مسرورة بالقدرة التعبيرية التي اكتسبها.

ظللنا نتحدث بسلاسة لساعتين، واتضح أنه ظل مع أماندا ثمانية أعوام قبل أن تعود لزوجها دوني، الذي صار الآن متعافيًا من الإدمان، كانت تلك صدمة للجميع.

خاض بيتر إثر الانفصال حوارًا دينيًّا، ثم قال إنه شعر ذات يوم بأنه «مشحون بالطاقة الإيمانية»، فأخبرته عن مدى غرابة هذا الأمر نظرًا لأنني وصفت حنانه وغفرانه في هذا الكتاب بقلم مسيحي، فشعر بالإطراء لأنني رأيته كذلك، ثم أخبرني أنه أصبح ناشطًا في بضع حركات مسيحية وقابل امرأة في الكنيسة أحبها حبًّا بلغ درجة لم يكن يتصور أنها ممكنة، كانا يعيشان معًا منذ أربعة أعوام، ويخططان لحفل زفاف في الكنيسة.

تعب بيتر من كثرة الحفلات، والحانات، والسفر البري، لكنه ظل عاشقًا للبيانو، لذا تحول إلى إعطاء دروس تدريبية في مختلف بلدان العالم، كما

عمل استشاريًا لدى شركات البيانو في جميع أنحاء العالم، بل صار مشتهرًا وسط العامة بأنه الـ «3 ب»: «بيتر برفكت بيانو».

ماتت أمه بسكتة دماغية في سن الثامنة والسبعين، لكنها قبل ذلك بعشرة أعوام كانت قد بدأت في المعاناة من الخرف، ومن المثير للدهشة أن شخصيتها تغيرت تمامًا، إذ وصفها بيتر بأنها صارت «طائشة»، كشابة في موعدها الغرامي الأول، أصبحت تعامل الجميع بلطف ولم تعد مهووسة بمالها ولا بمستقبل بيتر وأخته، كما بدا عليها الامتنان متى ما زارها بيتر في دار المسنين.

إن أحد الأمور التي قالها بيتر وأدهشتني بشدة هي أنه لو اضطر إلى عيش حياته من جديد فلن يغير شيئًا واحدًا، فلقد عانى كثيرًا لدرجة أنني أصبت بالذهول، لكنه قال: «ماذا لو كنت قد ترعرعت كباقي الصبيان؟ ماذا لو لم أحبس حيث لم يتحدث إليَّ أحد؟ لما اضطررت إلى الاعتماد على البيانو في إمدادي بالراحة وإجراء المحادثات، أو كوسيلة للتعبير عن مشاعري، لما تعلقت -لأستخدم كلمتك- به أبدًا، ثم أكمل قائلًا إن عزفه للبيانو قد منحه أعظم بهجة في حياته، وأنه لو حصل على أصدقاء وتربية طبيعية لم يكن ليحتاج إلى ذلك، ثم قال: «الآن أحب ما أنا عليه، وأظن أن كل ما مررت به كان لغرض ما، أظن أن الله هو من خطط لذلك كي يجعلني الشخص الذي صرت إليه».

داني

"لا يمكن أن يشعر الإنسان بأنه حي داخل الغابة الاجتماعية للوجود البشري دون حسه بالهوية».

- *إريك إريكسون، «أزمة الهوية»* *Crisis of Identity*

1

تانيسي

كان داني منحدرًا من «شعب الكري» Cree، حيث الحياة البدوية، والتنقل في الأدغال، ونصب الفخاخ وصيد الحيوانات، وبيع الفراء سنويًا لـ «شركة خليج هدسون» Hudson's Bay Company، كانت عائلة داني تعيش في أقصى شمال «محافظة مانيتوبا» Manitoba بمعزل عن باقي كندا، واندهشتُ بأن يخطو إلى مكتبي شخص **عاش** حقًا هذه الحياة التي تمثل جزءًا مهمًا جدًا من تاريخ أمريكا الشمالية، كان داني في مرحلتي العمرية ذاتها تقريبًا، أي أنه وعائلته كانوا ينصبون الفخاخ للفرائس في الأدغال حين كنت أشاهد بالتيلفزيون الأفلام الهوليودية لـ «رعاة البقر والهنود الحمر».

كانت هذه حالة غير مسبوقة بالنسبة لي من نواحٍ عديدة، فقد أدركت رغمًا عني أن ثقافة العلاج النفسي بعيدة عن حالة داني لدرجة قاصرة عن مساعدته، آنذاك علمت شعور الإخصائي النفسي السويسري الشهير كارل يونج حين قضى بعض الوقت برفقة رجل من السكان الأصليين عام 1925، فقد جعلته هذه التجربة واعيًا بأنه «حبيس للوعي الثقافي للرجل الأبيض»، على حد تعبيره.

لم يعلم فرويد، ولا غيره من الآباء الأوروبيين المؤسسين للعلاج النفسي، أي شيء تقريبًا عن ثقافة السكان الأصليين، وكذلك أنا، ولكن وكما كان يقول أبي على الدوام: «تكمن الحكمة في أن تعرف ماذا تجهل»، لذا تواصلت مع

بعض السكان الأصليين العاملين في تطبيب النفوس، ولولا جهودهم في ترجمة عادات السكان الأصليين لي لتعثرت كل محاولاتي لمساعدة داني.

كما أن حالة داني كانت حساسة للتوقيت -أكثر من الحالات أخرى في هذا الكتاب- إذ كنا لا نزال في ثمانينيات القرن العشرين، حيث لم يكن معظم السكان البيض لأمريكا الشمالية على دراية بالفظائع الكبرى للمدارس الداخلية، تلك الفظائع التي كشفتها فيما بعد «لجنة الحقيقة والمصالحة» Truth and Reconciliation Commission. كما يجب التنويه عن أن المصطلحات المستخدمة في هذا الفصل قد عفا عليها الزمن، فقد كانت التعبيرات التي استخدمها داني لوصف نفسه هي «ساكن أصلي» و«هندي» كما كان شائعًا في الثمانينيات.

***

جاء داني إلى عيادتي عام 1988 عن طريق مريض سابق كان يمتلك شركة شحن وعادة ما يحيل إليَّ مرضى عبر قسم الموارد البشرية لشركته، كان داني أحد سائقي النقل لمسافات طويلة لدى الشركة، وأدركت أنه بالغ الأهمية لدرجة أن مالك الشركة هاتفني شخصيًّا.

ابتدأ المالك كلامه بإخباري أن داني موريسن هو أفضل سائق نقل لدى الشركة، فطلبت منه أن يشرح هذا بالتفصيل فقال: «إن نقل حمولة باهظة من الساحل إلى الساحل لهي مهمة غاية في الصعوبة»، ثم أضاف قائلًا (بنبرته المميزة ذات الإيقاع المترنح كأنه معلن الفقرات البهلوانية في السيرك): «أنت بحاجة إلى شخص مخلص، شجاع، أمين، قوي، فلنفترض أن سفينة آتية من سويسرا تنقل حمولة ساعات «رولكس»، حين تصل إلى الشاطئ يقوم عمال الشحن والتفريغ في الميناء بإنزال البضاعة، لكن بعضهم يكون على اتصال بحلقات اللصوص، فيبلغهم أن الشاحنة بدأت في السير من «مدينة هاليفاكس» Halifax نحو «مدينة فانكوفر» Vancouver، فيتتبع قطاع الطرق شاحنة النقل في أنحاء كندا، يترقبون أن تغيب عن الأنظار ولو لبضع دقائق فيسطون عليها، ولو استخدمت الشركة أكثر من سائق لتوزعت مسؤولية الشحن على عدة أشخاص، لن أستطيع تحميل أحدهم المسؤولية، وسيتهم كل منهم زميله بالسرقة، ولذلك أنا مستعد لإنفاق ثروة تضمن نقل هذه الساعات مرة واحدة بواسطة رجل واحد، وهذا الرجل هو داني موريسن، فهو يلازم الشاحنة، وينام في كابينتها، ولا يفارقها مهما حدث».

وأتبع ذلك بقوله: «دعيني أخبرك بمثال عن عمل داني: كان ينقل حمولة مضاعفة من البلاتين الصناعي عبر البلاد، ثم توقف بأحد مطاعم «مدينة مديسن هات» لتناول الغداء، وإذ بثلاثة لصوص يقتحمون الكابينة، كان داني يراقب الشاحنة في أثناء انتظاره للطعام، وفور رؤيته لهم انطلق مندفعًا تجاههم وقذفهم من الشاحنة، توجب حجز الثلاثة أجمعين في المستشفى، بل ظل أحدهم في العناية المركزة شهرًا كاملًا، لا شك أنه كوَّمهم داخل عربة الإسعاف فوق بعضهم كالسردين، أما هو فلم ينله من ذلك شيء سوى التواء في المعصم، ولم يشتكِ، بل لم يتصل طلبًا للمساعدة، وإنما أكمل بهدوء إلى فانكوفر. ولكي أختصر عليك الحديث: أدين له بالكثير».

حين سألته عن طبيعة المشكلة أخبرني أن داني رجل ضخم البنية، في الأربعين من العمر، عريض المنكبين، عملاق اليدين، لدرجة أن عمال الميناء ينادونه «بلدو» اختصارًا لكلمة «بلدوزر»، ثم أخبرني أن داني ليس متحدثًا مفوَّهًا، وأنه يتحدث بمقاطع منفردة ويتفادى التواصل البصري، ولكنه ذكي، يستطيع التعامل مع الخرائط وتقدير تكلفة المسافة المقطوعة داخل ذهنه، ولم يحدث قط أن نقص منه قرش واحد.

ساد الصمت على الهاتف هنيهة قبل أن يلتقط صاحب الشركة شهيقًا عميقًا ويستكمل قائلًا: «جاءنا اتصال هاتفي منذ شهرين تقريبًا يخبرنا بوفاة زوجة داني وابنته ذات الأربعة أعوام في حادث مروري على الطريق السريع».

فسألته: «كيف يواكب الأوضاع؟».

- هذا ما أتعجب له، لا يبدو عليه حزن الفقد البتة. رغم أنه رجل عائلة بمعنى الكلمة، فلا شك أنه يتألم من ناحية **ما**، لقد سألته هل يريد إجازة مدفوعة الراتب، فلم يكن منه سوى هزِّ رأسه بالرفض، بل عاد للعمل بعد الجنازة بيوم واحد. اقترحت عليه الالتحاق بالعلاج النفسي وأخبرته أنني سأتحمل التكاليف، فبدا عليه الارتياب، لذا أخبرته أنني سأتحدث معك بنفسي، وأن العلاج النفسي قدم إليَّ مساعدة هائلة.
- هل تفاجأ بذلك؟
- داني لا يتفاجأ من شيء، ولو حدث ذلك فلن تعرفي أبدًا.

وافق داني بعد عدة أسابيع على تجربة العلاج النفسي.

***

كان الرجل الجالس في غرفة انتظار عيادتي قمحي البشرة قاتمها، وشعره الطويل مجدولًا على هيئة ضفيرتين، يرتدي قميصًا صوفيًّا، وسترة جلدية، وبنطالًا جينزيًّا أزرقَ، وحذاء رماديًّا مدببًا طويل الرقبة.

قدمت نفسي فأومأ برأسه دون النظر إليَّ، ثم ظل واقفًا عند مدخل الباب إلى أن طلبت منه أن يتفضل بالجلوس، كان وجهه قناعًا مثاليًّا لعمر الثلاثين، فأخبرته -من باب تبادل أطراف الحديث- عن الكلمات الطيبة التي قالها صاحب الشركة في حقه، فنظر أرضًا في صمت، وحين دققت النظر لوجهه لاحظت أنه شديد الوسامة، كان وجهه مثاليًّا طولًا وعرضًا واستدارة، وكانت عيناه ثاقبتين، وبشرته خالية من العيوب، كان لافتًا للأنظار ولا يستطيع أحد أن يقول غير ذلك.

حين عبرت له عن تعازيَّ اجتاحني شعور بأنه يرغب في أن تكون المسافة بيننا أكبر، فأخبرته بأننا من الأفضل أن نبدأ بالتعرف على التاريخ الأسري وشجرة العائلة، ثم سألته عن والديه، وهل كانا عونًا له في تلك الظروف الصعبة، فأخبرني أن والدته ميتة، وأن أباه وأخويه -الذين يعيشون في مانيتوبا- ليسوا على دراية بما حدث، وحين سألته هل يود تشارك مشاعره حيال فقده هزَّ رأسه بالنفي، ثم ظل صامتًا لبقية جلستنا الأولى تلك، بل ظل على هذه الحال طيلة جلسات الثلاثة أشهر الأولى.

لم يكن هذا الهدوءُ الصمتَ الملازم للاكتئاب، بدا أن داني يرغب في أن يتركه الآخرون وشأنه ليس إلا، ورغم ذلك فقد ظل مواظبًا على حضور الجلسات كل أسبوع، كان هناك شيء جذاب بخصوص داني، ووجدت أنني أستطيع أن أجلس معه في هذا الصمت المريح، كانت هذه سابقة بالنسبة لي.

ولكني كنت مدركة أنني أحتاج إلى المساعدة في هذه الحالة، فرغم كل شيء فأنا لا أتقاضى أجرًا لأجلس في صمت، لذلك بحثت -لكن بحثي لم يكلل بالنجاح- عن أي طبيب نفسي من الهنود الحمر في فهارس المكتبات، كان ذلك عام 1988 ولم أكن على دراية بحلقات التشافي أو غيرها من الشعائر والمراسم الدينية الخاصة بالهنود الحمر، حاولت التواصل مع الأقسام الحكومية المتعلقة بشؤون الهنود الحمر مثل «المكتب الفيدرالي للشؤون الهندية» Department of Indian Affairs -اسمه آنذاك- ولكن لم يعاود أحد الاتصال بي، توجهت إلى المستشفى التي تعالج معظم الهنود الحمر في تورنتو، إلى وحدة الطب النفسي، فقال لي موظف الاستقبال: «الهنود الحمر

لا يبلون بلاء حسنًا في العلاج النفسي، معظم الحالات متعلقة بإدمان الخمر، يمكنني إحالتك إلى بعض مجموعات «مدمنو الخمر المجهولون»، أحيانًا يحضرون، وأحيانًا لا».

وسعت نطاق بحثي حتى وجدت أخيرًا إشارة لد. كلير برانت، وهو طبيب نفسي من الهنود الحمر كان قد تخرَّج في جامعة هارفارد، كما صودف أنه سليل جوزيف برانت، القائد الشهير الذي حارب في الثورة الأمريكية، فكتبت له خطابًا طويلًا أشرح له تفاصيل الحالة والصعوبات التي ألاقيها في التعامل مع داني، وكان رده مثلجًا للصدر حيث أخبرني بأنه يفهم شعوري كسمكة خارج الماء، وأنه سيرفق بخطابه الأبحاث الأكاديمية التي نشرها مستكشفًا منظور الهنود الحمر للعالم، كانت أبحاثه مدهشة، ويجب على كلٍّ كندي أن يقرأها، سوف أظل للأبد مدينة لهذا الرجل، ولا أزال إلى اليوم أرى أن تواصلنا الذي دام طويلًا كان كنزًا قيمًا.

وكما أوضح د. برانت فقد توجب على هذه المجتمعات الصغيرة المترابطة تجنب النزاع مهما كلفهم ذلك، وخاصة في البيئات الشمالية القاسية، تحتم عليهم عدم التدخل في شؤون بعضهم كي يستطيعوا العيش متقاربين مع الحفاظ على خصوصياتهم، تعين عليهم أن يصطلحوا على بعض السلوكيات الاجتماعية، فعلى سبيل المثال كان «التدخل» معناه طرح الأسئلة، وإسداء النصائح، وتخطي الرسميات.

أدركت أن داني غالبًا يعتبر العلاج النفسي وقاحة. فبالنسبة إليه كنت «أتدخل» وأتلصص على نفسيته بطريقة ملحة، إذ كلما زاد سعيي لإخراطه في العملية العلاجية زاد صمته، لكنني حين حاولت التزام الصمت لاحظت أننا قد نظل على هذا الوضع لأجل غير مسمى، فلقد كان أمهر مني في هذه اللعبة.

ارتأيت أن من الأفضل أن أعبر لداني بكلٍّ بساطة عن إحباطي، فأخبرته أنني أعرف منظوره لدوري، ولكني لا أستطيع أن أغيره بشكل جذري، فهذه ثقافتي، كما أنها الكيفية التي يسير بها العلاج النفسي في حالة الرجل الأبيض، أخبرته بهذا كله، كما أخبرته أنني أعلم أيضًا أنني بحاجة إلى تعلم الكثير.

فسألني داني أول سؤال على الإطلاق (وإن كان دون تواصل عيني): «لماذا يهمك الأمر؟».

- هذه وظيفتي، وأحب أن أبرع فيها.
- ظننتك ستقولين ذريعة مزيفة، إنك تكترثين لأمري مثلًا.
- لا أعرفك كفاية لأكترث بك، ورغم ذلك فإنني -ولسبب ما لا أستطيع شرحه- أشعر حقًّا بوجود رابطة بيننا وأرغب حقًّا في تخفيف ألمك.

فقال لي بلهجته الاعتيادية التي لا توحي بأي مشاعر: «أنا لا أشعر بالألم».

فقلت له: «حسنًا، هذا أول ما تخبرني به عن نفسك، لا شك أن من المهم لك أن أراك شخصًا لا يشعر بالألم».

-إذا كان هذا رأيك.
- وهذا رأيي حقًّا.

قررت التزام موقفي فقلت له: «لمَ يمثل هذا أهمية لك؟ أتريد إخباري أنني لا يمكنني إيذاءك لأنك لا تشعر بالألم؟».

ظلَّ صامتًا لما يزيد عن عشر دقائق، ثم قال: «أجل»، ولم يقل شيئًا آخر للعشرين دقيقة الباقية من وقت الجلسة.

وأخيرًا، بعد أربعة أشهر، أحرزتُ بعض التقدم، حين اعترف لي داني -أو كما بدا عليه- أنه يحمي نفسه من الألم، فقررت التمهل في المضي قدمًا، ولو جملة واحدة كل أسبوع فلتكن، إذ لو حاولت زيادة الضغط عليه لانطفأ تمامًا.

كانت أشياء كثيرة تطرأ كل أسبوع، وحاولت أن يقتصر دوري على كوني شاهدًا على الأحداث فحسب، لذا قررت ألا أسأله عن زوجته وابنته، أو عن عدم مروره بحزن الفقد.

ولكني أخبرته ذات مرة: «من لا يشعر بالألم لا يشعر بالبهجة».

فنظر في عينيَّ للمرة الأولى وقال: «أستطيع العيش دون بهجة».

فغامرت بقولي: «هل تصدق أن قلبك لا يتألم أم تخبرني أنك تبقي الألم حبيس صدرك؟».

لم يزِد على قولي شيئًا، ولكنه بعد أسبوع دخل وجلس ثم قال وكأننا أجرينا هذا ذلك الحوار للتو: «أبقيه حبيس صدري».

فسألته: «ماذا لو تسرب الألم شيئًا فشيئًا خلال العلاج النفسي، وبذلك تتخلص منه كلية، وتحل محله البهجة؟».

فقال لي باستهزاء: «البهجة؟». وكأنني أحدثه عن خبرة مثيرة للفتيان.

فقلت له محاولة إعادة التأطير: «أو الرضا، إن لم تكن البهجة؟».

فقال ثانية: «أنا بخير».

طلبت منه إخباري عن طفولته، معطية له الخيار بأن يستثني أوقات الألم والبهجة، وتشكلت القصة التالية رويدًا رويدًا على مدار عامنا الأول، كنت شديدة الحرص على عدم إبداء التعاطف أو المواساة وإلا تجمَّد، كنت شاهدًا ليس إلا.

***

كان داني من عائلة صيادين تعيش في الطرف الشمالي الغربي لمانيتوبا، يعيشون وحدهم في الأدغال معظم السنة، ولكنهم ينتقلون في نهاية كلِّ فصل إلى منشأة خاصة بتعاملات ما بعد التسوية بعدما ينتهون من إجراءات بيع الفرو إلى «شركة خليج هدسون».

أخبرني داني أن لديه أخت اسمها روز، تكبره بثلاثة أعوام، وأنهما كانا في طفولتهما يساعدان أباهما في فكِّ عقد الفخاخ، كما كانت روز تساعد أمها في دبغ الجلود، ويتولى داني إطعام الكلاب.

كانت ذكراه الأولى متمحورة حول نصب الفخاخ، ذات يوم حذرهما والدهما من مرافقته، فقد تغيرت التضاريس بسبب هطول الثلج، مما زاد الأمر خطورة، ولكنهما اتبعاه إلى الأدغال، كان الأب يرى أن الأمر يتوقف عند حد التحذير، وإن تبعاه بعد ذلك فعلى مسؤوليتهما الشخصية، لم تتمكن روز من تحديد مكان الكمائن إذ طمس الثلج علامات الطريق، ثم علقت قدمها في أحد الفخاخ الذي جرح كاحلها جرحًا غار حتى العظم، واضطروا إلى حملها لأقرب منشأة على زلاجة تجرها الكلاب، وهي عملية استغرقت أيامًا، لم يندمل الجرح كما ينبغي، ومنذئذ وروز تمشي عرجاء، آنذاك تعلم داني أن يتوخى الحذر بين الفخاخ.

أثار انتباهي أن الأب لم يصر أو «يتدخل» حين رفض طفلاه الامتثال لتحذيراته، مما يعد مثالًا على الفروق الصارخة في فنيات تربية الأطفال بين الرجل الأبيض والهنود الحمر، وطبقًا لد. برانت فإن أسلوب التربية لدى الهنود الحمر متمحور حول تقديم نموذج يحتذى به ولكن بلا تدخل، أما البيض فيرون ضرورة التعليم النشط والقولبة. وسوف يعود هذا الاختلاف لمطاردة داني لاحقًا.

وشت ابتسامة داني الخفية بمدى استمتاعه بتذكر تلك الأيام التي شارك فيها في الصيد، ثم بدأ يخبرني مزيدًا من المعلومات عن حياته في الأدغال، وذات مرة هزَّ رأسه قائلًا: «يا إلهي، لم أفكر في ذلك منذ سنين».

كانت ذكرياته تدهشني، وقد تفاجأ بمدى استمتاعي بتفاصيل الصيد، فقد كنت أستوقفه أحيانًا لأستفسر عن سبب فعلهم كذا بهذه الطريقة وليست بتلك، ولماذا -مثلًا- استخدم والده الزلاجة التي تجرها الكلاب ولم يستخدم الدراجة الثلجية التي تعمل بمحرك كهربي؟ ففسر لي داني ذلك، لو تعطلت بك الدراجة الثلجية في الأدغال ستموت، أما أسوأ ما قد يحدث في حالة الزلاجة فهو أن تخسر كلبًا أو تقطع سرجًا يمكن إصلاحه فيما بعد، كما أن البنزين الذي تحتاجه الدراجة الثلجية يلتهم هامش الربح الذي كان بسيطًا أصلًا.

أخبرني داني أن وظيفته تضمنت إطعام الكلاب وجبتهم من السمك المجمد، وأنه كان في سن الرابعة أو الخامسة فخورًا بحمل الفأس لكسر الثلج في أثناء ما يسترد أبوه القندس من الفخ المنصوب، لم يكن أبوه يتحدث كثيرًا، ولكن داني أخبرني أنه كان -حتى في هذا العمر الصغير- يعمل معه بسلاسة وكفاءة تامتين، كان أحكم من أن يشتكي من البرد، فقد عرف الجميع أن موسم الصيد قصير وأن حياتهم معتمدة عليه.

ابتهج داني بتلك المرة التي سافر فيها أشهرًا برفقة والده -الذي كان لا يزال في عشرينياته بالمناسبة- كانوا يسافرون في نهاية الموسم مئات الكيلومترات لتسليم الجلود بمنطقة تجارية يعيش فيها أقل من ثلاث مائة شخص، حيث يرى داني أطفالًا يلعبون معًا ويتساءل عن شعور أن يكون لديه رفيق لعب آخر غير أخته.

لم يكن بمنزلهم تلفزيون، ولا موسيقى، ولا كهرباء، ولا مراحيض دافقة، ولكن ذات مرة، حين كان داني في سن الرابعة- أهداه أحد تجار «هدسون» كتابًا، لم يكن داني قد تعلم القراءة بعد، لذلك كان يؤلف قصصًا ثم يقلب الصفحة، كانت شخصياته الأساسية هي القنادس الماكرة، أحب داني الكتاب، كان «يقرؤه» كل ليلة، بل كان «يقرؤه» لروز، التي تستمع إليه بانبهار، أخبرني أنه يعزي الفضل لشغفه بالقراءة طوال حياته لهذا الكتاب، فقد كان أول شيء يمتلكه على الإطلاق، وأنه ما زال يتذكر تسمية أمه للكتاب، باللغة الكرية بوصف الملكية، أنه **كتاب داني**.

2

حذاء جلدي

ذات يوم كانت العائلة في منزلها الدافئ يومًا، تنتظر انقضاء تلك الأسابيع بين نصب الفخاخ وجمع الجلود، وبينما كان داني وأبوه جالسين على الطاولة يقطعان الأخشاب إذ سمع داني صوت أمه تصرخ «كحيوان حوصر بين ذئاب البوادي»، ومن الجدير بالذكر أن داني آنذاك لم يسبق له أن سمع أمه تتحدث بصوت أعلى من الهمهمة.

كانت في سجال كلامي مع رجلين من البيض على الباب، كان جليًا أنهما ليسا صيادين: «ولكنهما كانا خطيرين نوعًا ما»، تذكر داني أنهما كانا يرتديان حذاء جلديًا غريبًا، فذلك اختيار عجيب نظرًا لهذه الثلوج الكثيفة، حيث تتجمد قدماك من دون الموكلوك، وهو خفٌّ طويل الرقبة يصنع عادة من جلد الفقمة ويبطن بالفرو، دخل الرجلان المنزل وقالا إن عليهما أخذ داني وروز إلى المدرسة الداخلية التي تبعد ألف كيلومتر عن بيتهم، وقالا إن القانون ينص على ذلك، كما ينص على أنه لو امتنع الوالدان عن تسليم أطفالهما فورًا فقد يُحكم عليهما بالسجن.

كان الرجلان يتحدثان الإنجليزية، لم يكن في العائلة من يفهم ما يقولانه، ولكنهم في النهاية فهموا الخلاصة: سوف يسلب الرجلان الأبيضان اللذان أرسلتهما الحكومة طفليهما. وقال لي داني: «أظن أن والديَّ لم يدركا أن ذلك

للأبد، فلقد ذهبت أمي إلى غرفة النوم لتجهيز أغراضنا ولكن الرجلين أخبراها أننا لا نحتاج شيئًا، أما والدي فقد كان كمن طعن بخنجر في فؤاده ولكنه لا يزال واقفًا».

لم أكن عام 1988 أعلم شيئًا عما كانت عليه هذه المدارس الداخلية، وافترضت أنها كانت مدرسة داخلية للهنود الحمر الذين يعيشون بعيدًا في الأدغال ولا يستطيعون الذهاب إلى المدارس، لكنها لم تكن كذلك، بل كانت جزءًا من سياسة متعمدة لاستئصال ثقافة «العشائر الأولى» First Nations، لقد قال جون ماكدونلد -رئيس الوزراء الأول لكندا- إن الهنود الحمر «همج»، ثم في عام 1920 أفصح المسؤولون الفيدراليون عن هدفهم بكل وضوح: الإبادة الثقافية، كان هذا هو العام الذي أعلن فيه نائب رئيس «الشؤون الهندية» Indian Affairs أن هدفه هو استمرار المدارس الداخلية «حتى لا يوجد هندي أحمر واحد في كندا لم يستوعبه كيان الدولة السياسي، وحتى لا توجد مسألة هندية، ولا شؤون هندية».

أُودع داني وأخته في سيارة، فجلسا مئات الأميال يراقبان التندرة[1] وهي تختفي ورائهما. ثم بعد ذلك بعدة ساعات، وُضعا في قطار مملوء بأطفال هنديين آخرين مرعوبين، لم يكن أحد منهم يحمل متاعًا، ظلوا هكذا لأيام، في هذا الصمت السائد المخيف. تعجب داني من الحقول الفسيحة الملأى بالمواشي، إذ لم يسبق له رؤية حيوانات ترعى لا يجب اصطيادها، لم يكن لديه أي فكرة عن مزرعة المواشي، كما تفاجأ هو وروز من قمم الجبال وأشجار الحور، شعر أنه يتجه إلى عالم مخيف يتوهج لهبًا، ثم وصلوا أخيرًا إلى مدينة صغيرة نقلوهم منها إلى داخل البلد، ثم توقفوا في مكان ناءٍ مجهول، عند مبنى عملاق من الطوب الأحمر، على نوافذه قضبان.

بادئ ذي بدئ: فصلوا داني عن أخته، إذ جاء كاهنان -يرتديان ثياب القساوسة ويبدوان مثل دبين أسودين- واقتاداها جرًّا إلى مبنى آخر وهي تصرخ باسمه.

---

(1) التندرة هي منطقة بها بعض الغطاء النباتي (الأشنات والحزازيات والسعديات والشجيرات القصيرة) بين الحد العلوي الشمالي للأشجار والحد الأدنى للجليد الدائم على الجبال، وعلى أطراف القارة القطبية الجنوبية والجزر المجاورة لها. (المترجم)

ما حدث ثانيًا، وكان صادمًا، أنهم حلقوا له شعره الطويل، آنذاك كان الهنود الحمر -ولا يزالون- يرون بأن شعر الإنسان امتداد مادي لوجودهم الروحي، هناك عشائر لا تحلق شعرها قط إلا في بعض الأحيان المنطوية على موت أحد أفراد العائلة، وعشائر أخرى يعتقدون أن الشعر مرتبط بالجهاز العصبي للإنسان وضروري لنقل المعلومات من المجتمع كشوارب القطط، أما عشيرة داني فكانت ترى تقصير المرء لشعره طريقة يعاقب بها نفسه على خطأ اقترفه، أو إهانة على الملأ جزاء جرم مزعوم، لكن داني لم يكن يفقه شيئًا عن تلك الجريمة التي ارتكبها.

أُعطي كل الأطفال زيًّا موحدًا ورقمًا، ظلوا ينادون داني برقم 78 حتى بلغ الثامنة عشر، لم يصدق أحد أنه في سن الخامسة أو السادسة فقد كانت قامته طويلة جدًّا بالنسبة إلى عمره، ولذلك وضعوه مع أطفال الثامنة والتاسعة، ظل داني يختلس النظر إلى النوافذ معتقدًا أن أبواه سيأتيان لاسترداده بعد يوم أو اثنين، قال لي داني: «آنذاك كنت متيقنًا أنني لمحت أبي بغليونه عدة مرات، لكن أظن أنني كنت أتخيل ليس إلا».

أخبروا الأطفال في أول أيام المدرسة أن كون المرء من الهنود -أو من الهمج، فقد كانتا لفظتين مترادفتين تستخدمان بشكل متبادل- هو شيء سيئ، وأنهم لن يعودوا هنودًا مجددًا مع مغادرتهم لهذه المدرسة، سوف يصبحون مواطنين كنديين يتحدثون الإنجليزية، لم يكن داني يعرف الإنجليزية، ورغم ذلك فقد فهم المغزى: «الهنود سَيِّئون»، لكنه لم يفهم الجزء المتعلق بعدم التحدث باللغة الكرية ثانية.

في الأسبوع الثاني لمح داني وهو يلعب أخته خلف سياج بعيد لحقل واسع، كانت هذه أول مرة يُعبِّر فيها داني عن مشاعره: «كنت سعيدًا جدًّا لدرجة أني كنت أرتعد، ركضت باتجاهها صارخًا: «**تانيسي**»، التي تعني «مرحبًا» باللغة الكرية، فاجتذبني الكاهن من ذراعي مانعًا إياي من الحركة، لكنني ظللت أكافح، فضربني، أمام الصبية الآخرين، بسوط مصنوع من لجام فرس قديم ذي قطع معدنية تربط بين أجزائه، وأخبرني أنني لا ينبغي أبدًا أن أتحدث باللغة الكرية من الآن فصاعدًا».

كانت أخت داني واقفة على الناحية الأخرى من البوابة تبكي شاعرة بالعجز، تابع داني سرد ما حدث: «فصرخت قائلًا: «نيميس»، التي تعني «أختي الكبيرة»»، ظن الكاهن أن داني يتحداه علنًا، فأبرحه ضربًا لدرجة

أنه ظل طريح الفراش في مستوصف المدرسة عدة أيام، وعقب داني قائلًا: «شعرت بالاستياء، إذ اضطرت أختي روز إلى مشاهدة مجزرة الضرب المبرح هذه من الناحية الأخرى للسياج، لقد أحزنها هذا بشدة»، ثم سكت داني قليلًا ثم قال: «لم أنطق حرفًا من اللغة الكرية بعدها وطيلة الأعوام الاثني عشر التي قضيتها في المدرسة، ثم في النهاية نسيت اللغة، بل لم أعد أستطيع محاورة أبي وأمي».

تأملت في طفليّ التوأمين اللذين كانا في السابعة من العمر آنذاك، حاولت تخيل أنهما سُلبا مني، ثم أخبرا أن اللغة الإنجليزية لغة الهمج، وأنهما سيئان، وأن عليهما هجر ثقافتهما وإعادة التشكل إلى عرق مختلف، ماذا لو حاول أحدهما أن يقول لأخيه أهلًا باللغة الإنجليزية فناله ضرب مبرح لذلك؟ كان مجرد التفكير مفجعًا ومرعبًا.

***

استغرق بناء الحد الأدنى من الثقة بيننا عامًا كاملًا، لكنني مندهشة من حدوث ذلك أصلًا رغم ماضيه مع البيض.

كانت التربية الجيدة التي تلقاها من والديه حتى سن الخامسة إحدى أهم الأشياء التي ساعدته على النجاة وجدانيًّا، فرغم كل ما حدث بعد ذلك فقد كان لديه على الأقل أساس صلب، ولكنه تعرض لصدمات نفسية شديدة نتيجة تعرضه للاختطاف وما تلى ذلك من أهوال -فقدانه لأبويه، ولغته، وثقافته- تسببت له في تجمد وجداني، لقد كانت هذه وسيلته لحفظ الذات، ولكنها منعته كذلك من الحزن على موت زوجته وابنته كما ينبغي.

أهم ما أخبرني به داني خلال عامنا العلاجي الأول هو أنه يستطيع العيش دون بهجة، كانت وظيفتي أن أساعده على استرداد قدرته على الشعور بالبهجة، رغم علمي بأن البهجة يرافقها الأسى، الأسى الذي ذاقه كثيرًا لدرجة أن استعادة أي قدر منه يجب أن تكون بوتيرة يستطيع داني تحملها، ينبغي للعملية العلاجية في حالة داني أن تشبه الذوبان البطيء للجليد.

3

محفزات

بحلول عامنا العلاجي الثاني تعلمت كيفية التفاعل الجيد مع داني، وكما قال أحد مطببي النفوس الأصليين: «لا تصلبيه، تحدثي معه فحسب»، لقد وجدت أن أفضل طريقة لإجراء العلاج مع داني هي طرح أسئلة حميدة قد يُدخلها لاحقًا إلى ميادين نفسية أعمق حين يرغب في ذلك، إذ حين كنت أطرح أسئلة نفسية مباشرة ينتابه التجمد، ولبقية الجلسة أحيانًا، وكما أشار داني لاحقًا: «للهنود طريقتهم الخاصة وميقاتهم الخاص».

سألت داني في إحدى الجلسات عن حياته المدرسية، فقال إنه ارتاد المدرسة «كرجل أبيض»، حيث بذل قصارى جهده في أن يكون أبيض، وأنه قبل الأيدولوجية التي علموها له: الهنود سيئون، وعلى حد وصفه: «وإلا فلمَ يفعل بنا الكهنة، والراهبات وغيرهم من البيض، ما يفعلون؟»، ثم أضاف قائلًا: «كنا عائلة كاثوليكية، ولقد صدَّقت في الراهبات والكهنة، لقد اقتنع كل من في المدرسة بفكرة أن الهنود سيئون».

كان داني من أصغر الأطفال سنًّا هناك، لكن لم يساعده أحد أو يهدئ من روعه، لقد قال لي: «تعين على الجميع عدم التدخل في شؤون غيرهم، وقد كان، استيقظت ذات يوم فوجدت الطفل المجاور لي ميتًا، فخشيت الإبلاغ عن ذلك لربما ظنوا أنني قتله، وحين لم يحضر لتناول الإفطار -ما زلت أتذكر

أن رقمه كان 122- عثروا عليه ميتًا، وفي غضون ساعة لم يعد موجودًا، ولم ينبس أحد بكلمة».

حين أجريت بعض الأبحاث حول المدارس الداخلية اكتشفت تقريرًا صدر عام 1907 في «صحيفة المونتريال ستار» Montreal Star قد استشهد بأن المعدل القومي لوفيات الأطفال الأصليين داخل المدارس هو 24 في المائة (42 في المائة عند إحصاء الأطفال الذين ماتوا داخل بيوتهم بعد فترة قصيرة من إعادتهم إلى البيت لأن حالتهم المرضية حرجة)، لقد مات هؤلاء الأطفال من مرض السل، أو الجوع، أو الإهمال المحض، هذا وقد اختفى كثيرون غيرهم فحسب، ولم يعثر آباؤهم عليهم قط، كما أعلنت «لجنة الحقيقة والمصالحة» عام 2015 بوفاة ما بين أربعة آلاف وستة آلاف طفل، وأغلب الظن أن الرقم الحقيقي أعلى من ذلك بكثير، إذ كان هناك أطفال كثيرون مفقودين فحسب، لقد مات أكثر من 150.000 طفل خلال 150 عامًا، ثم توقفت المدارس الداخلية عن التعداد بسبب الارتفاع الشديد للمعدلات.

أبلى داني بلاء حسنًا في المدرسة ولم يتسبب في مشكلة قط، وقال لي: «شعرت بالأسف على الأولاد الذين لم يتمكنوا من فعل الأشياء على طريقة الرجل الأبيض، فكانت حياتهم جحيمًا مستعرًا»، كما أخبرني أنهم حين لا يتقنون جداول الضرب المفروضة عليهم يرمونهم في البرد من دون معاطف، وهم غير مرتدين شيئًا سوى كيس قمامة به فتحتان للذراعين. هنالك برز داني لإنجازاته في مجالات عدة، لكنه رأى ذلك محرجًا، بل مهينًا.

جزء من دماثة السكان الأصليين هو عدم التنافس أو تباهي المرء بنجاحاته، فقد يؤدي ذلك إلى شعور الأضعف بالاستياء، يرون أنه لا بأس أن تكون مشجعًا لأحد فرق الهوكي، لكنهم يعتبرون الهتاف للفريق تبلدًا في الإحساس لأنه قد يسيء إلى الفريق الآخر، كتب د. برانت في مقالته «الأخلاقيات وقواعد السلوك لدى الأصليين» Native Ethics and Rules of Behaviour، قائلًا: «بل تمتد هذه اللاتنافسية إلى الحياة المهنية، على الرغم من حقيقة أن أرباب العمل غير الأصليين غالبًا ما يعتبرونها افتقارًا للمبادرة والطموح». لم يستمتع داني بنجاحه الأكاديمي بل شعر أنه بالكاد يستطيع اعتباره نجاحًا، فرغم كل شيء فإن الذين يثنون على «إنجازه» هم أنفسهم من جعلوه يتضور جوعًا (بحلول نهاية العام الدراسي كان قد ازداد طولًا لكن فقد نصف وزنه)، ومن عذبوه، ومن أبعدوه عن والديه وزجوا به في هذا السجن.

قال داني عند هذه النقطة من روايته: «هل تستوعبين أنه لم يكن شرفًا؟»، كنت مسرورة بأنه صار يتحدث معي بعد أكثر من عام، وأنه كان منخرطًا بدرجة كافية ليكترث باستيعابي، كما أدركت بحلول ذلك الوقت أن داني يتمتع بقدرة عالية على رصد الهراء، لذا يجب أن أكون صادقة تمام الصدق، فقلت: «أستوعب ذلك، لكني أتساءل هل حدث أن أشعرك أحد جوانب مدحهم بالفخر؟».

بدا عليه خيبة الأمل، فأضفت: «أعني، مع مرور السنين، ألم تؤمن ولو قليلًا بنظام الثواب الخاص بالرجل الأبيض، إذ لم يكن لديك غيره؟».

قال داني إنه لم يرغب قط في ارتياد المدرسة، ووصف قائلًا: «أدركت أنني سجين وأردت إبقاء الأمر على هذا النحو، ولم أرغب في الانضمام إليهم»، ثم جلس صامتًا خمس عشرة دقيقة ثم قال: «لم يكن هذا حالي في جميع الأحيان، لقد أحببت تربية الحيوانات، وإطعامها، وتهجينها، لقد أرسلوني برفقة خنزيري إلى «بطولة الفور إتش» 4H، وشعرت بالفخر حين فزت بوسام، خاصة أن ذلك لا علاقة له بالمدرسة». كان لداني أسلوب فريد في التعامل مع الحيوانات، بل صار المسؤول عن الزراعة وتربية الحيوانات المدرسة وهو لا يزال مراهقًا، وعقب على ذلك قائلًا: «كما أحببت الحراثة ورعاية المزروعات، فلقد كان لدي بعض أسرار الزراعة».

- مثل ماذا؟
- كنت في فصل الربيع أسخن الماء في الشمس بحاويات القمامة، ثم أصب الماء الدافئ على الطماطم في المستنبت الزجاجي، فتكون دائمًا أول ما ينضج.

فسألته كيف تعلم تلك الحيل، فتردد، ثم قال: «كان هناك كاهن هو من علمني كل ذلك»، ثم ظل داني صامتًا للثلاثين دقيقة التالية، حيث جلس ساكنًا تمامًا يحدق إلى النافذة، بل بدا لي انخفاض معدل رمشه.

عاد داني بعد أسبوع فجلس ثم قال: «هذا الكاهن الذي علمني الكثير اعتدى عليَّ».

- كيف اعتدى عليك؟
- جنسيًّا، في الحظيرة، مرارًا، كان يقول إنه مغرم بي، وكان ذلك يتعبني، أعني، ليس فقط نفسيًّا».

ذات مرة اطلع عليهم الرجل الذي ينظف الحظيرة، فلم يكن منه سوى هز رأسه، وعقب داني: «لا أزال أشعر بحرقة هذا الخزي، ثم أدركت أنني لست بارعًا في كل هذه الأشياء الزراعية، كل ما في الأمر أنه أراد فعل ذلك معي، وقد استمر ذلك سنوات عديدة».

أظن أنه قرأ الصدمة على وجهي، آنذاك لم تكن حقائق الانتهاك الجنسي الذي يرتكبه الكهنة مع عامة الناس قد انكشفت بعد، كما لم تكن أخبار الانتهاكات في المدارس الداخلية مشتهرة بين الناس، لقد أخبرني داني بقصته المروعة قبل ثلاثة عقود من تقديم الحكومات اعتذارات علنية للشعوب الأصلية و«تشكيل لجنة الحقيقة والمصالحة».

حين صار داني على أعتاب المراهقة كان من يدير المدرسة بأكملها كاهن آخر ينتهكهم جنسيًّا، وهو أخ مسيحي مشتهر بانحرافاته، أخبرني داني أن الصبيان كانوا يلعبون البيسبول بالخارج في فصل الربيع فيفتح هذا الأخ النافذة وينادي أحد أرقامهم ويمارس جنسًا وحشيًّا مع هذا الصبي، وعقب قائلًا: «كان الأمر مهينًا لأن كل فرد في الفريق كان يعلم ما سيحدث، وبعد نصف ساعة ينادي رقم شخص آخر، ثم يتعين علينا جميعًا العودة للعبة وكأن لم يحدث شيء، لكننا جميعًا كنا نعلم، لأن ذلك حدث لمعظمنا».

سكت داني قليلًا ثم أضاف: «ظل هذا يحدث لي منذ أن كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري حتى تصديت لهم بعدما صرت مراهقًا، حين كنت في سن الثانية عشرة، كنت في المستوصف لارتفاع شديد في درجة حرارتي، هنالك اعتدى عليَّ الطبيب، أو أيًّا ما كان، حيث استيقظت أهذي، فوجدته فوقي، ما لم أستطِع فهمه هو سبب استمرار حدوث ذلك لي».

نظر إليَّ ملتمسًا جوابًا، فقلت: «هؤلاء الرجال كانوا مرضى، وأغلب الظن أن ذلك سبب كونهم أول المرسَلين هناك، أظن أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تعلم بوجود علة ما بهم، وبدلًا من إقالتهم أرسلتهم إلى أقاصي البلاد، حيث رأت أنه ما من أحد سيبلغ عما يفعلونه أبدًا».

- لكن لماذا أنا؟ لم يحدث ذلك للجميع في تلك المراحل المختلفة (آنذاك لم نكن نعلم شيئًا عن النسبة الهائلة لانتهاك الأطفال جنسيًّا في المدارس الداخلية).

- أظن أن السبب هو أنك طويل ووسيم، لا أظن أن ذكاءك مثل أهمية لهم، لقد تعين عليهم اختيار أحدهم، فلماذا لا يكون الشخص الأفضل مظهرًا؟ فرغم كل شيء فهم كائنات مفترسة.

ثم حدث شيء مروع، نهض داني وغادر في منتصف الجلسة، لم يكن لدي أدنى فكرة عن العلة، ثم لم يحضر جلسته التالية، ولا التي تلتها، فبدأ يتجلى لي أنه قد ترك العلاج النفسي، لم أرغب في «التدخل» بالاتصال به، نادرًا ما يترك المريض العلاج النفسي فجأة، وحينئذ عادة ما أرسل إليه ملاحظة أو أهاتفه حيث أقول إنني سأكون شاكرة له أن يأتي لجلسة ختام، حتى نتمكن من مناقشة إنهائه للعلاج، كما أوضح أنه من المهم حل الخلافات، ورغم ذلك فآنذاك لم يسبق لي أن غادر أحدهم في منتصف الجلسة.

لا شك أنني أخفقت إخفاقًا ذريعًا، افترضت أنني ارتكبت خطأً لا يرتكبه سوى البيض ولا يفقهون شيئًا عن ماهيته، وراودني شعور بأن داني قد رحل إلى الأبد، آنذاك أدركت مدى أهمية تلك الجلسات بالنسبة لي، لقد كنت منبهرة بالاختلافات الثقافية، وتورط الحكومة في محاولات مأساوية للإبادة الثقافية، والأهم من ذلك أنني رأيت شيئًا آسرًا، ونبيلًا في شخص داني، وأدركت مدى تقديري له، فلقد تحمل أكثر مما يستطيع معظم الناس تحمله.

ما فتح ذهنك مثل الفشل، وبهذا تحفزت للاتصال بمزيد من مطببي النفوس ورجال الطب في مجتمع الأصليين، وانتبهت جيدًا لما قالوه، كما سافرت إلى جميع أنحاء المقاطعة لحضور مراسم التلطيخ، أنا على يقين بأن التلطيخ كان غريبًا بالنسبة لي بقدر غرابة العلاج النفسي بالنسبة إلى داني، لكنني آنذاك بدأت أفهم أن منظور الأصليين للعالم وأولوياتهم النفسية مختلفة جدًا عن تلك الخاصة بالمجتمع الأبيض ذي الثقافة الأوروبية.

يلتحق معظم البيض بالعلاج النفسي سعيًا لزيادة السيطرة على حياتهم، أو كما قال أحد المطببين: «لإحكام قبضتهم على مقود الحياة»، لكن التطبيب النفسي لدى الأصليين متمحور حول التواصل مع عالم الروح تواصلًا ذا معنى وتحقيق الانسجام، ففي حين العلاج النفسي التقليدي قائم على نموذج الرجل ضد الطبيعة، فالتطبيب النفسي لدى الأصليين متمحور حول انسجام الإنسان مع الطبيعة.

***

عاد داني بعد عدة أسابيع، لكنه شرع في الكلام وكأن لم يحدث شيء، فقاطعته، وقلت إنني أشعر أننا بحاجة شديدة إلى تفحص سبب مغادرته في منتصف الجلسة، لكنه لم يجبني بشيء سوى: «الهنود لا يجادلون».

أعقب ذلك صمت، وأخيرًا كسرته بقولي: «داني، لقد فارقتني فجأة وأرغب في معرفة السبب، قد يكون ذلك انتهاكًا لتقاليد الأصليين، لكنني كذلك معالجة نفسية من البيض وينبغي أن أعمل وفقًا لبعض تقاليدي». لم أحصل على شيء، لذا قلت شيئًا نابعًا من غضبي: «داني، هل خطر ببالك يومًا أن تقاليد الأصليين ليست كلها جيدة، وكذلك ليست كل تقاليد البيض سيئة؟ ربما يمكننا التعلم من بعضنا بعضًا، أود توسيع أفقي بشرط أن تكون كذلك أنت أيضًا».

همهم قائلًا: «لقد تعمدتِ ما فعلتِه».

انتابني الذهول، فنهض وأخذ يتجول في الغرفة مثل نمر يسير في قفص، وفي نهاية المطاف رطم جسده الضخم بالباب وقال: «كنت مثل الكاهن، تتملقينني، وتخبرينني أنني وسيم، أعرف الخطوة التالية».

حينئذ انصعقت، فلم يكن مني إلا أن نظرت إليه وقلت: «أنا ممتنة لأنك أبلغتني أنني تجاوزت الحدود وأن ذلك أشعرك بالضيق، وأنا آسفة على ذلك»، ثم شرحت أنني حين قلت إنه طويل، ووسيم، ومتميز عن الطلاب الآخرين، كنت أحاول أن أقول إن الثعلب يختار أكبر وأفضل دجاجة من حظيرة الدجاج، ثم قلت: «كانت طريقتي لإخبارك أنك لم تتعمد فعل شيء يغري هؤلاء الكهنة، لقد كان مظهرك ليس إلا، الذي لا سيطرة لك عليه»، ثم أخبرته أنني استوعبت الآن كيف أساء فهم ما قلته، لقد كانت انتهاكاته تبدأ بمجاملات مبتذلة، وقلت: «في الواقع لم أقصد كلمة وسيم كمجاملة، قصدتها وصفًا، ربما بدت لذهنك مغازلة، لكني أؤكد لك أنها لم تكن كذلك».

فوجه داني أول اتهاماته قائلًا: «ما وصفتك بالجميلة قط»، فانطلقت مني ضحكة، لم أستطع كتمها، ثم أخبرته أن ينضم إلى جحافل الذكور الذين لم يصفوني بالجميلة، حتى هو ابتسم حين سماع ذلك.

كان وصفي لداني بالوسيم أحد المحفزات له، مثل منتفعيَّ الآخرين الذين تعرضوا للانتهاك الجنسي المتكرر وكانت لديهم هم أيضًا محفزات قوية،

فأخبرته أن معظم ضحايا الانتهاك الجنسي يعانون المحفزات، وأنني أشعلت أحدهم.

فقال بهدوء: «ضحية انتهاك جنسي؟» لم يسبق له سماع هذا المصطلح، أو لم يرَ قط أنه منطبق على حالته، آنذاك لم تكن المناقشات حول الانتهاك الجنسي شائعة، كان الناس يعيشون برفقة خزيهم الخصوصي الذي يشعرون بضرورة إخفائه عن المجتمع، فأخبرت داني أن ضحايا الانتهاك الجنسي يعانون عدة أعراض، بما في ذلك الخدر الوجداني، ثم أشرت إلى أنه قد اختبر ذلك في وفاة زوجته وطفلته.

فأومأ برأسه، كأنه الآن أدرك شيئًا ما للتو، إن أحد الأشياء التي لاحظتها حول نمط داني في امتصاص المواضيع هو أنه يعترف بالشيء، ثم يجابهه أو يتحدث عنه لاحقًا، في توقيته الخاص، بل يعود بعد أشهر للموضوع كأننا قد ناقشناه في آخر جلسة، وفي هذا الموقف قال إنه سيتحدث عن الانتهاك حينما يكون مستعدًّا. كان ذلك صعبًا عليَّ، إذ رغبت في الضرب على الحديد وهو ساخن، في مقاربة الأمور سيرًا في خط مستقيم، لكن هذا لم يكن أسلوب داني، فشعرت أنني يجب أن أحترمه.

4

ميداليات البقر

نظرًا لأن داني لم يكن مستعدًا للمواجهة المباشرة مع الانتهاك الذي تعرض له في المدرسة الداخلية، سألته عن الأقارب الذين تركهم وراءه، وأشرت ذات مرة -حينما كان يصف شيئًا علمه له والده عن التعقب- إلى أنه من الغريب أنه لم يذكر والده قط في السنوات الأخيرة، وقلت له: «لقد منحتني وصفًا تفصيليًا لبيت مثالي حتى أخذتك السلطات بعيدًا، ثم هناك فجوة، أعلم أن أمك ميتة وأن أباك لا يزال حيًّا، لكني لا أعلم شيئًا غير ذلك».

فقال داني: «لقد أدركتِ النقاط الرئيسة، ولا يزال أبي في الشمال»، كنت قد تمكنت -بعد عامين من العلاج- من التقاط فروق وجدانية طفيفة في نبرة صوته الرتيبة، كما صارت فترات صمته أقصر، فطلبت منه أن يصف لي معيشته حين عاد للبيت في الصيف، فقال داني إنه في العام الأول الذي عاد فيه للبيت انصعق والداه حين وجداه يتحدث بالإنجليزية إلى روز. لقد نسي قدرًا كبيرًا من اللغة الكرية، فلقد اغتُصبت منه، بل أظن أنه كان غاية في القلق فلم يقدر على تذكرها، فلقد أصبحت اللغة نفسها محفزًا وجدانيًا.

لكن والديه فَهِمَا ذلك بأنه خزيان من تراثه، ثم قال داني: «لقد كبرت منفصلًا عنهم، وكذلك كبروا منفصلين عني، وهكذا نجوا رغم كل ما أصابهم، لكن روز كانت أفضل مني في استعادة هويتها الهندية»، وعلى حد قوله

فهذا غالبًا لأنها كانت تكبره ببضع سنوات حين أُخذت منهم، إلى جانب أنها بطبيعتها محبة للثرثرة وأرادت أن يتم إدماجها، ثم أخبرني داني بالآتي: «أتذكر أنها أخبرت والديَّ عن مشاهدتها الكاهن عبر السياج وهو يضربني، فأمرتها أمي -الكاثوليكية- بالكف عن قول أشياء سيئة عن الكهنة. حينئذ أدركت أنني لن أقدر أبدًا على فتح فمي بخصوص أي شيء حدث في المدرسة الداخلية».

حين سألت كيف سارت العلاقة مع مرور السنين وصف داني أن والديه أنجبا ولدين آخرين بعده، وأن حياتهم تغيرت إلى حد كبير نتيجة السياسات الحكومية الجديدة.

ثم أخبرني داني عن حياته المبكرة معهم: «لقد قضى والداي معظم حياتهما في الأدغال، وكان نصب الفخاخ وصيد الحيوانات يستغرقان قدرًا كبيرًا من وقتهما، هذا وقد عاشا لفترة وجيزة داخل مستوطنة صغيرة متألفة من بضع عشرات من الناس بالقرب من مركز تجاري، حينما كانوا يبيعون جلود حيواناتهم لـ «شركة خليج هدسون»»، ثم أخبرني داني بأن الحكومة أصدرت مرسومًا -خلال السنوات التي عاشها في المدرسة بعيدًا- يوجب على الهنود الحمر الانتقال إلى مستوطنة مشتملة على مدرسة، وقال: «هذا يعني أن والدي اضطرا إلى ترك الصيد، بالإضافة إلى أن الحكومة استولت على الكثير من أراضي الصيد الخاصة بهم بنوع من المعاهدات الزائفة، ثم قامت الحكومة ببناء منازل صغيرة رديئة للصيادين ومنحتهم معاشًا، فكانوا جميعًا يعيشون متكدسين حول مدرسة الأطفال، وكانوا يسمونها الاحتياطي».

فسألته: «وماذا فعل والداك؟».

فقال: «لم يكن هناك ما يُفعل، لم يعد بإمكانهم نصب الفخاخ لأنهم بعيدين جدًّا عن الأدغال»، ثم تذكر قائلًا: «كان الجو شديد البرودة بحيث لا يمكن زراعة أي شيء أو تربية الحيوانات، وكلما عدنا أنا وروز للبيت كل عام وجدنا المنزل أشد فوضوية، ولقد كان أبي يشرب الخمر كثيرًا، سألتُ روز ذات مرة هل تلفت أسنان أمي من مضغ الجلود، لكن روز قالت إن أبي قد هشمها». ثم وصف أن والديهما كانا يتبرمان حين عودته هو وروز للبيت، ثم بدأت أمهما في شرب الخمر هي أيضًا. ثم قال داني: «حين تكون سكرانَ يقل إحساسك بآلام الضرب المبرح، حين شاهدت للمرة الأولى أبي وهو يضرب أمي لأنها تطلب منه الاستعداد للذهاب إلى الكنيسة -وهو شيء كان يحب

فعله- قررتُ أنني لن أشرب الخمر أبدًا طيلة حياتي، لم أرغب في أن يشعر ابني قط بما شعرت به تجاه أبي آنذاك».

ثم تحدث داني بانفعال نادر، قائلًا إن والديه في صغره كانا طيلة الوقت منشغلين، وأن كوخهم كان غاية في النظافة، وغاية في النظام، بل لم يكن هناك طبق متسخ قط، كما كانت جميع هدايا الكريسماس عبارة عن أعمال فنية يصنعانها في أوقات الفراغ، ثم تذكر قائلًا: «لم أرَ أيًا منهما يستريح قط إلا حين التجهز للنوم. ثم يستيقظان فجرًا»، والآن -وفقًا لقوله- امتلأت حياتهما الفارغة بالشرب، والشجار، والسهر.

خلال وصف داني لهذا المشهد الفاسد ظل يفرك يديه ببعضهما كمن يسرد ذكريات بشعة، كما أغمض عينيه كالمحدق إلى الشمس مباشرة، كأنه يحجب ما يبصره في ذهنه.

ساد الصمت طويلًا، ثم تابع قائلًا: «لقد ارتكبت خطأ ذات مرة، حين خلطت الثقافة البيضاء بالثقافة الهندية، وذلك لأنني كنت قد عشت داخل مجتمع البيض زمنًا طويلًا». حينما كان داني في الثالثة عشرة من عمره أرى أباه الميداليات التي فاز بها في «الفور إتش» الإقليمية، ثم أخفض داني صوته وهو يقول لي (هامسًا): «فسخر منها، وظل يغيظني مصدرًا أصوات خوار البقر بنبرته المخمورة وساخرًا من أعمال الزراعة، وظلت أمي تضحك، أما روز فقد بدا عليها التشوش، كان هذا آخر ما شاركته مع عائلتي».

من الجدير بالذكر أن عادات السكان الأصليين المتعلقة بقمع الغضب هي الحالة الوحيدة التي ينتقد فيها د. برانت -وهو نفسه من «العشائر الأولى»- ممارسة ما، إذ يقول إن السكان الأصليين لا يستخدمون الغضب لتوجيه أطفالهم، وإنما يسمحون للغضب بالتسرب عبر استخدام أدوات غير مجابهة كالإغاظة، والإشعار بالخزي، والاستهزاء. هذا وقد كتب في أحد مقالاته الأكاديمية: «إن استخدام الإخزاء والمضايقة كبديل لغضب الأبوين وإفقاد الامتيازات يمكن أن يؤدي إلى تآكل تقدير الذات وطغيان حس المهانة عند مواجهتها لاحقًا في الحياة»، كما يقول إن الطفل الذي يتعرض للحط من قدره يلاقي صعوبة شديدة في معرفة القواعد وكيفية الاستجابة للإغاظة والسخرية، ونتيجة لذلك ينسحب الطفل، ويتولد بداخله الخجل الاجتماعي، أو الخزي، بل أحيانًا الرعب.

قلت لداني: «ها أنت، الفتى الذي فاز بجائزة الرياضيات، وجائزة العلوم، وجائزة أفضل طالب، وجائزة «الفور إتش» لتربية الحيوانات، ورغم ذلك تم الحط من قدرك، لا عجب أنك لم تستطِع الشعور أو إظهار أي انفعال، ولم لا تنطفئ حين تنالك هجمات من كل الجبهات؟ إنها الاستجابة التكيفية الوحيدة في هذا الموقف».

أومأ داني بيديه تجاهي، مشيرًا إليَّ بالمتابعة، لكنني ظللت صامتة، وأخيرًا قال: «الفظيها»، فابتسمنا نحن الاثنان، مثلما كنت أتعلم رصد ما إذا كان هناك شيء يدور في ذهنه فقد كان يتعلم هو أيضًا رصد شعوري بنفاد الصبر.

طلبت منه أن يتخيل ما كان سيقوله والده لو لم يكن مخمورًا ولو لم يلجأ إلى الإغاظة والإخزاء، لو كان بإمكانه أن يعبر فحسب عن مشاعره الحقيقية، ثم ناشدته قائلة: «كن أباك وأخبرني، لأنني بصراحة أرغب في معرفة سبب استجابته تلك».

ولدهشتي فقد فعل داني ذلك بالضبط، حيث تحدث بنبرة هادئة وبطيئة، متظاهرًا بأنه أبوه: «نينجوزيس، لقد أُخذتم منا وأخبروكم أننا بدائيون همجيون، وأن «الهنود الحمر الطيبين لم يعد لهم وجود»، ورغم ذلك تحب حُلِيَّهم و«جوائزهم»، وفقًا لقولك، العدو الذي تسبب لنا في مثل هذا الألم تتخذه أنت إلهًا؟ لقد اختطفوكم منا»، ثم سكت داني فأومأت برأسي، فتابع قائلًا: «الزراعة، ما ذلك؟ تربية الحيوانات في الحظائر ورص النباتات في صفوف، ليست مهارة، إنها تجارة، أما الصيد فيتطلب رجلًا، إذ يتوجب عليك استخدام دهائك كل لحظة في اليوم، والتفكير بعقل ما تصطاده، لا أن تحبسهم، وتطعمهم، وتأكلهم، لكن لا تبدي أي اهتمام بالصيد، وترى أن هذا يخص البدائيين كما تظن أننا أدنى منك بأرضياتنا الترابية وافتقارنا للمياه الجارية».

فأومأت برأسي مجددًا، مشيرة إلى أنني استوعبت ذلك أخيرًا، ثم بدأ داني في الحديث بمشاعر حقيقية: «أنت تنتقد شربي للخمر. أنا عاطل. ولا أستطيع صيد فأر حتى، لا يرى إخوتك الصغار الصياد العزيز الذي جلب جلودًا أكثر من أي رجل في المستوطنة، وإنما يرون سكيرًا يلعب الورق بمفرده على الطاولة، رجلًا انحدر إلى ضرب زوجته الصالحة، لقد سلبني الرجل الأبيض رزقي، وأولادي، وكرامتي، ثم أنت فخور بميداليات البقر الخاصة بهم؟».

رمشت لمنع دموعي، إن مخاطبته لنفسه صورت تصويرًا مثاليًّا المعاناة الصامتة التي يعيشها والده وأسرته، من المؤسف أنه لم يفهم الأمر في طفولته، حين طعنه أبوه في قلبه بكلماته المخمورة.

حينما غادر داني ذلك اليوم شعرت أن العلاج النفسي بيننا قد بلغ نقطة الثقة، إذ لم يحجب داني المشاعر بالكلية، وإنما اقتدر على تخيل ألم أبيه، والتعاطف معه، ومشاركة ذلك معي.

5

حزن مدفون

بحلول السنة العلاجية الثالثة بدا على داني قلة الأعباء، جاء ذات مرة وظل يتجول خارج المكتب نصف ساعة، يدخن سيجارة تلو الأخرى دون فاصل، لكن حينما خرجت لإحضاره بدت خطواته أكثر خفة.

بعد أسبوع من إلقاء ذلك الخطاب المتخيل الذي يحاكي والده قال داني مستطردًا: «لقد اتصلت بوالدي هذا الأسبوع».

اندهشت بشدة، لقد نفَّذ داني الأشياء -كالعادة- بطريقته الخاصة ووفقًا لجدوله الخاص.

فسألته (وأنا لا أزال أترنح من الذهول): «متى كانت آخر مرة تحدثت معه؟».

- قبل ثمانية عشر عامًا، في جنازة أمي.
- ماذا قال حينما اتصلت؟
- أخبرته أنني فقدت زوجتي وابنتي، فرد قائلًا: «صعب، أليس كذلك؟»، ثم سألني هل هاتفتني روز.

أخبرني داني أن أخته روز مفقودة في «مدينة وينيبيج» Winnipeg منذ أكثر من عشر سنوات.

كان هذا قبل أربعين عامًا من نشر الصحف التقارير المشيرة إلى الأعداد الكبيرة للنساء الأصليات المفقودات والمقتولات، نحن الآن جميعًا على دراية بأن الشرطة لم تجرِ تحقيقات في حالات الاختفاء هذه (عام 2017، قالت «هيئة الإحصاء الكندية» Statistics Canada إن النساء الأصليات أكثر عرضة بثلاث مرات للوقوع ضحية لجرائم العنف مقارنة بغيرهن).

- ماذا حدث لتلك الفتاة الطيبة التي بذلت جهودًا كثيرة لرعايتك وكانت بهجتها لا تنقطع؟

قال داني (مشيرًا إلى علاقتها بوالديها): «ظلت تلتمس الحب من اثنين سكِّيرين كلما عادت للبيت، ظلت تحاول ذلك دهرًا، أما أنا فقد تخليت عن هذا القرف مبكرًا، واصلا تثبيطها فحسب حتى أصبحت مثلهما، حيث انضمت هي وشقيقيَّ الصغيرين إلى حفلاتهم السكرية. بعدما ماتت أمي بقيت روز برفقة أبي حتى كبرت، فغادرت إلى وينيبيج، ولم أرَها بعد ذلك».

- أظن أن ذهابك إلى تورنتو كان شيئًا جيدًا.

- لا أعلم، فهي على الأقل ظلت هندية.

فقلت: «ألستَ كذلك؟»، وجلست محدقة إلى هذا الرجل ذي الضفائر الطويلة.

فقال داني: «أعلم أنني لست أبيضَ»، ثم بعد صمت قال: «كانت زوجتي بيضاء».

أخيرًا، في السنة العلاجية الثالثة، ذكر داني زوجته الميتة، شعرت برغبة في الانقضاض على تلك النقطة، لكنني أرغمت نفسي على العد إلى مائة بدلًا من ذلك.

ثم أتبع قائلًا: «كانت من النرويج».

- النرويج، حقًّا؟ أنى هذا!

- ممرضة كانت تعمل في العناية المركزة، لقد حُجزت هناك بعد أن خضت شجارًا في حانة بوينيبيج، حيث ذهبت إلى جميع الحانات سعيًا للعثور على أختي، وإذ برجل يتحدث عن روز ببذاءة، فاعتركنا، وجرحني بسكين في بطني، ضمدت الجرح، وعدت لأونتاريو، وفي اليوم

التالي عدت للعمل، لكن العدوى أصابت الجرح وانتهى بي المطاف في العناية المركزة هنا في تورونتو.

كانت الممرضة، بيريت، في منتصف الثلاثينيات من عمرها، وكذلك داني، وشاركته حبه للروايات الغامضة، وقال عنها داني: «قالت إنها لا تحب الثرثارين، وأنها عثرت على زوجها، ثم حملت ورغبت في الزواج، فوافقت، ثم أنجبنا ابنتنا ليليان».

- هل أحببت بيريت؟

فقال: «لا أعلم»، ثم خمس عشرة دقيقة من الصمت، ثم قال: «كانت امرأة طيبة، ما كذبت أو خانتني قط، وكانت تعمل بجد». ثم مزيد من الصمت، ثم قال: «انفصلنا، أرادت مني أشياء لا أقدر على منحها».

- كالقرب؟

فأومأ برأسه وقال: «لم نزدَد قربًا أكثر مما كنا عليه في المستشفى، وقالت إن هناك جدارًا حجريًّا بيننا، وكنت أعلم أنها محقة، إذ لم أكن قادرًا على الشعور، بل كان مجرد وجودي معها في الغرفة ذاتها يشعرني بعدم الارتياح».

- لماذا؟

- مزيج من الشعور بالذنب والغضب، كنت أعرف ما تريد، وهي تستحقه، لكن ذلك لم يكن لدي لأعطيه، لذا بدأت في تجنبها.

- ماذا عن ليليان؟

فرد قائلًا: «كانت تشبهني، تشبهني تمامًا في المظهر كما كانت هادئة وخجولة، كانت من النوع المحب للمشاهدة والمراقبة، كانوا قلقين عليها في الحضانة لأنها لا تنضم إلى الآخرين، لكنني رأيت أنها على ما يرام، إذ كانت تسعد باللعب بالدمى والألعاب في غرفتها، وكنت أجلس معها أحيانًا على الأرض وظننت أننا...»، تردد داني ثم قال: «نتشارك مسافة مريحة، وهو التعبير الوحيد الذي أستطيع استخدامه»، ثم بدا -مجددًا- كأنه يتجنب النظر إلى شمس ساطعة، وفي نهاية المطاف قال: «أرادت بيريت أن أُجلس ليليان على ركبتي، لكنني شعرت بعدم الارتياح لفعل ذلك، خاصة بعد ما حدث لي في العمر ذاته تقريبًا».

- لقد عانيتَ الانتهاك الجنسي، كما حُرمت في طفولتك من قدر كبير من التربية، ورغم ذلك تعين عليك معرفة كيفية فعل ذلك.

- كنتُ تائهًا في غابة، لكن الناس أرادوا مني معرفة الطريق.

- هل كانت بيريت أمًا جيدة؟

أومأ داني برأسه وقال: «بالطريقة البيضاء، كانت طيلة الوقت تعلم ليليان شيئًا، لم يكن هناك وقت راحة، أردت أن أقول لها أن تترك الطفلة وشأنها فحسب، توقفي عن مواصلة إخبارها بكيفية الإمساك بالشوكة، أما أنا فقد كنت أقود السيارة لساعات وليليان بجواري ولا نتحدث، وكان ذلك أسعد وقت لي، لكن بيريت حين تكون معنا لا تتوقف عن قول بقرة، حصان، سيارة، أو غيرها من الكلمات كي تعرفها ليليان، أما الطريقة الهندية فهي ترى ذلك تدخلًا».

- رغبتَ في أن ترى ابنتك نموذجًا تقلده أو تحتذي به كما فعل أبوك وأمك في صغرك، وأن تتركاها لتلتقط ذلك في توقيتها الخاص.

- حين كانت تسقط أرضًا وتنجرح كنت أتجاهل الأمر، وأرى أنها ستنهض فحسب، لكن بيريت كانت تتصرف وكأنها نهاية العالم، ثم يبدأ كل منهما في النحيب.

فسألته هل كانت بيريت تعلم شيئًا عن اختلاف منظور الأصليين للعالم، أن لديهم أفكارًا مختلفة حول إدارة الغضب، وحل الخلافات، وإلجام المشاعر، وهو ما يُترجم إلى عدم التدخل في شؤون الآخرين، حتى لو كان طفلك.

- لا.

- ولماذا لم تخبرها؟

- لم أكن أعرف نفسي، لم أكن أسمح لنفسي بالانزعاج، كان قلبي حجرًا، لم أدرك ذلك إلا حين قلته الآن.

- هل سبق أن قابلت بيريت والديك؟

فأومأ بالنفي، فسألته عن الأصدقاء فقال: «أنا وحيد».

ثم سألت عن والدي بيريت، فأخبرني أنهما كانا يعيشان بالنرويج في مزرعة، مجاورة لمزرعة ابنهما، ورغم أنه لم يقابلهما سوى مرة واحدة فقد

قال: «جميعهم مثلها، طيبون، ولطيفون، وأسوياء، ويعملون بلا كلل، لم يكن والداها يتحدثان بالإنجليزية إلا نادرًا، وحين يفعلون لا أستطيع فهمهما».

حينما سألت داني هل اندهشا بعودة ابنتهم للبيت برفقة رجل أصلي ضفائره ممتدة حتى خصره قال لي: «أظن أنهما حسبا أن ذاك مظهر كل من في كندا»، تفاجأت بفكاهته، وضحك كل منا (الطرفة الثانية على مدار أكثر من عامين من العلاج).

ثم صمتنا قليلًا، ثم قال: «أظن أنني لو كنت قد التحقت بهذه الجلسات ولم تكن بيريت في المعادلة لاستطعنا أنا وليليان إنجاح علاقتنا، إذ كانت مثلي، هادئة وجادة، أظن أن بيريت رأت أنني أب سيئ، وكانت عازفة حتى عن تركها بمفردها معي، إذ كانت تراني مهملًا».

فقلت: «أعلم أن عقلك الواعي لم يشعر بشيء، لكن لا بدَّ أن عقلك اللاواعي كان يشعر بالانجراح والغضب من اعتبارها أنك أب مهمل، فهذا نوع من الإهانة، فلقد كان لكل منكما أسلوب مختلف ليس إلا»، لم ينبس داني ببنت شفة، فأضفت: «لا عجب أنكما انفصلتا».

- لقد شعرت بالارتياح لقيادتي الشاحنة أسابيع متتالية مع عدم وجود من يريد مني ما لا أستطيع تقديمه.
- هل سبق أن تشاجرت أنت وزوجتك؟
- لا، كنت أغادر فحسب ثم أعود للبيت حين يتبدد كل ما بداخلها من غضب، أو ربما كان مجرد إحباط.
- هل كانت تعلم عن المدرسة الداخلية؟
- أجل، لكنني لم أقل سوى إنها مدرسة داخلية حكومية.
- إذن فلم يكن لديها أي فكرة عما مررت به؟
- إطلاقًا. ولا كان لدي.
- ألديك الآن؟
- لقد بدأت في الذوبان بعض الشيء، أشعر أحيانًا بالحزن على ليليان ولا أريد حتى رؤية صورتها، إذ ألاحظ لديها عينيَّ الحزينتين.
- هل سبق أن رأيت الصبي الحزين الذي كنته وراء هاتين العينين؟
- الصبي الغارق في الوحدة.

فزدت: «الصبي المهجور».

- لم يرد والداي هجري.

فقلت إن العقل اللاواعي لا يكترث بذلك، سيظل شاعرًا بالهجر، وعقبت بقولي: «اللاوعي لا ينظر في الأسباب، لا يرى سوى أنك صبي في سن الخامسة وحيد، آنذاك كنت في عمر ليليان».

فقال داني: «لم يسبق أن تصورت أنني كنت بهذا الصغر حين حدوث ذلك، ومن السادسة عشرة حتى الثامنة عشرة كنت مجنونًا بالعودة وإنهاء المدرسة الثانوية طواعية، إذ كان تفكيري آنذاك متمثلًا في «ما تعلمه أفضل مما لا تعلمه»».

ثم قال إنه لم يفكر في الالتحاق بالجامعة لأنه لا يملك المال، وعقب قائلًا: «بالإضافة إلى أنها كانت للبيض، وقد طفح كيلي من عالم البيض».

هذا ولم يعد داني للمستوطنة، نظرًا لتوتر علاقته بعائلته، كما رفض شرب الخمر، وقد كان هذا غريبًا لبعض الناس هناك.

فغامرت بقولي: «من المثير للاهتمام أنك ملتزم بذلك».

فرد قائلًا: «أنا عنيد، أتذكر أن أمي كانت تصفني بذلك في صغري».

فأشرت إلى أن كلمة **عنيد** لها دلالة سلبية قليلًا وقلت: «لماذا لا تقول: «أجل، لدي صلابة وإصرار، لقد جابهت الكثير، ورغم ذلك لا أزال صامدًا»؟ هل سبق أن شعرت بذلك؟».

- لا.

- أنت لا تشعر بشيء، لقد آثرت كتم بركانك على اندلاع الحمم البركانية الملتهبة من رأسك، كان ذلك وإلا أُصبت بالجنون أو أدمنت الخمر حتى تتمكن من إطلاق العنان لغضبك خلال نوبات السكر، مثل أبيك. لقد تعين عليك إيجاد وسيلة لمواكبة الأمور بعد كل ما حدث لك، ولأغلب السكان الأصليين، خلال الإبادة الجماعية في المدارس الداخلية، وبفضل صلابتك الشخصية الهائلة اخترت أحد المسارات الأقل تدميرًا، إغلاق صنبور المشاعر.

- أجل، ولكنه الآن بدأ بالتنقيط، أو أظن أن المغسلة تسرب ماء.

حينما طلبت منه الإسهاب أخبرني أنه كان ينظر ذات ليلة إلى صورة ليليان وقال لي: «أشعر بشيء، لا أعرف ما هو تحديدًا، لكنه يجعل قلبي يسبح في صدري، أرغب في الجلوس بجوارها على الأريكة فحسب».

***

أمضينا وقتًا كبيرًا في مناقشة أن حزن داني على فقد ابنته أمر طبيعي، وأن فقدان الابن أسوأ أنواع الحزن، وذات يوم قال: «ليس الحزن هو الشعور الوحيد الذي داهم رأسي، هناك مشاعر أخرى مستترة في الأدغال»، كان جالسًا على كرسيه، منحنيًا إلى الأمام واضعًا كفيه على ركبتيه، فجزمت من لغة جسده أن الغضب بدأ يتسلل إلى دماغه، ثم تقاربت جفونه مرة أخرى وقال: «سأنهي ذلك بكل بساطة، هناك رجل في العمل -مدير رصيف التحميل- يناديني تونتو[1]، وهذا لا يروق لي».

قال داني إنه لا يمانع في أن يناديه الآخرون «فورك» إذ كثير من الرجال لديهم أسماء حركية في بيئة العمل، لكن تونتو «تحقير للهندي».

فقلت: «أتفق، هذا مهين، هل فكرت يومًا في إخباره بأن ذلك لا يروق لك؟».

- كلا، إنه مجرد رجل أبيض يظن أنه خفيف الظل.

فغامرت بقولي: «أتعلم، الغضب سمعته سيئة، الغضب هو الوقود الذي تستخدمه لإخراج مشاعر الأذى والألم من اللاوعي، إنه الوسيلة التي يستخدمها المرء لإبلاغ الآخرين بأنه مستاء من سلوكهم، هذا الرجل الذي يناديك تونتو لا يحترمك، لكن ربما لا يعرف ذلك البتة، ماذا سيحدث لو ناداك مجددًا تونتو فقلت بكل بساطة: «من فضلك لا تنادِني بهذا»، ولست مدينًا له بأي شرح».

- ماذا لو سأل عن السبب؟

- قل: «لا يروق لي ذلك»، فنظر إليَّ داني كأنه لم يسمع قط شيئًا بهذه السخافة، فأوضحت: «معظم الناس في العالم يكترثون حين لا يروق لك شيء».

فبدا عليه الارتياب وقال «حقًّا؟».

---

(1) تونتو Tonto هو شخصية خيالية أمريكية من أشهر الشخصيات الأصلية في الثقافة الشعبية في القرن العشرين. (المترجم)

- لقد ترعرعت في مكان حيث يتحتم على المرء تجاهل مشاعره، بل إخمادها، لقد كانت إبادة ثقافية، كانت الحكومة والكهنة والراهبات يحاولون تحويل الأصليين إلى بيض، ولا يستطيعون تحقيق هذا الهدف والإصغاء إلى مشاعرك في الوقت ذاته، فكانت وظيفتهم دهس مشاعرك بأقدامهم.

أومأ بالاتفاق.

- داني، نحن معًا منذ أكثر من ثلاث سنوات، ولا أريد حصر عملنا على الماضي بل أيضًا تحسين شؤونك في الحاضر.

فقال (بابتسامة طفيفة): «يا إلهي، أشعر باقتراب شيء سيئ، ليتني ما فتحت فمي قط».

كان بارعًا في قراءة أفكاري، وقد قلت: «هذا شديد البساطة، أريدك أن تخبر مدير رصيف التحميل أنك لا تريده أن يناديك تونتو، قلها بلطف، وبإمكانك إضافة أقل قدر ممكن من الحدة لو احتجت إلى ذلك».

نظر إليَّ بارتياب، فاقترحت أن نجرب ذلك هنا، وقبل أن تتاح له فرصة الاعتراض قلت (بنبرة بها شيء الوقاحة): «مرحبًا يا تونتو».

فرد قائلًا: «لا تنادِني بهذا يا صاح».

- ممتاز.

فقال داني: «ماذا لو سأل عن السبب؟»، كان داني يركز على هذا الجزء من التفاعل، لافتراضه أنه ليس لديه أي حقوق وجدانية.

- فلتقل له بكل بساطة: «لا يروق لي ذلك»، أنت لست مدينًا له بأطروحة حول العلاقات بين الأصليين والبيض.

فعارضني بقوله: «ماذا لو كررها؟».

- لا أظن أنه سيفعل، أنت طولك متران وعريض المنكبين، وشديد القوة لدرجة أنهم يسمونك فورك، لم تعد ذا الخمس السنوات معدوم القوى. ولو أنني مخطئة فإمكاننا عبور ذلك الجسر فيما بعد.

أعطاني داني تقريرًا في الأسبوع التالي: «دخلت المستودع، وبطبيعة الحال قال المدير عبر مكبر الصوت الخاص به: «مرحبًا يا تونتو»، ثم عاود النظر إلى دفتره وهو في كوخه الصغير الزجاجي برصيف التحميل. فذهبت

إلى النافذة وقلت: «لا تنادِني بهذا الاسم ثانية»، فعَلَا بناظره، متفاجئًا بعض الشيء، ثم سحب نفَسًا من سيجارته وقال: «حسنًا، آسف يا صاح، شاحنتك 31»، لقد انتهى الأمر، لم يكررها طوال الأسبوع، لقد كنت كارهًا لهذه التحية طيلة هذه السنوات».

كنت سعيدة جدًّا له، إذ كانت هذه المرة الأولى التي يحاول فيها التأثير على بيئته بأسلوب مباشر منذ أن كان في الخامسة من عمره، حينما قال مرحبًا (**تانيسي**) بالكرية وتعرَّض للضرب لذلك، وشعرت بالرغبة في الصياح بقولي: «فلتحذَر أيُّها العالم، داني موريسون قادم!».

6

ذوبان

أحيانًا ما تتسارع وتيرة العلاج النفسي إثر بداية استيعاب المرضى للكيفية التي يعمل بها اللاوعي وإدراكهم أن لديهم الحق في وضع الحدود الشخصية، وقد وضعت ذلك في اعتباري، وطلبت من داني أن نعيد تمثيل حادث من السنة العلاجية الأولى، فبدا عليه التردد، فقلت إنني بحاجة إلى إذنه، فوافق على مضض وهمهم قائلًا: «يا إلهي! أكره المجيء إلى هنا»، أخبرته أنني أريد منه أن يعيد التمثيل بدقة، وأنني أريد من داني الجديد -الرجل الذي لديه الحق في امتلاك زمام أمور عالمه- أن يصدر استجابة، فقال بابتسامة خفيفة: «آه! أعرف ما سيحدث».

كانت مخاطرة، لكنني حبست أنفاسي ومضيت قدمًا.

- داني، أظن أن السبب في اختيارك كثيرًا للانتهاك الجنسي أنك طويل ووسيم.
- د. جلدنر، رجاء لا تصفيني بالوسيم، لا أظن أن ذلك من ضمن وظيفتك، كما أنه يشعرني بالضيق.
- داني، آسفة لقولي ذلك، لا أريدك أن تشعر بالضيق في العلاج، لن أقولها ثانية.

فابتسم وقال: «يا إلهي، كان يمكن أن يكون ذلك مجرد عبارة واحدة، لا أصدق أنني كنت سأترك العلاج بسبب ذلك. أدرك الآن أن الانتهاك الذي تعرضت له في الماضي هو ما سبب الارتجافات» (كانت هذه أول مرة يستخدم فيها داني كلمة **الانتهاك** بحقها).

فقلت: لا يهم ما سبب أو يسبب، لديك الحق في أن تطلب، لست مضطرًا إلى تحمل ما قلت إنه «ارتجافات».

حينما أشرت إلى إعادة التمثيل هذه بـ «استرخاء الرجل الوسيم» هز رأسه مستنكرًا وقال: «لديك أوصاف عن كل صغيرة تحدث».

***

كان داني قد ألمح فقط إلى الانتهاك الجنسي، لكنه بدا أشد قوة بعد حلنا لمشكلة «تونتو» والوسامة، إذ بدأ في تحديد مشاعره والتفرقة بين ما كان خطأه وما لم يكن، آنذاك صار مستعدًا لمناقشة تفاصيل تاريخ الانتهاك الجنسي الذي تعرض له.

سرد داني تفاصيل الانتهاكات المرعبة التي استمرت زمنًا طويلًا، لكن إثر فراغه لم يبدُ أنها بلاء عظيم بالنسبة إليه. كان أشد ما يؤلمه هو أن الانتهاك حدث له من كاهن كان قد ساعده حقًا وأحبه، لقد اصطحبه هذا الكاهن إلى «نادي الفور إتش» وكان له بمنزلة أب، كان يتحدث إليه بكلمات ودودة ويخبره بأنه وسيم، ويحتضنه، ويجلسه على ركبتيه، وهو شعور رائع لطفل وحيد في سن السابعة. لكن بعد ذلك انتهكه جنسيًا دون إيذائه جسديًا. (وهذا هو السبب في أن جلوس ليليان على ركبة داني كان محفزًا معها وكانت كلمة **وسيم** محفزًا معي).

إن الانتهاك الجنسي العنيف الذي تعرض له داني من الأخ المسيحي كانت ندوبه أقل مقارنة بالانتهاك الجنسي من قِبل الكاهن الطيب، حينما يتعرض المرء لانتهاك جنسي وحشي تعلم يقينًا أن لديك مفترسًا هو عدوك، أما داني فقد شعر بتشوش وجداني شديد من وجود شخص محب ولطيف ويعتدي عليه جنسيًا كذلك، حينما كان صبيًا صغيرًا وحيدًا كان يستمتع بمودة الكاهن وقربه منه، لكنه حينما أدرك فيما بعد ما يحدث شعر بالذنب من مشاركته، كما لم يفقد براءته فحسب، فقد تعرض أيضًا للخيانة من صديق مقرب. ومن ناحية الأثر الوجداني فمن الأهون أن تعرف من هم أعداؤك.

بعدما تحدث داني عن الانتهاك قال إنه الآن يرى أن ابنته لو كانت حية لاحتضنها بين ذراعيه، فلقد سوى الأمور مع بعض مشاعره، إذ أن الاحتضان والمرجحة كانا مرتبطين لديه بالتطورات الجنسية المكروهة، فكان يصاب بارتباك شديد من ذلك كله لدرجة أنه تجنب لمس ابنته.

لم تكن صدمته النفسية الجنسانية شديدة كما كانت في السابق، إذ بعد وفاة زوجته كان بمقدوره النوم ليلة واحدة عارضة مع امرأة، لكنه كان مرعوبًا من الحميمية الحقيقية.

ناقشنا كيف كان يمكن أن يكون زواجه لو كان باستطاعته مشاركة مشاعره مع زوجته، لم يستطع قط لف ذراعه حولها بعفوية دون أن يشعر بالحرج، بل ازدادت حدة هذا الشعور في بعض الأحيان لدرجة أشعرته بالاختناق وضيق التنفس. وفيما يتعلق بكونه رب الأسرة فقد كان أحبُّ شيء إليه قيادة السيارة، حيث لم يكن عليه سوى وضع يديه على المقود وزوجته وابنته قريبتان منه، ورأى أن هذه المسافة هي الأفضل، كما قال إنه مهما كان الطريق الذي يسير عليه فقد كان يتصل بالبيت كل ليلة، كان يُبجِّل تلك الاتصالات، ومرة أخرى، كانت هذه هي المسافة التي تشعره بالراحة.

جاء داني في الأسبوع التالي وأخبرني أنه زار قبر زوجته وحاول أن يقول أشياء ليته قالها في الماضي، وقال: «كنت أضعف من أن أقول هذه الأشياء حين كانا على قيد الحياة»، فحاولت تبديد تلك الأسطورة بإخباره أنه قوي جدًّا، فلقد أخذ على نفسه عهدًا بأن لا يتناول الخمر أبدًا وصان العهد، ولم يرتكب في المدرسة الداخلية سوى خطأ واحد وهو في سن الخامسة حينما قال لأخته مرحبًا باللغة الكرية -لغته الأم- فأُبرح ضربًا، ولم يخطئ ثانية في شيء على مدار السنوات الدراسية، كان داني في نظري بطلًا، بل إنه في المدرسة الداخلية حاول تغيير بيئته، حيث اعتنى بحيواناته وطماطمه، كان عاملًا مجتهدًا، وقد رأى ذلك فيه مالك شركة النقل أيضًا، بالرغم من كل ما حدث لداني فهو لم يكن يريد أن يعيش فحسب، بل ظل راغبًا في أن يكون أفضل نسخة من نفسه، لم يستطع أحد تفتيت عزيمته تلك.

***

بدأ داني بمرور الأشهر يرى نفسه بمنظور أكثر موضوعية، إذ لم يغرق في الحيرة حين تلقى مكافأة ضخمة في الكريسماس وقال: «في الواقع لقد

قدمت الكثير للشركة، لكنني ممتن لما فعلوه»، فسألته هل تلقى الآخرون مكافآت مماثلة، فقال إنه لم يسأل قط، ولم يخبر أحدًا بما تلقاه، ثم قال: «ليس هذا أسلوبي».

فقلت مازحة معه: «إذن صار لديك أسلوب الآن» (الطرفة الثالثة على مدار ثلاث سنوات).

كان داني راضيًا عن وظيفته، شبهها بركوب السهول: إذ كان وحده تمامًا وهذا محبب إليه، يقرأ الخرائط ويشاهد معظم أمريكا الشمالية، كان كالبدوي الحديث، رئيس نفسه وحر في التفكير، ويقرأ ما يحلو له من كتب في أثناء تناول الطعام (دائمًا ما كان لديه في جيب سترته الجلدية كتاب رث الغلاف)، كان بارعًا في تحسس محيطه المكاني، ولم يستطع ناهب الاستيلاء على حمولته المقدرة بملايين الدولارات، لم تكن قدراته الفطرية وخبرته التي اكتسبها في باكورة حياته هي وحدها ما ساعدته على أن يصير متحسسًا بارعًا للمحيط المكاني، لقد كان مصابًا أيضًا باضطراب كرب ما بعد الصدمة، ومن يعانون هذا الاضطراب يكونون في حالة تأهب قصوى، لا يهدأ جهازهم العصبي أبدًا، فهم يرون البيئة المحيطة منطوية على مخاطر جمة لدرجة أنهم يواصلون مسحها طيلة الوقت، وهذا سبب الصعوبة الشديدة التي يلاقونها في التعايش مع هذا الاضطراب.

اقتربنا من نهاية عامنا الثالث، أحرز داني تقدمًا كبيرًا في الناحية الوجدانية، حيث سمح لنفسه بالشعور بالوحدة والندم الذي يطارده، بل صار على اتصال بمشاعره تجاه زوجته وخصوصًا ابنته، كما تعلم كيفية التأثير في بيئته وصار ينمي حسه بقيمة ذاته.

***

الآن بعد أن «ذاب» داني -على حد تعبيره- صار علينا أن نبدأ مرحلة جديدة من العلاج، لقد أمضينا ثلاث سنوات منخرطين في ما يمكن وصفه فقط بأنه علاج الرجل الأبيض، حيث سعينا ليتعلم تمييز مشاعره وكيفية التعبير عنها للآخرين، ثم في نهاية المطاف وضع الحدود، وقد وصف داني ذلك بأنه وضع «سياج مكهرب حول ما تريد الحفاظ على قدسيته»، لقد حققنا أهدافنا.

لكنني عزفت عن قياس نجاحه من الزاوية النفسية للرجل الأبيض وأعتبره قد تعافى تمامًا، كنت أعرف أنه لا يزال لديه المزيد للقيام به، كما أدركت أنني بحاجة إلى مزيد من المشورة كي أساعده.

قال لي أحد المطببين الأصليين الذين استشرتهم في السنة الأولى: «ينبغي أن يكون الهندي هنديًا وإلا كان أجوفَ»، وبعد ذلك بثلاثين سنة كتب الأمريكي الأصلي تومي أورانج وهو من الهنود الحمر في روايته «هناك هناك» ThereThere: «من المهم أن يكون ملبسه ملبس الهندي، ورقصه رقص الهندي، حتى لو كان مجرد تمثيل، وحتى لو شعر طيلة الوقت بالتزييف، لأن السبيل الوحيد لأن تكون هنديًا في هذا العالم هو أن تبدو وتتصرف كالهندي».

شعرت أن داني بحاجة إلى إعادة التواصل مع ثقافته وتجربة نوع الشفاء الروحي الذي لم يكن البتة جزءًا من العلاج النفسي الفرويدي (كثيرًا ما تساءلت عن المدى الذي كان يمكن أن تبلغه نظريات فرويد لو لم يكن يهوديًا عقلانيًا من فيينا ومعظم مرضاه يهود، كيف كانت لتختلف عملية التحليل النفسي لو واجه فرويد الشعوب الأصلية في غرفة استشاراته؟).

لقد قمت بالعديد من الرحلات إلى الشمال على مدار أعوام داني العلاجية التي زادت عن الأربعة، لمقابلة المطببين والأطباء النفسيين الأصليين لمساعدتي على أن يسير داني في مساره الصحيح، وقد تكرم هؤلاء المطببون بوقتهم إلى حد بالغ، وتعلمت منهم ما لا يحصى، كانت رغبتهم في مساعدتي مذهلة، نظرًا لكل ما فعله المجتمع الأبيض محاولًا تدمير ثقافة الأصليين، وأنا على يقين بأنني لم أكن لأتمكن من علاج داني بنجاح لولا هذه المقاربة الممزوجة.

كان هناك سبب واحد يجعلني متفائلة تفاؤلًا حذرًا للنجاح في المحطة الأخيرة من رحلتنا العلاجية، بالرغم من محاولاتهم الرامية للقضاء على الأصليين التي استمرت مئات السنين فقد باءت جهودهم بالفشل، وقد كان داني تجسيدًا لذلك، فقد احتفظ بضفائره الطويلة، وهي تعبير مرئي، وعلني، عن هويته الأصلية، ورغم قضائه سنوات عديدة في مدارس الرجل الأبيض ووظائفه فلا يزال يرى في نومه أحلامًا يعيش فيها حياة الأصليين وتتحدث الحيوانات إليه، في ذلك الكون الروحي ساعدت داني الذئاب، وكافأه طائر

الغواص[1] بأن قدم له بيضة عملاقة في الغابة (على مدار السنوات العشرين التالية لاحظت أن مرضاي الأصليين الآخرين تراودهم أحلام مشابهة عن الحيوانات الروحية، وهي مختلفة اختلافًا شديدًا عن أحلام الرجل الأبيض).

تجلى أنه ينبغي لداني التفكير في إعادة الاتصال بما سماه «الهندية». لكن نظرًا لأنه غارق في الوحدة -كما وصف نفسه- وحذر بطبيعة الحال من فتح الجروح القديمة، سيلاقي صعوبة في ذلك، فالطريق ليس ممهدًا.

---

(1) أحد أنواع الطيور المائية، يعيش في سواحل المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، وكذلك في البحيرات، والبرك، والممرات المائية المختلفة. (المترجم)

7

بعد خط التجمد

رأيت أن أحد سبل اتصال داني بتراثه هو أسرته، يمكنهم مساعدته في إنشاء روابط جديدة مع ثقافته الفسيحة، ثم سنحت الفرصة لمناقشة ذلك حينما كان داني يتحدث عن مقدار العمل الإضافي الذي يخطط للقيام به، فسألته لماذا يريد عملًا إضافيًّا رغم أنه قد جنى بالفعل أموالًا كثيرة من الأعمال الإضافية والمكافآت، فقال: «ليس هناك الكثير للقيام به، وأنا لا أمانع».

- ألا تخرج أبدًا برفقة أصدقائك؟

- نادرًا ما أخرج مع السائقين الآخرين، لكنهم يذهبون إلى الحانة ويشربون الخمر فحسب.

- أفيهم أحد من الأصليين؟

- لا.

- ألديك أي صلة بالأصليين؟

- حين أكون في «وينيبيج» دائمًا ما أذهب إلى بعض الحانات بحثًا عن أختي، لكن بصراحة، لا أرى أن هذا يناسبني.

- ماذا؟ أن تكون أصليًّا؟

انتبه داني لما أفكر فيه فقال بهدوء: «أعتقد أن المدرسة الداخلية قد نجحت، أتعلمين، حين كنا نذهب للاعتراف الكنسي في المدرسة ولا أجد خطيئة أعترف بها، كنت أعترف بأنني هندي».

***

أخبرني داني قبيل الكريسماس أنه كان يقود الشاحنة بحمولة عبر «جبال الروكي» Rocky Mountains مقابل أجر مضاعف، فسألته: «هل سبق أن فكرت في التوقف هناك والمرور بمستوطنتكم؟».

فنظر إليَّ بازدراء وقال: «التوقف والمرور عليهم! لا تستطيعين الذهاب إلى هناك بَرًّا، يتوجب عليك ركوب طائرة إلى الشمال، ومن بعدها طائرة أدغال، ثم تستقلين إحدى سيارات الطرق الوعرة، التي تسير نصف يوم عبر الجليد».

- أنا على يقين بأنك لو طلبت من مالك الشركة لدفع لك التكاليف.

- يمكنني دفع التكاليف، كل ما في الأمر أنني لا أريد الذهاب.

فسألته عن تفاصيل بخصوص والده وإخوته، فقدَّر داني أن والده سيكون في الستينيات من عمره، لكنه بالكاد يعرف إخوته الأصغر منذ ولادتهم وهو في المدرسة.

- ماذا عن روز؟

- ما زلت أسأل عنها في وينيبيج لكن دون جدوى، من المفترض أن تكون الآن في الخامسة والأربعين من العمر، على الأرجح أنها ماتت، مقتولة، لكنني لقد ذهبتُ إلى الشرطة ثلاث مرات.

- هل اكترثت الشرطة؟

- لا أحد على هذا الكوكب يكترث.

- غيرك أنت.

أومأ برأسه، وكانت تلك أول مرة أرى فيها اغروراق عينيه بالدموع، ثم جلسنا صامتين زمنًا طويلًا.

قبيل عيد الميلاد طرحت على داني مرة أخرى فكرة زيارة أقاربه، لكنه واصل الممانعة وقال: «أشعر أنني شرعت في التحسن للتو، ولا أريد المخاطرة بفقدان نفسي والتجمد مجددًا، لا شك أن البرودة هناك لم تكن عبثًا».

لقد كان على حق، تلك أرض محفوفة بالمخاطر، ربما كان بحاجة إلى ازدياد الصلابة قبل العودة لمستوطنتهم، هو يعرف ذلك أكثر مني.

***

دخل داني مكتبي في الأسبوع الأول من يناير فجلس وقال: «حسنًا، ذهبت لرؤية الرجل المسن وإخوتي الصغار».

كان اختلاف التوقيت معتادًا في حالة داني، لقد عارض فكرتي ثم نفَّذها لاحقًا بتوقيته الخاص، حكى لي أنه ركب طائرة هليكوبتر وجلس بجوار شرطي محلي كان ينقل الدواء إلى عيادة في المستوطنة، ثم قال لي: «كان هنديًا، لذلك سألني عن عائلتي في المستوطنة، لكنني حين أعلمته باسم أبي وإخوتي لم يقل شيئًا مثل «آه، أجل، إنه أحد الصيادين القدامى» أو «لقد صار مسنًّا الآن»، أو «لا يزال محتفظًا بلغته»، كلا، لا شيء من هذا»، ثم سكت داني هنيهة ثم قال: «علامة سيئة». وهم يقطعون المسافات الشاسعة تأمل داني ذو الاثنين والأربعين عامًا أنه لم يرَ والده منذ ما يقرب من عشرين عامًا، منذ جنازة والدته، وقال لي: «أتذكره رجلًا في العشرينيات من عمره، قادرًا على قضاء اليوم بطوله في الصيد، لكنه الآن مسن».

كانت المستوطنة قاحلة، مجرد منازل واهية مصنوعة من الألواح تحيط بمدرسة من الطوب الحديث، قاد الشرطي السيارة مباشرة إلى منزل داني الذي كانت ألواحه بالية الطلاء وبابه بلا مقبض، كما كانت بجدرانه ثقوب مسدودة بورق الصحف لمنع البرد، وعقب داني قائلًا: «لم أعرف هل ينبغي طرق الباب أم الدخول مباشرة كما يفعل الابن الأكبر»، طرق الباب، لكنه تردد، خوفًا من أن تكون هذه الزيارة فكرة سيئة، وحين دخل رأى والده مستلقيًا على أريكة مهترئة.

وصف داني الموقف قائلًا: «بدا أكبر من عمره، كان باديًا على وجهه التورم والاصفرار، مع ندوب حب الشباب، لم يسبق أن رأيت عيبًا في بشرته، لقد كان شابًّا، ضخمًا، مفتول العضلات، كان يشبهني كثيرًا، لكنه الآن يبدو وكأن قامته قد انكمشت وصار لديه كِرش». لم يعرفه أبوه في بادئ الأمر، لكنه دقق النظر ثم قال: «من أرسلك؟ لا شك أن مرضي أشد مما أظن».

أخبره داني أنه كان في وينيبيج وقرر المرور عليهم، ثم سرد لي داني ما حدث: «نظر إليَّ باستغراب وقال: «لم يخطر ببالي قط أنك ستحتفظ

بضفائرك»، فتجاهلت ذلك لعلمي بأنه يقصد أنني «التفاحة»، حمراء من الخارج وبيضاء من الداخل».

بدا هذا مجحفًا، لا شك أن والد داني كان يعلم مدى صعوبة أن يتمسك المرء بالضفائر الطويلة في ظل الاندماج في المجتمع البيض آنذاك. ساد بينهما صمت طويل، خلاله لاحظ داني فوضوية المنزل وزجاجات الويسكي الملقاة أرضًا، ثم قال له والده: «سمعت قبل سنوات أنك كنت في وينيبيج تبحث عن روز».

- كان ذلك قبل سنوات، لكنني لم أعثر عليها.

- ولا عثر عليها أحد.

كانت إنجليزية والد داني محدودة لكنها أدت الغرض وتمكنا من التواصل، ولما سأل داني عن إخوته الصغار أشار الوالد بيده إلى علب البيرة الفارغة المتناثرة في جميع أنحاء الغرفة وقال: «لا يوجد ما يفعلونه هنا، فإن لم يكن المرء عضوًا في المجلس ولديه نفوذ ليحصل على وظيفة بواب في مدرسة فلا يوجد ما يفعله، لكنهم ظلوا معي»، فشعر داني أن والده يقصد أن إخوته كانوا مخلصين على عكس داني، انتبه الوالد إلى ملاحظة داني لفوضى المنزل فقال: «يحتاج إلى لمسة أمك»، ثم شغَّل التلفزيون.

سرد داني ما حدث قائلًا: «ظللنا جالسين في صمت قرابة ساعة، وأجزم بأنه رغب في رحيلي كي يشرب الخمر، لكنني لم يكن لدي مكان أذهب إليه، لا أعرف أحدًا هناك، لكنني في نهاية المطاف ذهبت لشراء السجائر، وأجزم بأنه كان يشرب الخمر وأنا بالخارج»، ثم عاد إخوة داني، الذين كانوا ثملين هم أيضًا، يقول داني: «أظن أن وظيفتهم كانت جمع الزجاجات الفارغة من أنحاء المستوطنة على عرباتهم الثلجية الخاصة بهم ثم بيعها»، فسألته: «كيف كانت ردات فعلهم حين رأوك؟ وهل كانوا يشبهونك؟».

- كانوا حليقي الرأس، ولديهم عينا أمي، كان يشبهون الإسكيمو لكن بحجم الكريين، أما أنا وروز مشابهان لوالدي. تصافحنا وشرعوا في شرب البيرة ومشاهدة التلفزيون، لكنهم لم يندهشوا برؤيتي على الإطلاق، بل لم يظهروا فضولًا يذكر.

- حقًّا! رغم أنك أخ شقيق لا يعرفون عنه شيئًا تقريبًا؟

- هذا لم يزعجني، لأن الأصليين لا يعظمون الأمور ولا يتدخلون في شؤون أحد.

نهض داني وتجول في الغرفة قليلًا -وهذا ليس من عادته- وفي نهاية المطاف قال: «ثم شممت رائحة غضب في أجواء الغرفة، وكلما شربوا ازداد الوضع سوءًا، ثم جاء أصدقاؤهم وغرقوا في السكر، فشرعوا في الاستهزاء بي مع أصدقائهم، قائلين إنني ذئب غارق في الوحدة لم يضاجِع امرأة قط، وما إلى ذلك، كما قالوا إنني عدت للبيت لحضور احتضار أبي، كما يفعل البيض، ولكنني وصلت مبكرًا جدًّا، ظلوا جميعًا يضحكون على تلك الطرفة».

سألته: «هل أبوك يحتضر؟».

- أجل، أخبرني الشرطي الذي اصطحبني من الطائرة أن أبي مصاب بالتهاب البنكرياس، أو تليف الكبد، أو سرطان الكبد، أو شيء من هذا القبيل. يشرب أبي الخمر شربًا مهلكًا، إنها مسألة وقت ليس إلا.

- ولم يتحدث أحد من العائلة عن ذلك؟

- لا، طرفة وصولي مبكرًا للغاية فحسب.

لم يغب عن بالي أن هذه الرحلة الكارثية كانت اقتراحي، لقد قال داني بنبرة حزينة: «جلس أبي على أريكته فحسب وشرب الخمر، ثم ضحك حين ضايقوني، لاحظت أن إخوتي رغبوا في إرضاء الرجل المسن، فزادوا من حدة الاستهزاء بي، حينئذ شممت رائحة المتاعب»، وحين قرر المغادرة أخيرًا، اتصل بالشرطة المحلية التي أوصلته إلى المطار الصغير حيث أمضى ليلته.

قال داني: «كنت أعرف أنهم رأوني من البيض لمغادرتي، فلن أبقى وأعاركهم بزجاجات البيرة المكسورة، مما سيجعلني هنديًّا حقيقيًّا في ناظرهم، أعتقد أنهم يديرون نوعًا ما من تجارة المخدرات، إذ رأيت أشخاصًا يجيئون تباعًا ويغادرون فجأة بعدما يتحدثون إلى إخوتي في غرفة النوم، لكن المحزن أن...»، وسكت هنيهة، ثم قال: «أظن أن هناك الكثير من الأشياء المحزنة»، ثم ساد صمت طويل ثم قال: «يظن إخوتي أن السكْر والعراك هما الهندية، لقد لاحظت أن رؤوسهم الحليقة بها ندوب، كانوا يبدون مثل فقمة الفيل».

- والمحزن أكثر أن أباك يعلم أن الأصلي ليس كذلك، ما ظنك في انطباعه عن زيارتك له؟ أعني: وراء كل الخمر والألم؟

- هل يتذكرني أنا، وأمي، وروز، حين كنا في الأدغال، سعداء؟ لا أعلم، المكان الذي يعيش فيه الآن فوضى قذرة، وأؤكد لك أن أبي لم يكن في حياته شيء واحد غير منظم حين كنا نعيش في مخيماتنا، كانت كل السكاكين مصقولة ومصفوفة وفقًا لحجمها، كانت هناك مواضع محددة لدبغ الجلود وأخرى لمطها، ولأغذية الكلاب وترويضها، كما كان يعمل ليل نهار، ولا يشرب الخمر سوى مرة أو مرتين في السنة حين يبيع فراءه في المستوطنة، لكن ذلك لم يكن يتجاوز الليلة الواحدة.

فسألته: «هل شعر بالمهانة لأنك رأيته الآن هكذا؟».

- هو أبعد من أن يعرف ما يشعر به، ربما في قرارة نفسه لا يريد أن يراني هناك «أحكم عليه»، أظن أنه مر بوقت عصيب.

سكت داني ونظر تجاه النافذة، ثم قال: «وتلك هي الحقيقة، لقد فقد أرضه، ومصدر رزقه، وزوجته، ولم يرجع إليه اثنان من أبنائه قط، كما لم يسترد كرامته قط، إلى جانب أنه يرى أن أوان التغيير قد فات، كما أظن أن غرقه في السكر سلبه صفاء الفكر».

جرَّ داني نفسه إلى باب مكتبي، كان يمشي متثاقلًا كأنه يجر بحذائه أوزانًا ثقيلة، ثم قال ويده على مقبض الباب: «أرادوا أن يجعلوه أبيضَ ولم يجدِ ذلك نفعًا، لكنهم سلبوه هنديته، لقد صار مجرد بدينًا برأس منتفخ وجلد أصفر، لقد كسروه». ثم سمعت صوت حذاء داني وهو ينزل السلم رويدًا رويدًا، كأنه مسن.

ما وصفه داني اسمه الصدمة بين الأجيال (Intergenerational trauma)، وهو مصطلح اشتهر بعد عقود من شروع الناجين من المدارس الداخلية في سرد قصصهم، كانت الصدمة جلية في عائلة موريسون حيث فُصل داني وروز عن عائلتهما، وثقافتهما، ونُقلا إلى مدرسة داخلية حيث تعرضا لصدمات الانتهاك النفسي، والجسدي، والجنسي، كما أن الجيل الأقدم -الأبوين- قد تدمر بعدما اختطف أطفالهم بحيث لم يعودوا قادرين على أن يكونوا آباء ناجحين ولجأوا للخمر، ثم تربى إخوة داني الصغار على يد مدمني الخمر المسيئين الذين فقدوا أراضيهم وسبل كسب عيشهم، هؤلاء الإخوة الصغار-الذين صاروا مدمني خمر هم أيضًا- لن يفقهوا شيئًا عن التربية الناجحة لأطفالهم في المستقبل.

***

في الجلسة التالية أعرب داني عن الاكتئاب لأول مرة وقال: «لقد اجتهدنا زمنًا طويلًا في استعادة القدرة على الشعور لدرجة أنني كدت أنسى لماذا كنت قد تخلصت من مشاعري، لقد كانت مؤلمة جدًّا فلم أقدر على تحمُّلها، لكنني الأسبوع الماضي كنت أغوص في الذكريات»، ثم بكى داني ودمعت عيناه قليلًا فجففهما بيده التي تشبه الرافعة، ثم تابع: «أنا رجل بلا بلد أو هوية، لست هنديًا ولست أبيضَ، لست أبًا أو زوجًا، على الأقل إخوتي لديهم بعضهم بعضًا ووالدي، ويعلمون أنهم أصليون. أشعر أحيانًا أن الحياة لا تستحق العيش». كان هذا كلامًا دراماتيكيًا، صرخة طالبة للعون منطلقة من داني الذي اعتاد ألا يظهر شيئًا مما يعانيه، لذا خشيت من أن يكون لديه أفكار انتحارية.

آنذاك كان معدل الانتحار في الأصليين ستة أضعاف المعدل القومي وفقًا لـ «الموسوعة الكندية» Canadian Encyclopedia (وقد ارتفع الآن إلى 25 ضِعفًا في بعض مناطق الشمال، وأربعين ضعفًا في شباب الاسكيمو)، فأدركت أنه تهديد لا يمكن إهماله.

أحد المخاطر الكبيرة في علاج تبدد الشخصية -وهي الحالة التي يفقد فيها المرء حسه بالهوية تمامًا- هو ما يحدث حين يستعيد الشخص حسه بذاته، قد تعود المشاعر الحقيقية لكن يشعر المرء بأنه محاصر مرة أخرى في الظروف التي لا تطاق، التي سببت له في بادئ الأمر اكترابًا شديدًا، لقد كان التجمد في حالة داني آلية دفاعية ناجحة، صحيح أنه لم يستطع الشعور بالحزن أو البهجة، لكن سيره في الحياة كان جيدًا، لم يصب بالانهيار بموت زوجته وابنته، ولم يغب عن العمل يومًا واحدًا خلال عشرات السنين التي عمل فيها لدى الشركة، كما كان يؤدي عمله بجودة فائقة، ووفر المال، ولم يدمن شيئًا ولا أصيب بالاكتئاب المشعور، أكان ينبغي لي ترك الكلاب النائمة في مخدعها؟

لقد ارتكبت أخطاء عديدة على مدار ممارستي للعلاج النفسي، لكنني لم أرَ أن اقتراحي على داني بزيارة بيته كان أحدها، رغم الحزن الناتج عن ذلك، كان على داني أن يواجه ما حدث لعائلته، تمامًا كما كان عليه مواجهة مشكلاته الخاصة، لقد تجنب والده، والتجنب لا يساعد أحدًا على التعافي، بهذه الطريقة صار لديه تاريخ، وإن كان مأسويًا.

خاض داني رحلة وعرة، ثم أصيب باكتئاب شديد لدرجة أعجزته عن النهوض من السرير، بل لم يتصل ليبلغني أنه مريض، وبعدما فوت موعده معي هاتفني مديره ليخبرني أن داني لم يعد منتظمًا في الحضور وأنه -الأنيق دائمًا- صار أشعثَ، وأنه حين عرض على داني طلب المساعدة مني ضحك بحزن، قلقت عليه فاتصلت بطبيبه العام وطلبت منه وصف مضادات اكتئاب (الإخصائيون النفسيون ليسوا أطباء، فلا يجوز لهم وصف دواء)، ثم ذهب مالك الشركة إلى داني واقترح عليه تناول الدواء، مر أسبوعان، قلقت، فحثثت مدير داني على إحضاره بنفسه لو كان بحاجة إلى ذلك.

جاء داني بنفسه، وكانت مضادات الاكتئاب قد بدأت في مساعدته، على الأقل صار يتحرك، جلس على كرسيه وقال عبارة واحدة فقط: «لم أُجابه شيئًا قط».

فقلت له: «**حقًّا**؟ أنت مصاب باضطراب كرب ما بعد الصدمة المتراكب، ثم أريته كتابًا اسمه «الصدمة والتعافي» Trauma and Recovery لجوديث هيرمان، وأخذت أعد على أصابعي وأسمعه السمات المدرجة في قائمة الكتاب:

1 - **الترعرع داخل بيئة يسودها الإهمال والحرمان.**

- لقد ترعرعت في مدرسة داخلية حيث لم تجد حبًّا ولا رعاية من أحد، كما كنت جائعًا وتعاني البرد القارس، وكان الأطفال يموتون حولك من حين لآخر.

2 - **الشعور بالعجز واليأس.**

- لم يكن هناك من يساعدك أو تلجأ إليه، بل حين عدت لبيتك أخبرتك أمك أن الكهنة -الذين انتهكوك جنسيًّا- أناس صالحون.

3 - **معايشة الخضوع الاجتماعي، والنفسي، والقانوني.**

- لقد أخذوك بالقانون بعيدًا، وفصلوك عن أهلك، وحبسوك في مؤسسة لمعظم طفولتك، وحين عدت لوالديك قالا إنك انحزت لصف العدو.

4 - **أن تكون هدفًا للعنصرية.**

- لقد تعرضت للضرب لاستخدامك كلمة كرية، حين قلت **تانيسي** لأختك، ما زالت لديك ندوب جسدية، ونفسية من هذا الضرب، كما

أخبروك أن الأصليين سيئون، ثم كانوا ينادونك بالرقم لا بالاسم، لقد تبددت شخصيتك لدرجة اعترافك بأنك أصلي في غرفة الاعتراف.

5 - **معايشة التشرد والفقر المدقع.**

- تحتم عليك العمل في المدرسة وكانوا بالكاد يعطونك ما يكفي من الطعام لإبقائك حيًّا، وحين عدت لبيتك وجدت والديك معتمدين على الرعاية الاجتماعية فلم يكن لديهما المال الكافي لشراء الطعام الباهظ الثمن في الشمال. ورغم ذلك وجدا مالًا كافيًا لشراء الخمر.

6 - **الوقوع ضحية للافتراس المتكرر داخل العلاقات، بما في ذلك إساءات الطفولة وغيرها من أشكال العنف الجسدي.**

- إن الرجل الوحيد الذي أخذك تحت جناحه ظل يتحرش بك جنسيًّا لمعظم سنوات طفولتك، أما الآخرون -الأقل طيبة- فقد انتهكوك انتهاكًا جنسيًّا عنيفًا، ثم أخبرك والداك السكِّيران أنك بعت نفسك للبيض وسخرا من ميداليات «الفور إتش» التي فزت بها.

ثم ألقيت الكتاب على مكتبي وقلت: «وهذه القائمة لا تشمل وفاة زوجتك وابنتك، ثم **تقول إنك لم تجابه شيئًا قط**؟ لقد جابهت شياطينك ببسالة وانتصرت، أجل لقد أطفأت بعض مشاعرك، ثم كسَّرنا هذا الجبل الجليدي ثم إذابته، لكن فلننظر إلى ما لم تفعله، الخمر هو المخدر المفضل لهذا الاضطراب، إنه يقتل الألم ثم يحررك بما يكفي لتصريف بعض الغضب المشتعل الناتج عن التعرض لسوء المعاملة والانتهاك لزمن طويل، لكنك لم تشرب الخمر قط.

ثم أتبعت ذلك بقولي: «قلت إنك لم ترغب قط في أن تشعر طفلتك بما شعرت به حين رأيت أباك سكرانَ، ومن المحزن أن العديد من ضحايا الانتهاك الجنسي بالمدارس الداخلية قد كرروا نفس نمط العنف والانتهاك الجنسي، فهم لا يعرفون سوى ذلك، كانت هذه هي «التربية» التي تلقيتها في المؤسسة ورغم ذلك لم تفعل أيًّا من هذه الأشياء، بل كنت شديد القلق من ارتكاب الخطأ فلم تسمح لابنتك بالجلوس على ركبتيك»، ثم ذكرت أخته وقلت: «لقد ظللت

تبحث عن أختك ولم تتوقف قط كما فعل الجميع، بل إن الشجار الوحيد الذي خضته -باستثناء ناهبي الشاحنات- كان مع رجل أساء إلى أختك.

لقد حصلت على وظيفة، بل أصبحت أفضل سائق لدى شركتك، وادخرت مالًا، كما تزوجت من امرأة صالحة وحاولت إنجاح زواجكما، إذ لم تضربها قط ولم تؤذها بشيء سبق أن آذاك، لقد رفضت تمديد الأهوال إلى جيل آخر، وقد نجوت من الإبادة الثقافية. أنت قوي، وشجاع، وقد صمدت في وجه كل ما لاقيت.

لقد ذقت مرارة لم يذق مثلها أبطال المعارك الحربية، إنهم يتلقون وسام شرف جزاء فعل شجاع واحد ليوم واحد، أما حربك فقد ظلت مستعرة على جميع الجبهات معظم حياتك، وانتصرت! لذا إياك أبدًا أن تقول «**لم أجابه شيئًا قط**!».

أعلم أنني حادة المزاج، وغالبًا ما أعزو ذلك لإرثي الكاثوليكي الأيرلندي، فور انتهائي من هذا الخطاب اللاذع أدركت أنني صوتي كان عاليًا وأنني -لعدم انتباهي للوقت- فعلت شيئًا لم يسبق أن فعلته، لقد ظللت أتكلم حتى دخل وقت الجلسة التالية، لكنني كنت شاعرة باستنكار عارم لأن داني كان بطلًا نفسيًا لكنه **لا يعرف ذلك البتة**.

اندهش داني، فقال بكل بساطة: «حسنًا»، ثم نهض مغادرًا مكتبي وأغلق الباب بهدوء.

لماذا انتابني هذا الثوران غير اللائق؟ هل خشيت أن يكون لديه ميول انتحارية؟ لم أكن متيقنة، أملت أن يكون داني قد رأى قلقي عليه باعتباره اكتراثًا، لقد أصبت بالإحباط بسبب مواجهتي تحديًا لم أواجه مثله قبلًا: كيف تجعل الرجل يعيد التماهي مع ثقافة بعد أن برمجوه خلال سنواته الأشد تأثيرًا ليرى تلك الثقافة همجية وخاطئة؟ حتى اللغة الكرية صارت أيضًا محفزًا في حالة داني.

***

لقد تجاوزنا أنا وداني نقطة الوسط في علاقتنا التي امتدت لخمس سنوات. لقد قضينا الكثير من الوقت معًا. واعترف داني بأنه تحدث معي أكثر من أي شخص تحدث إليه فيما مضى من حياته. أعتقد أنني كنت أساعده، لكنني أعرف يقينًا أنه كان يساعدني في مشكلة خاصة جدًا.

في الفصل الأول -الذي يدور حول لورا- وصفت الطرح المضاد، وهو مشاعر المعالج تجاه المريض، لقد كان مظهر داني، بوجهه وضفائره الأصلية، محفزًا لي في بادئ الأمر، إذ سبق أن حُجزت في المستشفى بعدما اعتدى عليَّ جسديًا مريض كري له ضفائر، وذلك حين كنت أعمل في أحد مستشفيات الطب النفسي، بعد ذلك كلما قابلت أحدًا يشبه مهاجمي انتابني الخوف، وتسارع نبض قلبي، وضاق تنفسي.

ذات مرة كنت عائدة من العمل في إحدى ليالي الشتاء الباردة المعتمة، وذلك بعد أربع سنوات من علاج داني، حين وصلت إلى ممشى منزلي -في وسط تورونتو- إذ رأيت رجلًا أصليًا ذا ضفائر يجلس على عتبة شرفتي الأرضية ذات الإضاءة الخافتة (كنا نعيش على بعد بضعة مبانٍ من «المركز الكندي الأصلي» Native Canadian Centre)، طلب مني الرجل استعارة مجرفة الثلج خاصتنا، وقال: «أريد جني بعض المال من جرف الثلج، لكن ليس لدي مجرفة، ورأيت هذه عند شرفتك، لكن لم يكن أحد في المنزل حين قرعت الجرس، سأعيدها في الصباح»، فوافقت ولم أزد تفكيرًا، وقد أعاد المجرفة حقًا لشرفتنا في الصباح.

حين دخلت المنزل لاحظت أنني لم أختبر الاستجابة الفسيولوجية أو السيكولوجية للخوف، لم يعد الرجل الأصلي ذو الضفائر محفزًا لي، إن الطرح الإيجابي المتنامي لدي تجاه داني قضى تمامًا على كرب ما بعد الصدمة الذي كنت أعاني منه.

8

عودة الصياد

نجا داني من اكتئابه الخطير، الناجم عن نوحه المتأخر على ابنته، وزوجته، وأخته، ووالديه، وطفولته المسلوبة، إذ داهمته الصدمات دفعة واحدة، والآن بعدما استطاع اختبار المشاعر الحقيقية أدرك أن أسوأ ما في طفولته لم يكن الانتهاك الجنسي أو الجسدي، أو الجوع، أو البرد، بل كان بلا منازع، الوحدة اليائسة.

ظل يتناول مضادات الاكتئاب عامين آخرين للحرص على عدم الانتكاس، طلبت منه ذات مرة أن يحصل على قسط كبير من الراحة مع تناول أدويته، لأننا سنشرع في مسار جديد في جلستنا القادمة، فقال «عظيم» بنبرته الجافة المعتادة، التي بدأت أفهم أنه يقصد بها الفكاهة، التعبيرات والنبرات تختلف من ثقافة لأخرى، حين قابلت داني لأول مرة بدا صوته رتيبًا، ولكن بعدما أمضيت ما يقرب من مائتي ساعة في التحدث معه أدركت أن أسلوبه الكلامي مشتمل على تشديدات معينة وانعكاسات نغمية للفكاهة، والألم، والإحباط، وغيرها من المشاعر. الآن بعد أن ازدادت معرفتي له استوعبت كم فاتني الانتباه إلى التغيرات الدقيقة لنبرة صوته على مدار سنواتنا الأولى.

ومثلما اعتبرته هادئًا فقد اعتبرني جهورة الصوت وصريحة (لكن معظم البيض كذلك لنكون منصفين)، جاءني داني ذات مرة وقال إنه سمعني

أتحدث في «راديو سي بي سي» CBC Radio وقد راق له ذلك الأمر، لم يسبق له الثناء عليَّ، لذلك سألته ما الذي راق له في ذلك، فقال: «استطعتِ خفض الصوت».

***

حاول داني في الجلسة التالية تفادي «الاتجاه الجديد» الذي ذكرته سابقًا، فأعلن قائلًا: «أعلم ما ستقولينه ولست مستعدًا».

- عجبًا، لم أكن أعرف أنك قارئ أفكار إلى جانب قيادة الشاحنات، كيف تجد وقتًا لكل ذلك؟ نوِّرني!

-تريدين مني مواعدة امرأة.

- حقًّا؟ لم تكن نيتي قول ذلك، لكن من المثير أنك ظننت أنني أشير إلى ذلك، هذا يخبرني بالكثير.

فقال: «يا للهول»، إذ علم أنه انزلق وفضح نفسه وهذا غير مألوف له البتة، ثم أومأ برأسه مشيرًا إلى أنه لن يناقش ذلك، شككت أنه يواعد أو يرغب في مواعدة إحداهن، لكنني قررت تأجيل الموضوع لوقت آخر.

ما أردت مناقشته هو فكرة التشافي الأصلي، فأخبرت داني أنني كنت أثقف نفسي بخصوص هذا الموضوع منذ سنوات وأشعر أنه بحاجة إليه، ثم قلت: «أحد الأشياء التي علمتها يقينًا هو أنه لا يمكنني أن آخذك أبعد من ذلك»، فتقاربت جفونه بعض الشيء، وعلمت أنها إشارة إلى خوفه، أو على الأقل قلقه، فقلت: «لا أقول إن علاجنا قد انتهى، سأكون هنا متى ما احتجت إلي»، ثم أضفت (بنبرة شبه ساخرة): «فرغم كل شيء فقد نقلتك من حالة انعدام المشاعر إلى الاكتئاب العميق».

فرد بوجه خالٍ من التعابير: «أجل، شكرًا على ذلك».

فناشدته: «لدي قناعة تامة بأنك تحتاج إلى تشافٍ أصليٍّ، إذ كل أحلامك عبارة عن حيوانات في مصيدة، أو حيوانات تتحول إلى نصف إنسان، نفسك تستجدي طلبًا لذلك»، ثم شرحت له أنني أرى أنه بحاجة إلى تركيز أكبر على البعد الروحي في العلاج، فحيث إن التقاليد الأوروبية الغربية تتعامل مع العقل، والجسد، والوجدان، إلا أن منظور الأصليين للكون أكثر شمولية، إنهم يركزون على الرضا الروحي، والشعور بالاتحاد مع الطبيعة والكون، وهذا ما

لاحظته وتعلمته من المطببين الأصليين في مراسمهم الشفائية، ثم أضفت أن ما يلزم للصحة النفسية يختلف من ثقافة لأخرى.

ثم طلبت من داني الإصغاء والتفكير في التشافي الجمعي.

بدا عليه الارتعاب وقال: «جموع! يا إلهي، كلا».

فقلت له بنبرة وجدانية: «داني، لقد كانت هذه صدمة **جمعية** وبالتالي تحتاج إلى تشافٍ **جمعيٍّ**، الأصلي فقط هو القادر على فهم الآثار الناتجة عن تعرض شعبه للصدمات لمئات السنين».

بدا الأمر واضحًا بالنسبة لي، لقد اختبر الكثير من الأصليين الصدمات ذاتها -فقدان الأرض، وسبل كسب قوت العيش، والانتهاك الجنسي والجسدي في المدارس الداخلية- وشعروا ببغض النفس ذاته لمجرد كونهم أصليين، كما أنها صدمة متعددة الأجيال، فالعديد من الأطفال الذين نقلوا إلى المدارس الداخلية تلقوا معاملة شديدة السوء ولما بلغوا مرحلة الرشد لم يكن لديهم أي فكرة عن كيفية تربية أطفالهم، ثم قلت: «تحتاج هذه الأجيال إلى سماع آلام بعضها بعضًا والتشافي معًا بأسلوب مرتكز على تقاليدها الثقافية الخاصة».

كان داني يهز رأسه رافضًا، فحاولت محاولة أخيرة: «الوضع مشابه بعض الشيء لـ «مدمنو الخمر المجهولون» من حيث إنكم جميعًا وقعتم في المصيدة ذاتها، وتبينون لبعضكم بعضًا كيفية التحرر منها، حيث يكون بعضكم نموذجًا يحتذي به الآخرون». ثم أخبرته أنني لا أوافق على علاج مدمني الخمر إلا إذا وافقوا على الالتحاق بـ «مدمنو الخمر المجهولون»، ستون اجتماعًا في ستين يومًا، كبداية، وعقبت قائلة: «إنه سماع لشهادات الآخرين حول كيفية تغلبهم على مشكلاتهم التي تلهم الآخرين».

هز داني رأسه مرة أخرى، لم يكن مقتنعًا بما أقول، وعقب قائلًا: «أنا شخص لا يعرف غير حياة المدينة، كيف يُفترض أن أنخرط في ذلك؟ هل يختلط الزيت بالماء؟! لن أعود للمستوطنة».

فقلت: «أفهم ذلك تمامًا»، إذ كنت على دراية بوضعه العائلي، وأن مستوطنته كانت واحدة من أشد المناطق اضطرابًا في البلاد، ثم ذكرته بأن كثيرًا من الأصليين يعيشون الآن خارج المستوطنات أكثر من أي وقت مضى، وأن العديد منهم يعيشون في تورونتو.

لم يقل سوى: «امممم»، ثم ساد الصمت عشرين دقيقة، ثم سأل داني (بمزيج من السخرية والخوف): ماذا يفعلون للتشافي الروحي في وسط المدينة؟

فقلت: «هناك محافل التعرُّق، وحلقات قرع الطبول، وحلقات الريش، وفرق نصب الفخاخ، وغير ذلك من الأشياء التي لا تحصى، لا يحدث في تورونتو كل ذلك، هناك أدغال في أونتاريو كما تعلم، ولكن لماذا لا نبدأ هنا، ببعض دروس اللغة الكرية؟

فقال: «ناموبا»، وهو ما ظننت أن معناه «لا» في اللغة الكرية.

لست ممن يستسلمون بسهولة، لذا تابعت قائلة: «تبدو لغة رائعة، وخصوصًا الأسلوب الذي تعكس به أعراف الثقافة، إنها تعبر عن مدى أهمية القرابة بالنسبة للكريين.

فقال: «اللغة الكرية؟ حقًّا؟ يجب أن أتعلمها من جديد، حينما كنت في الشمال كان مجرد سماعي أبي يتحدث الكرية يجعل قلبي يخفق بشدة، لقد دفنتها، ثم أضاف يتحداني: «لو أردت أن أستخدم تعبيرك، فاللغة الكرية محفز بالنسبة لي».

تجاهلت ذلك، وأخبرته أنه ربما يتذكر من اللغة أكثر مما يظن، وقلت: «إن الفترة الممتدة من الولادة حتى سن الخامسة طويلة بما يكفي لاكتساب اللغة، بالإضافة إلى أنك كنت تعود وتقضي بعض الصيف هناك، دعنا لا نسمح للراهبات والكهنة بالفوز في تلك المعركة، هم من ينبغي جلوسهم بكرسي الاعتراف، وليس أنت».

حاول داني أن يتنصل مرة أخرى واستشهد بمتطلبات وظيفته، فحثثته قائلة: «توقف عن الاضطلاع بالتوصيلات الإضافية للشركة وابذل جهدًا إضافيًّا على نفسك، احمِ نفسيتك كما تحمي شاحنتك»، فحدق النظر مرة أخرى، مما يعني أنه كان قلقًا أو راغبًا في المغادرة، فقلت: «أتخشى من زيادة أصليتك؟ لو انتُزِع مني ذلك انتزاعًا عنيفًا لخشيت من ذلك».

- لقد احتفظت بالضفائر.

-لقد فعلت، وهذا يُنبِّئني بالكثير، لم أقابل قط أحدًا يبدو أشد أصلية منك.

- وأنا لم أقابل قط أحدًا أشد بياضًا منك.

ضحكنا من ذلك، إذ أنني مهقاء، ثم قلت: «لقد أعطيتُ «الوجه الشاحب» معنى جديدًا تمامًا». لم أذكر التشافي الأصلي مرة أخرى، سوف يتخذ داني إجراء بشأنه في توقيته الخاص أو لن يتخذ، وتوقيته ليس توقيتي، بل أبعد ما يكون عنه.

أراد داني بعد بضعة أشهر -قبيل الكريسماس مباشرة- شراء هدية لسكرتيرة الشركة التي دعته لتناول عشاء الكريسماس. كانت متبنية طفلة أصلية مصنفة بأنها «مضطربة»، كانت مصابة بما نعرفه في وقتنا الحالي باسم «متلازمة الكحول الجنينية» (feral alcoholic syndrome) لكن آنذاك لم يكن هذا التشخيص موجودًا بعد، كانت السكرتيرة البيضاء صريحة تمامًا في إخبار داني بأنها دعته حتى تتمكن ابنتها من مقابلة شخص آخر من الأصليين. كان يريد شراء هدية منزلية، لذلك اقترحت عليه شراء منحوتة أصلية.

- من أين؟ لا أريد طوقًا مصنوعًا في الصين.

- على بعد مبنيين من هنا، من متجر في «المركز الكندي الأصلي».

حينما وصل داني إلى موعده في الأسبوع التالي قال «**تانيسي**»، فتذكرت أنها تعني «**مرحبًا**»، فرددت التحية.

- أكنت تعلمين أنهم يدرِّسون الكرية في «المركز الأصلي» مرتين في الأسبوع حينما أرسلتني إلى هناك؟

- لا، صدقًا، أقسم بذلك.

نظر داني إلي مرتابًا، فقلت: «لم أكن أعلم سوى عن المكتبة الملاصقة لـ «المركز الأصلي»، إنها مكتبتي المحلية -أصطحب أطفالي إلى ساعة القصة أيام السبت- وقد لاحظت أنها تحتوي على أضخم مجموعة من الكتابات والأشرطة المسجلة عن الشعوب الأصلية، مقارنة ببقية مكتبات المدينة.

قال داني إنه ذهب إلى «المركز الأصلي» لشراء الهدية، فرأى لافتة المكتبة المجاورة، وقال: «كان مكتوبًا عليها «محسيناهيكاهنيكاهميك»، وتعني في اللغة الكرية «موضع الكتاب»، فسألته في دهشة: «هل تذكرت الكلمة؟».

- أظن ذلك. وقد التحقت بدروس الكرية.

***

اتضح فيما بعد أن دروس الكرية هذه، إلى جانب اتصاله بـ «المركز الأصلي»، حيث يتجمع الأصليون البندريون للحفاظ على صلتهم بثقافتهم، كان أفضل شيء لداني. وعلى مدار عامنا العلاجي الخامس والأخير عمل داني على إعادة الاتصال بهويته الأصلية.

كانت محاولته الأولى هي العيش في الهواء الطلق، أدرك داني أنه كان يحاكي الصيد لسنوات عديدة بـ «تتبع الشاحنة»، فقرر الآن أن يفعل الشيء الحقيقي. أولًا بدأ في المشي مسافات طويلة في الغابات الكندية (أنا أيضًا رحالة، ذات مرة التقينا في غرفة انتظار عيادتي مرتدين السترة ذاتها فشعرنا بلحظة ترابط وضحكنا)، ظل وحيدًا في غابات مختلفة، من أونتاريو إلى كولومبيا البريطانية، كما قطع مئات الأميال سيرًا على الأقدام، ثم بدأ في صيد الغزلان بمفرده في شمال «محافظة ساسكاتشوان» **Saskatchewan**، وصار عاشقًا لذلك.

ذات مرة جاء داني إلى موعده وأعلن أنه بينما كان في مانيتوبا إذ التقى شخصًا من مستوطنته الذي أخبره أن والده مات منذ ثمانية أشهر، لم يتصل به أحد من أفراد أسرته، لكنه لم يبدُ منزعجًا، قائلًا إن والده مات بالنسبة له حين كان في سن الخامسة، بل أشار إليه بأنه «أُبيد»، كما بدا غير مكترث بالتواصل مع إخوته، الذين أشار إليهم بأنهم «ضائعون»، لكنه **كان** مكترثًا بالتواصل مع الأصليين الآخرين الذين يرغبون في استكشاف جذورهم.

في تلك الأثناء وسع داني خزانة ملابسه، ظل يرتدي بنطاله الجينزي الأسود وسترته الجلدية، لكنه استبدل تيشيرتاته السوداء والفانلات بالقمصان القطنية المكوية، كما اعتاد أيضًا المجيء لرؤيتي ثم المشي إلى «المركز الأصلي» لحضور دروس الكرية.

يُفترض ألا يفعل المعالج النفسي شيئًا يزعج منتفعه، ولكنني وداني الآن صرنا على علاقة وطيدة ببعضنا، ولم أستطع مقاومة قولي: «كيف لك ألا تهندم ثيابك حين مجيئك إلى عيادتي إلا إثر ارتيادك لـ «المركز الأصلي»؟».

فهمهم داني قائلًا: «هل استنتجت شيئًا ما؟».

فقلت: «تعلم الكرية لا يعني عادة الذهاب في رحلة إلى المغسلة، أظن أنك تعلمت ذلك من جميع الرجال الذين تعرفت عليهم في دروس الكرية» ثم

أتبعت ذلك بعبارة: «ولا أقصد أي إهانة»، إذ كانت لازمة كلامية لدى داني، واستطعت تقليد هدوءه جيدًا.

فابتسم وقال: «حسنًا، حسنًا، اسمها ساسينا، إنها من «قبيلة الأوجيبوي» Ojibwe، وهي المسؤولة عن تبادل الكتب في «المركز الأصلي»».

- أخبرني عنها.

- لا يوجد الكثير لقوله.

لماذا لم أتفاجأ؟ في نهاية المطاف أخبرني داني أنها حسنة المظهر، وتصغره بثمانية أعوام، ومهتمة مثله بالاتصال بجذورها، وأن والديها قد التحقا بمدرسة داخلية، وصارا مدمني خمر، كما أنها وشقيقها جزء من «مجرفة الستينيات» Sixties Scoop، حينما انتُزع العديد من الأطفال الأصليين من ذويهم ليتبناهم البيض (لم تتوقف هذه العملية إلا في الثمانينيات)، حيث تبناهما زوجان ألمانيَّان كنديان من «مدينة واترلو» Waterloo، وكانا طفليهما الوحيدين، ثم أوضح داني قائلًا: «قالت إن الأبوين كانا صالحين، لكنهما لم يذكرا قط أنها وشقيقها أصليان، ثم تزوجت من رجل أبيض، لكنها تطلقت بعد عام، ثم بدأت هي وأخيها في البحث في تراثهما منذ قرابة عشر سنوات، وهي مشتركة في مختلف البرامج المتعلقة بالهندية.

- هل تعمل في المركز بدوام كامل؟

- لا، إنها إخصائية اجتماعية في «مستشفى سك كدز» Sick Kids Hospital.

فسألته (محدقة إليه تحديقًا هادفًا): «إذن هل تواعدتما؟».

لقد ذهبنا معًا إلى بعض الندوات الهندية، كما رافقتها في بعض الأمور الأوجيبوية، علاقتها وطيدة بأخيها، ويعيشان معًا في المنزل الذي اشترياه.

- هل طلبت منها المواعدة؟

- لا، لقد جعلتني مهتمًّا بفعاليات المركز، لم أكن أفعل شيئًا سوى الجلوس في الصالة، وجلب الكتب من قسم المبادلة، والقراءة، ثم عرفتني على أخيها وغير ذلك.

- ما طباعها؟

فكر داني لبضع دقائق ثم قال: «يمكنني القول إنها هادئة، وأفضل شيء أنها تحب الرجل الهادئ».

- حسنًا، لقد وجدتُه.

فأومأ برأسه فلم أستطِع كتم ضحكتي.

- إذن فأنت لا تشعر بضغط حين تكون برفقتها.

فقال وهو يتكئ على كرسيه: «أكون أصليًّا بكل بساطة دون تفسيرات».

فقلت: «لا شك أن ذلك مريح»، ثم أتبتعها بقولي: «رغم أن زوجتك كانت لطيفة وعطوفة فقد اضطررت إلى تكلف بعض الأداء الأبيض طوال الوقت، ولا شك أن ذلك كان مرهقًا، مثل المدرسة الداخلية».

حينما تحدثنا عن ساسينا (اسمها معناه «العندليب» في الأوجيبوية) تجلى بمرور الأسابيع أنه مكترث بها بعمق، لقد شعرتْ -شأنها شأن داني- بأن السبل قد تقطعت بها في عالم البيض، وحينما نقبت عن والديها في المستوطنة وجدت أنهما معطوبان للغاية فلا يقدران على بناء اتصال قيِّم، ورغم ذلك فقد ظل تراثها مهمًّا في ناظرها، فلطالما شعرت بأنها مختلفة داخل مجتمع البيض، لقد كانت تحترم بل تحب أبويها المتبنيين لكنها أيقنت أن بنيتها ليست كبنيتهما، ورغم ذلك فقد أرسلاها إلى الجامعة، كما كانت ساسينا -مثل داني- متسمة بأخلاقيات عمل قوية وماهرة في «مهام البيض» (على عكس شقيقها، الذي لم يبلِ بلاء حسنًا في المدرسة).

من المفترض أن يسأل المعالجون عن الحياة الجنسية لمرضاهم، لكنني كنت على دراية بأن داني شخص كتوم جدًّا. ولكن نظرًا لأنه كان ضحية للانتهاك الجنسي، إلى جانب عدم معرفتي بتاريخ ساسينا، فقد تحتم عليَّ أن أسأل: «ماذا عن الجنس؟».

فأجابني (وكأنني معتوهة): «تلك مشكلة متعلقة بطفولتي وقد عملنا عليها»، ثم قال مراوغًا: «على الأقل لست مضطرًّا إلى شرح سبب عدم وجود شعر صدر لدي».

فابتسمت وأومأت برأسي، لعلمي بأنها طريقة داني الملتوية لقول إنه غير متوتر، أن يشعر بالارتياح في ممارسة الجنس مع امرأة أصلية يكترث بها.

وبعد صمت همس داني: «ذات مرة جلست على ركبتي في وجبة الإفطار وأنا أشرب قهوتي»، وكلانا يعرف أن هذا أحد محفزاته، إذ كان الكاهن الكاثوليكي يجلسه على ركبته في صغره، ثم نظر إلى النافذة وقال: «فكرت فيكِ وما عملنا عليه في جلسة تونتو، فقلت لها: «أتضايق حين يجلس أحد على

ركبتي»، فنهضت على الفور وبدا عليها بعض الإحراج، فقلت: «هذا يذكرني بأشياء بشعة عايشتها في المدرسة الداخلية، ولا علاقة لذلك بك»، بدا عليها التفهم وعدم الاستياء. وكي أصدقك القول فلقد انتابني الخوف حين قلت هذا، كرهت ذلك لكنني قلته، توجب عليَّ قوله وإلا افترقنا فيما بعد كما فعلتُ مع زوجتي، وأريد ألا يحدث ذلك».

- الحميمية لغة يصعب تعلمها، وخصوصًا إن كانت قد تعرضت للإخماد، لكنك نجحت في ذلك.

فقال ساخرًا: «بل أتكلم بلكنة بالكاد يلاحظها أحد».

حينما سألت داني هل يسكن مع ساسينا، ابتسم وقال إنه يظن كذلك، لأنها جاءت إلى منزله قبل عدة أشهر في إحدى عطلات نهاية الأسبوع ولم ترجع إلى بيتها.

***

اجتاز داني محطة أخرى حينما جاءني ذات مرة وأخبرني أنه رافق شقيق ساسينا إلى أحد مهرجانات الأصليين، ووصفه بأنه صاخب ومزدحم و«لا يناسبني»، فشجعته مرة أخرى على المشاركة في بعض مراسم التشافي الأصلية.

وقد فعل، ذهب برفقة ثمانية رجال إلى محفل تعرق في «مدينة هاميلتون» Hamilton، وهي قريبة من تورونتو، حيث جلسوا داخل قبة مغطاة في حلقة دائرية حول صخور مسخنة، ثم أدرك أن الخيمة المستديرة تمثل «أمنا الأرض» الحبلى، وأن الصخور تسمى «الأجداد» لأنها عتيقة وشهدت كل شيء، هنالك يجري تسخين الصخور ثم يتحدث المشاركون ويتصببون عرقًا، بل وصف داني الحرارة داخل الخيمة بلغت درجة هائلة، تضمن الأمر أربع جولات من التسخين، وفي الجولة الثانية فرَّغ الرجال مشاعرهم واحدًا تلو الآخر وعرقهم ينسال من أجسادهم. وقد استغرق ذلك يومًا بأكمله.

أخبرني داني أن الوجود في الظلام أشبه الوجود داخل رحم حار، هنالك سمع «الحماقات القظيعة» ذاتها التي كانت تطارده منذ سنوات، تخرج متدفقة من الرجال الآخرين. شعر بأن أجهزته تتخلص من سموم الطفولة، التي تخرج في عرقه ويزيلها بالمناشف، ثم سمع الرجال الذين خيبوا آمال

أسرهم بإدمان الخمر وتأمل فيما كان سيقوله والده لو استطاع مشاركته ألمه.

ثم شارك داني في جميع أنواع التشافي الأصلي على مدار الأشهر الستة التالية، مثل المراسم الغليونية حيث حاول التواصل مع «أمنا الأرض» والتعبير عن بعض آماله، كما ذهب إلى حلقات التكلم حيث يتكلم الناس -وفقًا لتعبيره- «إلى أن يُخرِجوا كل ما بداخلهم من كلام، وقد يستغرق ذلك وقتًا طويلًا». هذا وقد كانت طقوسه المفضلة هي التلطيخ، وهو حمام بخار مطهر يستخدمونه لتصفية الذهن وإزالة الطاقة السلبية، كان يمارس هو وساسينا التلطيخ كل يوم تقريبًا، حيث يطهران بيتهما وروحيهما، وقد راق ذلك لداني إذ أرغمه على التفكير في ما لديه من طاقة في اليوم، وهذا من شأنه أن يجعله على الصراط المستقيم كل صباح.

ذات مرة نظر إليَّ قرب نهاية رحلتنا العلاجية وقال: «أتعلمين، لقد كان رأيك صائبًا».

فأجبت: «يطربني سماع ذلك».

فهزَّ رأسه قائلًا: «يعشق البيض صواب رأيهم، حين يصيبون يذكرونك بذلك ستين مرة».

فقلت ضاحكة: «حين يتعلق الأمر بعشق إصابة الرأي فإن مدى مماثلتي للبيض مساوٍ تمامًا للون شعري وبشرتي، لكن اسمح لي بمعرفة ما الذي أصبت بشأنه حتى أستمتع بنجاحي».

فقال: «العلاج الأبيض منعدم الروح، كعكة في منتصفها فجوة، لقد تعلمت منك أن بداخلي ألمًا، وكيفية الوصول إليه -وكل تلك الأشياء- ولكن لم يكن هناك شيء روحي في ذلك، وهذا أقوى العلاجات الشافية، لقد كنت بحاجة إلى الجانب الأصلي».

قبل انتهاء رحلتنا العلاجية ببضعة أشهر ذهب داني في رحلة تخييم إلى أقصى الشمال في فصل الشتاء برفقة جماعة صيد تتضمن شقيق ساسينا، وحكى لي قائلًا: «توجَّب علينا الاستلقاء وترقب الأيل، فهي تجفل من أقل شيء، كما يجب أن تراقبها من مسافة بعيدة، إذ بمقدورها الإحساس بقرب الصياد، لكن لم يستطِع أيٌّ من الصيادين الانتظار طويلًا في تلك البرودة التي بلغت أربعين تحت الصفر، فقلت إنني سأجرب ذلك».

لم أستطِع منع نفسي من إطلاق صياح الانتصار وأقول: «لم يستطِع هؤلاء الأوجيبويون المسنون مضاهاة هذا الكري العفريت».

- أصبتِ، ظللت مستلقيًا على بطني أيامًا عديدة، لكنني فعلتها في النهاية.

حينئذ شرعت في التصفيق، فقدت موضوعيتي بأكملها، يجب على المعالج النفسي تقديم واجهة غير انفعالية في معظم الحالات، ولكن نظرًا لأن علاجنا قد انتهى انتهاءً ناجحًا فقد رغبت في أن أكون لداني أكثر من مجرد معالج نفسي فرويدي، لقد كان بحاجة إلى مناصر، شخص يقف في صفه لكن لا يطلب شيئًا مقابل ذلك، شخص يتوق إلى عافيته ليس إلا، إن الذين مروا بصدمات نفسية شديدة يصابون بالخدر إلى أن يقابلوا شاهدًا رحيمًا، وحين يؤمنون بأن هذا الشخص صادق ويمكن الوثوق به يقتدرون على التحول إلى شخص «حقيقي» ويجرؤون على التعلق.

قال داني إن رحلة الصيد كانت رائعة، وأنهم حين بدؤوا في نصب الفخاخ تذكر كل الحيل الصغيرة التي تعلمها في طفولته، كما تذكر طيبة والده وصبره في تعليمه له فنيات الصيد، ثم تبادرت إلى ذهنه ذكريات كثيرة وكان غاية في السعادة، هنالك شعر بأن الأرواح ترافقه، وهو شيء لم يحدث له منذ أن كان في الخامسة من عمره، وابتسم وهو يخبرني بذلك، ابتسامة لم أرَها من قبل، أظهرت كل أسنانه البيضاء المستقيمة.

إثر رؤيتي لتلك الابتسامة غير المتحفظة أدركت أن عملنا معًا قد انتهى، كنت حزينة، ولكن لم يكن هناك بُدٌّ من قول: «داني، لقد انتهى عملنا هنا، ولا شك أنك تشعر بذلك»، كان كل منا على علم بأن هذه جلستنا الأخيرة، كان متحفظًا وكذلك أنا، نهض داني، ثم استدار وغادر فحسب.

راقبته عبر النافذة، محدقة إلى الرجل الذي كان يخيفني في السابق ويبدو الآن كأخ، يمشي منتصبًا مرتديًا سترته الجلدية وحذاءه المصنوع من جلد الثعبان تتأرجح ضفائره وراء ظهره.

9

لم الشمل

لقد حارب داني وانتصر في معركته الحياتية، لو وقع غيره في تلك الظروف لاستسلم معظمهم للأمراض النفسية أو تعاطي المخدرات، لماذا كان ذلك؟ يكمن السبب الأول -على ما أظن- في سماته الشخصية وطبعه الأساسي، لقد سبق أن قالت والدته -التي لم نأتِ على ذكرها كثيرًا في هذه الحالة- شيئًا بالغ الأهمية بخصوص داني: كان «عنيدًا دائمًا»، وبعبارة أخرى: جبل لا تهزه ريح، لقد اتخذ قرارًا بعدم السماح لأحد بتدميره أبدًا، وظل مستمسكًا به كما قرر عدم شرب الخمر ثم استمسك بذلك أيضًا استمساكًا **عنيدًا** على حدِّ تعبير والدته، أو **حازمًا** على حدِّ تعبيري، ويكمن الثاني في أنه لطاما كان وحيدًا، حتى حينما كان طفلًا صغيرًا، لم يكن لديه الاحتياجات الاجتماعية ذاتها لدى معظم الآخرين، فلقد بقيت شقيقته روز -على سبيل المثال- مع والديهما وظلت تلتمس حبهما، حتى في انحدارهما، ثم انحدرت هي الأخرى معهما. ويكمن الثالث -وهو الأهم من أي صفات فطرية- أن داني تمتع بمحبة ومودة الأبوين اللذين ظلا سليمي الوظيفية منذ ولادته وحتى سن الخامسة، وتلك أهم فترة في تكوين الطفل، فلو سبق أن تضرر والدا داني نتيجة ارتيادهما مدرسة داخلية -كما حدث للعديد من الآباء والأمهات الأصليين- لكان مآل داني مختلفًا ومحزنًا جدًّا.

استخدم داني أحد أقوى الدفاعات المعروفة في علم النفس: تبدد الشخصية، حيث عزل مشاعره جمعاء، ذلك كان الدرع المثالي، لكن المشكلة الوحيدة في سلاحه المثالي تمثلت في أنه بالكاد يستطيع التعلق بأحد، أو يشعر بمتع الحياة، وعلى حد تعبيره في بداية عملنا معًا: «لست بحاجة إلى البهجة»، كان محقًّا من ناحية ما، فهل الأفضل أن تشعر أم تحافظ على سلامة عقلك؟ وقد اختار الأخير طيلة السنوات العديدة السابقة.

على الرغم من أنهم ظلوا ثلاثة عشر عامًا يبرمجونه بعناية للتخلي عن هويته الأصلية فقد رفض ذلك رفضًا عنيدًا، لقد مر في حياته بأوقات تردُّد، حين كان يعترف بـ «خطيئة» تلك الهوية في صندوق الاعتراف في طفولته، وكان يشعر بالقلق حين سماع اللغة الكرية، ورغم ذلك فقد كان محاربًا شرسًا، كان يضفر شعره الطويل، معلنًا تراثه، كما ظل يحضر الجلسات العلاجية خمس سنوات، يسير شبرًا شبرًا نحو استعادة الهوية التي سُلبت منه.

كان داني حالة غير مألوفة بالنسبة لي، بادئ ذي بدء: علمتني الكثير عن العلاج النفسي متعدد الثقافات، وأوضحت الحقيقة المحزنة المتمثلة في أن مؤسسات المجتمع الأبيض ومواقفه قد دمرت ديناميات أسرته، مع عواقب أثرت على أكثر من جيل، تعين عليَّ مواجهة الإدراك الثقيل أنني كنت عضوًا بالمجموعة التي حاولت الإحاطة بثقافة الأصليين ثم القضاء عليها، لا عجب أن داني وجد صعوبة في الثقة بي.

ثانيًا: علمتني محدودية العلاج النفسي، لم يكن مصممًا للتعامل مع الإبادة الثقافية، وهو ما أوضحه لي د. برانت باكرًا، لذا جندت جيشًا صغيرًا من المطببين الأصليين لتقديم ما لم يستطِع العلاج النفسي تقديمه: التشافي الروحي، كانت هذه أول مرة أدرك فيها أن العلاج النفسي محدود ثقافيًا، وتوجب عليَّ مواجهة هذه القيود مواجهة مباشرة.

***

كنت قد التحقت بدورة تدريبية لصنع القُفَّة في «متحف أونتاريو الملكي» Royal Ontario Museum قبل بضع سنوات من مجيء داني إليَّ، واستغرقتُ شهورًا لصنع القفة الصغيرة التي كانت موضوعة على مكتبي في عيادتي، كانت شديدة الصغر، لم يكن بإمكانها احتواء سوى أربعة مشابك ورق، وجد داني هذه السلة الذَّرِّية شيئًا مضحكًا، وعلى حد تعبيره: «ولم العناء؟».

بعد أسابيع قليلة من إجراء جلسة الختام مع داني دخلت غرفة انتظار عيادتي فوجدت قفة كبيرة جميلة ذات أنماط بصرية بديعة، كانت تحفة مدهشة من تحف الأصليين، واحدة لجامعي التحف، أدركت أنها عتيقة وصبغت باستخدام البطاطا لإنتاج هذا التصميم المعقد.

تأثرت بها تأثرًا شديدًا، واحتلت الصدارة في بهو منزلي، وبعد عشر سنوات، في أثناء تجديدي لمنزلي، قام رجال النقل بتعبئة أمتعتنا ووضعوها في المخزن، لكن حين قمت بتفريغ الحقائب لاحقًا لم أجد القفة، أخبرتني شركة التأمين أنها تساوي آلاف الدولارات وأنها بجودة أثريات المتاحف، لم أكن مبالية بثمنها، كل ما أردته هو استعادتها. لكنني لم أرَها -لا هي ولا داني- ثانية.

اكتشفت لاحقًا أن داني بدأ في الإشراف على الآخرين خلال رحلتهم الروحية، وأنه يشارك في مراسم التشافي، وأنهم يعتبرونه بارعًا في ذلك، لقد سافر للاجتماعات في مختلف البلدان واستعان بالمهارات اللازمة، أعلم ذلك إذ كثيرًا ما كان يأتي إليَّ منتفعون أصليون أحالهم داني إليَّ، حيث يقول المنتفع: «قال داني إنني بحاجة إلى مقابلتك لضبط الماكينة وتقويتها قبل عملي معه»، كان داني عاشقًا للسيارات والمحركات بجميع أنواعها، فاعتبرت ذلك إطراء.

***

مرَّ ما يقرب من ثلاثين عامًا منذ أول مرة رأت فيها عيناي داني، فأردت إعلامه بأنني أكتب عنه باعتباره حالة شارحة، آنذاك، كان من المفترض أن يكون في سن السبعين.

تتبعت وسائل الاتصال لمديره السابق، الذي كان آنذاك في أواخر ثمانينياته، وحين هاتفته وسألته عن أحوال داني، سمعت تنهيدة أتبعها بقوله: «توفي داني بسرطان الحلق حينما كان في أوائل الخمسينيات من عمره»، كانت صدمة شديدة لي فلم أتكلم، فقال المدير: «لم يشتكِ من شيء، نقص وزنه، وجشَّ صوته، ظلَّ يسعل طوال الوقت، لكنه ظلَّ يزاول عمله، تمامًا كإثر موت زوجته وابنته، وذات يوم انهارت قواه، ولم يلبث سوى بضعة أيام، وقد طلب أن يدفن بجانب ابنته».

قال المدير إنه ذهب إلى الجنازة وتفاجأ برؤية مئات الأشخاص هناك، معظمهم من الأصليين الذين يرتدون ثياب المراسم، هنالك غنت امرأة -افترض أنها خليلة داني- أغنية بلغة أصلية وقرع الرجال الطبول الضخمة التي كانوا يحملونها.

حين كنت على وشك إنهاء المكالمة راودت المدير فكرة عابرة، فقال: «غريب أنه أصيب بسرطان الحلق، إذ لم يتعامل قط مع مادة الأسبستوس أو غيرها من المواد المتسببة في سرطان الحلق، ولم أكن لأدع عمالي يفعلون ذلك البتة، ما سبب ذلك يا ترى؟».

رغبت في قول إن ذلك قد يكون متعلقًا باضطراره طوال طفولته إلى ابتلاع جميع الكلمات الكرية تلك، حيث ظلت في الظلام فاستحالت مرضًا، لقد انتزعت مدرسته الداخلية اللغة الكرية منه انتزاعًا، لكن هذا الألم ظل حرفيًّا في حلقه، كتذكير مادي بما كابده مكابدة بطولية.

إيكوسي (وداعًا) يا داني.

ألانا

«القسوة -شأنها شأن كل رذيلة أخرى-

لا تتطلب دافعًا من خارجها، لا تتطلب إلا الفرصة!».

- جورج إليوت

1

«نادي محبي تد بندي»

يقول بيير جانيه -الإخصائي النفسي الفرنسي الشهير- عن النفس البشرية: «حياة الإنسان منحوتة إبداعية تنقشها كل السبل المتاحة»، وقد استخدمت ألانا كل ما أتيح أمامها للحفاظ على سلامتها العقلية، وكانت بعض طرائقها بديعة إلى حدٍّ يجعلها فعلًا ترتقي إلى مرتبة الفن.

كانت الانتهاكات التي تعرضت لها ألانا شديدة ومنزوعة الرحمة، ورغم فظاعتها فقد أثبتت هذه الفتاة أن عظمة روح الإنسان تضاهي، بل تفوق، كل شرٍّ يمكن أن تتعرض له، لقد استغلت الصلابة، والذكاء، وغريزة الأمومة لاجتياز تلك الصدمات، كي تثبت أن العقل البشري يمكنه أن يظلَّ سالمًا مهما لاقى من معاناة.

أحيلت إليَّ ألانا بواسطة معالج نفسي زميل كان يعالج زوجها كريستوفر، وهو أستاذ لغويات جامعي كان قد طلق زوجته حينما التحق أولادهما بالجامعة ثم تزوج ألانا.

في أكتوبر 1996 تلقى زميلي اتصالًا هاتفيًا من كريستوفر يستفسر منه هل بإمكانه علاج زوجته ألانا التي تعيش معه في سعادة منذ أحد عشر عامًا، فنصحه بي إذ ليس من المستحسن أن يقابل المعالج النفسي فردين من العائلة نفسها في جلسات فردية، فقد يصبح ولاؤه ضبابيًا بالنسبة

للمريضين، سألت زميلي عن طبيعة مشكلة ألانا فقال لي على لسان زوجها: «لا تفي الكلمات بالوصف!»، نبأتني هذه العبارة بالكثير، نظرًا لصدورها من عالم لغويات.

***

وافقت على مقابلة ألانا، التي كانت آنذاك في الخامسة والثلاثين من العمر، أي أصغر بقرابة 20 عامًا من كريستوفر، رأيت في حالة ألانا أشياء كثيرة لم أرَها من قبل، وقد بدأ هذا من اللحظة الأولى التي دخلتُ فيها حجرة الانتظار لرؤية ألانا، عادة يجلس المرضى في أثناء انتظارهم، أما ألانا فقد وجدتها تجاهي واقفة، متصلبة كالجندي المنتبه، ملتصقة بالنافذة الوحيدة بالغرفة، تنظر إليَّ بعينين قد وسعهما الخوف.

رأيت ألانا ذات الجمال المرهف، المتجلي في الشعر الأصهب القصير المتموِّج، والبشرة الفاتحة التي بها بعض النمش، وبلا أي ماكياج. كانت ترتدي قميصًا صوفيًّا غير مزرر من نمط مربعات الكاروهات، ومن تحته تيشيرتًا رماديًّا، مع بنطال كاكي وحذاء رياضي أسود (ظلت ترتدي الزي نفسه تقريبًا مع تغييرات طفيفة طيلة السنوات التي قابلتها فيها).

عرضت عليها الشاي آملة أن يهدئ من روعها، ثم اصطحبتها إلى مكتبي، فجلست على حافة الكرسي كأنها في وضع تأهب دائم للفرار، وفور استقرارها في كرسيها خلال شرب الشاي سألتها كيف يمكنني أن أساعدها، فقالت: «غالبًا لا تستطيعين!»، لم تكن طريقتها عدائية، ولكن مباشرة كأنها تقرر الحقائق ليس إلا، فغيرتُ بعض الشيء من صيغة السؤال وقلت: «مم تشتكين؟»، فابتسمت ألانا دانية بناظرها وباسطة يدها -التي كانت ساطعة الحمرة كأنها غُمست في عصير الشمندر- ثم قالت: «أظن أنني متوترة»، كانت أنفاسها قصيرة، ومتقطعة، كقطار يصعد جبلًا، شحب وجهها لدرجة أن نمشها بدا أنه يتلاشى، ولكي أنقذها من الإغماء حثثتها لشرب الشاي.

حين سألت ألانا عن حياتها العائلية أخبرتني أنها تربَّت في «مدينة برنس روبرت» بمقاطعة كولومبيا البريطانية، وأن أمها فارقتها حين كانت في سن الثالثة تقريبًا، بعدما أعلنت «جمعية إعانة الأطفال» Children's Aid Society فقدانها الأهلية، ثم تولى والدها -الذي كان مدمنًا للخمر والمخدرات- تربية

ألانا وأختها الصغرى جرتشن، ثم سردت لي ألانا كيف لفَّق والدها تهمة لأمها، حيث دس أكياس هيروين في جيوب ملابسها وأبلغ الشرطة، وحين وصلت الشرطة أخبرهم أن الأم كانت تعمل في الدعارة بـ «مدينة كالجاري» حين كانت في مرحلة المراهقة. ثم عقَّبت ألانا بقولها: «نسب لا يشرف». ناضلت الأم في المحاكم سعيًا للاحتفاظ بحضانة الأطفال، آنذاك كانت في سن الثانية والعشرين، ولكن الأب انتصر في جميع القضايا، فقد كان مشهورًا بكونه عبقريًّا، أحد أبرز المبرمجين في واحدة من كبرى الشركات الحاسوبية، ومن اللافت للنظر أن تلك الشركة ذاتها فصلته، بعد ذلك بسنوات، بسبب إدمانه الخمر والمخدرات وتصرفاته الغريبة.

طلبت من ألانا أن تعطيني مثالًا على هذه التصرفات الغريبة، فحكت لي أن والدها قتل قطة كانت تعيش في مخزن الشركة ويسمونها تفكُّهًا «اللمبة المجنونة»، ثم وصفت ما حدث قائلة: «أخذ يمرح بكهربة القطة حتى ماتت، ثم علق ورقة على رقبتها كتب فيها: «الآن صرتِ لمبة محروقة»، لم يكتشف والدها أن نكتته لم تضحك أحدًا إلا حين طردوه من العمل.

لا يتصور الساديون -الذين يستمدون متعتهم من رؤية ألم الآخرين وإذلالهم- أن الشخص الطبيعي يرى أفعالهم شديدة التنفير، لذا يتعلمون في نهاية المطاف -كما حدث بالضبط مع والد ألانا- أن يصادقوا ساديين آخرين يستحسنون نزعاتهم المنحرفة.

حين أكثرتُ من الأسئلة عن أبيها أخبرتني ألانا أنها تنزعج من مناداته بذلك (كان هذا يزعجه هو الآخر، وقد طلب منها ومن جريتشن مناداته باسمه الأول «آرت») وطلبت ألا أستخدم أبدًا كلمة **أب** خلال الحديث أو المراسلات، وإنما الإشارة إليه بـ آرت.

حاولت في نهاية جلستنا الأولى معرفة سبب توتر ألانا بهذه الدرجة لمجرد وجودها في مكتبي، فاعترفت لي قائلة: «أخشى أنك لو عرفت ما يدور في رأسي ستقومين بحبسي».

دائمًا ما يواجه المعالج خوفًا شديدًا يتعين عليه التعامل معه، إذ لو اكتشفت أن ألانا تمثل خطرًا على نفسها أو على الآخرين، فسأضطر حقًّا إلى حجزها في مستشفى، ونظرًا لالتقاط أمها سمعة المدمنة الفاسدة فاقدة الأهلية فقد كان لدى ألانا خوف دائم من أن ينتهي بها المآل إلى مصير مشابه، لم أرِد

إرعابها، لذا طلبت منها أن تخبرني عن أحد أعراضها، عن عرض لا يهدد حياة أحد، لنناقشه معًا في الجلسة القادمة.

فقالت: «بعض المواقف تصيبني بالتهوع [1]ثم التقيؤ، وإن لم أنصرف على الفور تصيبني نوبة قيء قذفي جامح».

كان من الجلي أن جمع تاريخ مرضي شامل من هذه المريضة قد يفوق قدرتها على التحمل، فلقد كانت استجاباتها الجسدية –مثل تجمع الدم في الأطراف، واللهاث، واتساع حدقة العين– علامات خارجية على اضطرابها الداخلي العنيف، لذا علينا أن نتوخى الحذر في تقدمنا.

***

أحضرت ألانا في جلستنا التالية قائمة بمحفزات التهوُّع والتقيؤ، كانت قد أكملت عامها الثالث في عملها موظفة لدى شركة محاماة، فسألتها كيف تؤثر هذه الأعراض على عملها، فأخبرتني أنها حين تمرض تغادر الغرفة فحسب، ولا يسألها أحد عن شيء مهما طالت المدة التي احتاجتها.

فسألتها هل تخرجت في كلية الحقوق، فأخبرتني أنها تركت الجامعة بعد أقل من سنة. وأنها حين كانت في أوائل العشرينيات حصلت على وظيفة في شركتها الحالية في قسم تكنولوجيا المعلومات. ثم ترقت إلى أن صار معظم عملها الآن متمحورًا حول إعداد المذكرات القضائية، اتضح لي فيما بعد أنها كانت تؤدي مهامًّا قانونية بالغة الأهمية في قضايا تقدر قيمتها بعدة ملايين بإحدى أشهر شركات المحاماة في المدينة، لكنها لم تكن تتلقى أجر المحامية نظرًا لأنها ليست محامية، تتمتع ألانا بذاكرة أشبه بالكاميرا الفوتوجرافية، ومعدل ذكاء عالٍ جدًّا، لذا كانت تستطيع الاحتفاظ بمعظم تفاصيل القضايا في ذهنها حتى حين عملها على أكثر من قضية في الوقت ذاته. وعلى الرغم من أن ميدانها المفضل هو قضايا الأسرة –لقد قامت ببعض الأبحاث بخصوص طفولتها الشخصية– فقد كان معظم تقدير الشركة لها ناتجًا عن تميزها في قضايا قانون براءات الاختراع. ووصفت ألانا ذلك قائلة: «لقد أنقذت هؤلاء الخنازير مرات لا تحصى، كانوا يعرفون أنني غريبة الأطوار، ولكنهم آثروا أن يتركوني وشأني»، كان بمقدور ألانا المجيء والرحيل متى تشاء، «ولكن في

---

(1) التهوع هو انقباض متكرر في عضلات البطن، وهو المرحلة الأولى من التقيؤ. (المترجم)

القضايا المهمة لا يغمض لي جفن لعدة ليالٍ متتابعة بل أصل الليل بالنهار». وكان السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا لم تحصل على شهادة الحقوق، لكل المميزات التي ترافق ذلك؟ ولكني أحجمت لأن ألانا في هذا الوقت الحرج لا ينبغي أن تواجه أي شكل من أشكال المجابهات.

أعدَّت ألانا بأسلوب عملي تمامًا قائمة لمحفزات التقيؤ وبدأت تسرد الأسباب، كان الأول رائحة السمك: «لا أستطيع ارتياد المطاعم خوفًا من التقيؤ على الطاولات المحيطة»، فسألتها عن هذا فأخبرتني بهدوء شديد أن آرت ظل يغتصبها من سن الرابعة إلى الرابعة عشر، وأنه كان يهددها أنها إن لم تظهر تلذذها فسينتقل إلى أختها الصغرى في الغرفة المجاورة، لم تكن لدى ألانا، الطفلة الصغيرة، أي فكرة عن كيفية التظاهر بالاستمتاع بما هو في الحقيقة مهانة وألم، ثم عقبت قائلة: «كنت عاشقة للرياضيات، لذا كنت في أثناء ذلك أقضي الوقت في تعداد الزهور بورق الحائط، وأخترع لنفسي مسائل حسابية باستخدام الزهور».

لم تتعلم ألانا كيفية التظاهر بالاستثارة إلا في سن الثامنة: «وكرهت نفسي بسبب هذا كما كرهت آرت، ولكني أنقذت أختي، كان يرغمني على فعل ذلك إلى أن تصبح رائحتي -على حد تعبيره- «كالسمك»، ولهذا يصيبني السمك بالغثيان».

لم أُظهر انصعاقي من هذه القسوة الوحشية، فلقد علمتني التجارب أن المرضى الذين مروا بمواقف وحشية يرتعبون إذا شعروا من المعالج أن ما حدث خارج تمامًا عن المألوف، كما كنت أعلم أن ألانا ليست معتادة على إبداء التعاطف أو المشاركة الوجدانية، ولقد وصفت لي فيما بعد رأيها في التعاطف: «أرى أنه شيء غريب، مصطنع، ومنفر، إذا ذهبتِ إلى بيتك فوجدت أباك يتحدث إليك بالنبرة المعسولة لمدرس الروضة، بم ستشعرين؟ بالفزع؟ بالريبة على أقل تقدير؟ هذا ما أشعر به حينما يظهر الناس تعاطفًا».

كانت اللمسات الخفيفة ثاني المحفزات في قائمة ألانا، إذ كانت أسلوب آرت، كانت اللمسة الخفيفة كفيلة بإصابتها بالتهوع، وكان صوت المضغ -أو تهشيم الطعام، على حد تعبير ألانا- ثالث المحفزات، ويرتبط أيضًا بالأشياء المقرفة التي فعلها آرت بها.

أما المحفز الرابع فكان الحمامات، كانت تضطر إلى حبس أنفاسها حين تدخل أي حمام من أي نوع، وحين سألتها عن هذا ركضت خارجة من المكتب لتتقيأ في دورة مياه السيدات الملحقة به، لم تخبرني ألانا قط عما فعله آرت بها داخل الحمام، وأخبرتني أنها لو تحدثت عن هذا الموضوع سيصير حقيقة، ولن تستطيع بعدها «العودة للحياة الواقعية».

تضاربت مشاعري حيال ذلك، فالهدف من أي علاج فرويدي -أو أي نهج علاجي يقر بوجود اللاوعي- هو تحويل الأفكار اللاواعية إلى أفكار واعية، يجب كشف الغطاء عن أحداث الطفولة الصادمة كي يتمكن المريض من عيشها مجددًا، ولكن هذه المرة برفقة معالج نفسي يدعمه ويرشده ليخطو فوق آلام قلقه، وخزيه، وشعوره بالذنب، ولكنني آنذاك كنت متمرسة في العلاج النفسي وموقنة بعدم وجود ثوابت مطلقة في أي شيء، وأن لكل مريض احتياجاته التي لا تماثل أبدًا احتياجات أي مريض آخر، كما كنت قد أيقنت مما حكته لي ألانا أن هناك تجارب لا ينبغي للمرء أن يعيشها مرتين.

كانت جميع عناصر قائمة «محفزات القيء» -وفقًا لتسميتها- مبنية على انتهاك آرت المتكرر لها، هذا وأخبرتني ألانا أن الألم الجسدي ليس أشد ما يؤلمها، وإنما حسها الدائم بأنها تواطأت مع مغتصبها بتزييفها للنشوة، وقالت: «استطعت تجاوز الألم الجسدي للاغتصاب، لكن أسوأ ما في الأمر هو تلك الشجرة التي تتجدد أوراقها كل صباح، هذه الارتدادات الذكروية التي لا تنفك عن مطاردتي في كل يوم من حياتي، المنطوية على صور لوجهي المتظاهر باستمتاعي مع آرت، تلوح تلك الصور في آفاق نفسي، والخزي الذي يختلج بداخلي حينما أتذكر ذلك يجعلني أتنفس بصعوبة كأن صدري ينعصر بين فكي كماشة».

أخبرت ألانا أن هذا طبيعي تمامًا، فدائمًا ما يعمِّر شعور الخزي أكثر من الألم الجسدي، حين يفكر أي منا في خبرة مخزية يستشعر كل تفاصيلها بنفس حيوية الخبرة الأصلية، إن لم يكن ذلك أشد، ورغم كل ما مرت به ألانا فلم تفقد حس الدعابة المسلي، لقد كمنت قوتها في استخدامها الدائم للكوميديا السوداء، فمثلًا حين شاهدت فيلم «حين قابل هاري سالي» When Harry Met Sally ورأت المشهد الذي تزيف فيه ميج ريان نشوتها الجنسية قالت إنها تعلمت ذلك حين كانت في الثامنة، فقد اكتشفت من سن مبكر ما

ينبغي فعله كي يتركها وشأنها بقية الليلة، إذ لم يكن آرت مجرد مغتصب، بل كان نرجسيًا مهووسًا بذاته، يحتاج إلى رؤية أنه عشيق جيد.

كما أجبرها آرت على فعل ذلك مع أصدقائه الساديين، المشتهين للأطفال، مدمني المخدرات الذين أذهب الخمر عنهم ما بقي لهم من عقل، ولقد أفرده هذا بمكانة بارزة في جمعهم اليومي، كما أعطاه الحق في أن يقاضيهم أجر ابنته كلما ضاق به الحال.

كان الفيلم المفضل لدى آرت هو «سائق التاكسي» Taxi Driver، إذ كان مأسورًا بجمال جودي فوستر في دور العاهرة المراهقة، لقد وُلدت جودي فوستر في نفس الشهر من نفس العام الذي ولدت فيه ألانا، وكان بينهما تشابه شديد في سن الثانية عشرة، فاشترى لها آرت الشورت الوردي القصير ذاته والبلوزة المزهرة ذاتها اللذين كانت ترتديهما جودي في الفيلم، وطلب منها ارتداءهما، بل أجبرها على أن تتحدث إليه بنفس الألفاظ العامية التي كانت تتحدث بها جودي مع روبرت دي نيرو.

وكأن هذا لم يبلغ السوء الكافي، إذ أرغمها أيضًا على تعاطي المخدرات كل ليلة، كانت ألانا تتعاطى أي مخدر متاح، من الحشيش مرورًا بالكوكايين إلى حبوب الهلوسة، فظلت تتعاطى بالإجبار عقار «إل إس دي» LSD المهلوس مرة أسبوعيًا على الأقل من سن السادسة حتى الرابعة عشر، لكن من العجيب أنها لم تصب بذهان المخدرات أو الارتدادات الذكروية (غالبًا ما يصاب متعاطو المخدرات الشرهون بالارتدادات الذكروية، والهلاوس، وضلالات الاضطهاد، والتشوش، حتى بعد انقضاء سنوات عديدة على ذلك).

***

حين سألت ألانا عن حياتها الجنسية مع كريستوفر، أخبرتني أنها لا تحس بأي مشاعر جنسية من أي نوع، كما قالت: «أرى أن «خبرة جنسية رائعة» هي عبارة ذاتية التناقض، لقد عانيت أنا وكريستوفر الأمرين، لذلك فنحن قانعان بحياة هادئة خالية من الخطوب، على كل حال لدي ما هو أهم من التركيز على المتعة الجنسية، إنني أناضل للحفاظ على سلامتي العقلية». لم تعتبر ألانا انعدام رغبتها الجنسية مشكلة ينبغي التعامل معها، لذلك قررتُ التركيز كذلك على مشكلاتها الأشد إلحاحًا.

حين سألتها عن عنف آرت الجسدي ناحيتها أخبرتني أنه نادرًا ما كان يضربها، كانت تعرف كيفية البقاء على مبعدة منه وكيفية استرضائه، ولكنه كان معتادًا على ضرب أمها.

حكت لي ألانا واحدة من أبشع أحداث طفولتها: «حدث ذلك حين كنت في السادسة وكانت جريتشن في الثالثة، كنا على متن قارب يقوده آرت الذي كان تحت تأثير المخدرات، اشتاط غضبًا فجأة وألقى بنا من على متن القارب وعاد للشاطئ وحيدًا، ثم أخذ يصيح بنا بأننا شياطين وأن علينا التوقف عن التصرف كالأطفال وأن نتعلم السباحة، أوشكت جريتشن على الغرق، وكلما حاولت سحبها أبدأ في الغرق معها.

كان لآرت صديق اسمه تيم، وهو رجل قد قضى عقوبة في السجن بعدما أدين بعدة جرائم جنسية معظمها متعلق بالأطفال، ظل واقفًا على الشاطئ يضحك على غرائب وطرائف آرت، إلى أن أدرك أننا نغرق حقًّا. حينئذ قفز في الماء وعام إلى أن وصل إلينا وأنقذ حياتنا».

وصلت جريتشن إلى الشاطئ منقطعة الأنفاس، واحتاجت إلى إعادة الإنعاش، ثم جلست الطفلتان تلهثان غارقتين في الرعب، توجه تيم نحو آرت ولكمه صائحًا أنه مريض وقد تجاوز كل الخطوط الحمراء، فرد عليه آرت: «أنت محق، أظن أنني كدت أذبح الدجاجة التي تبيض كل يوم ذهبًا».

تذكرت ألانا هذه الحادثة كفيلم يُعرَض بالحركة البطيئة، بعد تلك الحادثة لم تعد جريتشن كما كانت من قبل، وأصيبت بعدد من الرهابات، آنذاك أدركت ألانا أن آرت ليس لديه مشكلة في تركهما تموتان، وعقبت قائلة: «ولكن الأمر الذي لا يصدق، والذي ساعدني على الحفاظ على سلامتي النفسية، هو أنني سمعت تيم يقول لآرت إنه مريض، إذ أدركت -للمرة الأولى في حياتي- أن آرت لديه علة جسيمة، لطالما ظننت أن المشكلة كانت في أمي أو فيَّ أنا من بعدها، فلقد اعتاد آرت على الصياح بي قائلًا إنني «عاهرة متبلدة» كأمي، لم أكن مستوعبة لمعنى ذلك السباب، ولكنني على أية حال فهمت أنني شريرة».

فلخصتُ ذلك لألانا بقولي: «لم تدركي في صغرك أنك تتعرضين للاغتصاب، فهمتِ فحسب أنك غير متعاونة أو **متبلدة**».

سألت ألانا هل ساعدهما تيم مرة أخرى فأخبرتني أنه لم يساعدهما في المرة الأولى إلا خوفًا من أن يكون شريكًا في جريمة قتل، فهو -على عكس

آرت- سبق أن دخل السجن، ولا يريد العودة له مجددًا، لقد خاض العديد من الشجارات مع آرت ولكن ظلا صديقين، فأنى له العثور على صديق آخر سادي وغلماني ومغتصب للأطفال؟ هذه مجموعة يصعب جدًّا العثور على مثلها.

تقابل تيم وآرت في «نادي محبي تد بندي»، تد بندي هو قاتل متسلسل أمريكي شهير، أُعدم عام 1989 بعدما اغتصب وقتل (بل أحيانًا بعكس الترتيب) وقطع أوصال ثلاثين امرأة، هذا وهرب من السجن مرتين وفي كل منهما ابتدأ سلسلة جرائمه من جديد، كان تد -شأنه شأن آرت- مجرمًا شديد الذكاء، كان قد دخل كلية الحقوق ومثَّل نفسه محامي دفاع عن نفسه في المحكمة، ولقد قلده آرت في ذلك حين تولى مهمة قضية حضانة الأطفال التي ربحها وأعلنت المحكمة أن الأم فاقدة للأهلية، كان تد طويل القامة، وأسمر البشرة، وحسن المظهر، أما آرت فكان طويلًا، وأحمر الشعر، مع نمش خفيف على بشرته، ولطالما تخيل نفسه مضاهيًا لشر بندي ووسامته، وقد كان محقًّا من حيث الشر، ولكن جانبه الصواب إلى حد بالغ فيما يتعلق بالوسامة. حكت لي ألانا تفاصيل اجتماعاتهم الدورية في «نادي محبي تد بندي» كأن ذلك عادي، كأن والدها عضو في جمعية خيرية! وقالت: «كان يجتمع مع رفقائه المرضى بصفة دورية في النادي، وفي الرابع والعشرين من نوفمبر كل عام يجتمعون للاحتفال بعيد ميلاد تد بندي، حيث يغنون له «سنة حلوة يا جميل» ويشربون في صحته النخوب».

لقد تلقى تد بندي آلافًا من خطابات الغرام من معجبات مهووسات، وكان آرت يستمتع للغاية بالحديث عن شعبية بندي لدى النساء قائلًا إن النساء، في قرارة أنفسهن، يعشقن المغتصبين والقتلة، كان تيم وآرت يألهان تد بندي، ورغبا بشدة في أن تعشقهم النساء مثله، ولهذا لم تعرف ألانا أن تد بندي ليس بطلًا حقيقيًّا إلا في مرحلة المراهقة تقريبًا.

***

على الرغم من كل ما أحكيه الآن فقد أغفلت ذكر معظم التفاصيل البشعة في حالة ألانا، تفاصيل قد تكون مزعجة لمعظم القراء، بل حين استشرتُ طبيبة نفسية لوصف دواء وجدتُ صعوبة في الاستماع إلى تاريخها المرضي،

وسألتني وعيناها مغرورقتان بالدموع كيف اقتدرت على وصف هذا الوضع المرعب كأنني أسرد حقائق واقعية.

تأملت في هذا لبعض الوقت، واستخلصت أن للأمر علاقة بطفولتي، أبي هو من رباني في صغري، وظللت أعمل معه في متجر الأدوية الطبية من سن الرابعة إلى الثالثة عشرة في توصيل الأدوية، وقد رأيت خلال طفولتي ما لا يحصى من المواقف الوخيمة، إذ شاهدت الفقر، والدعارة، والذين يموتون وحيدين، والنساء المحطمات، والعديد من أشكال الجنون والأمراض العقلية المختلفة، ولكني كنت مدركة أن مهمتي -لأن هذا ما كان يخبرني به أبي مرارًا وتكرارًا- هي إيصال الدواء لهم وليست مساعدتهم، فلو رأيت أحدهم في حاجة إلى المساعدة يجب عليَّ طلب الشرطة، لا ينبغي أن أتلكأ من أجل حالة واحدة وإلا ضاعت بقية الحالات، وباختصار: لقد تعلمت وأنا غاية في الصغر أن أفصل الأشياء عن بعضها بنظرة عملية.

وقد تعلمت ألانا هذا الدرس مثلي تمامًا، كما تعلمت استخدام الكوميديا السوداء لتشتيت الألم، فلقد حكت لي ذات مرة أن والدها كان معتادًا على تركها هي وأختها في البيت بلا أي طعام، ويتحتم عليهما البحث في كل رفوف المطبخ عن أي شيء يؤكل ولو كان سكرًا أو دقيقًا خامًا، من المفاجئ أن يجد أحد أي فكاهة في هذا، ولكن ألانا علقت قائلة: «معكم مؤسِّسة حركة «نَعَم للطعام النيء»».

2

إلى منزل الجدة

إن قصة ألانا مشابهة في بعض تفاصيلها لقصة «ذات الرداء الأحمر»، باستثناء أن الجدة والذئب هنا كانا الشخص ذاته.

عاش آرت زمنًا طويلًا على مكافأة نهاية الخدمة التي حصل عليها من شركته السابقة، وحين نفدت حُرِم رغد العيش واضطر إلى البحث عن وظيفة، فوجد عملًا في «مدينة كيركلاند ليك» بمقاطعة أونتاريو، لكنهم طردوه بعد أقل من أسبوعين، فظل في البلدة يتاجر في المخدرات، قبل سفره ترك ابنتيه في منزل والديه بـ «مدينة كيرتيمات» بمقاطعة كولومبيا البريطانية، في أثناء ما كان والداه في الكنيسة -اللذان كانا من متعصبي طائفة «شهود يهوه»- تاركًا وراءه ملاحظة تقول إنه سيعود لأخذهما بعد ستة شهور، وهي مدة طالت أكثر من عامين.

اطمأن قلبي بأن ألانا قد أفلتت أخيرًا من براثن آرت، وسوف تقيم الآن في منزل متدين، مع أب وأم، ولكنها سرعان ما خلصتني من هذه الفكرة بإعلامي أن شر الجدة ضاهى شر آرت كمًّا وإن اختلف عنه كيفًا.

«**الشر**» ليس مصطلحًا نفسيًّا، لكنني أستخدمه لوصف آرت وأمه لعدم وجود مصطلحات أو تشخيصات نفسية تعبر بما يكفي عن طبيعتهما الوحشية، و«السيكوباتية» هو أقرب المصطلحات لحالتهما، السيكوباتي

منعدم التعاطف، وحسه بذاته متضخم، ويتمتع بسحر سطحي جذاب، كما لديه القدرة على خداع الآخرين والتلاعب بهم، هذا ولا يشعر بأي ندم، ولا بأي مشاعر عميقة، كما يرفض تقبل مسؤولية أفعاله، وعادة ما ينغمس في نمط حياة طفيلي، يتسم آرت بكل واحدة من هذه الخصال، ولدى أمه عدد لا بأس به منها، لقد كانا بكل تأكيد سيكوباتيين وساديين، ومنطويين على شرٍّ أكبر مما يصفه أي دليل للاضطرابات النفسية.

كان انتهاك آرت، على الرغم من وحشيته، على هيئة طفرات قصيرة المدة، فقد كان في معظم الأحيان نرجسيًّا متمركزًا حول ذاته لا يبالي بأحد، ولا يهتم بأي شيء لا يؤثر عليه بشكل مباشر. فكان، على عكس أمه، لا يهتم أن يُعلم ألانا الأدب. كان يغضب بشدة إذا أكلت ألانا شيئًا من أمامه، ولا يهتم البتة إذا غابت من المدرسة. لم يكن هذا هو الحال مع أم آرت. كانت جدة ألانا امرأة مضطربة، متطرفة دينيًّا، تعيث في حياة الآخرين فسادًا بكل ما أوتيت من قوة. وكان لدى آرت أخت في مصحة نفسية منذ كانت مراهقة. لا أحد يعرف ما المرض النفسي الذي تعاني منه ونادرًا ما يأتي ذكرها. كان آرت هو الابن المفضل لأمه، الرجل الذي بلا خطيئة. كانت الجدة ذكية ولكن غير متعلمة، فكانت في حاجة دائمة إلى إنجازات آرت الدراسية لكي تؤكد ذكاءها وتغذي فيها هوس العظمة. بينما كان زوجها مفرط السمنة يجلس على الكرسي الهزاز طول الوقت، وتبدو عليه أمارات الاكتئاب، حتى إن زوجته كانت تجبره على أن يترك الكرسي ليستحم، وتجرُّه معها إلى الكنيسة.

أجبرت الجدة ألانا وجريتشن على إجراء حقن شرجية يوميًّا، بحجة أنهما «عفنتان، قذرتان، نجستان قلبًا وقالبًا، أفسدا على والدهما فرصته لنيل جائزة نوبل» (كانت الجدة معتقدة بأن هناك جائزة نوبل للبرمجة، وهذا أحد خيالاتها غير الضارة).

كانت ألانا تتعمد التحدث بلهجة تخفيفية خلال جلساتنا، كانت راوية بارعة للحكايات، تُزيِّن القصص بملاحظات طريفة عن ديكور المنزل المبتذل، أو صورة ماري أنطوان في تنورتها، المطوقة على حامل مناديل الحمام، ولكنها في نهاية المطاف، وبشكل حتمي، تتعمق في التفاصيل، فتختفي النبرة الساخرة ليحل محلها الصوت الفزِع، ثم تحمرُّ يداها وتشعر بحكة في أطرافها، ودائمًا ما وضعتُ بجانبها سلة النفايات لأنني كنت أعرف أنها سوف تتهوَّع في أثناء السرد وتتقيأ.

استغرق الأمر شهورًا عديدة لتتشكل القصة الكاملة لما حدث لألانا في منزل الجدة.

لقد أدى جهاد الجدة إلى «تطهير ألانا من دنسها» إلى تشوه أعضائها التناسلية بحجة الختان، وأدت الندوب الناتجة إلى زوال أحاسيس الفرج إلى حد شبه تام، بل لجأت ألانا إلى إجراء عملية لإعادة تشكيل المهبل وفتحة الشرج في أوائل عشرينيّاتها، ولم يسألها أي طبيب قط عما حدث، اكتفى الجراح بأن قال إنه سيبذل قصارى جهده، ثم أكد إخصائي طب الأسرة أنها لن تحظى بأطفال أبدًا.

اعتادت ألانا على تناول حبوب منع الحمل منذ سن الثامنة، حين أعطاها آرت علبة دواء وأخبرها فحسب أن «تناولي هذا»، فتناولت العلبة بأكملها دفعة واحدة، لكنها تعلمت فيما بعد تناول حبة واحدة كل يوم، حين ذهبت إلى طبيب النساء في «مدينة برنس روبرت» Prince Rupert في سن الثالثة عشرة بسبب النزيف الداخلي سألها منذ متى وهي تتناول حبوب منع الحمل، لكنه لم يسألها قط لم قد تأخذ فتاة في سن الثامنة حبوب منع الحمل أصلًا. بقدر ما كان انتهاك ألانا الجنسي صادمًا فإن عدم تدخل أحد لا يقل عنه صدمًا، إذ لم يتدخل أحد من المدرسة أو الدوائر الصحية رغم الأمارات العديدة المشيرة إلى تعرضها للانتهاك الجسدي والنفسي.

لم تكن ألانا على دراية بكيفية سير العالم الخارجي إلا حين ذهبت للعيش في منزل الجدة، إذ لم يكن لديهم تلفزيون في منزلهم الريفي، ولم يكونوا على علاقة بالجيران، بل لم يكن مسموحًا لها بالتحدث مع زملائها في المدرسة. فكانت نسختها عن العالم الخارجي مستمدة بالكامل من آرت وأصدقائه المخابيل في «نادي محبي تد بندي»، كانت تعلم يقينًا أن طريقهم غير مفروش بالورود، ولكنها ظنت أن هكذا هي الحياة اليومية للجميع. لكن العيش في منزل جدتها أتاح لها الاطلاع على واقع مخالف لكل ما تعرف، وإن كان واقعًا شنيعًا ومليئًا بالتطرف الديني. لم يكن هناك إلا الكنيسة، ووجبات إفطار الكنيسة، حيث يجلس الناس يتحدثون عن «التعامل بقبضة من حديد مع مستنقع التفسخ الأخلاقي المتفشي في الجموع».

لم تكن ألانا تعرف معنى «العلاقة الجنسية» في بادئ انتقالها إلى منزل الجدة، لم يخطر ببالها قط أن ما كان يحدث بينها وآرت يعتبر علاقة جنسية، ولكن خلال إحدى مواعظ القداس في اجتماع ديني في «قاعة ملكوت شهود

يهوه» تسرب إليها حس بأن ما حدث شيء شنيع، أخذ الشيوخ يتشدقون بشرور الجنسانية. ففهمت ألانا أن آرت كان قد انتهك الحرمات، وجرها معه في أفعاله المقززة، لك أن تتخيل دهشة هذه الفتاة الصغيرة وهي تدرك للمرة الأولى أن ما أجبرها آرت على فعله مقرف لدرجة أنه قد يحرمها للأبد من دخول ملكوت الرب.

قالت ألانا: «لم أكن أعرف من هو الله، ولكن بدا أنه سيكون أفضل بكثير من آرت والجدة، ولكن -بيني وبينك- مَن ليس أفضل منهما؟ أحببت فكرة أن الرب يقبل كل واحد منا في ملكوته، لذلك انكسر قلبي حين أدركت أنه لن يقبلني أبدًا بعدما فعلت ما فعلت».

خلال هذه الفترة بدأت ترى للمرة الأولى هلاوس عن تشويه الجدة لأعضائها الجنسية، أصرت الجدة أن ألانا ملزمة بارتداء فساتين قطنية طويلة كل يوم. وبدأت ألانا تصدقَ أن أعضاءها الجنسية أضخم بكثير مما يفترض، وأن الجميع يمكنهم رؤية ذلك، كما كانت تتخيل أن فرجها الوردي الضخم يتدلى تحتها، وأنه ضخم لدرجة أنه يكاد يلمس الأرض من أسفل الفستان الطويل، وأنه يتأرجح يمنة ويسرة كلما تحركت، بل بدأت تصاب بنوبات الجامود (حالة نفسية عصبية تؤثر على السلوك والوظيفة الحركية، وتؤدي إلى انعدام الاستجابة لدى الشخص مع أنه يبدو واعيًا، هذه الحالة شبيهة جدًّا بالسبات الشتوي لدى الحيوانات).

كانت تلازم مقعدها طوال اليوم خوفًا من أنها لو تحركت سيبدو فرجها الضخم المتدلي لأنظار الجميع، ثم امتنعت عن الذهاب إلى المدرسة، ولم يجبرها أحد، طلبتُ من ألانا -آملة العثور على شيء واحد إيجابي على الأقل في هذه التجربة الملآنة بالترويع والتشويه والإذلال- أن تجاهد لتتذكر واقعة جيدة واحدة حدثت لها في أثناء إقامتها بمنزل الجدة، فجاهدت ألانا كثيرًا لتتذكر، ثم قالت: «لم يكن جدي يتحرك إلا للذهاب إلى الكنسية، ولكنه ذات مرة أعطاني (في صمت تام ودون حتى أن ينظر إليَّ) مجلة الرسوم المتحركة التي كانت تأتي برفقة جريدة يوم الأحد» واغرورقت عيناها بالدموع وهي تستطرد: «ما زال بإمكاني رؤية صور جيجس وماجي على الغلاف، وشم رائحة الورق، بل أستطيع -إلى يومنا هذا- أن أرسم غيبًا كل المشاهد بكل فقاعات الحوار الذي دار بين الشخصيات»، حين أخبرتها أنني أتذكر هذه القصص المصورة وأن اسمها كان «فلنتحدث عن الوالد» علقت بطرافة على

المفارقة الساخرة في العنوان، لأن هذا ما كنا نتحدث عنه معًا منذ سنوات، متى ما تحدثنا عن محفزات القيء.

أجبرتها الجدة على النوم في الجراج، ولكنها أعطتها كيس نوم لاستخدامه في الشتاء. حتى في هذه السن الصغيرة كانت ألانا تفضل أن تترك وشأنها، فكانت تجلس في الجراج طيلة الوقت وحيدة تعبث بالأدوات، وتنظف جريتشن المنزل، كما كانت في الليل تشعر ببرد شديد لدرجة أنها تستخدم أقمشة تغطية الشواية ودواسات السيارات كبطانيات.

لم يزرهم آرت قط، ولكنه في نهاية المطاف طُرد من كيركلاند حيث اصطحبته الشرطة الكندية إلى حدود المدينة ونهوه عن العودة، فرجع ليأخذ بنتيه، ثم حين عاد لاغتصابها كان يشعر بالاشمئزاز مما فعلته أمه في فرجها، ولكنه قال إنه سيتحمل وسيحاول الاستفادة من هذا الفرج المهترئ أقصى استفادة ممكنة، كانت ألانا تشعر أن حديدة نارية تخترقها، وتشعر بألم بالغ حتى توشك على الإغماء.

آنذاك قررت ألانا الانتحار، فجرَّت نفسها بصعوبة إلى شاطئ «نهر سكينا» Skeena River، واستلقت على الصخور آملة في الموت في العراء من الجوع والبرد، امتلأ كيانها بفكرة واحدة لم تتوقف عن الدوران، ليس بمقدورها الاستمرار أكثر من هذا، لقد نفدت منها كل طاقة لدرجة أنها لم تعد قادرة حتى على رفع ذراعيها، ليس بمقدورها أن تتحمل يومًا آخر في هذا العذاب المستمر، ونظرًا لتقدمها في العمر -آنذاك كانت في سن الثامنة- فلا تنحصر مشاعرها في التشوش، والألم، والجزع، والوحدة، تلك المشاعر التي عايشتها طيلة حياتها، فقد زاد على ذلك الشعور بالذنب والخزي، نامت ليلتها في العراء على الصخور حتى الصباح، وحينما أفاقت اكتشفت أن قدميها لا تتحركان، فشعرت بالراحة، إذ بدأت درجة حرارة جسمها في الانخفاض وسوف تموت أخيرًا.

اعتقدت أن علينا التوقف للتأمل في هذا المشهد، فقد كانت هذه أهم لحظة في حياة ألانا، اللحظة التي تختار فيها بين الحياة والموت، يصل كثير من الناس إلى مفترق الطرق هذا، حيث يقرر المرء -مجازيًّا إن لم يكن حرفيًّا- أن يكون أو لا يكون، فلا عجب أن يكون مشهد مناجاة هَمِلِت لنفسه أشهر الخطابات في تاريخ الأدب الغربي:

«أكون أو لا أكون، ذلك هو السؤال
أمن الأنبل للنفس أن يصبر المرء على
مقاليع الدهر اللئيم وسهامه
أم يشهر السلاح على بحر من الهموم
ويصدها
فينهيها؟».

حين يتفكر المرء في الانتحار كخيار مطروح يجد نفسه أمام قرار أن يكون أو لا يكون، ولكن أليس هذا هو الاختيار الذي نجده جميعًا أمامنا عاجلًا أم آجلًا؟ يأتي علينا الوقت الذي نضطر فيه إلى اختيار أحد الأمرين: إما أن نظل عبيدًا تحت رحمة روتيننا اليومي الآمن وإما أن نتحرر ونعيد بناء الحياة التي كنا نتخيلها، ينطوي التغيير على مخاطر، إذ ينطوي على الألم والقلق، ويتطلب جهدًا شاقًا، ولكنه السبيل الوحيد لاختيار «أن نكون». يتحتم علينا اختيار الشخصية التي نصير إليها في روايتنا الشخصية. هل سنكون أبطال قصصنا؟ أم جبناءها المستضعفين؟ آنذاك اضطرت ألانا -شأنها شأن هملت- إلى اختيار هل ستحارب ضد مقاليع الدهر اللئيم أم لا.

يتحدث فيكتور فرانكل في كتابه «الإنسان والبحث عن المعنى» Man's Search for Meaning عن معضلة مشابهة واجهها عندما كان في معسكرات الاعتقال النازية، ويوضح أن المرضى يمرون بثلاث مراحل نفسية ناتجة عن هذا النوع الوخيم من المحن: الصدمة، واللامبالاة، وتبدد الشخصية والاغتراب عن الواقع، ووفقًا للكتاب فإن المرضى الوحيدين القادرين على النجاة من هذا هم من لديهم معنى لحياتهم متمثل في وجود غرض أسمى، ودائمًا ما توجد إمكانية الاختيار الحُر مهما صعبت الظروف، كان الغرض الأسمى لفيكتور فرانكل هو الحب، حاول دائمًا أن يكون خيرًا مع كل الناس، وأن يحتفظ بأمله في لقاء أسرته مجددًا، ولم يستطِع النازيون أن يقتلعوا من قلبه لا الحب ولا الأمل.

كانت ألانا تغرق في «بحر من الهموم» لا غور له، كما كانت «مقاليع الدهر اللئيم وسهامه» على أشد ما قد تكون، ولكنها امتلكت حرية الاختيار، فكما يقول نيتشه: «من يعرف السبب الذي يعيش من أجله يستطيع تحمل العيش بأي طريقة».

لم تكن ألانا الصغيرة، التي قاربت على التجمد فوق الصخور، قد سمعت بعد عن فيكتور فرانكل أو نيتشه، ولكن أزمتها شابهت أوصافهم أشد الشبه، كانت تفكر فيما ستواجهه جريتشن بعد موتها، جريتشن الأكثر إذعانًا من ألانا، التي بدأت تتضرر من مخدرات آرت إلى حد واضح، جريتشن التي تعتبر ألانا أمًّا لها، وإن كانت لا تعلم أن ألانا هي الشيء الوحيد الذي يمنع آرت من انتهاكها، فهو منذ أمدٍ قد اختار ألانا -الأخت الكبرى- لكي تكون رفيقة فراشه الآثم ليلًا وعدوته اللدودة نهارًا، ولكن حين تختفي ألانا ستصير جريتشن ضحيته الجديدة. قررت ألانا عدم اختيار الموت، ارتأت أن الانتحار فعل أناني، وقررت اختيار العيش من أجل أختها الصغرى، حاولت النهوض ولكن قدميها لم تسعفاها، انتظرت حتى انتصفت الظهيرة وبدأت بالزحف مستغلة أن الشمس تدفأ جسمها بعض الشيء، ظلت تزحف بيديها فقط زمنًا طويلًا قبل أن تستجيب قدماها، عندما وصلت إلى البيت لم يسألها أحد أين كانت. استشهدت ألانا بأسطورة بروميثيوس وهي تحكي لي عن قرار إحجامها عن الانتحار، أراد زيوس أن يوقع عذابًا أبديًّا على بروميثيوس، فأوثقه بصخرة فوق جبل وجعل الصقر يأكل من كبده، ولأن بروميثيوس خالد فقد كان كبده يتجدد كل يوم، فيتجدد عقابه، قالت ألانا إنها تعرف بدقة شعور بروميثيوس عندما اتخذت قرارها على ضفاف «نهر سكينا» Skeena River، كان المجاز واضحًا، إن عاشت فسوف يُؤكل كبدها يوميًّا، ويُفترس جسدها مرة تلو الأخرى، تقع معظم الأعمال البطولية في فترة قصيرة نسبيًّا، أما ألانا فقد اختارت بطولة تتعذب فيها يوميًّا، مثل بروميثيوس تمامًا، وهذا أشجع مما يمكننا أن نتخيل.

من أخص صفات غريزة الأمومة نكران الذات، وهذا ما ساعد ألانا يوم قررت النهوض عند الشاطئ، ولقد قالت لي ألانا: «آنذاك كنت في أسوأ حالاتي، وما زلت أشعر بالخسة لمجرد تفكيري في هجر أختي، كما إنني كنت حزينة جدًّا على موت تورنج»، كان تورنج قطها الحبيب، أحد الأشياء القليلة التي

ظلت بجانبها في مختلف الأحيان، كلاهما قد سُمِّيا تيمنًا بآلان تورنج، المثل الأعلى لوالدها الذي يُعتبر الوالد الحقيقي للحاسوب.

جاهدت لأقنع ألانا أنه ليس فيما حدث ما يخزيها، بل على العكس تمامًا: «ما فعلتِه كان بطوليًّا! فبعدما عشت جل طفولتك أسيرة حرب استطعت الاحتفاظ بقدرتك على الاستيقاظ كل صباح والكفاح للحفاظ على سلامتك العقلية، لقد فعلت ذلك لإنقاذ أختك مما تعانين، لديك شجاعة لم أرَ مثلها طول حياتي»، كنت أعني كل كلمة، يتحتم إيجاد ميدالية باسمها للأطفال الذين نجوا من انتهاكات الطفولة، كنت أتحدث من أعماق فؤادي حتى إنني لم ألحظ كيف ارتفع صوتي لهذه الدرجة الانفعالية.

عبَّرت ألانا لي -للمرة الثانية فقط طوال السنة التي قضيناها معًا- عن مشاعرها الحقيقية، امتلأت عيناها بالدموع وهي تسألني هل أعني فعلًا ما أقول.

فقلت: «بالطبع! بل إنني أريد كتابة كتاب يحكي قصص الشجعان أمثالك، فالشجاعة عندي ليست حدثًا مفردًا، إنها مواجهة الظروف المستحيلة مع الحفاظ على القدرة على الاستيقاظ مجددًا كل صباح لتكرار المرور بنفس البلاء»، لقد خرجت مني الأفكار عفويًّا دون إعداد، ورغم ذلك فهذا أسلوب علاجي -سبق أن استخدمته أيضًا مع لورا- اسمه إعادة التأطير، يجب أن تتغير نظرة ألانا لنفسها من «شخص جبان أراد الموت» إلى «شخص شجاع استطاع الحفاظ على سلامته العقلية في خضم كل ما حدث»، وأعتقد أن إعادة التأطير ساعدت ألانا أكثر من أي شيء استخدمته معها، إذ كنت على دراية بماضيها، وأستطيع إعادة تأطير تجاربها وأنماطها لتراها من منظور خارجي.

كان عامنا العلاجي الأول على وشك الانقضاء، وأدركت أن ألانا هي أكثر المرضى الذين قابلتهم في حياتي تعرضًا للانتهاك، كنت هناك كشاهد عيان على فظائع طفولتها الوحشية وإعادة تأطير خبراتها الوجدانية لتدرك مدى قوتها النفسية.

يبدأ تكوُّن الأنا، وهو تقدير المرء لذاته أو شعوره بأهميتها، في باكورة الطفولة، وعادة بمساعدة من الوالدين، لكن أنا ألانا، الذي يفترض أن يكون بمنزلة وسيط بين واقعها وغرائزها، كان هشًّا للغاية، إذ لم يُسمح لها قط

بتكوين ذات مستقلة، وكلما حاولت تشكيل منظور للعالم تمزَّق تمزيقًا على يد أبيها أو جدتها، كنت قلقة لأنني أعلم أن الذين لديهم ضعف في الأنا يفقدون -غالبًا- كل سيطرة لهم على الواقع، لذا توجب عليَّ التمهل مع ألانا، يجب أولًا مساعدتها على تقوية حسها بذاتها الحالي، ثم البناء فوقه.

لاحظت أن ألانا تنتقص من ذكائها، فكلما نجحت في أداء مهمة في عملها يكون تعقيبها الوحيد أنها نجحت فقط لأن كلًّا من الشركة أغبياء عاجزون عن التفكير، لم يبدُ منطقيًّا لي أن ألانا لا تفعل شيئًا سوى التذاكي على الأغبياء، فلقد كانت لديها ذاكرة استثنائية، وتؤلف أشعارًا جيدة، وتقرأ في كتب الفيزياء أو الرياضيات كل مساء، كما كانت تلعب الكاراتيه والملاكمة، وتلعب ألعاب الفيديو العنيفة باحتراف شديد لدرجة التحاقها بالمسابقات المحلية لألعاب الفيديو، بل كانت تراسل شركات الألعاب باقتراحات لتطوير ألعابهم، ورغم ذلك فحين عرضت عليها إحدى هذه الشركات وظيفة مبرمجة ومطورة ألعاب علقت ألانا قائلة: «ليس هذا لأنني ذكية، لا يلعب هذه الألعاب إلا الحمقى ذوو العقول الفارغة، كل ما في الأمر أن الشركة تفاجأت بوجود شخص لديه جذع مخ بين جمهور ألعابها».

نبع رفض ألانا لفكرة ذكائها من عدة أشياء، فهي أولًا لم ترد أي سمة ورثتها من آرت، كانت تتقزز من فكرة أنها تشبهه في الشكل، ألا يكفي أنها ورثت بياض بشرته، وحمرة شعره، والنمش؟ كان للابنة -مثل والدها- مآثر ومفاخر في البرمجة والعمليات الذهنية المعقدة (الجمباز العقلي كما يسمونه)، هل عليها الآن الإقرار بأنها ورثت أيضًا ذكائه الجبار؟ كانت تعلم أن آرت مريض لعين ولم ترد أن ترث منه أي شيء، لذلك حاولت إنكار حسن مظهرها بقص شعرها بمقص الأظافر، وتجاهل ذكائها الفائق بإنكار أي أثر له.

وثانيًا: كانت قد تشربت نظرة آرت لها بأنها فتاة غبية، فإنك لو أُخبرت بشيء آلاف المرات فسوف تصدقه في النهاية، لذلك صارت نظرة ألانا لنفسها متلخصة في أنها ماهرة في خداع الناس (وهو اعتراف أعلم الآن أنني لم أنتبه له بما فيه الكفاية)، لم تكن ترى نفسها ذكية، بل ماكرة. وهكذا، دخلت ألانا مكتبي ذات مرة فوجدتْ أمامها نسخة من «مقياس وكسلر لذكاء البالغين» Wechsler Adult Intelligence scale، ولم أخبرها قبلًا فتأخذ حذرها،

لعلمي بأنها ستمتعض، ولكني كنت على يقين بأن نتيجة هذا الاختبار كفيلة بتبديد ضلالاتها الراسخة المتعلقة بغبائها.

أحرزت ألانا أعلى نسبة ذكاء رأيتها في حياتي، كانت أذكى من 99.2 من الناس، فأثار ذلك سخطها لأنها النسبة ذاتها التي كانت تنسبها جدتها لآرت، فأوضحتُ لها أن آرت كان ذكيًا، وكان ساديًا، وكان منحرفًا، ثلاثة تصنيفات منفصلة لا علاقة لأحدهما بالآخر، ثم قلت: «لقد دخل تد بندي كلية الحقوق وكان سفاحًا، لا يعني هذا أن المحامين قتلة. لديك معدل ذكاء يتمناه ملايين من الناس»، ثم أخبرت ألانا أنه ينبغي لها الامتنان لحصولها على شيء جيد منه، فقد كانت ذكية وجميلة، ورغم أن الذكاء والجمال لا يضمنان بالضرورة حياة سعيدة فبمقدورهما على الأقل تسهيل الأمور بعض الشيء.

بدأت ألانا بالفعل في تقدير ذكائها كما قطعت شوطًا كبيرًا في مشوار تقديرها للذات خلال الجلسات، إذ بعد شهر واحد من اختبار معدل الذكاء قامت -بناء على اقتراحي- بطلب زيادة راتبها، إن الذين لم يحظوا قط بحقوق شخصية دائمًا ما يجدون صعوبة في توكيد ذاتهم وتسبب لهم الاحتمالات قلقًا شديدًا، لذا تدربنا كثيرًا على طلبها للزيادة لتفادي القلق الناجم عن ارتقاب الأمر.

أخبرتني ألانا لاحقًا عما حدث، ذهبت إلى مدير شركة المحاماة الضخمة ذات الأربعمائة موظف، وطلبت منه زيادة المرتب، فهزأ بها، وأخبرها أنها ليست كاتبة قانونية، فليس لديها شهادات كافية، عليها أن تقنع بما تمنحه لها الشركات من «امتيازات غير مسبوقة»، كادت ألانا أن تتفتت في مكانها، ولكن في هذه اللحظة حدث شيء مدهش، قالت لي: «جِلد (الاسم الحركي الذي كانت تناديني به)، لقد كنتُ كالعنقاء التي قامت من بين رمادها، تقمصت شخصيتك، وكأن عقلك أنت هو الذي يصب الكلام في أذني ثم ينفجر من فمي، أخبرته أن يبحث عن شخص سواي يستطيع قراءة كل براءات الاختراع المتشابهة والمقارنة بينها ليجد اختلافًا واحدًا بين هذا الجهاز الهندسي وذاك، ثم يكتب تقريرًا من ثلاثين صفحة عن هذه الفروق في غضون أربع وعشرين ساعة، عندما يتعلق الأمر بالفروق بين المتشابهات فأنا ملكة المجال، وكان يجب أن يعرف هذا».

كان موظفو قسم براءات الاختراع معتمدين على قدرات ألانا، لكنهم كانوا ينسبون لأنفسهم الفضل أحيانًا كثيرة، في غضون عام من هذه الواقعة تضاعف راتب ألانا مرتين، وصارت تتلقى حوافز ضخمة كل شهر.

رغم أن ألانا كانت تمضي قدمًا وتقطع أشواطًا طويلة في حياتها -وهذا هو الهدف الأساسي من العلاج النفسي- فقد كانت تشعر طوال هذه الفترة بضغط نفسي وقلق شديدين، كنت أحاول دفعها قليلًا إلى دراسة الحقوق أو الالتحاق بمسار تعليمي لنيل شهادة في الرياضيات، لكنها دائمًا ما كانت تعترض وتخبرني بأنها لن تستطيع التركيز، وحين سألتها عن السبب فتحت لي قلبها أخيرًا وأخبرتني -بعد انقضاء أكثر من عام على بداية علاجها النفسي- بما كان يجري في رأسها.

3

التسجيلات

كان آرت يتفنن في إيذاء ألانا، والإرث الحقيقي الذي تركه لها هو صدى صوته المتردد الذي في رأسها كأنه تسجيلات تتكرر بلا هوادة، وكلما زاد الضغط عليها حين خروجها من بقعة الراحة ذات الإنجاز القليل ازداد صوت التسجيلات علوًّا وإزعاجًا.

طلبت من ألانا أن تخبرني بفحوى هذه التسجيلات، فقالت: «بالأمس -مثلًا- كنت أقرأ تقريرًا عن مقياس حرارة حديث، كان عليَّ إثبات أنه مختلف عن أي مقياس حرارة آخر وأنه بذلك يستحق براءة اختراع خاصة به، فكان الشريط الدائر في رأسي هو صوت آرت الذي يخبرني أنني لن أقدر على فعل هذا، وأنني لا أعلم شيئًا عن الهندسة، ثم تحول الأمر إلى عناد صبياني وأخبرني أنني عاهرة بمهبل ممزق، استمر صوت آرت في رأسي لأكثر من ساعة، حيث تعين عليَّ تجاهل الصوت العالي ومحاولة التركيز في أثناء تردد صدى صياحه داخل رأسي».

بدأت أدرك أن ذكاء ألانا الاستثنائي هو وحده الذي أكسبها براعة الأداء والعمل بشكل شبه طبيعي رغم التشتت المستمر.

كلما ازداد ضغط الموقف ازداد سوء التسجيلات، أخبرتني ألانا (والقلق الشديد باديًا عليها): «لهذا أتجنب المسؤوليات الكبرى، إذ حين أنجز أي شيء

يعلو صوت آرت الذي يتهمني أنني مزيفة ومصطنعة، يعلو ويعلو فيتسارع خفقان قلبي إلى درجة لا تطاق»، فسألتها هل كان آرت معتادًا على التعنيف بصوت عالٍ في المنزل فقالت: «نادرًا ما كان يضطر إلى ذلك، كان لديه طرق أخرى لفرض سيطرته، طرق يستمتع بها، فلقد كان يحب ألعاب الذكاء»، فأخبرتها أن ألعاب الذكاء مع طفل خائف من والده ومعتمد عليه ليست من العدل في شيء، بل إنها في واقع الأمر دليل على الجبن.

حكت لي ألانا موقفًا يوضح بشدة خبث آرت: «عندما كنت صغيرة كنت أحب اللهو مع الأرقام، كنت ألعب بنرد الطاولة، أرتب الأرقام بشكل تصاعدي، ثم ارتعبت عندما أخبرتني المعلمة أنني أجمع الأرقام بطريقة خاطئة، ظننتها تخدعني»، تملكتني الحيرة ثم فهمت لاحقًا أن آرت كان يتعمد تعليمها، الجمع بطريقة خاطئة، قالت لي: «أخبرني أن 2+2=4 ولكن 2+3=6، ويدعونني بالغبية إذا رأيت أن ذلك يساوي خمسة»، كانت ألانا تصاب بالغثيان وآلام الرأس حين تحاول تسوية هذا التشوش، وقالت لي: «وفي النهاية فقدت القدرة على القيام بأي عملية جمع، فكنت أسلم كراسة الفروض المنزلية فارغة، إذ كان هذا أهون من تحمل الاستهزاء بأخطائي»، ورغم ذلك لم يفكر أحد من المدرسين بالتواصل مع الأسرة.

كان آرت يعرف أن ألانا دودة كتب، فكان يمزق لها صفحات كل كتاب تستعيره من المكتبة، ولذلك اضطر أمين المكتبة -الذي كان شخصًا لطيفًا للغاية- إلى أن يسحب منها عضويتها.

كان ألانا تحكي مطأطأة الرأس، يبدو عليها الحزن وخيبة الأمل، فحاولتُ الاستفسار عن ذلك فأشارت إلى زهرة بنت القنصل التي تبشر بقدوم موسم الكريسماس، اعتاد آرت أن يفعل أشياء ليبدو للآخرين طبيعيًّا، كان يزين شجرة الكريسماس ولا يضع تحتها هدايا، وذات مرة سألني عما أريده هذا العام، فأخبرته أنني أود بشدة الحصول على مكتب، فاشترى لي عروسة، ثم اشتري لجريتشن -التي كانت قد طلبت منه عروسة- مكتبًا، كنت في التاسعة من عمري، أكبر من أن ألعب بالعرائس، كما أنني لم يسبق أن لعبت بها حتى في صغري، ثم كان يعاقبني بقسوة شديدة حين أجلس على مكتب أختي. تعلمت الدرس جيدًا: «ينبغي ألا أخبره بتاتًا عما أتمناه، فلو عرف ما أريد فسيحرمني منه أو على الأقل يهزأ بي، لطالما حاول آرت التفريق بيني وبين جريتشن وتقليب أحدنا على الآخر، ولكنه لم يفلح قط في هذا».

فقلت لألانا: «لقد انتصرت في تلك المعركة».

حكت لي ألانا بعد ذلك قصة مرعبة تتعلق بقطها الحبيب تورنج: «ذات ليلة كنت متعبة جدًّا لدرجة أنني لم أملك الطاقة الكافية لتزييف استمتاعي باغتصاب آرت، أخبرني بلا مبالاة ألا أقلق، إذ لا أحد يحب كل الأشياء طيلة الوقت، لقد ذهلت للغاية من تفهمه، ثم في الليلة ذاتها اصطحبني وجريتشن وتورنج في رحلة بالسيارة، مخبرًا إيانا أنه راغب في رؤية القمر من الناحية الأخرى للجبل، كنا أنا وجريتشن وتورنج منكمشتين في صمت داخل السيارة في منتصف الليل، وإذ بآرت يخرج يده التي تحمل تورنج من نافذة السيارة واستمر في القيادة، ثم سحقه بأول لافتة مرورية قابلتنا خلال مغادرة المدينة، فسقط ميتًا فورًا، وعلمت أنني سأحل محله لو أظهرت مرة أخرى أنني متضايقة أو موجوعة، التزمنا أنا وجريتشن التحديق إلى الأمام دون بنت شفة نجاهد كبح دموعنا».

- إذًا تحتم عليك التظاهر بأنك لا تحبين ما أنت مهتمة به حقًّا، وقد عرفت ماذا يحدث عند عدم تزييف الاستجابة الجنسية.
- بالضبط، لم يكن آرت مضطرًا إلى التعنيف أو الصراخ.

ذكرتني ألعاب آرت الذهنية بفيلم مصباح الغاز Gaslight الذي صدر عام 1944 لإنجيرد برجمان، الذي يحكي عن زوج يحاول إقناع زوجته بأنها مجنونة، عندما أحضرت لألانا الفيلم لتشاهده علقت ألانا بنبرة جافة أن الزوج مجرد هاوي مبتدأ، وأنهم كان عليهم استشارة آرت في السيناريو، ثم أضافت أنها لم تتمكن قط من التعافي كالزوجة في الفيلم، ثم أضافت: «لقد كانت ألعابه الذهنية السبب الرئيس لعدم قدرتي على إكمال الجامعة».

***

قد يرى المعالج النفسي العملية العلاجية أشبه بحل الألغاز، وحين أخبرتني ألانا بتركها المباغت للجامعة لم أنتبه لأمارة مهمة، رغم أنني آنذاك كنت في منتصف مسيرتي المهنية فكان يتوجب عليَّ الانتباه إلى أن المعالج النفسي لا ينبغي له الوثوق بكل ما يحكيه المريض عن نفسه، فكما أن القارئ في الأعمال الأدبية قد يقابل راويًا غير موثوق، فقد يواجه المعالج النفسي أيضًا أحدهم في عيادته.

أخبرتني ألانا أنها التحقت بالجامعة عبر منحة دراسية كاملة من «نادي الروتاري» Rotary Club بسبب مقال كتبته عنوانه «كيف نغير العالم؟»، وهو الموضوع الذي اختاره النادي للمرشحين، وقالت لي: «وكأنني أعرف كيف أغير العالم! كنت أريد أن أكتب تخلصوا من آرت وأصدقائه وسرعان ما سينصلح حال العالم، ربما كان السبب الوحيد لفوزي بهذه المنحة أنني الوحيدة في برنس روبرت التي تقدمت لها»، كما أخبرتني أنها فازت بالمنحة لأن كل من في برنس روبرت أغبياء، فأشرت إلى كونها لا تحتاج إلى «تسجيلات» آرت، فلقد صنعت منها نسخة بصوتها هي وزرعتها في رأسها.

تخصصت ألانا في الأدب -لتجنب أي مجال برع فيه آرت- وصبت تركيزها على الشعر، ذات مرة طلب منهم أحد الأساتذة الجامعيين -الذي كان شاعرًا محترمًا- تسليم قصائدهم ليقيمها في المحاضرة التالية، ثم صرح في المحاضرة التالية أنه انبهر بعدة قصائد واستدعى ألانا لتقرأ قصائدها العبقرية أمام الآخرين، فأشعرها هذا بإحراج بالغ، وقالت لي: «لقد ظننتها حيلة ليسخر مني على طريقة آرت، ففررت من قاعة المحاضرات ولم أعد للجامعة بعدها قط»، ثم أخبرتني أنها عقب ذلك أصيبت بـما تظن أنه «نوبة طويلة من الجامود»، وأنها لا تتذكر أي شيء وقع في فترة لا تعلم كم طالت بعد هذه الحادثة.

بدلًا من سؤالي ألانا عن الفترة الضائعة من ذاكرتها (الذي أدرك الآن أنه الشيء الذي كان يفترض أن أفعله) ركزت معها على مشاعرها تجاه ثناء الأستاذ الجامعي، ثم قلت: «بالتأمل فيما حدث، أترين الآن أنه لم يكن ينوي الانتقاص منك كآرت؟»، بدا عليها الارتباك فأعدت صياغة سؤالي: «هل تدركين أنه قد أحب قصائدك حقًا؟».

قالت ألانا بعد صمت طويل: «نعم، ولا، جزء مني يعرف أنني تصرفت بجنون، وآخر يخشى بشدة من الانخداع مجددًا، لكنني آنذاك كنت على قناعة تامة بأنه نسخة أخرى من آرت، وخشيت من فقدان عقلي».

توجب عليَّ تذكير نفسي بأن ألانا لم تعرف طوال حياتها شيئًا غير آرت، إذ لم يكن لديها أصدقاء ولا صديقات، ولم يكن في حياتها شخص راشد آخر يوجه خطاها في الحياة، كان هذا الأستاذ الجامعي هو أول رجل يعاملها بلطف، لذا قلت لها: «إذًا، آنذاك كان لديك قناعة تامة بأنه يهزأ بك، لكنك الآن

تعلمين بجانبك العقلاني أن ذلك لم يكن حقيقيًّا، ورغم ذلك لا يزال جانبك الوجداني غير متيقن من ذلك؟».

- أجل، رغم أن الأستاذ الجامعي ظل يراسلني قرابة عام يرجو مني العودة للجامعة. لقد كانت أساليب آرت الذكية والملتوية أشبه بشرنقة رقيقة من الجنون ملفوفة حول عيني، كان بمقدوري الرؤية عبر هذا النسيج الهش، ولكنني كنت عاجزة تمامًا عن التحرر من شبكته، كنت أشعر أنه مستنقع يغمرني من كل اتجاه.

سألتُ ألانا (متحيرة) عن أمثلة لذلك فحكت لي هذه القصة: «كنا أحيانًا نلعب الشطرنج، وحين يراني متقدمة عليه يخترع قوانين جديدة، يقول مثلًا إن هناك قاعدة لا أعرفها تقول إنني لو حركت قطعة معينة إلى مكان معين فلا بدَّ أن أستغني عن وزيري بعدها لمدة ثلاث أدوار متتالية، ولم أكتشف أنه يكذب إلا حينما بدأت في لعب الشطرنج بعد رحيلي من المنزل، واندهشت حين اكتشفت عدم وجود ضريبة لذلك، ولكنني آنذاك حين أفوز أشعر أنني لا أستحق، إنني فزت غشًّا بقواعد لم أعتد عليها، فلقد اعتدت على القواعد التي لا تقف بصفي». أخذت ألانا تحكي لي عن القواعد المعقدة التي كان يضعها آرت خصيصًا لكي ينتهي بها الحال دائمًا بالخسارة أمامه، وكان يبدل القواعد كلما تعودت عليها وكأنه يتفانى في سحب بساط الواقع من تحت قدميها كلما حاولت تكوين ولو صورة مشوشة منه، استمر هذا يومًا تلو الآخر، أسبوعًا تلو الآخر، سنة تلو الأخرى.

تحدثنا عن الوضع الفريد للآباء في حياة أبنائهم، ذلك الوضع الذي يمكنهم من التأثير على أبنائهم إما سلبًا وإما إيجابًا لمئات المرات في اليوم الواحد، يخبرنا آباؤنا من نكون، وإلى أين ننتمي في التسلسل الهرمي للعالم، وهم بذلك يبرمجوننا برمجة لا واعية، ولكن برمجة ألانا كانت من معنى غسيل مخ **بكل ما تعنيه الكلمة.**

لكن كلما ابتعدت ألانا عن الفتاة الغبية المثيرة للشفقة التي أجبرها آرت أن تكونها علا صوت تسجيلاته، فأوضحت لها ذلك بقولي: «لهذا تصرخ التسجيلات فيك كلما حاولت فعل شيء جديد، إذ كلما حاولت المضي قدمًا في هذا العالم، ابتعدت عن صوت آرت الذي يحاول برمجتك على أن تكوني فاشلة وغبية، زاد صراخ تسجيلاته».

فعقبت ألانا قائلة: «ليست الفاشلة فقط، بل الفاشلة، الغبية، الكاذبة، العاهرة التي تستجديه من أجل النشوة الجنسية، متجاهلًا تمامًا أنه كان يجبرني على فعل هذا. إن حظيت بوظيفة آمر فيها الناس بما يفعلون فيحترمون هذه الأوامر فسوف تدمرني التسجيلات تدميرًا، ستفقدني القدرة على أداء أيٍّ من وظائفي»، فذكرتها أنها تبلي بلاء رائعًا لدى إحدى أفضل شركات المحاماة في تورنتو كلها، وأنهم يأتون إليها لتكتب لهم مرافعاتهم في المحاكم، فشرحت لي أنها تظل معظم الوقت وحيدة في مكتبها ويعرف الجميع أن من الأفضل ألا يزعجوها، فيرسلون إليها المهام، وتكتب لهم الردود، وفي أحيان نادرة يأتون لها سائلين بضعة أسئلة فيحصلون على إجابات مختصرة. هذا ودائمًا ما ترفض حين يطلبون منها الحضور في المحكمة، فهي لا تريد أن تكون مع أحد وبالأخص لا تريد أن تكون مسؤولة عنه. كانت تشعر أنها يمكن أن تفقد صوابها في أي وقت وبأي كيفية، وتريد الحرص على وجودها بمكان تستطيع الهرب منه بسرعة لو حدث ذلك.

سألتها عن تفاصيل الأشياء التي تشعر أنها تخرج عن سيطرتها غير تسجيلات آرت، لكنها لم تستطِع أن تشرح ما برأسها، وأخبرتني أنها تشعر أحيانًا بأن عقلها صار صفحة بيضاء تمامًا، وتمر فترات طويلة لا تتذكر بها أي أحداث، ووصفت الأمر باعتباره نوبات متكررة للجامود لا تريد أن يرها أحد، لم تكن تستطيع المجازفة بأن يحدث هذا داخل قاعة المحكمة، عليها أن تعمل في وظيفة هادئة في غرفة مغلقة تستطيع تركها لو فقدت السيطرة في أي وقت.

كانت ألانا للمرة الثانية خلال بضعة أسابيع تتحدث عن نوباتها الغامضة التي تصنفها بأنها «جامود»، كان ينبغي لي الاستكشاف بعمق، ولكنني كنت منشغلة لأقصى حد بالتحدث عن تأثير ألعاب آرت الذهنية عليها.

***

بعدما غادرت ألانا تلك الجلسة كتبت في ملاحظاتي أن هدوءها وتماسكها هو تمثيل أتقنت أداءه لتحمي نفسها من آرت، إذ لو استشعر منها أي بادرة ضعفٍ فسينقضُّ عليها ويسلب منها كل عزيز، ولكنها في حقيقة الأمر -ولا عجب- كانت أشد هشاشة بكثير مما يبدو عليها، وبالنظر في الأحداث

المأساوية التي حدثت في النصف الثاني من رحلة العلاج النفسي أعلم أنه كان ينبغي لي رؤية وجهها الحقيقي المستتر خلف قناع رباطة الجأش.

أحيانًا يجب على المعالج النفسي أن يسائل نفسه عن السبب الحقيقي الذي يوجه فيه المريض لاتجاه معين، أردت من ألانا أن تلتحق بمسار مهني يليق بقدراتها، ولكن سرعان ما أدركت أنني أريد هذا أكثر مما تريده هي، كنت أتصرف بناء على صوت والديَّ الذي يتردد صداه في رأسي عن أنني لا ينبغي أبدًا أن أقلل من شأن نفسي، أو عن أهمية المسار المهني للإنسان، كانت هذه أهدافًا مهمة لهما وبالتبعية أهدافًا مهمة لي، لقد كنت -بعبارة أخرى- أُسقط احتياجاتي على ألانا، كما إنني كنت قد انخدعت بعض الشيء من حسها الفكاهي، وحماستها المتكررة، وسلوكها الهادئ، فاعترفت لنفسي أن جروح ألانا أشد غورًا مما تبدو عليه. وقررت تبطئة وتيرة المشي.

***

لم تذكر ألانا عن أمها، على مدار سنة ونصف من العلاج النفسي، غير أنها فارقت البيت حينما كانت في سن الثالثة، وفي جلسة تسبق عيد الأم ببضعة أيام سألتها عما حدث لأمها بعدما فقدت طفلتيها، فأجابت ألانا بلهجة خالية من المشاعر أنها سافرت إلى إنجلترا خوفًا من بطش آرت الذي عرفت أنها لم تكن ندًّا له لا في الذكاء ولا في الخطر، واستهلكت ما بقي لها من نقود لتقاضيه من أجل حق الزيارة، وأخيرًا، حينما صارت ألانا في التاسعة وجريتشن في السادسة، حصلت أمهما على الحق القانوني في أن تأتي الطفلتان لزيارتها أسبوعًا في السنة بإنجلترا.

كانت ألانا في هذا السن ترى أمها أعظم أم في تاريخ الأمهات، الأم المثالية التي تعيش حياة جحيمية بعدما فقدت طفلتيها، لذلك اشتاقت إلى لقائها رغم أنها لم تكن تتذكر عنها الكثير، كانت أقوى ذكرياتها المتعلقة بها متمثلة في مشهد لهما حيث يختبئان من آرت الذي اجتاح المنزل مشتعلًا بالغضب بحثًا عنهما.

بمرور الأسابيع بدأت ألانا تدرك أنها كانت تفضل النسخة المثالية الموجودة في خيالها أكثر بكثير من هذه الأم التي تعيد اكتشافها من جديد، تحطمت أحلام ألانا الوهمية على صخرة واقع ما حدث في رحلتها الأسبوعية هي وجريتشن لأمهما في لندن، اشترت لهما أمهما فستانين متماثلين

وعروستين متماثلتين، وكأن ألانا الحقيقية خفية أمام عيني الأم، ولكي نكون منصفين بحق الأم فعلى الأرجح أن ألانا قدمت أداء تمثيليًّا متقنًا جدًّا لدور الفتاه الصغيرة التي تتأقلم جيدًا في دور السائحة الطفلة، هنالك زُرن «قصر بكينجهام»، وركبن الحافلة لزيارة المنازل القديمة ورؤية الأثاث ذي الرائحة الكريهة، وتسوقن. سألتُ ألانا عن مشاعرها في أثناء هذا كله فقالت: «بالكاد كنت أعرفها، لم أكن قد رأيتها منذ كنت في الثالثة، وكنت آنذاك فتاة في التاسعة أو العاشرة ترتدي فستانًا سخيفًا، وتنورة سخيفة، وجوارب ملونة سخيفة لأرضيها».

- لكن ذلك لم يخبرني بعد بالأثر الوجداني الذي تركته فيك تلك الزيارة.

حكت لي ألانا عن الحوار الذي دار بينهما حينما سألتها أمها عن سبب هزلهما الشديد فأخبرتها أن هذا لأن آرت لم يطعمهما إلا نادرًا جدًّا جدًّا، ثم قالت لي ألانا: «بكت أمي بحرقة، وأخذت تقول إن ذلك ليس حقيقيًّا، أخذت تسألني إن كان هذا حقيقيًّا، وهي تقول أخبريني أنه ليس حقيقيًّا، هل هو حقيقي؟ بالطبع كانت تعرف أنه حقيقي فقد عاشت مع آرت وتعلم مدى خبله، كل ما في الأمر أنها لم تستطِع الإصغاء للحقيقة»، رضخت لها ألانا في نهاية المطاف وأخبرتها أنه ليس حقيقيًّا، مما أربك جريتشن، ثم وصف لي الوضع قائلة: «لاقينا صعوبة شديدة في التظاهر بأننا فتاتان سعيدتان تتواثبان في شوارع لندن في خطوط مستقيمة».

توجب على الطفلة ألانا -التي لا تزال في سن العاشرة- القيام بالعديد من الأدوار المتناقضة، أن تكون العاهرة التي تشعر آرت بكونه عشيقًا جيدًا، ثم تمثيل دور الفتاة البريئة كي تسعد أمها، لم يكن ثمة مجال لألانا لأن تكون نفسها.

نظرت إليَّ ألانا بتعبير خالٍ من المشاعر، كانت لا تزال راغبة في حماية أمها، وقالت: «لا تستطيعين لومها، لقد كان آرت مخادعًا، لقد خسرت معركتها القضائية ضده واضطرت لتسليم بنتيها ليد مغتصب أطفال، لا بدَّ أن هذا حطمها، ثم ظلت سنين عديدة تتصدى لمناورات آرت القانونية إلى أن أوشكت على الإفلاس، ورغم ذلك لم تنسنا قط».

لم أقدر على تخيل عذاب أشد من اضطرار أم إلى ترك ابنتيها برفقة مغتصب أطفال، ولكني كنت لا أزال آملة في الحصول على رد فعل ألانا

الوجداني الصادق على ما حدث، فالعقل الباطن لا يهتم بالحقائق، لا يهم كم حاربت أمهما من أجلهما، فبالنسبة لألانا الطفلة لا يزال الأمر «هجرانًا» رغم كل شيء، وقلت لها: «لا شك أن إنكار ألمك كان صعبًا للغاية، خاصة بعدما خذلك آرت، وجوعك، وانتهكك جنسيًّا مرات لا حصر لها، ورغم ذلك أعلنت أمك بصراحة شديدة أنها لا تتحمل سماع شيء عن الموضوع»، فدافعت ألانا عن أمها قائلة: «لقد فعلت قصارى جهدها، وما الفائدة من سماع واقع لا يمكنها تغييره؟»، ثم حكت لي عن طفولة أمها في دور التبني المختلفة، وأنها تعرضت للضرب، وهربت، وأدينت بسجل دعارة وهي لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، ثم استطردت ألانا في التفاصيل المتعلقة باختيار أمها لآرت زوجًا، وعقبت إنه لا شك أنها كانت قد تعودت على الانتهاك حتى أصبحت لا تعرف شيئًا طبيعيًّا غيره، وأنها لم تكن ندًّا لآرت المتعلم الذي -حين كان عالي الفعالية ومحتفظًا بوظيفته المهمة- اقتدر على تزييف الحياة الطبيعية بكل دقة.

شككت أن ألانا كانت في عقلها اللاواعي أشد غضبًا من أمها مما كانت مستعدة للإقرار به لنفسها، فالشعور بالهجر الوجداني لدى الأطفال لا ينتج من أي أسباب عقلية منطقية، إذ يشعر الطفل بالغضب من الهجر حتى حينما يموت الوالد، ليس هذا ذنب الوالد، ولكن ذلك لا يقلل من حدة الشعور بالهجر.

في اليوم التالي أرسلت إليَّ ألانا سردًا لحلم راودها بعد حواراتنا عن أمها، وكان العنوان الذي أعطته للحلم هو «عناكب وماء». وكان بمنزلة وصف لحياة ألانا وحالتها النفسية بعد الجلسة:

يبدأ الحلم بألانا في برنس روبرت مرة أخرى، وهي تمشي في الشوارع القديمة، وكل المنازل مغمورة بالماء، وقد غرق كل سكانها -كان معظمهم أطفالًا- وظهرت جثثهم الطافية من الشبابيك، ثم تنجح ألانا أخيرًا في العثور على بيتهم القديم، المنزل الوحيد الذي لم يغرق، ولكنه كان وسخًا ومهجورًا، تدخل غرفتها القديمة حيث تجلس فتاة صغيرة على السرير، تنظر ألانا حولها فترى عشرات العناكب المُشعرة التي في حجم الجراء، لا تبدو الفتاة الصغيرة منزعجة، ولكنها تصر على أن يطعم أحد العناكب، لذا قررت ألانا التقاط السلطانية والبدء في إطعام العناكب، ثم تخرج من الشباك وتسير حتى تدخل مركزًا تجاريًّا، سقف المركز التجاري منخفض للغاية، فتضطر ألانا إلى أن تمشي حانية نفسها لأقصى ما تستطيع، ثم تجد بالداخل امرأة

تبدو عليها أمارات الجنون، كانت ترتدي ملابسَ بهلوانية فضفاضة بجوارب طويلة مزركشة ببقع حمراء كبيرة، كما كانت المرأة تحمل طفلًا صغيرًا يبكي بأعلى صوته، تسلم المرأة المجنونة الطفل للألانا ثم تغادر في اللحظة نفسها، تحمل ألانا الطفل وتحاول السير به، ولكن انحنائها يصعب الأمر للغاية، ثم ينتهي الحلم بألانا تحاول تهدئة الطفل.

حينما وصلت ألانا لموعدنا التالي، طلبت منها أن نستخدم التداعي الحر لفك طلاسم حلمها، الفيضان هو آرت وخدعه المستمرة، جعل الأمر يبدو وكأن منزلهم هو المنزل الوحيد الذي لم تغمره المياه، لكي يغريها بالبقاء، العناكب هي آرت أيضًا، لأنه في هذا المنزل كان مرعبًا وفي كل مكان، كما كان معتادًا على التظاهر بأنه عنكبوت لعلمه بأن ألانا تخشاهم حد الموت، بل كان يأتي بهم للمنزل ويضعهم على سريرها، ثم يقول: «مقلب!»، ثم أكملت ألانا: «أما الفتاة الصغيرة الجالسة على السرير فهي أنا، كما كنت أيضًا الفتاة الكبيرة، تلك المراوغة الداهية التي عرفت كيفية الهروب من الشباك، أما الفتاة الصغيرة التي لم تهرب فهي نسختي التي بقيت في المنزل، التي عرفت أن هناك ثمنًا عليها دفعه، عليها إطعام العنكبوت، عليها إطعام كل العناكب المشعرة المرعبة الفظيعة التي تملأ أركان المنزل، كان هذا هو الرعب الذي أشعر به كلما استيقظت في المنزل كل صباح».

لكن ألانا لم تكن تعلم شيئًا عن هوية المرأة المجنونة التي ترتدي بلوزة منقطة، فحاولت مساعدتها لتتذكر هل سبق أن رأت تلك البلوزة، فارتفع حاجباها، وبدا أنها تستقبل وحيًا خاصًّا، لقد اشترت أمها هذه البلوزة للكريسماس.

اتضح أن أمها هي المرأة المجنونة التي تركت لها الطفلة التي تمثل جريتشن، كان منزلهم صغيرًا جدًّا وذا سقف منخفض، وتوجب على ألانا السير مطأطأة رأسها (الكيفية الفضلى لدى آرت) مما صعب عليها رعاية الطفل، وبالرغم من كل ذلك فلقد نجحت ألانا الحقيقية في رعاية بأختها، ولقد قالت لي: «لم يكن المنزل صغيرًا في الواقع، لقد كنت أنا الصغيرة في العالم الحقيقي، لم أكن أفقه شيئًا عن رعاية الأطفال، بل كنت بالكاد أستطيع حملها». ثم سكتت ألانا تفكر قليلًا ثم تابعت: «لقد أدى تحدثنا عن أمي في الأسبوع السابق إلى إيقاظ كل مشاعر السخط التي لم أعرف أنني أشعر بها،

لم تكن أمي شخصًا مجنونًا البتة، ولا أعرف لم ظهرت بهذه الهيئة البهلوانية في الحلم».

شرحت لها أن الأحلام تقدم صورًا مموَّهة لمشاعرنا الحقيقية، بالضبط كما تعبر الميثولوجيا عن طباع النفس البشرية بصور مجازية ونماذج عامة، إذ تفعل الأحلام الشيء ذاته على المستوي الفردي، حيث تزود المرء بصور من عقله اللاواعي، معطية إياه تلميحات لفك رموزها، وفي هذا الحلم كانت البلوزة المنقطة هي التلميح، إذ تغيرت في الحلم من نقاط صغيرة على بلوزة للكريسماس إلى نقاط حمراء ضخمة تشبه التي بأثواب المهرجين، لم تستطع والدة ألانا التعامل مع آرت، فظهرت صورتها العاجزة الضعيفة الحيلة على شكل امرأة مجنونة قاصرة، ثم تقلدت ألانا دور أمها، ولكن الأمر لم يكن سهلًا. فقلت لها: «هذا الحلم هو المرة الأولى التي تعترفين لنفسك -وإن كان في صورة مجازية مموهة- أن دور الأم لفتاة لم تدخل المدرسة بعد هو دور غاية في الصعوبة».

لاحظت بوادر الاحمرار الشديد في يدي ألانا، فطمأنتها أن شعورها بالغضب من أمها طبيعي، وليس في ذلك خيانة من أي نوع، لقد كانت تشعر بما سيشعر به أي أحد مكانها.

إذا تلقى الطفل في سن صغير جدًّا مسؤوليات أكبر من قدرته في هذا السن يظل شاعرًا بالقلق طيلة حياته حيال قدرته على تأدية مسؤولياته، لقد استدخل فشله في القيام بالمهام السابقة ولا يتصالح مع فكرة أنه آنذاك كان أصغر من اللازم، لقد حدث ذلك مع لورا، فلقد تركها أبوها في الغابة وتعين عليها رعاية أخيها وأختها دون أي مساعدة من أحد، ثم صبت تركيزها بأكمله على فشلها في العناية بهما بدلًا من أن تدرك حقيقة أنها انهجرت هي الأخرى، كانت ألانا مشابهة للورا إلى حد كبير في هذا، فبدلًا من تهنئة نفسها على الاعتناء بجريتشن منذ سن الثالثة شعرت بالقلق من أنها أهملتها بذهابها إلى المدرسة!

***

عادة ما يكون لدى الأطفال المنتهكين يقظة مفرطة، لأنهم يشعرون طيلة الوقت بأن خطرًا ما يحدق بهم، لقد تعلموا استشعار التهديدات لأن حياتهم تعتمد على ذلك، حكت لي ألانا ذات مرة عن موقف مقلق حدث في شركة

المحاماة التي تعمل بها، لقد رأت رجلًا جالسًا في الاستقبال، كان قد سأل عن واحد من محامي الشركة ثم جلس في انتظاره، اتضح فيما بعد أنه زوج إحدى عميلات هذا المحامي، وأنه خسر حضانة أبنائه في قضية الطلاق وقرر قتل المحامي، لم يرَ أحد الغضب المعتمل في صدر الرجل الناقم إلا ألانا التي كانت قد لاحظته من بين الجموع وبلغت الأمن والشرطة فور رؤياه، وحين اقترب منه رجال الأمن أشهر مسدسه، فأخلوا الطابق الحادي والعشرين إلى أن أخذته الشرطة.

أخبرتني ألانا أنها تمتلك حاسة سادسة لاستشعار المجانيين العنيفين، وقالت: «كل الأطفال المنتهكين كلاب بوليسية، يتحتم عليهم أن يشمشموا كل شبر في محيطهم بحثًا عن أي خطر، منقبين عن أي شيء يمكن أن يسوء، إن لم تفعل ذلك فسينتهي أمرك، وبهذا لا لن تعيش أبدًا في أمان».

كانت ألانا متيقظة للخطر كما كان داني، سائق الشاحنة الذي يستشعر وجود السارقين، لقد عاش كل منهما وسط حيوانات مفترسة بطريقة أو بأخرى، أخبرتني ألانا أن آرت اعتاد على إشهار سلاحه في وجهها هي وجريتشن كلما سكر أو تعاطى الكوكايين، مجبرًا إياهما على الالتصاق بالحائط وغناء الترانيم، ثم قالت: «امتلأ الحائط بثقوب طلقات الرصاص، كان يفقد وعيه في نهاية المطاف فألقي عليه لحافًا وأبعد البندقية».

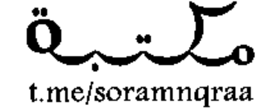
- هل سبق أن فكرت في قتله بسلاحه؟
- بالطبع، لطالما حلمت بهذا، لطالما تخيلت أنني أقتله في أثناء لعبي ألعاب الفيديو القتالية العنيفة، أعتقد أن هذا سر براعتي فيها، ولكني قررت أنه لا يستحق أن أتلقى فيه المؤبد، سيجعلني هذا فاسقة مثله لا أكثر.

هززت رأسي وقلت لألانا: «لقد كنت في حرب من أجل سلامتك العقلية، لا بدَّ أن هذا كان مغريًا جدًّا».

بعد ذلك بمدة طويلة أخبرتني ألانا أن تلك اللحظة كانت نقطة التحول في رحلتها مع العلاج النفسي، لقد علمتْ من تعابير وجهي -من تضييق عيني خلال الكلام- أنني أعني كل حرف في كل كلمة، لكنها حتى ذلك الوقت كانت ترى أن التعاطف شيء مزيف في العموم، وفي حالتي أنا تحديدًا جزء لا

يتجزأ من وظيفتي التي أتقاضى عليها أجرًا، ولكن حينما ألمحتُ أن لديها كل مبرر لقتل آرت أيقنتْ وقتها فقط أنني في صفها.

بالتأكيد لم تكن تلك أكثر لحظاتي احترافية، ولكنها أبرمت شيئًا جديدًا في علاقتنا، كانت تلك طريقتي لإخبار ألانا أنني أفهم ما تعانيه، ليس فقط شعورها بالعجز والوقوع في الشرك، بل أيضًا ما تشعر به من غضب، ذلك الغضب الذي لم تسمح له قط برؤية ضوء الشمس، ثم رأت غضبها منعكسًا في عينيَّ.



4

وراء المدفأة

رغم أن ألانا قد تخيلت مرات عديدة لحظة قتلها لآرت فقد استطاعت في نهاية المطاف أن تهرب من دون استخدام العنف، وتماشيًا مع البشاعة الأسطورية لقصتها فإن شخصًا آخر من برنس روبرت هو من خطط لإنقاذها، ولكي نفهم طبيعة هذا الإنقاذ علينا أن نلقي نظرة على الطريقة التي تعامل بها العالم الخارجي للمدينة مع ألانا وأسرتها.

إثر بلوغ ألانا سن الحضانة أعطاها آرت نصيحة تربوية مهمة: «المدرسة مكان خطير، من الأفضل أن تتواري عن الأنظار وإلا سيقبضون عليك ويأخذونك بعيدًا ولن تري أختك أبدًا»، هذه النصيحة، والارتباك الناتج من تعمد آرت تعليمها الحساب بطريقة خاطئة، إلى جانب خوفها من أن ترك جريتشن وحدها في البيت برفقة آرت، كل هذه الأسباب جعلت ألانا تنغلق على نفسها طوال فترة الدراسة، حيث كانت تقرأ بغزارة في البيت، ثم تسلم كراسة الواجب فارغة تمامًا في المدرسة، ثم تبيَّن أن آرت لم يتحرش بجريتشن في أثناء وجود ألانا في المدرسة، كان يتركها في المنزل بلا اهتمام ويقضي نهاره في زيارة أصحابه، وحين تعود ألانا للبيت تلتصق جريتشن بها، لم تكن تبكي إلا نادرًا، وإنما تتشبث بيدي ألانا ولا تتركها مهما حدث.

انصعقتُ -كما لألانا- أن طيلة الاثني عشر عامًا من مسيرة ألانا التعليمية لم يطلب أحد التواصل مع ولي أمرها، بل لم يطلب لها أحد تقييمًا نفسيًّا، ولم يفتش أي مسؤول حضور وراء غياباتها المتكررة، كما لم يسأل أي موظف في المدرسة ولو مرة واحدة عن سبب حضور ألانا للمدرسة بنفس الثياب المتسخة كل يوم لمدة سنوات، أو عن رفض آرت الدائم لذهابها في أي رحلات ميدانية، بل لم يسأل أحد لمَ لا تحضر معها غداء أو نقودًا، ثم الطبيب الذي ذهبت إليه في سن الثامنة بنزيف داخلي بسبب حبوب منع الحمل لم يتصل بأحد، ولا فعل الطبيب الذي ذهبت إليه في باكورة المراهقة بعدوى ناتجة عن تشوهات في المهبل.

علقتُ ذات ليلة بسبب الضباب في مطار «جزيرة ديجبي» بالقرب من مدينة برنس روبرت، وكان ذلك بعد مرور فترة طويلة على انتهاء جلسات علاج ألانا، كان الشخص الوحيد المنتظر معي للسفر يشغل منصبًا مهمًّا في المنطقة، كنت قد رأيته عدة مرات في «قناة بي بي سي» يتحدث عن الأموال الضخمة التي تم ضخها في مرافق الخدمات الاجتماعية بمدينة برنس روبرت، فلم أستطع منع نفسي من سؤاله، وأخبرته أنني عرفت مريضة من المنطقة، ظلت تتعرض لانتهاك متواصل لثمانية عشر عامًا ولم تتلق المساعدة قط من أحد، فأخبرني أن «برنس روبرت» تعاني معدل بطالة هائل، كانت الصناعات الحرجة قد انهارت واحترقت مصانع التعليب عن بكرة أبيها، كما كان أربعون بالمئة من سكان المدينة من الهنود الحمر، بكل ما يتضمنه ذلك من تعقيدات اجتماعية، لذلك حين يرى الناس فتاة بيضاء، تستطيع الذهاب إلى المدرسة، لديها سقف فوق رأسها، ووالد تحت هذا السقف، لا يندهشون من شيء آخر.

سألت ألانا لماذا لم تطلب المساعدة من أحد أو تحاول التواصل مع «معونة الأطفال» فأخبرتني أن ذلك كان خطرًا للغاية، كان من الممكن أن يصدقوها كمراهقة، ولكنها لم تستطع المخاطرة بالانفصال عن جريتشن، كما لم يكن لديهما مكان تذهبان إليه غير دور التبني، كان هذا منذ ربع قرن تقريبًا، والنقاش عن الانتهاكات داخل الأسرة أو زنا المحارم أمر نادر جدًّا، وإذا لم تصدقها السلطات وصدقت آرت -كما حدث مع أمها- سوف تُجبر على البقاء مع آرت بعد اتهامه، وأيقنت أنه سوف يقتلها أو يقتل جريتشن أو يعذبهما عذابًا شديدًا، ولهذا كانت المخاطرة أكبر من أن تؤخذ.

ولكن حين بلغت ألانا سن الرابعة عشرة نجت من براثن آرت: كانت تتمشى ذات يوم على الطريق شبه الريفي بين البيت والمدرسة فمرت على منزل ريتشل زميلتها في الصف، كانت ريتشل تجلس على مقعد أمام البيت بجوار أمها، فدعت الأم ألانا لزيارتهم، فجفلت ألانا ألمًا حين حاولت الجلوس على حافة الكرسي بحذر شديد، كانت تتألم بسبب اغتصابات آرت، فلاحظت الأم وسألتها عما يؤلمها، فظهر الرعب على ألانا، فشعرت الأم أن هناك شيئًا خاطئًا، شيئًا خاطئًا جدًّا جدًّا، لقد سبق أن سمعت شائعات، فأحيانًا ما كان يتردد زوجها على حفلات آرت الصاخبة ولم يكن ذلك يعجبها، لذا قررت الاتصال بالشرطة والإبلاغ عن آرت.

داهمت الشرطة المنزل في أقل من أسبوع، في أثناء ما كان آرت «يتسلى»، كانت الشرطة على علم بوجود عدد من متحرشي الأطفال في المنطقة، ثم وجدوا كمية كبيرة من المخدرات تكفي للقبض عليه بتهمة الحيازة، كما وجدوا مكتبته العامرة بفيديوهات إباحية تتضمن أطفالًا، وأسلحة غير مرخصة، فوارغ رصاص وثقوب في الجدران، ثم لم يجدوا أي طعام، كان المكان قذرًا، لم يستعمل أحد الملايات في هذا المنزل من سنين، أخذت الشرطة ألانا وجريتشن بعيدًا على الفور، ولم ترَ إحداهما آرت منذ ذلك الحين.

تم تسكين جريتشن برفقة عائلة ألمانية تمتلك مخبزًا، وأحبت المكان كما تعلمت الخبز، بل أصبحت هذه مهنتها لاحقًا، ثم في النهاية صارت تدرِّس «الطبخ وفنون المعجنات» في جامعة تورونتو.

لكن الخدمات الاجتماعية واجهت مشكلة في العثور على منزل مناسب لألانا لأنها مراهقة، أرادت أن تسكن بجوار أختها في مسكن جماعي لا دار تبني، إذ كانت مرعوبة من وضع حياتها تحت رحمة مجنون آخر، وقالت لي: «إن كان في المسكن الجماعي بعض المخابيل، فعلى الأقل تستمر مناوبتهم ثماني ساعات فقط، بل أقصى ما قد أعاني منه هناك هو الإهمال، والإهمال جنة مقارنة إذا ما قارناه بآرت»، ظلت ألانا في المسكن الجماعي ثلاث سنوات إلى أن بلغت السن، ثم -كما ذكرنا سابقًا- التحقت بالجامعة حيث تحطمت واحترقت، لكنها ظلت تسكن بالقرب من جريتشن حتى بلغت الأخيرة ثمانية عشر عامًا، ثم انتقلا معًا إلى تورونتو.

لم تتحرر ألانا من آرت وجدانيًّا رغم المسافة التي تبعد بينهما، كانت لمساته قد التصقت بمخها حيث يتردد صوت تسجيلاته باثًّا فيها شعورًا قويًّا

بكراهية النفس، كما أدت تلاعباته الوحشية إلى تشككها الدائم في منظورها للعالم، كانت ألانا محطمة لدرجة أنها تجاهد للتفريق بين الواقع وعالم آرت الشيطاني، ثم وصلت تلك الصعوبات إلى ذروتها في الجامعة مما أدى بها في النهاية إلى الانسحاب من التعليم.

كنا قد أنهينا عامنا العلاجي الثاني وبدأت أرى بوضوح مدى هشاشة ألانا في الحقيقة، لقد أخبرتني في البداية عما حدث لها، ولكني كنت قد بدأت أدرك الأثر الحقيقي لذلك، وعلى الجانب الآخر، وكما أخبرت ألانا نفسها، فقد قطعت أشواطًا طويلة بخطوات موفقة، إذ فرضت وجودها على الشركة وطالبت بحقها في زيادة الراتب، كما بدأت تتحدث بواقعية عن أمها، واعترفت للمرة الأولى في حياتها بصعوبة المهمة التي أوكلت لها وهي حينئذ فتاة صغيرة طولبت بأن تصبح أمًّا لجريتشين.

***

كانت ألانا مستعدة للقيام بـ «القفزة الهائلة للأمام» على حد تعبير ماوتسي يونج، ولكن كما حدث مع خطة يونج الضخمة: مع المكاسب تأتي تداعيات غير مرتقبة، تداعيات تفضي إلى كارثة.

كان تقدم ألانا يأخذ هيئة التطور التدريجي الحثيث، بالضبط كما يحدث مع الطفل، عبر مراحل نفسية متتالية، وكانت كل مرحلة متسقة مع تلك التي يقضي فيها الطفل سنوات عديدة عابرًا إلى المرحلة التي تليها، ومن المدهش أن هذه المراحل تحدث لدينا جميعًا دون استثناء وبالصورة ذاتها تقريبًا (المراهقين المتمردين في كل بقاع الأرض، ولقد وصف نيلسون مانديلا -على سبيل المثال- أنهم كانوا في عشيرته الإفريقية يأخذون المراهقين في سن الثالثة عشرة من بيوت ذويهم إلى بيت منفصل مخصص للمراهقين لكي يسود السلام منازلهم).

يمكن أن تؤخر الصدمة مراحل النماء الوجداني، فحين ينصب تركيز الطفل على التكيف مع البيئة للنجاة لا يتوافر له وقت كاف ليتطور وجدانيًّا، حين شرعت ألانا في التحسن خلال العلاج النفسي بدأت كذلك في النضج وجدانيًّا، وأخذت تمر بسرعة فائقة من مرحلة لأخرى، من الطفولة إلى المراهقة المتأخرة إلى سن الرشد في وقت قصير إلى حد مذهل، لكن هذا

كان مقلقًا بعض الشيء لي، لم أكن أعرف البتة في أي مرحلة نمائية سأراها هذا الأسبوع.

تحدثنا في بداية عامنا العلاجي الثالث عن نوبات غضبها الطفولية، كانت ألانا صاحبة هذا التعبير، وأخبرتني أن هذه النوبات تظهر كثيرًا مع زوجها كريستوفر، فهي -مثلًا- تشعر بالإحراج حين يعترض على اختيارها للوجبات، بل كانت أحيانًا تلقي بالطعام في القمامة، أما كريستوفر -الذي يكبرها بعشرين سنة- فقد كان يكتفي بهز رأسه في اعتراض صامت ثم مغادرة الغرفة.

ثم أصرت ألانا -وفي التوقيت نفسه تقريبًا- على شراء ملابس جديدة تستبدل بها كل قطعة ملابس في الدولاب، وبدا لعيني غير الخبيرة أن الملابس الجديدة غير مختلفة أي اختلاف، إذ كانت القمصان الكاروهاتية المفتوحة ذاتها والبناطيل الكاكية ذاتها، ولكن بالنسبة لها بدا أنها ترى في ذلك مغامرة مثيرة محفوفة بالمخاطر، كانت تدخل الجلسة كل أسبوع مستعرضة زيها الجديد، الجديد كليًّا، بل كانت تصرفاتها غير مفهومة بالنسبة لها، فلقد قالت لي: «أُشبه ابن أختي ذا العامين الذي ينتفض أرضًا حين لا يسمحون له بالخروج مرتديًا زي سوبر مان في الشتاء بلا معطف»، فأشرت إلى حقيقة أنها طوال طفولتها مع آرت لم يُسمح لها قط بالحصول ولو على شيء واحد فقط تريده، وأن ممارسة فعل الاختيار بين بديلين تعتبر جزءًا مهمًّا من نماء الشخصية، كانت ألانا في مرحلة كلاسيكية من مراحل الطفولة تسمى «فظيعين عند السنتين»، حين كان عمرها الزمني عامين كان والدها يسعى إلى التخلص من أمها ويحبس ألانا في غرفة مغلقة، لم تسنح لألانا الفرصة النفسية لكي تتمرد تمرد الطفولة أو تمايز نفسها، ولم تكن العائلة لتتحمل طفلتين أفسدهما الغني، إذ كان آرت كافيًا وزيادة، أما الآن فهي تتعلم أخيرًا ما هو شعور **الملكية**، وبالرغم من تأخرها الشديد في مرورها بمرحلة «فظيعين عند السنتين» فقد كنت مسرورة لرؤية صعودها على السلم النمائي.

تحدثت ألانا عن التغيرات التي تمر بها بلهجة متعجبة متفاجئة: «كما بدأت أمزح في العمل وألقي النكات، بل قلدت لهم رئيس القسم القانوني، قلدت تنغيماته الكلامية الغريبة ومصطلحاته المتباهية، فمثلًا حين يريد أن يتحدث مع أحد لا يدخل مباشرة في النقاش وإنما يقول أشياء مثل: «إن سمح لي عطفكم أن أدلو بدلوي المتواضع في هذا الموضوع المُلغز»، كما أنه إن

قابلك في الردهة لن يقول ببساطة: «أهلًا»، بل يقول: «تمنياتي الفؤادية»، إنني أستطيع تقليده تمامًا، وكأنني اكتشفت فجأة أنني خفيفة الظل، كل هذا جديد عليَّ، فلم يسبق أن رغبت في أن ينتبه الآخرين إليَّ، أما الآن فهذا يعجبني نوعًا ما». كانت ألانا تتوارى عن الأنظار محاولة الاختفاء، أما الآن فقد بدأت تمايز نفسها.

كنا في منتصف عامنا العلاجي الثالث، استمرت ألانا في مراسلتي بخطابات تحكي فيها أحلامها الجامحة التي بدأت تلتمس طريقها خارجة من لا وعيها إلى وعيها، ذات مرة راسلتني بخطاب يشتمل على حلم سمَّته «حوت على الشاطئ»، تحكي فيه:

«أنا وكريستوفر على شاطئ بحيرة ضخمة، وهناك امرأة برفقتنا تشبه د. جلد، تسبقنا في الخطو والاستكشاف، أجد أنا وكريستوفر حوتًا أزرقَ صغيرًا يختنق على الشاطئ، ننادي د. جلد التي تعود مسرعة وتستكشف الحوت وتخبرنا أنه حي، وأن علينا جره للمياه، كما تعطينا بعض المواد الكيميائية التي نلقيها في البحيرة لتمليحها، ثم نصنع نظام بكرة متطور لجر الحوت للمياه، هنالك يسبح الحوت مفعمًا بالطاقة والنشاط في الماء، حيث يقفز ببراعة، ويفعل كل ما تفعله الحيتان.

أعود أدراجي إلى السيارة أبحث عن كريستوفر الذي كان قد اختفى فجأة، فأجده على السلالم يمارس الرسم الجرافيتي.

نجلس في السيارة ود. جلد تقود، نتوجه للبيت، خلال ذلك يقرأ لي كريستوفر شِعرًا كئيبًا كان قد كتبه في شبابه، أقلق عليه، وأظن أن لديه أفكارًا انتحارية، فهو حزين للغاية».

أخبرتني ألانا أنها الحوت الأزرق الصغير، وأنني -شبيهة جلد- المستكشفة صاحبة المواد كيميائية التي تجعل الماء مالحًا، حينما وقع الحوت في خطر جاهدت أنا وكريستوفر لإبقائه على قيد الحياة، وفعلنا كل ما يلزم لإعادته إلى الماء المالح الذي ينتمي إليه، كنا في صفها، نحاول مساعدتها.

سئلت ألانا عن الجزء الأخير من الحلم، حينما أبعد كريستوفر نفسه عن المرحلة الأخيرة من الإنقاذ، وابتعد لرسم الجرافيتي، لم يكن ذلك التصرف ليصدر منه قط، لماذا يحزن فجأة حين يُنقذ الحوت الأزرق الصغير؟ لماذا

يصبح انتحاريًا؟ أيُحتمل أنه شعر ببعض التهديد لعلاقتهما بعدما تعلمت ألانا التعبير عن احتياجاتها؟ أنكرت ألانا كل هذا (لكنني دونتُ ذلك بورقة ثم حفظتها بعيدًا لاعتبارات مستقبلية).

بعد ذلك بشهر تقريبًا وثبت ألانا إلى إحدى جلساتنا قائلة بمرح بالغ: «لن تصدقي هذا، لقد وقعت في الحب، أو على الأقل لقد غمرتني الشهوة».

فقلت بنبرة متشبعة بالتشوش: «الحب؟».

- أجل، لقد مارست الجنس مع المتدرب الجديد في الشركة خلال استراحة الغداء، تمتلك شركتنا جناح ضيافة خاص في «فندق فور سيزون» Four Seasons، أتى هو بالمفتاح وذهبنا إلى هناك. يا إلهي، لقد كانت وسامته فاتنة للغاية، لدرجة لا تصدق.

فقلت: «الجنس؟»، وبدا أنني لا أستطيع الرد إلا بكلمة واحدة كل مرة.

كانت ألانا حتى هذه المرحلة لا جنسية، ولكن الأمر كان منطقيًا. لم تكن لدى ألانا رغبات جنسية لأنها كانت وجدانيًا في مرحلة ما قبل البلوغ، أما الآن وقد بدأت تنضج بمعدل متسارع فقد أرادت تجربة الحب الأول، ولكن ماذا عن كريستوفر؟ صحيح أنهما لم يحظيا بحياة عاطفية، ولكن زواجهما كان سعيدًا بخلاف ذلك.

ظللت صامتة فقالت ألانا: «كنت أظن أنك ستسعدين من أجلي»، فأخبرتها أن وظيفتي ليس أن أسعد أو أحزن، وأن كل ما في الأمر أنني أحاول أن أفهم، فأكملتْ: «لقد شعرت بهزة الجماع وهو كذلك، ولأول مرة في حياتي أصرخ من النشوة الجنسية. تأخرنا ثلاث ساعات عن العمل، تورط هو في مشكلات كثيرة للتأخير أما أنا فلم يعاتبني أحد ولو بكلمة واحدة. ولا أعتقد أن هناك من يعرف أننا كنا معًا فنحن نعمل في طابقين مختلفين».

ظلت تتحدث عن ذلك اليوم وعن هزة الجماع، ثم قالت إنها الآن فقط فهمت سبب وجود كل هذه الأفلام الهوليودية الرومانسية المتمحورة حول الحب والانجذاب، ثم اندهشتُ من فجائية التغييرات التي طرأت عليها ومن أسلوبها الصريح في مناقشة ذلك، بدا الأمر وكأن ألانا قد اختفت وحلت محلها نسخة من مادونا[1].

---

(1) مادونا لويز سيكون: فنانة استعراضية ومغنية وراقصة وممثلة وعارضة أزياء. (المترجم)

دخلت ألانا مكتبي في الأسبوع التالي شعثاء بعض الشيء، وتعدو بخطى سريعة، ثم تململت في كرسيها ثم قالت: «أتعلمين لم تزوجت كريستوفر؟ كنت في حاجة إليه، كنت أحتاج أبًا، وقد كان مثاليًّا لهذا الدور، ولكني الآن أحتاج إلى رجلٍ حقيقيٍّ، لطالما أحببت طيبة قلبه، ولكني لم أنجذب إليه قط، أريد الاستمتاع بحياتي، الرقص، الجنس».

شعرتُ بالأسف على كريستوفر، الزوج المخلص الذي لطالما ناصر ألانا، ولا شك أن مشاعري المتضاربة قد ظهرت على وجهي إذ تابعت ألانا قائلة: «أعرف، أعرف. كريستوفر رجل ذكي، وأستاذ جامعي مذهل، يهتم بالناس، ولا عيب فيه».

- هل أخبرتِه؟

لم ترد.

- هل أنت جادة حيال المتدرب الجديد؟

أجابت قائلة: «لا أكترث له، أريد تجربة الحياة، أحتفل، أسافر»، ثم أشارت إلى أن كريستوفر يعاني مشكلات صحية تمنعه من السفر، بالإضافة إلى كونه يكبرها بعشرين سنة، جلسنا في صمت، وظهر على وجهها القنوط، وأخيرًا سألت: «جلد، هل تعتقدين أنني كنت أستغل كريستوفر؟ أنني أرميه في القمامة كأنه منديل مستعمل؟».

شرحت لها أن الناس يتغيرون، ينمون فتتغير حاجاتهم، لم تعد ألانا بحاجة إلى أب حنون، إنها بحاجة إلى حبيب، لقد كانت -على الصعيد الوجداني- متجهة إلى مرحلة المراهقة حيث يمثل الجنس والمتعة أهمية بالغة، فأضفت قائلة: «وأنا سعيدة لأنك تشعرين بالمتعة الجنسية لأول مرة بعد كل ما حدث في حياتك، يستحق ذلك كل إنسان».

فقالت ألانا بابتهاج مفاجئ: «من كان يتخيل؟»، ثم غادرت المكتب، كان سلوكها ومفرداتها اللغوية غاية في الغرابة مؤخرًا. ولكن نظرًا لأنني أربي ثلاثة مراهقين في بيتي فلم يدهشني أي من ذلك.

***

كان ينبغي أن أنتبه أكثر لتلك التغييرات الحادثة في شخصية ألانا، لقد صببت كامل تركيزي على حقيقة أنها تنضج وجدانيًّا، ولم أركز على

تصرفاتها التي أصبحت غريبة وعصبية في الآونة الأخيرة، ثم تغير كل هذا حينما هاتفني كريستوفر بالبيت ليخبرني أن ألانا في العناية المركزة لأنها حاولت الانتحار، لقد تناولت جرعة زائدة من «عقار التايلينول» وكمية وفيرة من الخمر، ثم اختبأت في القبو، وراء المدفأة، إلى أن فقدت الوعي، حينما عاد كريستوفر مبكرًا من مؤتمره وجد قطهم فرونت يصدر أصواتًا غريبة فاتبعه حتى وجد ألانا التي كانت على شفا الموت.

صعقني الخبر، إذ في آخر جلساتنا لاحظت أن ألانا تتصرف كمراهقة مرحة، ورغم أنها أخبرتني حين حكت لي الحلم أن كريستوفر كان انتحاريًا فقد تبين أن ألانا هي الانتحارية، قدت سيارتي متمنية أن تنجو ألانا، لم أستطع التفكير بشيء سوى أنها بالتأكيد كانت مرتعبة من فراق كريستوفر الذي تحبه ورغم ذلك تحتاج إلى الابتعاد عنه كي تتمكن من النضج، فشعرتْ بالرعب والاختناق، خلال ركني للسيارة ظللت أفكر في دوري فيما حدث، كان ينبغي أن أميز شعور ألانا بالذنب وكراهية النفس حين سألتني هل استغلت كريستوفر ورمته كمنديل مستعمل.

كنت قد بدأت أدرك -كما سيحدث ذلك مجددًا في الكثير من الحالات المستقبلية- أن الشخص الذي يعاني حرمانًا وجدانيًا حينما يبدأ في التحسن يكون اتخاذ القرارات الوجدانية ثقيلًا عليه إلى حد لا يطاق، كانت ألانا كنمر محبوس في قفص، الوضع جحيم في الداخل، ولكنها تعرف كل شبر في محيطها، وحينما يطلقون سراح النمر يرتعب من الغابة التي لا يعرف كيف يناور في مساحاتها الشاسعة، وافتراضي هو أن ألانا كانت تسير في المراحل النمائية المختلفة بوتيرة أسرع من أن تجاربها لتتشرب ما تحتاج إلى تعلمه.

قابلت كريستوفر خارج مدخل المستشفى، حين رأيته كان يدخن، فنظرت إليه مليًا ولاحظت شدة وسامته، كما لاحظت الفارق العمري الهائل بينه وبين ألانا، ثم اقترب مني وأخبرني أنها لا تزال في العناية المركزة وأنها أصيبت بنوبة اختلاجية، وأن ذلك قد يكون بسبب حدوث ضرر في الكبد، لكنها غالبًا ستعيش، تمشينا معًا في أروقة المستشفى وأخبرني أن ألانا تحدثت عن الطلاق أكثر من مرة في الآونة الأخيرة، ثم قال لي: «أصرت أنها لا تحبني، بل لم تحبني قط»، ثم أخبرني أن ألانا لم تكن على سجيتها مؤخرًا، تتشدق بأشياء بغيضة لم يسبق أن قالتها، وتحكي عن أشياء فظيعة للغاية كانت سبق أن فعلتها.

أكد كريستوفر لألانا أنه يحبها، وسيظل يحبها مهما فعلت، وأنه لا يزال بإمكانهما إصلاح الأمور بينهما أيًا كان ما حدث، كما أخبرني كيف لم يكن أي مما حدث في تلك النوبة من طباع ألانا في شيء، فنادرًا ما كانت درامية أو تحل خلافاتها بعلو الصوت، لطالما عهدنا منها قوة ضبط النفس والوجه الذي لا يفصح عن المشاعر، ثم أخبرني كريستوفر عن العادة الجديدة لألانا، المتمثلة في شرب الخمر حتى الثمالة قبل كل نقاش عاطفي، الذي يحدث على الأقل مرة شهريًا، وأنها لم تكن تثمل قط في السابق، بعد ذلك عقد كريستوفر معها اتفاقًا آخر: حين ترغب في التعبير عن مشاعرها ليس عليها سوى كتابة كل ما تريد قوله ثم إرساله إليه بالبريد الإلكتروني، حيث يقرؤه جيدًا ثم يرسل إليها بريدًا إلكترونيًا بالرد، وقد لاقى هذا التكتيك نجاحًا وبدا أنه قد منع نوبات سكر ألانا التي استهلكتهما كثيرًا، لم تكن ألانا ممن يتحملون حميمية المحاورة بين شخصين، ولكنها كانت تعبر عن مشاعرها كتابيًا بشكل أفضل.

كنت غافلة عن أن ألانا تشرب الخمر، كنت في باكورة إدراكي -بعد ثلاثة أعوام من العلاج النفسي- أن هناك الكثير مما لا أعرفه عنها، هل كنت طوال هذه الفترة أعالج شخصية خيالية اختلقتها ألانا من أجلي خصيصًا؟ بل واختلقتْ شخصية زائفة لأمها ومن قبلها لآرت؟ كنت أعرف شيئين يقينًا: أن هذه الحالة قد خرجت عن سيطرتي، وأن أمامنا الكثير جدًّا جدًّا لنفعله لو نجت ألانا، وبعدما تنجو.

دلفت إلى غرفة المستشفى ورأيت ما يشبه حوتًا أزرقَ صغيرًا كالذي كان في الحلم، كانت بشرتها رمادية شاحبة، وشفتاها زرقاوين، ولا تزال شبه فاقدة للوعي، كما كان هناك أنبوب طبي ناتئ من كل فتحة في جسدها.

غرق كريستوفر في الحيرة، وله الحق، لماذا حدث هذا في هذا التوقيت، حينما بدا أن ألانا بدأت تتحسن، فقلت له: «يتطلب التحسن جهدًا كبيرًا، والله يعلم شدة اجتهادها في العلاج، لقد توجب عليها إزالة دفاعات نفسية هائلة تساعدها الآن لكن تعوقها على المدى البعيد، فجعلها التغيير متعرضة، أظن أنني لا أستطيع قول أكثر من هذا يا كريستوفر»، فأمسك كريستوفر يدي وقال إنه يفهم تمامًا، كان شخصًا طيبًا مراعيًا يحب ألانا حبًّا غير مشروط، وكان زواجهما سعيدًا لما يقرب من عقد من الزمان.

ظلت ألانا في العناية المركزة أسبوعًا، ثم حجزت في عنبر المستشفى إلى أن تماثل كبدها للشفاء، ثم أخبرني كريستوفر أن ألانا تصب عليه جام

غضبها لـ «إزعاجه» إياي حينما هاتفني في منزلي بخبر محاولة الانتحار، وأنها تركت إرشادات صارمة بأنني غير مسموح لي بزيارتها مرة أخرى، وأنها سوف تدفع ثمن الجلسات التي فاتتها وتعود للعلاج عندما تسمح لها حالتها الصحية، كانت ألانا تلاقي صعوبة كبيرة في قبول أي مساعدة أو أي من أمارات الاهتمام حتى بعدما حاولت الانتحار، فاحترمتُ الحدود التي وضعتها ولم أعد للمستشفى.

5

كُلْوِيْ

خرجت ألانا من المستشفى بعد تسعة أيام، ثم اختفت لثلاثة أيام، فاتصل بي كريستوفر مهتاجًا ليبلغني بالأمر.

بعد اتصاله بيومين دخلت غرفة انتظار عيادتي فوجدت ألانا المفقودة تجلس على الكرسي عابسة، فقلت لها: «حسنًا، مرحبًا أيتها الغريبة» (لم أدرك إلا لاحقًا أن هذه الجملة كانت شديدة الدقة إلى حد المفارقة الساخرة).

هزت كتفيها بلا اكتراث كأني بعوضة أو مندوب مبيعات يزعجها عبر الهاتف، ثم سارت بجواري في الردهة، وما زاد الأمر غرابة أنها تخطت باب مكتبي فاضطررت إلى أن أطلب منها الالتفاف والعودة، دخلت ألانا، وهوت في الكرسي، ثم قالت: «إذن؟»، فسألتها عن محاولة الانتحار فصاحت قائلة: «وبأي كيفية لعينة كان يفترض مني الخروج من هذه العلاقة المحبطة؟ أنت تتقاضين مني أموالًا طائلة، لذا عليك أنت أن تخبريني!».

اندهشتُ من وقاحتها التي لم تكن من طبيعتها، ثم انفعلتْ عندما ذكرتُ أنني قابلت كريستوفر في المستشفى وقالت: «ماذا كنت تفعلين في مشفاي؟ العناية المركزة مخصصة للأقارب، أنت لست أمي»، جلستُ صامتة أتساءل هل أضرت الجرعة الزائدة بمخها أو أم أنها سكرانة، إذ كان صوتها الجديد الصارم مختلفًا تمامًا من حيث النبرة، والإيقاع، بل واللكنة.

في نهاية المطاف سألتها: «أين كنت؟».

- بصراحة لا أعلم، لقد وجدت نفسي فجأة على أعتاب «مركز هارت هاوس» Hart House، هذه المنشأة الترفيهية التابعة للجامعة التي تقع على بعد مربع سكني واحد، فقلت آتي عندك لشرب الشاي، هذا الشاي الذي كما ألاحظ لم تعرضيه عليَّ حتى.

صببت لها كوبًا ثم -خلال شربها للشاي- ذكرت قلق كريستوفر عليها فقالت بغضب شديد: «كل شيء متمحور حول كريستوفر، إنه يرفض إرخاء قبضته عني، أنا في الثلاثين ولا أريد قضاء عمري مع رجل معتل الصحة، أريد رجلًا حقيقيًّا قادرًا على إمتاعي جنسيًّا، وليس هذا العاجز المسن».

كنت غاية في الصدمة، لم تكن هذه ألانا، ليست بهذا الغضب ولا بتلك السوقية. ثم بدأت تتحرك وتحوم حولي وهي تتكلم، وهو شيء لم يسبق أن فعلته، وقالت: «كريستوفر، كريستوفر، كريستوفر. لماذا تتمحور الأمور حوله؟ أخبرته أن علاقتنا قد انتهت فقال إنه لا يستطيع العيش من دوني، إنه يفضل لو كان ميتًا؟ هل تريد الانتحار يا كريستوفر؟ سأريك ما هو الانتحار. أكان ابتلاعي هذه الحبوب كافيًا؟ لا، عليه مواصلة تضييق الخناق عليَّ، لقد كان يخنقني، ولا عجب أنهم وضعوا لي جهاز استنشاق في المستشفى، لقد سئمت منه ومن طيبته ومن تقواه، يجب عليَّ التحرر منه». كانت ألانا تتحدث بنبرة سخط المراهق: «لم يكن يعود للبيت بعد اجتماعاته حين يفترض منه ذلك، لكن تعين عليه هذه المرة أن يعود للبيت مبكرًا ليجدني! لقد صرح الأطباء أنني كنت على وشك الموت».

قلت لها بوجه منعدم المشاعر: «يرفض حتى أن يتركك تموتين، يا لأنانيته!».

- أجل، هذا تسلط شديد لعين، يقول سارتر إن الاختيار بين الموت والحياة هو الاختيار الحقيقي الوحيد.

قررت تجاهل هذا النقاش الفلسفي حتى لا نضيع موضوع الجلسة، فسألتها هل افتقدها أحد، فقالت: «تواصل معي زملاء العمل، أخبرتهم أن يضاجعوا أنفسهم في سيارة الإسعاف الخسيسة التي أتوا بها». ولم أستطع منع نفسي من ملاحظة أن الشركة قد أرسلت باقة زهور ضخمة إلى غرفتها في المستشفى.

والآن توجه غضب ألانا الذي لا يبقي ولا يذر نحو أوجه قصوري المزرية، فقالت: «بالمناسبة، أردت منذ مدة أن أخبرك شيئًا عن المجلات التي تضعينها في غرفة الانتظار، ألا تعتقدين أنه من الوقاحة وضع مجلات «ذا نيو يوركر» The New Yorker و«ذا أتلانتيك» The Atlantic و«هاربرز» Harper's في حين أن مقالاتهم طويلة ولا يمكن قراءتها للنهاية في فترة الانتظار؟ إنك تضعينهم للزينة ليس إلا، لتكوني في ناظرهم نبيهة، لكن يجب أن أخبرك، لكن هذا لا يجدي نفعًا كما هو واضح» (اكتشفت فيما بعد أن هناك مقالًا كاملًا قد مزقت صفحاته من مجلة ذا أتلانتيك).

- مستشيطة غضبًا اليوم؟

- لا.

كان من الواضح الآن أنها مراهقة، فالمراهقون وحدهم من يستطيعون التنصل من غضبهم بهذا الإنكار البدائي، لم أعقب، ثم في نهاية المطاف قالت: «حسنًا، لا فائدة من هذا كله»، ثم خرجت مغضبة.

كتبت هذه الملاحظة في ملف ألانا قبل عودتي للبيت:

أعلم أنني لم أكن أتكلم مع ألانا اليوم، لم تكن تمشي بالمشية ذاتها، ولا تتحدث بالصوت ذاته، ولا تتعامل بالطريقة ذاتها، كما كانت عدوانية وقليلة الأدب، لقد كانت ألانا أخرى، شخصًا آخر، شخصًا لم يعرف أين مكتبي حين مشى في الردهة، ولم يدفع حساب الجلسة عندما غادر، لطالما كانت ألانا تترك شيكًا بنكيًّا وتغادر بهدوء لئلا تزعج باقي المرضى، لكن هذا الشخص غادر فجأة وصفق الباب خلفه بغضب، كما كان من الغريب أن تأتي دون موعد مسبق، كان ينبغي أن أخبرها بكل هذا في وجهها وأسألها عن اسمها وأخبرها أنني لا أصدق أنني أتكلم مع ألانا.

***

بدأت للمرة الأولى أفكر أنه قد يكون في يدي حالة لاضطراب تعدد الشخصية، فقررت أن أراجع بعناية الحالة كاملة، كانت مشكلة ألانا أنها تدربت في طفولتها على عدم إظهار مشاعرها الحقيقية، ولطالما بدا عليها **اللامبالاة الجميلة** la belle indifférence (مصطلح يتعلق غالبًا بمرضى الهستيريا حيث يكون توجههم الواهن غير متسق مع ظروفهم الفظيعة)،

وقد مثَّل هذا الستار تحديًا هائلًا لي، إن كانت ألانا قد ألمحت عن إصابتها باضطراب تعدد الشخصية فلا شك أنه كان إلماحًا غامضًا جدًّا لدرجة جعلتني لا ألحظه، والآن مع بزوغ هذه الشخصية الحانقة الجديدة -هذا الشخص الذي يمشي ويتكلم بطريقة مختلفة ولا يعرف أين مكتبي- اضطررت إلى وضع تشخيص اضطراب تعدد الشخصية في عين الاعتبار.

كان لدي ثلاث أولويات: أولًا سأتعلم كل ما يمكن عن اضطراب تعدد الشخصية، ثانيًا سأراجع بعناية شديدة ملفات الأعوام العلاجية الثلاثة سعيًا لفك شفرة ما كانت تحاول ألانا أن تخبرني به بين السطور، ثالثًا، وبعدما أكون على أتم الاستعداد بشكل كامل، سأواجه ألانا وأسألها عن هوية من كان يجلس في مكتبي ذلك اليوم.

قرأت كل ما وقعت عليه يداي واستشرت خبراء في إنجلترا وتكساس، أخبرتهم أن ألانا قد تعرضت لصدمات جنسية وانتهاكات نفسية وبدنية استمرت أكثر من عقد من الزمان ومن أحد أفراد أسرتها، وقد اتفقوا معي جميعًا أن هذا يكفي للدلالة على احتمالية الإصابة باضطراب تعدد الشخصية، كما سألني أحد الخبراء هل المريضة ذكية، وقوية، ومبدعة، وعندما أجبت بالإثبات أخبرني أنه قد وجد في أثناء ممارساته أن هذه الصفات أساسية في نشأة الاضطراب.

لقد أعيدت تسمية اضطراب تعدد الشخصية عام 1994 ليصبح اضطراب الهوية التفارقي، ليعبر الاسم الجديد تعبيرًا أكثر دقة عن الاضطراب، ففي حين أن مصطلح **تعدد الشخصية** يعني وجود عدة شخصيات فإن **تفارق الهوية** يعني حدوث تشظي للشخصية الأساسية، تظل الشخصية الأساسية قاصرة في بعض المهارات الحياتية -كالقدرة على التعبير عن الغضب، أو الجنسانية، أو توكيد الذات- فتنشق شخصيات جديدة من الأساسية لتكون تجسيدًا لهذه السمات.

لقد هوَّلت هوليود من هذا الاضطراب في سلسلة أفلام «ثلاثة وجوه لحواء» فجعلته أكثر إثارة وفي الوقت ذاته أكثر بساطة، لكنني أعتقد أن التشخيص شديد الغموض والروعة لدرجة تجعل من الصعب جدًّا فهمه أو الاقتناع بوجوده.

إنه اضطراب معقد، وقد استنتجت -بعد قراءة الأدبيات المكتوبة عن الموضوع، والاستماع الى المحاضرات المسجلة، واستشارة المختصين- أن هناك ظواهر نادرة يلزم حدوثها في تزامن كي يظهر. لا بدَّ أن يكون المريض مصابًا باضطراب كرب ما بعد الصدمة المتراكب **complex PTSD** -كما حدث مع داني مثلًا- أي أن يتعرض المريض لانتهاك نفسي، وجنسي، وأحيانًا جسدي، لفترة زمنية طويلة، ثم يجب أن يكون لدى هذا المريض درجة عالية جدًّا من المرونة والجلادة الفطريتين، لتساعداه على ألا يفقد عقله تمامًا للأبد، كما أن الاضطراب مرتبط بالذاكرة القوية، والإبداع، ومعدل الذكاء المرتفع نسبيًّا، ليس من السهل توافر هذه التوليفة الاستثنائية، مما يجعل الاضطراب شديد الندرة، إنه طريقة متطورة لتحمل الألم الذي لا يطاق، طريقة لحماية عقلك والحفاظ على سلامة جزء من نفسك، الجزء الأكبر.

بعدما قمت بأبحاثي وأعدت قراءة كل ملاحظات جلساتي مع ألانا لرؤية ما فاتني شعرت أنني كاتب ديكنزي ينحني على مكتبه بالساعات ليلة وراء ليلة محاطًا بأوراق من ملفات ضخمة، ثم وجدت أخيرًا خطابًا كانت ألانا قد أرسلته إليَّ، كان الخطاب متألفًا من ست صفحات ويتخذ شكل فن التراسل بالحيز المفرد والكلمات المتراصة، وقد شبهت فيه ألانا عقلها بالحاسوب، كما عنونته بعبارة «فلنبقهم في القفص»، كان الخطاب مكتوبًا بأسلوب مرح، لكنني لاحظت في أثناء مراجعته وتفكيكي لعباراته أنه نذير شؤم بحالتها النفسية، لقد كان تحذيرًا لي، تحذيرًا لم أفهمه في حينها.

لقد أجَّلت ألانا البوح بما يعتمل في صدرها وابتدأت بالتحدث عن فيلم «سيبيل» Sybil الذي كانت قد شاهدته مؤخرًا والذي استُلهمت أحداثه من قصة واقعية لمريضة نفسية، لقد كانت سيبيل بطلة الفيلم، التي كانت قد تعرضت للانتهاك جنسيًّا، وبدنيًّا ونفسيًّا من أمها، مصابة باضطراب تعدد الشخصية، افتُتنت ألانا بالفيلم، وسرعان ما اشترت الكتاب وقرأته في يوم واحد، وكتبت في الخطاب أنها متفاجئة من أن سيبيل قد أصيبت باضطراب تعدد الشخصية في حين أن معاناتها كانت هينة جدًّا (في الواقع كان هذا الفيلم مخيفًا لدرجة أن كثيرين لم يستطيعوا مشاهدته)، كان خوف ألانا من اضطراب سيبيل مدفونًا بين كلمات النص، مموهًا بالمصطلحات الفنية التي تستخدمها لوصفه، وكان خوفها الأكبر هو عدم سيطرة سيبيل على شخصياتها المتعددة، بل سيطرتهم هم عليها، لقد اعترفت ألانا لنفسها أنها

هي الأخرى تستخدم شخصيات متعددة، ولكنهم يظلون داخل ذهنها وهي من تتحكم بهم، ثم قالت إن عقلها يشبه وحدة المعالجة المركزية بالحاسوب، التي تستطيع تشغيل أكثر من برنامج في الوقت ذاته وأن شخصياتها المتعددة هي تلك البرامج (كانت تسميهم خُدَّامها)، فلو كانت -مثلًا- عازفة عن الذهاب للمحكمة لتمثيل الشركة ترسل شخصية أخرى، خادمًا حازمًا يستطيع مجابهة المحامين ورفض الذهاب، كما سعدت بعدم ملاحظة أحد قط أنها ليست ألانا الحقيقية، ثم قالت إن البرامج في حالة سيبيل يبدو أنها خرجت عن السيطرة، لقد اعترفت ألانا لنفسها بطريقة غامضة أنها بدأت تشعر بالقلق من أنها مرت مؤخرًا ببعض «الزلل»، ولم أفهم مقصدها إلا عندما أعدت قراءة هذه الفقرة، فهي -كما سيبيل- قد فقدت القدرة على السيطرة على جميع شخصياتها.

***

الآن، بعد أن حصلت على الأدلة التي كنت أحتاجها، حان الوقت لمواجهة ألانا بالتشخيص، هاتفتها في العمل فرحبت بي بحرارة: «مرحبًا جلد، كنت على وشك الاتصال بك، لقد مر وقت طويل، هل ما زلنا على موعدنا يوم الأربعاء؟» كان هذا صوت ألانا المعتاد، الناعم، المؤدب.

كان عليَّ التفكير مليًّا في الكيفية التي سأتعامل بها في الجلسة القادمة، هل تعاني ألانا حقًا اضطراب تعدد الشخصية أو بمعنى أصح اضطراب الهوية التفارقي؟ في ناحية أدلة الإثبات كان عليَّ الاعتراف بأنها حين ظهرت بشكل مفاجئ في مكتبي كانت تتحدث بأسلوب مختلف وتتعامل بشخصية مختلفة، بل كانت تمشي بطريقة غريبة، تجر قدميها تحتها كراعي البقر في أفلام الغرب القديمة، ولكن هناك بعض الأسباب التي قد تبطل التشخيص: أولًا لم تظهر الشخصية المختلفة سوى مرة واحدة على مدار ثلاثة أعوام، وهذا في حد ذاته غريب، إن وسم شخص باضطراب لم يظهر سوى مرة واحدة أمام المعالج النفسي لهو شيء -على أقل تقدير- منطوٍ على شبهة، كما أن تشخيص اضطراب تعدد الشخصية بدا ضربًا من ضروب الخيال، فلقد كنت قد مارست مهنة العلاج النفسي خمسة وعشرين عامًا ولم أصادف شيئًا كهذا قط لذا توجب علي التزام الحرص، هذا وكان هناك جدال مشتعل في أوساط العلاج النفسي ليس فقط عن مشروعية التشخيص، ولكن أيضًا عن

احتمالية أن بعض المعالجين النفسيين يزرعون -زراعة واعية أو لا واعية- فكرة الشخصيات المتعددة في ذهن المريض.

عندما جاءت ألانا إلى جلسة الأربعاء علمت من خلال تعبير وجهها أنها قد عادت لنفسها القديمة، وأخبرتني أن زملاءها في العمل قلقوا بشأن غيابها ثلاثة عشر يومًا، وأنها أخبرتهم أن لديها مشكلة مزمنة في الكبد أحدثت لها مضاعفات، ثم قالت لي: «لم أرد الكذب، وعلى الأقل كان هذا حقيقيًّا».

تعمدت عدم قول شيء يدير الحوار في اتجاه معين، وسألتها ببساطة: «ماذا كنت تفعلين خلال الأيام الأربعة التالية لخروجك من المستشفى؟».

فقالت: «لا أذكر، ثم قالت بعد صمت طويل مغيرة دفة الموضوع: «لقد فارقت كريستوفر، وأعيش الآن في شقة على بعد بضعة مربعات سكنية من هنا، لا أدري كيف حدث أي من هذا، بل هناك أشياء كثيرة جدًّا لا أستطيع تذكرها لدرجة أنني قد أضطر إلى مهاتفة كريستوفر، وهو ما أخشاه بشدة»، فسألتها عن حاله فقالت إنه كسير الفؤاد ولا يستطيع حتى الذهاب إلى علمه، فأقررت لها أن مفارقتها البيت شاقة عليها بكل تأكيد.

قالت ألانا: «بصراحة، لا أعرف كيف استطعت فعلها، فأنا أنفر جدًّا من إيذاء الآخرين، إلا آرت، ولكن حتى هو كنت أتجاهله فحسب، أظن أنني قاسية ولقد أخبرني كريستوفر بذلك».

- لا يبدو هذا من شيمك.

- **توجب** عليَّ التحرر من هذه العلاقة.

- أفهم ذلك، توجب عليك تجاوز هذه المرحلة، لقد كان كريستوفر أبًا بديلًا، ولكن كلما ازداد تحسنك قلَّ احتياجك إليه، لم تعودي تلك الطفلة التي تشعر باليتم، احتجت أن تعيشي مراهقتك ثم شبابك والارتباط بشباب في مرحلتك العمرية ذاتها».

بدا على ألانا التشوش، فأكملت قائلة: «لقد بدأت تنضجين وجدانيًا، والرغبة في المواعدة والابتعاد عن الأبوين هي أهم عملية نمائية لدى المراهقين».

فسألتها لم واجهت صعوبة شديدة في إخبار كريستوفر بأنها راغبة في الرحيل.

فردت قائلة: «إن الأمر قاسٍ، وأنا أرفض التحلي بالقسوة، لقد قررت منذ طفولتي ترك القسوة لآرت، لم يفعل كريستوفر شيئًا ليستحق تلك المعاملة المنزوعة الرحمة، خاصة وقد وعدته أنني سأظل أحبه للأبد، ولا أزال أحبه حقًّا من ناحية ما، وسأظل أحبه دائمًا، فهو شخص رائع، كل ما في الأمر أنني لست **واقعة في** غرامه».

أردتها أن تستوعب أن لديها حقوقًا وجدانية وأن ممارسة هذه الحقوق ليست قسوة، لذا سألتها: «يتطلق خمسون بالمائة من المتزوجين، هل كل هؤلاء قساة كآرت؟ هؤلاء جميعًا كانوا يحبون أزواجهم، ثم تغير أحدهم أو كلاهما، فلم تعد العلاقة ناجحة، هذا طبيعي، جميعنا انفصلنا عن أحبابنا، إلا لو كنت ممن يتزوجون أول من يواعدونه في حياتهم، ألم تسمعي من قبل أغنية «الانفصال صعب» Breaking Up Is Hard to Do؟».

- شكرًا يا نيل سداكا، أظن أنني أفهم، يتحتم على كل منا الانفصال في مرحلة ما من حياته.

أشرت إليها أن العلاج النفسي يساعد الناس على النضج، وأن الأثر الجانبي لذلك يتضمن أحيانًا تغيير شركاء الحياة أو الأصدقاء وترك آخرين وراء ظهورنا، لقد واجهت ألانا معضلة، فقد أرادت بشدة مفارقة كريستوفر، ولكنها لم تكن تفقه شيئًا عن كيفية توكيد ذاتها كي تستطيع فعل هذا، وبذلك شعرت أنها محاصرة.

- حاولت الانتحار، ولكني فشلت، هذا مقرف، كنت حقًّا في موقف لا أحسد عليه.

- وماذا حدث حين كنت في هذا الموقف؟

- لا أتذكر أي شيء.

- حسنًا، لكنني أعلم أن الفتاة التي قفزت إلى هنا الأسبوع الماضي من غير موعد لم تكن ألانا.

فبدا عليها الذهول وقالت: «لم أكن هنا الأسبوع السابق»، فأكدتُ لها أنها كانت هنا فقالت: «أوه، لا»، ثم نهضت وتوجهت إلى معطفها ثم أخرجت قصاصة مطوية عدة طيات من جيبه، كانت ورقة مقطوعة من «ذا أتلانتيك»، فذكرتُها بحديثها الغاضب عن المقالات الطويلة في المجلات التي أضعها في

غرفة الانتظار، فتكومت على نفسها ووضعت رأسها بين يديها، كانت شاحبة اللون وتتنفس بصعوبة. ولكنه كان الوقت المناسب لزيادة لضغط.

- من كان في مكتبي الأسبوع الماضي؟ لم يكن أنت.

اعتدلت في جلستها أخيرًا ثم قالت: «للأسف، يلائم الوصف كلوي، بالنطق الفرنسي للكلمة، فهي تغضب بشدة لو أخطأ أحد في نطق الاسم».

سكتت ألانا بضع دقائق ثم نظرت مباشرة في عيني، وهذا شيء لا يحدث كثيرًا، وقالت: «كانت تسجيلات آرت تتردد على مسامعي دون توقف، احتجت إلى المساعدة، وتوجب عليَّ اتخاذ التدابير اللازمة، لقد سبق أن فعلت ذلك بضع مرات خلال السنوات المنصرمة، حيث استدعيت أحدهم ليحل محلي ويتعامل مع المشكلة حتى أتمكن من مواصلة المسير»، ولاحقًا أخبرتني ألانا أنها افترضت أن كل الناس لديهم شخصيات متعددة يستدعونها عند الحاجة ولا يتحدثون عن ذلك أمام الملأ، وإلا كيف يتعاملون مع العالم؟

- شخصية بديلة؟

- أعتقد ذلك. إذا أردت استخدام هذا النوع من المصطلحات، أما أنا فأسميهم برامج.

فطلبت منها الإسهاب في الشرح فوصفت لي كلوي قائلة: «ابن عرس لئيم، شقية وبذيئة تستطيع الصياح والصراخ بآرت وإخباره أن يذهب ويضاجع نفسه».

فتماديتُ أكثر وسألتها هل كلوي هي الشخصية البديلة الوحيدة، البرنامج الوحيد الذي تستخدمه ليساعدها في حربها ضد آرت وتسجيلاته، فأفشت ألانا بوجود بديل آخر: «مراهق عابس اسمه روجر، يحارب آرت بنظراته الذابلة، ينظر إليه بقرف كأنه ثؤلول بشع، أشد ما يكرهه آرت هو ألا تندمجين معه، ولقد حقق روجر انتصارات عديدة في إغضابه بذلك»، فضغطت عليها مرة أخرى وسألتها هل توجد شخصيات أخرى، فابتسمت ووصفت لي غلامًا اسمه أموس: «مزارع أخرق، يمكنك اعتباره قرويًا حسن النية، يسخر من آرت متى ما صرخ في وجهي وسبني سبات قذرة».

ثم وللمرة الأولى على مدار ثلاثة أعوام علاجية قهقهت ألانا قهقهة مدوية هزت بطنها وهي تتحدث لآرت بالأسلوب الريفي البطيء: «اخرس يا شجر الطريق الغبي، كفى نهيقًا»، لم أجد أموس مضحكًا مثلما وجدته ألانا، ولكنها

قالت إن ذلك أفضل ما حدث في حياتها: «كانت قهقهاته قادرة على تجريد آرت من كل قوته وإظهار جبنه وزيفه».

أردت أن أعرف تفاصيل عن المرات التي ظهرت فيها هذه الشخصيات، ولكن ألانا أصرت أنهم لم يظهروا قط، إنها تسيطر عليهم جميعًا سيطرة تامة، وقالت: «كلوي وروجر وأموس هم مجرد برامج أشغلهم حين أختار تشغيلهم».

فسألتها مشيرة إلى أحداث الزيارة الأخيرة: «لماذا إذًا خرجت كلوي عن السيطرة؟».

شعرت أن ألانا ليست راسخة القدمين، وخشيت أن تحاول الانتحار مجددًا. لم أعد أصدق القناع الهادئ الذي ترتديه، علينا أن نمضي بسرعة ودقة، لذا قلت لها قاصدة كل كلمة ومتعمدة نطق حروفها ببطء: «فكري في الموضوع».

بعد قرابة خمس دقائق من الصمت بدأت ألانا في استرجاع الأحداث وربطها ببعض، وعلى قدر ما كان الانفصال عن كريستوفر ضروريًّا فقد كان عذابًا لكليهما على حد سواء، قالت ألانا: «ظل كريستوفر يقول إننا سعداء معًا، وإننا نستطيع حل الأمور معًا، حاولتُ تحمل اللوم الكامل على انتهاء العلاقة، وأخبرته أنني محطمة، وأنني أسوأ من أحب أحدًا، ولكنه لم يكن ليفلتني، فشعرت أنني محاصرة وأنني مضطرة إلى إخراج كلوي، أعطيتها الإذن لتكون قاسية معه إلى حد لا يصدق، وحاولت أن أسكر لئلا أسمع شجارهما، في الواقع كنت أسمعه نوعًا ما، وكأنني في قعر بئر عميق والأصوات تصل إليَّ من بعيد».

تحدثتْ عن محاولة الانتحار وحاولتْ تلخيص مشاعرها في هذه الأثناء: «لقد قررت فقط أن لا أحد يحتاجني بعد الآن، كان آرت على بعد آلاف الأميال، وكانت أختي مع زوجها وطفليها الرائعين وتبلي بلاء حسنًا من دوني، وكنت أتصرف بقسوة مع الشخص الوحيد الذي سخَّر حياته لأن يحبني ويحميني، حينئذ تأكدت أن آرت مصيب، وأنني شريرة حقًا، فتناولت الحبوب».

لم تستطِع ألانا تذكر مجيئها إلى مكتبي الأسبوع الماضي، ناهيك بتأجيرها لشقتها الحالية، ذلك اليوم انتهى بها المطاف عائدة لعملها، ولكنها لم تكن متيقنة كيف حدث ذلك، يبدو أن كلوي هي من تكفلت بكل هذا.

– هل أنت متأكدة أنها كانت المرة الأولى التي تظهر فيها كلوي؟

- كانت المرة الأولى على حد علمي، عندما هربت من المحاضرة التي ظننت فيها أن هذا الأستاذ الجامعي يهزأ بي لم أتذكر أي شيء من حياتي لمدة أسبوع، وظننت أنها نوبة جامود، فقد سبق أن حدثت لي نوبات جامود، أو أحسب أنها حدثت.

تساءلتُ هل ظهرت الشخصيات البديلة بعدما تركت الجامعة، وشككت أنني كنت أتحدث مع كلوي حين أخبرتني عن العلاقة العابرة التي خاضتها مع المتمرن الجديد، فلقد لاحظت أنها في هذا الموقف أيضًا كانت تتحدث بفجاجة وسوقية لم تكن من طبيعتها.

***

يمكن أن يجادل الإخصائيون النفسيون بخصوص هل تعاني ألانا اضطراب تعدد الشخصية، أو اضطراب الهوية التفارقي، حيث تُعتبر الشخصيات البديلة المتشظية تشخُصًا للسمات المهمة المفقودة، وكما ذكرت من قبل فلقد شعرت أن اضطراب الهوية التفارقي هو التشخيص الأدق بالنسبة لأعراض ألانا، خاصة بعد أن «قابلتُ» سكان رأسها، لم تكن ألانا قادرة على الشعور بالغضب، أما كلوي فقد كانت غضبًا لا تشوبه شائبة، لم تستطِع ألانا حماية نفسها من آرت ولم تستطِع أن تعامله بوقاحة فكانت تلك وظيفة روجر، ثم دافع أموس -ذلك القروي الذي يرتدي ملابس المزارعين- عن ألانا بالسخرية من شر آرت، ولا عجب أنها أحبت أموس لهذه الدرجة إذ لم يسبق أن وقف أحد في وجه آرت من أجلها، شعرتُ أن هذه الصفات لم تكن بالضرورة شخصيات مستقلة، وإنما تشخُصات لسمات احتاجتها ألانا لحماية نفسها من تسجيلات آرت.

الآن وبعدما عرفت كل ما يمكنني معرفته عن اضطراب ألانا، صارت خطوتي التالية العثور على أفضل الطرق لمساعدتها، كانت إحدى هذه الطرق مساعدتها على التخلص من كلوي، وروجر، وأموس بواسطة إيجاد سبل لإعادة دمج تلك السمات في شخصيتها الأساسية، لو تعلمت ألانا كيفية التعبير عن غضبها فلن تحتاج إلى كلوي مجددًا، لو استطاعت فرض حدودها الخاصة فلن تحتاج إلى شخصياتها البديلة، وهناك طريقة أخرى أقل طموحًا، ولكنها أكثر احتمالية من المنظور الواقعي، وهي أن أترك كلوي وروجر وأموس لألانا ليساعدوها على محاربة تسجيلات آرت، وفي الوقت ذاته نعمل على تقوية

«أنا» ألانا كيلا تفقد السيطرة عليهم مرة أخرى، أو على حد تعبير ألانا: «يجب عليَّ ألا أسمح لكلوي وروجر وأموس بالتمرد».

لا شكَّ أن الحل المثالي يكمن في التخلص أصلًا من تسجيلات آرت التي يتردد صداها في رأسها طيلة الوقت، ولكني لم أكن متيقنة من إمكانية ذلك، فلقد تعرضت ألانا لانتهاكات سادية وتشويهات زمنًا طويلًا، وعندما يعاني الناس بمثل هذه الطريقة الوحشية فغالبًا يتحطمون إلى حد غير قابل للإصلاح، بل قد يصابون بجنون الارتياب، أو الخرس، أو الذهان، وغالبا ما ينتهي بهم المطاف في المؤسسات النفسانية، كان عليَّ تقبل وجود ضرر دائم، إن الرُّضَّع الذين يتعرضون لفقر التغذية زمنًا طويلًا ثم يُطعمون لاحقًا تظل عظامهم حاملة للأبد علامات فقر التغذية، وكذلك في حالة الحرمان الوجداني الشديد، يتأقلم المخ بطرق غريبة، ولكنه لا يعود أبدًا للحالة الطبيعية تمامًا، أيًّا ما كان معنى «الطبيعية»، لذا توجب عليَّ وضع أهداف واقعية للعلاج حتى نشعر أنا وألانا بالنجاح الذي نحققه.

قررت أن الحل الأمثل هو افتراض أن ألانا تحتاج إلى الشخصيات الثلاثة الأخرى لمساعدتها في محاربة تسجيلات آرت والعمل على تقوية الأنا حتى لا تضطر الشخصيات إلى المحاربة لأجلها في العالم الخارجي، كما نستطيع العمل على استراتيجيات التكيف كفرض الحدود، وتعلم توكيد الذات، والتواصل مع مشاعرها، والتصرف وفقًا لها، وبهذا فحين تأتي الحرب لن تكون ألانا بمفردها بجعبة خالية من السهام.

6

تتطلب قرية بأكملها

تختلف أحيانًا وجهة نظر المعالج النفسي عن وجهة نظر المريض فيما يتعلق بالكيفية التي ينبغي أن تسير بها العملية العلاجية، ولكن في المنهج العلاجي المتمركز حول المريض يكون هو من له الحق في اختيار الطريقة المثلى باعتباره أعلم الناس بما يحتاج إليه، دائمًا ما أميل إلى هذه الطريقة -كما ذكرت سابقًا في أجزاء مختلفة من هذا الكتاب- ولكني كنت قد قررت استخدام طريقة أخرى في حالة ألانا، لم ترد ألانا التحدث عن محاولة الانتحار لأنها ظنت أن الأزمة قد انتهت بطلاقها من كريستوفر، أما أنا فلم أظن ذلك، لذا تصديت لرغبات ألانا، وأخبرتها أنها تحتاج إلى سهامٍ في جعبتها للاستعداد للمعارك المرتقبة التي تخوضها ضد جوائحها الوجدانية، علينا تزويدها بترسانة من الأسلحة وإلا لجأت إلى كلوي لحل مشكلاتها مرة أخرى ولا أحد يريد ذلك، وأن بناء هذه الاستراتيجيات التكيفية هو آخر محطة في رحلتنا العلاجية، وبخصوص الانتحار فقد أخبرتها أنه سيكون من المحزن أن تقرر الاستسلام نظرًا لأن الحرب بدأت تُحسم لصالحها.

فسألتني: «هل تظنين أن الحرب تحسم لصالحي؟».

فذكرتها أنها تنضج، أنها لم تعد بحاجة إلى كريستوفر لأنها لم تعد الطفلة الجريحة التي تحتاج إلى أب، وقلت لها: «تنطوي حياة الراشدين على أزمات لا

حصر لها، وليس في العالم حدود ثابتة منظمة، يضطر المرء أحيانًا إلى الحفر في الصخر بمجرفة عقيمة لبناء سياج حول فنائه، يستغرق الأمر وقتًا لتحقيق الحب، أو الجنس، أو النضوج، ولهذا يكون المراهقون صعاب المراس، فهم يسعون طيلة الوقت إلى شقِّ طريقهم نحو فهم الحياة، ويرتكبون في أثناء ذلك أخطاء غير معدودة، ولكن هذا هو الواقع، الحياة مبنية على التجربة والخطأ، ودائمًا ما سيكون هناك حطام وجداني على جانبي الطريق، مرحبًا بك في مرحلة الرشد».

فقالت ألانا بنبرة ضاحكة ساخرة متعبة: «أتمنى أن أصل إلى هناك قريبًا، فالرقص على السلم كاد يقتلني».

***

كانت «إقامة الحدود» أولى الفنيات التي عملنا عليها لتقوية الأنا، فالأطفال الذين تربوا بأيدي آباء أو أمهات قاسيين عادة ما يواجهون صعوبة في وضع حدود صحية، لقد توجب على ألانا تعلم كيفية قول لا، حتى لمحبوبيها، لقد احتاجت أن تقول لكريستوفر: «أنا شخص مختلف الآن، لقد تغيرتُ، ولم أعد أرغب في أن نكون معًا»، لذا قلت لها مجددًا إن التعبير عن المشاعر والرغبات بصدق ليس قسوة، بل جزءًا من الفوضى الضرورية في الحياة.

ظلت ألانا أشهرًا عديدة بعد طلاقها من كريستوفر مشوشة بشأن هل كان ينبغي لها التعامل مع الأمر بأسلوب مختلف، فقلت لها بأشد صراحة يمكنني إظهارها: «لم يسبق أن سنحت لك الفرصة في طفولتك بوضع حدودك الشخصية، وبهذا أعني أنه لم يسمح أحد لك بقول أشياء مثل: «لا يا آرت، لا أريد ممارسة الجنس معك، لا يا جدتي، لا أسمح لك بانتهاكي جسديًا، لا يا أمي، لن أرتدي فستانًا مكشكشًا وأتظاهر أنني «آن في المرتفعات الخضراء» Anne of Green Gables، آسفة يا جريتشن، ولكني لا أريد اليوم أن أكون أمًّا في السابعة من العمر بعد تعاطي المخدرات بالإجبار وتعرضي للاغتصاب من آرت وأصدقائه».

أومأت ألانا، ولكن عدم اليقين لا يزال باديًا عليها، فاستشهدتُ بالمراهقين العاديين لإبراز وجهة نظري: «حتى المراهقون الذين حظوا بأبوين جيدين لا يطيعونهما في كل حين، أحيانًا ما يضعون حدودهم الخاصة، لو منع أب ابنته من مواعدة شاب فقد تضرب بكلامه عرض الحائط، وتتسلل لمقابلته

ولا تشعر بالذنب، هكذا يتحرر الأطفال من الأبوين، يبدؤون بالتصدي لهما والتحلي بمزيد من الاستقلالية، ويمشون في طريقهم الخاص، هذا اسمه «نضوج»، إن كل شخص قابلتِه في حياتك قد تصدى لوالديه مرة على الأقل في حياته».

أسندت ألانا رأسها إلى الكرسي والصدمة تكسو ملامحها. كانت تظن أن وضع الحدود فعل أناني، لم تكن تعرف أن قسوة آرت ونرجسيته هي التي لم تسمح لها بإقامة الحدود، لم تكن لديها أية فكرة عن أنه لا يزال لديها الحق في الرغبة في الانفصال عن كريستوفر **رغم أنه شخص جيد**.

***

انخرطنا في جلسات لعب أدوار خلال الشهور القليلة التي تلت ذلك، لمساعدة ألانا على تعلم كيفية وضع الحدود، واستعرنا فنية «هنا والآن» من العلاج الجشطالتي، فتدربنا على استخدام الحاضر الحالي لحل المشكلات بدلًا من الماضي المنصرم، كانت المشكلة متعلقة بحياة ألانا الأسرية الحالية في تورونتو، حيث تعيش على بعد مربع سكني واحد من جريتشن، التي كانت متزوجة ولديها طفلان، وعلى اتصال دائم بها، كما كانتا تقابلان أمهما على الدوام، إذ حين علمت الأم بأن آرت دخل السجن ولم يعد له حكم عليها أو على البنتين عادت فورًا من إنجلترا لتكون بالقرب من بنتيها، وسكنت في شقة تبعد خمس دقائق فحسب من ألانا وجريتشن، وكانوا جميعًا يتزاورون كثيرًا.

أرادت ألانا في إحدى جلسات لعب الأدوار أن نلتفت إلى خيالات أمها بأنها الأم التي كانت حاضرة دائمًا في حياة ابنتيها، كانت ألانا تشعر بالحنق متى ما وجهت الأم نصائح لجريتشن عن التربية، وتغضب بشدة لو قالت الأم شيئًا من قبيل: «كما تعلمين فلقد سبق أن كنت أمًّا أنا أيضًا» أو «في صغركما كنت أفعل كذا وكذا»، وتشعر برغبة عارمة في أن تقول: «هذا كله غير حقيقي، من فضلك توقفي، لا أريد دورًا في هذه المسرحية الهزلية»، ولكنها كانت تشعر أيضًا أن أمها، التي عاشت حياة جحيمية هي الأخرى، كانت أهش من أن تسمع أي نقد.

ثم جاءت الفرصة خلال زيارة جمعت ألانا وجريتشن وأمهما، حين أجهش ابن جريتشن بالبكاء فقالت لها أمها: «اتركيه وسوف يسكت بمفرده، هذا ما

كنت أفعله أنا»، فأرادت ألانا أن تقول: «أجل، لخمسة عشر عامًا»، ولكنها بدلًا من ذلك كررت الرد الذي تدربنا عليه معًا خلال الجلسات، فأخبرت أمها أنها لم تكن في الحقيقة معهما في أثناء ترعرعهما، وأنها لا تريد لومها لأن ذلك لم يكن غلطتها لكنها أيضًا لا تريد الاشتراك معها في خيالاتها الأمومية، فبكت أمها وقالت إنها لا تريد سماع هذا «الكلام الفارغ» ثم غادرت.

لكن أمها هاتفتها في الأسبوع التالي دون أي ذكر للشجار، بل اتفقت معها على موعد للخروج، فسألتُ ألانا عن شعورها حيال اتصال أمها فقالت: «لقد صعقت، ظننت أنها إما ستتحطم وإما ستتوقف نهائيًّا عن الحديث معي».

سألتها ما الفارق بين الغضب والقسوة فقالت إنهما درجتان مختلفتان من الشيء ذاته، فأخبرتها أن تعلم التعبير عن الغضب هو سهم آخر تحتاجه في جعبتها.

وكما أخبرتُ داني ذات مرة فإن الغضب شعور سيئ السمعة، ولكنه في الحقيقة مجرد أداة تفاوض تساعدك على الدفاع عن نفسك، وأن التعبير عن الغضب هو أن تطلب من شخص مغادرة ميدانك الشخصي، أو الكف عن الدوس بقدمه على حسك بذاتك، الرحيل من فناء المنزل، ثم تتركه يتعامل مع ذلك، عليه هو أن يقرر كيف يتعامل مع غضبك، أن يقرر هل مشكلتك منطقية، ومشروعة، وتتطلب منه أن يغير من تصرفاته أم لا.

لذا قلت لألانا: «لقد تأذت أمك، بعد ذلك تفكرت في الأمر، ومن حينها لم تنخرط في خيالاتها الأمومية مجددًا، الغضب إشارة من المرء بأنه يريد أن يعامله الآخر بطريقة مختلفة، وهذا صحي، أما القسوة فهي أن يتعمد المرء إيذاء الآخر»، ولتوضيح النقطة الأخيرة قلت إنه ستكون قاسية لو قالت لأمها على حين غرة: «اسمعي يا أمي، أنت لم تكترثي إطلاقًا بنا، لقد كنت مجرد عاهرة مراهقة غبية، تزوجت ساديًّا لعينًا وأنجبت منه، ليس واحدة، بل اثنتين، ثم هربت وتركتِهما في أول فرصة أتيحت لك ليدفعا ثمن أخطائك من سلامتهما العقلية».

- أجل، ولكنني، بصراحة، أشعر أحيانًا بالرغبة في هذا.

- ومَن من البشر لن يشعر بذلك؟ لكنك لا تقولينه، سيؤذيها ذلك ليس إلا، ولن يبدل من سلوكها في شيء.

***

ازدادت قدرة ألانا -بمرور الوقت- على التعامل مع الصراعات الوجدانية مع ازدياد الثقة بالنفس، كما أقامت لأمها حدودًا، وقابلت كريستوفر للتوقيع على قرض الرهن العقاري، ثم تعين عليهما الالتقاء مرة في أسبوع على الأقل لتبادل رعاية قطِّهما فونت، واقتدرت ألانا على تحمل ذلك بالإضافة لشرب القهوة معه أحيانًا كصديقين، ورغم ذلك فقد كانت كلوي، وروجر، وأموس لا يزالون ساكنين رأس ألانا لمساعدتها على محاربة تسجيلات آرت، ولكن تهديد تحررهم لم يعد قائمًا.

أدركت بانتهاء عامنا الثالث أن رحلتنا كانت محفوفة بمخاطر جمة، لا أزال حتى يومنا هذا منزعجة من غفلتي عن ميولها الانتحارية، كان ينبغي أن أكون أشد يقظة فألانا سبق أن حاولت الانتحار خلال مراهقتها، وطبقًا للأبحاث فمن حاول الانتحار مرة سيعيد الكرة غالبًا.

سألت ألانا لمَ لم تخبرني بأفكارها الانتحارية فقالت إنها شعرت أن ما فعلته بكريستوفر شنيع جدًّا لدرجة أنني سأكرهها، كما راودتها مشاعر بشعة تجاه نفسها فلم تستطع تذكر لحظة واحدة أكترث فيها بشأنه، فقلت لها: «هذا كلام آرت في التسجيلات، أليس كذلك؟ ربما يقول إنني لم أكترث بك قط، وإنني وإن بدا عليَّ العكس فلأنني أتلقى أجرًا لإبداء ذلك، بالضبط كما أخبرك من قبل أنك حصلت على منحة دراسية كاملة لأن كل من في برنس روبرت أغبياء»، ثم أخبرتها أنني أشعر بالأسف لأنها شعرت بالوحدة في محنتها، واعتذرت لأنني لم أرَ مدى عمق شعورها باليأس.

يجب على المعالج النفسي أن يتعلم من تجاربه، وأنا شخصيًّا قد تعلمت الكثير من الأخطاء التي ارتكبتها في حالة ألانا، ومنذ ذلك الحين وأنا أخبر طلابي عن الحالات التي يحاول فيها المريض الانتحار بمجرد أن تبدأ حالته في التحسن ظاهريًّا، ليس فقط لأن التحسن يتطلب تمزيق الدفاعات النفسية القديمة، ولكن أيضًا لأن المرضى الذين لديهم ضعف في الأنا، والذين تعرضوا للتجاهل زمنًا طويلًا، لا يعلمون شيئًا عن كيفية طلب المساعدة حين الأزمات، ولا يرون أنهم يستحقون اهتمامًا إضافيًّا، لذلك لا تظهر عليهم أمارات القنوط.

أما ثاني الأشياء التي تزعجني في حالة ألانا فهو عدم انتباهي للإشارات الدالة على احتمال إصابتها باضطراب الهوية التفارقي، نوبات الجامود التي كانت تصيبها بعدما تركت الجامعة، والتغيير الذي لاحظته في صوتها وأسلوب كلامها حين حكت لي علاقتها العابرة بالمتدرب الجديد في شركة المحاماة،

ثم حين ظهرت فجأة في عيادتي بلا موعد، كان عليَّ الانتباه لكل هذه الأشياء، كان عليَّ أن أكتشف ذلك وأسألها مَن الذي يتحدث إليَّ، ورغم ذلك فهذه الحالة شديدة الندرة -من الجدير بالذكر أنني لم أقابل تعدد الشخصية لا قبل ألانا ولا بعدها- لذا لم يخطر ببالي بتاتًا كتشخيص محتمل.

إن إرساء التشخيص عملية فكرية قوية، ولكنها مجرد نظام إرشادي وليست قواعد جامدة وسريعة، لذلك لا ينبغي للمعالجين النفسيين تعبيد أنفسهم للعملية، فلكل شيء درجات مختلفة، وأحيانًا ما يكون لدى المريض بضع لطخات ولا يكون مصابًا بالمرض المكتمل الأركان، كما إنني حتى الآن لست متيقنة هل كانت ألانا مصابة باضطراب الهوية التفارقي أم لا، إذ لم تظهر الشخصيات المختلقة سوى مرات معدودة في ظروف شديدة التطرف، لا شك أن ألانا كانت واقعة على طيف تفارق الهوية، لكنها لم تكن قط حالة واضحة وبسيطة.

***

كانت ألانا تحرز تقدمًا، لقد ازدادت قدرتها على خفض صدى تسجيلات آرت المتردد داخل رأسها، ولم تعد تشعر بأنها محاصرة حين تقابل أناسًا لا يروقون لها، كما اقتدرت على اختيار من تصادق ومن تبتعد عنه.

انتهت مرحلة «المراهقة الجامحة» سريعًا، وبدأت أهمية الجنس تتراجع في حياتها، بل صارت -بعد مرور عام على علاقتها العابرة مع المتدرب الجديد- تلاقي صعوبة بالغة في ممارسة الجنس إلا إن كان سكرانَ، لخوفها من أن يرى أحد أعضاءها التناسلية المشوهة، ولأن الجنس يذكرها بأشياء تنفر من تذكرها مجددًا، فوجدت أن الامتناع عن ممارسة الجنس هو القرار المناسب لحالتها النفسية، وعلى أي حال فإن الندوب الناتجة من تشويه جدتها لها ثم من عمليتها الجراحية قد عطلت معظم أحاسيس الجماع لديها، لقد أشارت ألانا إلى أنها مرت بمرحلة «فظيعين عند السنتين» ثم إلى «المراهقة» ثم مباشرة إلى «سن اليأس» في غضون عامين لا أكثر!

ضحكنا معًا وأخبرتها أنها أخيرًا لحقت بي.

***

حدث شيء كان إشارة واضحة لي بأن رحلتنا العلاجية أوشكت على الانتهاء، حين نشرتُ عام 1999 كتابي «على مقربة شديدة من من الشلالات» Too Close to the Falls، وهي مذكراتي التي أحكي فيها عن طفولتي، افتتنت به ألانا، بل حفظت بعض فصوله غيبًا، فلكوني المعالجة النفسية فلم أكن أتكلم عن نفسي، لذا استمتعت ألانا بأن تعرف عن حياتي كما أعرف عن حياتها (وتأثرتْ للغاية بمعرفتها أنني أيضًا كنت طفلة غريبة)، كما وجدت متعة كبيرة في القراءة عن طفولة سعيدة حيث يكون الأبوين طيبين، فلطالما افترضت أن من يحكي عن الطفولة السعيدة يتخيل ويبالغ ليس إلا، قرأت ألانا مذكراتي وكأنها قصة أطفال عجائبية. وكان جزؤها المفضل من الكتاب الذي يحكي عن تمشياتي الليلية برفقة أمي إلى المطاعم ونحن ننظر إلى النجوم والكواكب ونتظاهر أننا مستكشفتان راكبتان جملًا، كما ذكرتُ أنني حين كنت في سن السادسة كانت أمي تنصت لتفسيراتي الطفولية للظواهر العلمية والاجتماعية وتتظاهر بالذهول.

اغرورقت عينا ألانا بالدموع وهي تتذكر هذا الجزء من الكتاب، كانت تلك المرة الأولى التي تبكي فيها هكذا في وجودي، وأخيرًا كفكفت دمعها وقالت: «هناك مرة واحدة عاملني فيها آرت بلطف، كنت قد نسيتها تمامًا إلى أن قرأت الكتاب، لقد أيقظني ليلًا وطلب مني الخروج معه ليريني ظاهرة الشفق القطبي، إن أضواء الشمال تقدم عرضًا ضوئيًا مذهلًا في السماء، تذكرت كيف كان البنفسجي والأخضر والأحمر القاني يلفون السماء ويطوقونها، لقد أخبرني آرت عن السبب العلمي وراء هذه الظاهرة كما أخبرني كل شيء عن الأساطير التي تفسرها عند مختلف القبائل البشرية، من الحضارة الإتروسكانية التي أسمتها **أنوار الرياح**، إلى الصينين الذين سموها **شموع التنانين**، استلقينا على ظهرينا نشاهدها وقتًا طويلًا، ثم عدت لغرفتي وخلدت للنوم».

ثم نظرت إليَّ ألانا بابتسامة خفيفة ساخرة وقالت: «جلد، لن تصدقي ما فعلتُه منذ يومين»، وطال صمتها، ثم قالت: «اتصلت بآرت. بحثت عن رقمه وأعطيته رنة».

لم أستطِع تصديق الأمر، وغرقت في صمت ذاهل وهي تحكي لي تفاصيل المكالمة: «أخبرته من أنا فقال: «لن تنتهي المعجزات أبدًا، كيف حالك؟»، كان بشوشًا، يستطيع أحيانًا أن يكون بهذا المرح حين يجتمع ميله لذلك مع تعاطيه التوليفة الصحيحة من المخدرات، فأخبرته أنني اتصلت به لأنني قرأت

كتابًا ذكرني بتلك المرة التي أراني فيها الشفق القطبي، فتذكر الموقف جيدًا وتحدثنا عنه باستفاضة، ثم علمت أنه يلعب ألعاب الفيديو ذاتها التي ألعبها، فتحدثنا أيضًا عن كيفية العبور للمستوى التالي، لم يسأل لا عن جريتشن ولا عن غيرها، لكنه سألني هل أود ملاقاته لاحقًا فأخبرته أنني مشغولة فتمنى لي الحظ وانتهت المكالمة».

فقلت: «عجبًا»، لم أستطع قول غير ذلك، ثم تمكنت أخيرًا من قول: «هل تفكرين في مقابلته؟».

- ولا بعد مليون سنة، عندما أخبرت جريتشن أنني هاتفته سدت أذنيها وقالت: «كفى! إنك ترعبينني»، فأغلقت الموضوع.

عندما سألت ألانا عن شعورها الحالي تجاه ذلك أخبرتني إنها مسرورة بمهاتفتها له، وقالت: «أظن أنها قوَّضت قواه في عقلي اللاواعي، لقد أصبح الآن مجرد عجوز حطمه الخمر، أثَّر الويسكي على صوته الذي يتخلله سعال المدخن، لم أكن مرتعدة حين انتهت المكالمة، لم أعد طفلة في سن الرابعة ولم يعد الوحش الكاسر الذي ينفث نارًا، لقد صرت راشدة الآن ولم يعد قادرًا على السيطرة عليَّ.

ذكَّرتُ ألانا بأنها ظلت تحارب آرت طوال حياتها، وحين شعرت بتهديد عارم وعجزت عن التعامل مع تسجيلات آرت استدعت كلوي، وروجر، وأموس، ومعًا ألحقوا به الهزيمة.

فقالت ساخرة: «يتطلب الأمر قرية بأكملها لتنشئة طفل».

كيف حافظت ألانا على سلامتها العقلية؟ أعتقد أنها قد وجدت معنى لحياتها كما يقول فيكتور فرانكل في كتاب «الإنسان والبحث عن المعنى»، كان عليها الاعتناء بجريتشن، وظلت تخبر نفسها كل يوم أن لمعاناتها غاية أسمى، وقد كانت لصالح شخص آخر، لقد طردت من رأسها كل الأفكار المتعلقة بالانتحار أو بالهروب من أجل أختها، ولم تغمد سيفها قط مهما اشتدت المعركة.

بعد فترة قصيرة من مهاتفتها آرت قالت لي: «أتعلمين يا جلد، أرى أن نختتم رحلتنا هنا، أظن أنني قد فعلت كل ما يمكنني فعله هنا، كنت في السابق أتحرى شوقًا إلى المجيء هنا، ولكنه الآن صار مجرد موعد».

اتفقت أننا وصلنا إلى نهاية الطريق، ورغم شعوري بالسعادة لأنها قد حققت الكثير فقد شعرت أيضًا ببعض الحزن، إذ كنت معجبة جدًّا بها وعلمت أنني سأفتقد صدقها وذكاءها، ولكن أشد ما سأفتقده هو شجاعتها، لقد أردتها أن تستعين بذكائها الخارق لتصير عالمة رياضيات أو محامية، ولكن الضغط الناجم عن هذا كان أكبر من قدرتها على التحمل، كانت هذه أحلامي أنا لا أحلامها، كما أن الزمن يجري، لقد كانت على وشك إتمام الأربعين.

احتفظت ألانا بوظيفتها في شركة المحاماة، وكانت تتلقى علاوة كبيرة كل سنة، وأخبرتني أن كلوي لم تظهر ثانية قط، وأن تسجيلات آرت صارت أشد خفوتًا من أي وقت مضى، بل أحيانًا تمر ساعات وساعات من دون أن تسمع منها شيئًا، وأنها لم تعد بحاجة إلى تشغيل برنامجي كلوي وروجر، ثم قالت ببساطة: «لم أعد بحاجة إليهما»، ولكنها اعترفت بأن أموس لا يزال معها، وقالت ضاحكة: «كم أحب هذا الفتى».مكتبة سُر مَن قرأ

***

بعد ذلك بسنوات، في أثناء تحضيري لهذا الكتاب، بحثت عن ألانا على «الفيسبوك» وراسلتها، فأخبرتني أنها بخير، ولكنها لا تريد أن نلتقي لأنها -على حد تعبيرها- في «مرحلة البيات الشتوي»، لا نزال نتراسل عبر البريد الإلكتروني، فهي طريقة ألانا الفضلى في التواصل، وقد اشتملت إحدى هذه المراسلات على أخبار غير متوقعة: كانت ألانا تلعب إحدى ألعاب الفيديو العنيفة لسنوات عديدة مع ملايين اللاعبين الآخرين، لكن كل من يلعب هذه اللعبة لديه اسم مستعار، فلا أحد يعرف هوية خصمه، في هذا النوع من الألعاب يوجد ترتيب عالمي للمتنافسين، وقد كانت ألانا بالقرب من القمة، ولكن كان هناك لاعب ظل يهزمها، كتبت لي ألانا:

«كان ماكرًا، وسريعًا، وماهرًا، وبدا أنه يعرف دائمًا فيم أفكر وما سأفعل، لكنه منذ قرابة ثلاث سنوات توقف فجأة عن اللعب، فاكتسبتُ أنا اللقب (أتفه إنجازاتي الحياتية حتى الآن)، ثم اكتشفت أن هذا الشخص هو آرت، لقد كنت أحاربه طوال الوقت كما ظللت أحاربه في الحياة الحقيقية، وأنه توقف عن اللعب لأنه مات، لقد عثروا على جثته في منزلنا القديم، وذلك بعدما انقضت فترة طويلة على موته».

لخصت لي ألانا حياتها بقولها إنها لا تزال تعمل لدى شركة المحاماة، عزباء، تعيش بمفردها مع قطها فونت الثاني، ثم اندهشتُ أنها تعيش في المجمع السكني ذاته الذي تعيش فيه أمها وأنهما يتزاوران طوال الوقت، كما أخبرتني أنها على علاقة وطيدة جدًّا بجريتشن وطفليها اللذين صارا في الجامعة، وللأسف فقد كانت جريتشن آنذاك تعاني اشتداد اضطراب كرب ما بعد الصدمة، الارتدادات الذكروية للمخدرات، وآثار الصدمات النفسية الأخرى المتعلقة بآرت، كانت ألانا مستاءة من ذلك، إذ كانت آملة في أنها قد حمت جريتشن من آرت.

وزعت ألانا معظم وقتها على هوايتين أساسيتين: الملاكمة والفيزياء، كانت خبيرة إلى حد ما في نظريتي الأوتار والحقل الكمومي، وشاركت في العديد من مجموعات الدردشة عن الفيزياء بالإنترنت، كما حافظت على علاقة صداقة وثيقة بكريستوفر حتى بعد وفاة فونت الأول، ولم يدخل أيٌّ منهما في علاقة طويلة الأمد بعد انتهاء زواجهما.

حين سألتها عن صحتها العقلية قالت إنها تعلمت حراسة حدودها بضراوة، وأنها احتاجت إلى الروتين، وفوق هذا الأساس تقوم بـ «غزوات» في الأشياء التي تثير اهتمامها، كان أحد هذه الأشياء دورات تعليمية عبر الإنترنت من «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا» MIT، لكن حين طلب منها أحد الأساتذة أن تكتب تعليقها ليراه الجميع على الشاشة رفضت ذلك قائلة إنها تستحسن البقاء على الهامش، ثم أخبرتني أنها تعرف أوجه قصورها، ولذلك -رغم الصغر الشديد عالمها- لن «تتحمل أي هراء»، كما أخبرتني أنها ليست بحاجة إلى أي شخصية بديلة أو منشقة لتحقيق ذلك.

لم تعد تسمع تسجيلات آرت إلا حين الإنهاك أو فعل شيء ضاغط للغاية، وكتبت: «لكنني الآن أشغل تسجيلات جلد»، فسألتها ببعض الرهبة عن فحوى تلك التسجيلات فردت بعد بضعة أيام قائلة:

«تسجيلات جليد هي تفريغ لمحتوى أشياء كنتِ قد أخبرتِني بها، وأحد التسجيلات التي أستمع إليها بكثرة هو حين أخبرتني أنني بطلة، أتخيل نفسي كما ثيسيوس الأسطوري وهو يطعن الميناتور الذي اتخذ هيئة آرت، فحين يمطرني آرت بسخافاته واستخفافاته أخبره أنني لو كنت ضعيفة كبعض الناس لانتهى بي المطاف أتغوط على نفسي في حفاضات، وأعتقد أن 2+2=5. ثم أخبره أنه محظوظ لأنني لم أقتله.

هل تتذكرين حين قلتِ هذا؟ أسمع صوتك وهو يدعوه بالنرجسي الجبان. وغالبًا ما ينسجم معك أموس هو الآخر فأتمكن من إخراس آرت».

ثم لخصتْ حياتها كالآتي: «أعمل على حراسة حدودي ككلب شوارع، وأشعر بالأمان والسعادة طالما بقيت في منطقتي الآمنة المألوفة».

سألتها بما انتفعت به من العلاج النفسي، إن كان قد أفادها بأي شيء، فكتبت تقول:

عليَّ أن أعترف أنه غيَّر حياتي للأفضل، بادئ ذي بدء، لم أعد أصاب بـ «النوبات الاختلاجية»، وذلك *أمر جلل*، وذلك بفضل عملك الدؤوب على استقصاء «المحفزات» (أشعر أن محفزات كلمة مستهلكة وعادة ما يساء استخدامها هذه الأيام حتى إنني لا يمكنني منع نفسي من الإشاحة بناظري والشعور بالحرج كلما استخدمتها)، وشرحك الدائم لي عن ماذا يحدث ولماذا، إنه لمن الرائع أن يفهم الإنسان ما يحدث داخل عقله، حينئذ يقتدر على السيطرة عليه، وبذلك استطعت منع عقلي من السيطرة عليَّ لو حدث ما يهدد بإيقاظ ذكريات أكره معاودة عيشها، ورغم أنني كنت أبغض كل ثانية من العلاج النفسي، وظللت إلى عامه الأخير أتقيأ وأصاب بالطفح الجلدي قبل كل جلسة، فقد كان حقًا أفضل شيء فعلته لنفسي على الإطلاق.

وأخيرًا سألتها هل هناك ما تتمنى أن لو كانت فعلته في حياتها.

- **ليتني قتلت آرت.**



مادلن

«مرآتي مرآتي على جداري، من هي أجمل من في الأراضي؟».

- الأخوان جريم: *«قصة بياض الثلج» Snow White*

1

الأب

إن آخر حالة قابلتها في مهنة العلاج النفسي أثبتت أنها إحدى الحالات الأشد روعة، وبالتأكيد الأشد استثناء (يدهشني مدى تلازم الروعة والاستثنائية في حياتي)، كانت مادلن أرلِنجتون تاجرة تحف في «مقاطعة مانهاتن» Manhattan تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، ترعرعت في تورونتو مع أم مضطربة اسمها شارلوت، وأب متذبذب اسمه دنكان، ودنكان هو من هاتفني ليطلب مني معالجة مادلن، وهي مكالمة هاتفية تلقيتها بعد ست سنوات من التحاقه هو بالعلاج النفسي فترة وجيزة معي، وحين أعود بالذاكرة للأخطاء التي ارتكبتها في حالة الأب، وامتدادًا إلى حالة الابنة، فالطريقة الوحيدة التي أستطيع بها تفسير ذلك هو أنني وقعت في براثن طرح أبوي شديد.

قد يعني الطرح أمورًا عديدة، المعنى الأول ببساطة هو قوة العلاقة بين المعالج والمريض، وقد يعني -كما اقترح فرويد- شيئًا أكثر تعقيدًا، مثل إعادة توجيه المشاعر التي اختزناها دون وعي منا خلال طفولتنا، فقد يطرح المريض مشاعره المتعلقة بولي الأمر، أو غيره من رموز السلطة، على المعالج، فمثلًا: حين وصفت داني بأنه «وسيم» طرح عليّ مشاعر طفولته المتمثلة في الغضب من الكاهن المسيء في مدرسته الداخلية، الذي وصفه هو أيضًا بأنه وسيم، وتوجب على كل منا العمل على استغلال هذا الطرح،

وهي عملية ساعدت على كشف الغطاء عن ألمه المدفون، كما كانت شديدة الأهمية لنجاح العلاج.

هناك أيضًا الطرح المضاد، حيث تتولد لدى المعالج مشاعر تجاه المريض، وعادة ما يحدث هذا دون وعي، لكن المشاعر اللاواعية يمكن أن تكون أعتى وأخبث ما يقود سلوكياتنا، وليست المشكلة مقتصرة على الطرح المضاد المبدئي، فهي ممتدة أيضًا إلى أن المريض يلاحظ ذلك، ويتعلم التلاعب بالمعالج، وهذا ما حدث حين طرحت دون قصد مشاعري المتعلقة بأبي الراحل على والد مادلن، الذي يكبرني بخمسة وعشرين عامًا، ورغم أن دنكان لم يقضِ سوى فترة وجيزة في العلاج النفسي، ورغم كون ذلك قبل سنوات عديدة من التحاق ابنته بالعلاج، فسوف يؤثر هذا في نهاية المطاف على علاجي لمادلن بطرق باغتتني على حين غرة، ولهذا سأبدأ قصة مادلن بسرد العلاج النفسي القصير المكثف الذي خاضه أبوها.

في عام 1998 هاتفني دنكان أرلنجتون -الذي كان آنذاك في سن السبعين- طالبًا المشورة الزواجية، كثيرًا ما كنت أرى اسمه في ألواح أجنحة المستشفيات وفي الأقسام الاجتماعية والتجارية بالصحف الإخبارية، إذ كان من «عائلات الواسب» WASP، وهي أشد العائلات عراقة وثراء في تورونتو، وحين أخبرت دنكان أنني لا أقوم بالمشورة الزواجية رد ببسالة: «هذا جيد، لأنني لست متزوجًا في الواقع، إنني أعيش برفقة امرأة -رغم أنني أحبها- مفسفسة»، تفاجأتُ بشدة من «مفسفسة»، فهي صياغة غير مألوفة من رجل في السبعينيات من عمره.

تركته بطريقة ما يقنعني بأن أقابله بمفرده كي نستطيع مناقشة العلاقة، ولكنه حين جاء لموعده كانت برفقته خليلته، كارين، وللأسف أقنعني دنكان بمقابلتهما معًا، رأيت سبب كونه رجل أعمال ناجح، كان لديه مزيج مربح، قوة خالية من العبارات الرنانة، وقبل إذني لهم بدخول مكتبي ابتسم دنكان ابتسامة عريضة وناداني «كاثي» بدلًا من د.جلندر، وقد ذكرني بأبي الأمريكي، الذي كان هو أيضًا رجلَ أعمال منفتحًا وواثقًا بنفسه، وودودًا، ولو كان حيًّا لناداني هو أيضًا بـ «كاثي» تلقائيًا بدلًا من د. جلندر، ولارتدى هو أيضًا سترة البدلة التويدية ذاتها مع القميص الرسمي.

آنذاك كانت كارين -بشعرها البني الملفوف في شكل كعكة- شبيهة إلى حد مذهل بواليس سيمبسون، المطلَّقة الأمريكية التي تنازل دوق وندسور عن

عرشه من أجل أن يتزوجها عام 1936، ولكني حين رأيتها في سن الحادية والسبعين بدت مختلفة للغاية عن الزوجة الجذابة، وحينئذ كانت ترتدي سترة زرقاء داكنة وسروال امتطاء الخيول، سبعينية في زي راعية البقر، ملبس غريب في أول لقاء لك مع معالج نفسي.

علمت في الجلسة الأولى أن دنكان أحب كارين حين كانا في المدرسة الثانوية، وأنهما ارتبطا قبل سفره إلى الجامعة، ثم قال (وهو يبتسم بمحبة ممسكًا بيدها): «كانت أجمل فتاة عند مرسى القوارب ومسبح النادي الريفي»، لكن كارين، التي تضايقت من رحيله ونبذه لها وراء ظهره، سرعان ما تزوجت بعد فترة وجيزة من خطبتهما من شخص آخر، رجل سيتركها في نهاية المطاف مفلسة برفقة أربعة أطفال صغار، ثم في الأوقات العصيبة التي تلت ذلك أصيبت بالعديد من الانهيارات، والتي تطلبت العلاج بالصدمات الكهربائية والحجز في المستشفى، كما لاحظتُ أن كارين تبدو أكبر من سنها، كانت هزيلة البنيان، وبين أصابعها آثار السجائر، مع صوت المدخنين الغليظ المرهَق.

شعر دنكان بخيبة شديدة حين عاد للديار ليتفاجأ بخطيبته متزوجة من رجل آخر، بعد ذلك -في أثناء زيارته لأبناء عمومته الأثرياء في «جزيرة مارثا فينيارد» Martha's Vineyard- التقى شقراء فاتنة الجمال كانت تقيم في المنزل اسمها شارلوت. وسرعان ما تزوجها قبل تعافيه التام من حزنه، ولم يكتشف أن زوجته الجديدة ليست سوى امرأة دنيئة أرسلتها أمها إلى هناك للإيقاع بدنكان، إذ بمجرد سقوط الشاب الثري في شباكها سيتوجب عليه الاعتناء بأسرتها المهترئة، وقد نجحت الخطة.

أنجب دنكان من شارلوت طفلة واحدة، مادلن، ولكن على مر السنين خانته شارلوت مرات عديدة، وفي نهاية المطاف تركت دنكان وابنتها ورحلت برفقة رجل آخر. وفي أعقاب ذلك أعيد شمل دنكان وكارين مجددًا، وكانا آنذاك في أواخر الستينيات. وحين التقيت بهما كانا يعيشان معًا، دون زواج، منذ أربع سنوات.

حين طلبت من الزوجين وصف المشكلة الرئيسة التي تزعجهما أطلقت كارين العنان لسيل من الاستهجانات، فقالت: «دنكان وغد بخيل لا ينفق قرشًا، أعيش في قصر فسيح، لكن معظم الغرف مغلقة لأنه يرفض إضافة مكيفات هواء بها، والأثاث مغطى بملاءات بيضاء، ينهار المكان من حولنا

لكنه لا يصلح شيئًا ولا يسمح لي بتزيينه، إلى جانب أن جميع الديكورات من صنع شارلوت، زوجته السابقة، أو بالأحرى **زوجته الحالية**. إنه ضريح لتحف والدته وابنته المدللة اللعينة، التي تتاجر في التحف بمانهاتن، ربما سمعتِ عنها: مادلن أرلنجتون». كنت قد سمعت عنها فعلًا، إذ كانت تُذكَر في كل مكان بأنها الكندية التي حققت نجاحًا باهرًا في نيويورك.

أومأت كارين كمن يلتقط نفَسًا من سيجارة ثم صعدت زفرة وقالت: «لذا طفح كيلي ذات يوم في العام الماضي، حيث تجولت في أرجاء المنزل مكسرة كل تحفة أمامي لوالدته. فعلمت الابنة الخبيثة هذا الأمر، فعادت للمنزل، واستدعت الشرطة، وحثتهم على اعتقالي، وحينما دخلت المنزل ظننت حقًّا أنها ستقتلني، وعلمت أنني قد ألقى حتفي».

ذهلتُ مما فعلته كارين ومن الأسلوب الواثق المتباهي الذي وصفت به سلوكها المدمر، كأنها نابليون في المعركة، لماذا اختار هذا الرجل البارز مثل هذه الرفيقة المتوحشة؟ لكننا كنا في مرحلة باكرة جدًّا من العلاج فلن نستكشف هذه القضايا، لذلك واصلت جمع المعلومات من خلال سؤالهما عن مدى الضرر، فقال دنكان (بنبرة متزنة، كأنه يصف الطقس): «لقد حطمتْ مئات الأشياء، وقال المثمنون إن الساحة تساوي ملايين الدولارات، لقد كانت بعض القطع لدى عائلتي منذ أجيال، وهي -في الواقع- ملك لابنتي مادلن، فلقد تركتها أمي لها، لكن مادلن لم تأخذ التحف برفقتها حين انتقلت للعيش في مانهاتن، إذ تركتها داخل ما اعتبرته بيت طفولتها».

فاقتحمت كارين الحوار صائحة: «أي سخف هذا؟ إذن أعطني أي مال لشراء بعض الملابس والاعتناء بحصاني بدلًا من إنفاق ملاليمك على كل التفاهات التي تعتبرها ضرورية. إن النساء اللاتي يعشن على قسائم المعونات الغذائية يتمتعن بحرية أكبر مني».

- لقد اشتريت لك ثلاثة خيول وإسطبلًا الأسبوع الماضي.

- لقد اشتريتَ المزرعة، أجل، لكنها باسمك **أنت** وكل شيء متروك لمادلن. لو متّ غدًا فلن أحصل على شيء. كلا، لن تدخل ابنتك العاتية منزلنا إلا بعدما تتزوجني، أو تدرجني في وصيتك، أهي تراه منزلها وتخزن فيه تحفها وأنني **أنا** المتطفلة! لديها الكثير لتتعلمه، **وربما لن تطأ قدمها هذا المنزل ثانية!**».

فوجئتُ أيضًا بأن دنكان تلقى كل هذه الإساءات برباطة جأش مدهشة. بل ظل مبتسمًا طوال تلك الخطبة، وحين سألته كيف تعامل مع مطالب كارين قال: «لقد منعتُ ابنتي من دخول المنزل منذ عام حتى الآن، لكنني لا أحب ذلك».

فقالت كارين: «اللعنة! أنا لست مجرمة».

فالتفت دنكان نحوي قائلًا: «حسنًا يا كاثي، ها هي مشكلتنا، لا أستطيع الزواج من كارين لأنني متزوج بالفعل من شارلوت، وهي محقة: أنا وغد بخيل، وأرفض إعطاء شارلوت نصف ممتلكاتي، ولهذا لن أطلقها».

فقالت كارين: «وترسل إليها ثروة كل شهر، أنت مرعوب منها وما زلت تحبها».

- أرسل إليها ما يبقيها بمنأى عني.

- أنت جرذ خائف، وتترك مادلن -الآنسة الصغيرة- تحكم حياتك.

- رغم أنني في الواقع لا أمنحك المال أو الزواج فإنك تعلمين أنني أعشقك.

حاولت التدخل في أثناء سباب كارين، لكنها واصلت مقاطعتي، حين يلتحق الناس بالعلاج النفسي فغالبًا ما ينفثون غضبهم أولًا، ثم -في الجلسات اللاحقة- نستقر إلى العمل العلاجي، ولهذا تركتها تفجر بركانها، كان جليًّا أنها سريعة الثوران، كما رأيت أنها جامحة بعض الشيء. لكن سلوك دنكان كان غير مألوف، إذ كان غير منزعج بل ودودًا طوال تقريعها السام.

بعدما غادر الزوجان مكتبي هويت في كرسي مكتبي، لمَ تركتُ كارين في الغرفة بعدما أعلنت أنني لا أقوم بالعلاج الزواجي؟ ماذا كان خطبي؟

بدأت في الجلسة التالية بالسؤال عن سبب اختيار دنكان وكارين لبعضهما، كنت آمل استخلاص شيء جيد عن العلاقة لتهدئة كارين، فطلبت من دنكان أن يبدأ أولًا فقال إن لديهما حياة جنسية رائعة (حينئذ لاحظتُ الازدراء في حركة عيني كارين)، ويحظيان بالكثير من المرح معًا، ولديهما العديد من أصدقاء الطفولة المشتركين، وحين أشرت إلى أن كارين تبدو غاضبة قال: «آه، هذا لا شيء»، ثم ضحك وقال: «كان يجب أن تقابلي شارلوت».

من النادر أن يبتدأ الرجل بنفسه العلاج الزواجي، لكن دنكان هو الذي التمس المساعدة، وقال إن مصدر قلقه الرئيس هو أن ابنته الوحيدة، مادلن،

محظورة من دخول منزلها، ولا حتى في الكريسماس، في حين أن أطفال كارين الأربعة يزورونهما على نحو دوري، وأستطيع القول إن هذا أزعجه، فقد كان هذا هو الأمر الوحيد الذي إلى حد ما اخترق -بطريقة ما- قشرته المبهجة المنيعة.

فكان رد كارين: «لا أكترث لذلك يا روميو، «**اختر!** إما هي وإما أنا»، وبدا أنها لن تتزحزح عن رأيها.

سعيت إلى إعادة تأطير الموقف كيلا يصير مخاصمة، لكن بدا أن كلًّا منهما يستمتع بالمجادلة، وبهذا تعثرت عملية المشورة الزواجية، وعزوت ذلك إلى فشل الاحتياجات التكافلية في حالتهما، حيث يحرم دنكان كارين من الأمن المالي وتحرمه هي من الحب. ورغم ذلك فلست متيقنة من أنه كان راغبًا في حب حقيقي، لقد أراد فتاته الخيالية التي ترتدي ثوب السباحة عند مرسى القوارب، لقد أراد عودة شبابه.

لم يحضرا سوى بضع جلسات، وفي كل مرة يصيران أشد رسوخًا في مواقفهما، ولم أجد ولو شرارة وعي منهما بكيفية مساهمة كل منهما في المشكلة، إما أنهما لم يكونا راغبين في مساعدة حقيقية، وإما كانا جاهلين بالهيئة التي يفترض أن تكون عليها العلاقة الحقيقية، أو أنني ببساطة كنت مفتقدة لمهارات المشورة الزواجية إلى حد يرثى له، وربما كان مزيجًا مما سبق، آنذاك أدركت أنني ماهرة في مناصرة المنتفع، لكن التوسط -أيًّا ما كان نوعه- ليس موطن قوتي.

***

بعد ثلاث سنوات، في عام 2001، حين صرت في أوائل الخمسينيات، مررت بإحدى لحظات «أكون أو لا أكون»، قررت ترك عيادتي الخاصة والبدء في مسار الكتابة الإبداعية، كنت قد استمعت إلى سِيَر الآخرين خمسة وعشرين عامًا، والآن حان وقت كتابة قصتي الخاصة. لذا تركت عيادتي وجميع جمعياتي المهنية، وسررت بالعمل داخل بيتي في حجرة الطابق الثالث، حيث بدأت في كتابة مذكراتي: «على مقربة شديدة من الشلالات»، ثم تبع ذلك «بعد الشلالات» After the Falls، و«الوصول للشاطئ» Coming Ashore.

لكن عام 2004، في خضم تأليفي رواية عن داروين وفرويد بعنوان «إغراء» Seduction، انتزعتني مكالمة هاتفية مباغتة من تقاعدي. كانت من دنكان أرلنجتون، وآنذاك لم أكن رأيته منذ ست سنوات.

أراد دنكان مني مقابلة ابنته مادلن بصفتها مريضة. فعرضت عليه إحالته إلى زميل لأنني آنذاك كنت قد توقفت عن ممارسة العلاج النفسي، فشرع في الثناء عليَّ بالعون الكبير الذي قدمته له سابقًا، ثم سألني -بأسلوب تفاوضي تقليدي- عما أحتاجه للموافقة، فأوضحت أن الأمر لا يتعلق بالمال، وأنني تركت العلاج النفسي من أجل المسار الأدبي، فقال: «أترغبين في أن توضع جميع كتبك بزجاج العرض في جميع مكتبات تورنتو؟ تعلمين أن أموال التسويق هي ما تفعل ذلك»، وحين رفضت جرب أساليب أخرى: «أترغبين في أن أشتري ألف كتاب ثم أوزعها على الناس؟»، كان هذا مغريًا، لكنني رفضت مرة أخرى.

ذهبت في اليوم التالي إلى مقهاي المحلي فوجدته هناك، متكئًا بمفرده في جناح رباعي، لا شك أنه قد تتبعني، ابتسم ابتسامة صبيانية، ثم انضم إليَّ في جناحي، وأخبرني أن مادلن تعاني قلقًا شديدًا. وأنها تعاني من ثلاث موجات سرطانية، كل منها من نوع مختلف، وهي لم تبلغ الأربعين بعد، وفي غضون ذلك قال إن أمها، شارلوت، تثبطها وتحقر من شأنها عند كل منعطف، ووصف ذلك قائلًا: «صدقيني، كارين أشبه بالأم تيريزا لو قارنتها بزوجتي شارلوت»، لذا أظن أنه كان مدركًا أن كارين -التي ما زالت تعيش معه- وحش مفترس (كانت ابنته لا تزال -بعد كل هذه السنوات- ممنوعة من دخول المنزل).

فأشرت إلى أن مادلن تعيش في نيويورك، فعرض دنكان أن يدفع لي مقابل يوم عمل كامل بالإضافة إلى تكاليف السفر وسائق يقابلني في «مطار لاغوارديا» La Guardia، ثم أثنى عليَّ مرة أخرى وتملقني قائلًا إنني الشخص الوحيد الذي فهم حقًّا الموقف المتعلق بكارين، تدميرها للتحف و«فرمانها المنعي» ضد مادلن، وفقًا لتسميته.

قبلتُ على مضض مقابلة مادلن ست جلسات بحد أقصى، وسوف تتحول تلك الجلسات الست إلى أربع سنوات.

هناك أمور أسوأ من التواجد في مانهاتن يومًا واحدًا في الأسبوع.

2

الابنة

كانت مادلن مشتهرة في بعض الدوائر بأنها الوريثة الشابة الغنية التي تمتلك شركتها الخاصة لتجارة التحف، كما اشتهرت بأنها **الشقية الوقحة** التي تقود بسرعة البرق سيارتها الفيراري الرياضية المكشوفة البرقوقية اللون في أرجاء «منطقة هامبتون» Hamptons.

كان مكتبها في «حي تريبيكا» Tribeca داخل مبنى يشتمل على مطعم فاخر في الطابق الأرضي، ثم مكتبها في شقة بالطابق العلوي، ثم أربعة طوابق مخصصة لتجارة تحفها، وهي تعيش في جناح بالطابق الأخير المشتمل على حديقة سطح فسيحة، لقد اشترت جدتها هذا المبنى بثمن بخس عام 1975 حين كانت نيويورك على وشك الإفلاس. حين وصلتُ أعلن رجل الأمن وصولي عبر جهاز اللاسلكي الخاص به ثم رافقني، فرد عليه شخص من مكتب الاستقبال قائلًا: «آه، إنها د. جلدنر، الحمد لله! لا يمكننا تحمل أكثر من ذلك، مادلن موجودة داخل مكتبها مع العملاء، أدخلها».

كان المكتب مزودًا بأسقف عالية ونوافذ مقوسة مرتفعة تملأ الغرفة بالضوء، وأعمدة كبيرة موزعة بشكل مثير للإعجاب في مساحة تبلغ بلا شك خمسمائة متر مربع، هذا وكانت الجدران من الطوب والأرضية من الخشب الصلب العريض.

رأيت الموظفين يركضون ركضًا محمومًا كنمل دهس أحدهم منزله المنظم، كان الرجال -الذين يتحدثون إحدى لغات أوروبا الشرقية- يزيلون أغلفة التحف من الصناديق الخشبية الضخمة، أما النساء -اللائي يرتدين الأزياء المصممة وأحذية الكعب العالي- فقد كن يواصلن الحوام حولهم لتدوين أي ضرر، وكان موظفو شركات النقل منتظرين التوقيعات، هذا وكانت الجدران مزودة بأرفف مصفوفة ممتدة من الأرض إلى السقف تحتوي على مئات إن لم يكن آلاف من التحف، كل واحدة مربوطة بخيط في طرفه ورقة زاخرة بملاحظات على كلا الجانبين، كما كان هناك كاشف حركة يومض أضواء حمراء عند مرور أي شخص، ولو رغبت في إخراج تحفة من الرف يتوجب عليك أولًا الضغط على زر لإلغاء تنشيط الإنذار، كما كان هناك سلم منزلق بعجلات يمتد من أحد طرفي الشقة إلى الآخر.

كان هناك رجل هزيل مسؤول عن السلم وإخراج التحف من الرفوف، يرتدي بدلة من طراز «أرماني» Armani بقميص تحتي، مع تصفيفة شعر «بيوي هرمان» Pee-wee Herman، ورأيت عند قدمي السلم ستة موظفين واقفين يطالبونه بجلب أشياء مختلفة وهو يصرخ: «كفى صراخًا أيها الخدم! هل سبق أن سمع أحدكم عن الوقوف في الطابور وانتظار الدور؟ يا إلهي، فلتتحلوا ببعض الأدب»، علمتُ لاحقًا أنهم يخزنون التحف الكبيرة في الطوابق العليا، التي يتحكم بها رجل أسود قوي البنية، وهو حرفي يقوم بجميع عمليات الإصلاح وإعادة الطلاء الخشبية، ولا ينبس ببنت شفة، ويرتدي دائمًا تيشيرتًا، وحمالات بنطال، وسراويل مموهة، ويتحكم في باب الدخول بزر يرتديه حول رقبته.

خلال سيرنا إلى مكتب الاستقبال قابلنا موظف آخر يرتدي بدلة مصممة وقال: «حظًا سعيدًا، ستحتاجينه. إن صرخت في وجهك فهذا أسلوبها ليس إلا، رجاءً لا تتخلي عن السفينة، نحن نغرق».

بعد خمسة وثلاثين دقيقة من موعدنا اصطحبتني امرأة ثرثارة اسمها فيينا وهي في حالة من الفزع إلى الركن الخاص الداخلي بمكتب مادلن، وهو إحدى الغرف القليلة المسورة في هذا الطابق، كانت فيينا المرأة البهيجة الوحيدة هناك، ترتدي تنورة قصيرة صغيرة وفانلة سوداء وجوارب طويلة مخططة بالأبيض والأسود مثل تشيشاير في قصة «أليس في بلاد العجائب» Alice in Wonderland، وتمشي في تمام الاسترخاء مؤرجحة ذراعيها

الموشومتين، أخبرتني فيينا أن مادلن مرت بوقت عصيب وأنها ظلت تحافظ عليها من الانهيار إلى يومها هذا، كانت تتحدث عن رئيستها كأنها مكترثة لأمرها وليست كموظف لا يخاف منها.

رأيت عند دخولي المكتب مكتبًا ضخمًا، تقف خلفه امرأة سمراء طويلة ونحيلة، مشدودة الشعر في هيئة كعكة، كانت مادلن شديدة الجمال، ذات بشرة وهَّاجة خالية من العيوب وشفتين ممتلئتين مثل بياض الثلج، ترتدي حذاءً مخمليًا أرجوانيًا ذا كعب عالٍ وثوبًا رائعًا من طراز «برادا» Prada متألقًا من تنورة سوداء طويلة من قماش التفتا وسترة نصفية وردية اللون، طوال حياتي لم أرَ أحدًا غيرها تألق في ملابس «برادا» الغريبة تلك، كما كانت ترتدي أقراطًا كبيرة ماسيَّة مع قلادة ماسية عتيقة (بعد سنوات في علاجنا علَّقتُ بأنني لم أرَها قط مرتدية الزي نفسه مرتين، فعبست وقالت: «إنه مرض»، وعلى الرغم من ذلك فقد كان ماكياج مادلن غريبًا: كان أحمر الشفاه ممتدًا فوق شفتها العليا ليصل إلى نقطتين فوق شقها، والحاجبان مرسومين بخطين بنيين رفيعين، كالممثلات في ثلاثينيات القرن الماضي، ورغم هذا الماكياج الذي عفا عليه الزمن فقد كان جمالها آسرًا.

أخبرت فيينا مادلن قبل أن تغادر الغرفة بأنها ستعلق مكالماتها الهاتفية، ثم قالت (ردًا على وجه رئيستها القلق: «كلا، **سأفعل** خاصية الانتظار، **علينا القيام بهذا**»).

حين جلست مادلن أشرت إلى أنها لا تشبه أباها كثيرًا، فقالت أجل، إنها شبيهة بأمها تمامًا لكن لديها عقل أبيها، اكتشفت لاحقًا أن مادلن ذهبت إلى «جامعة ييل» Yale University، ثم «كلية لندن للاقتصاد» London School of Economics للدراسات العليا، ثم أنشأت شركتها الخاصة لتجارة التحف، واعية بشغفها المتولد في باكورة حياتها من تصنيفها لمجموعات جدتها، حيث اكتشفت أنها تعشق هذه المهنة، فهي تجمع بين إعجابها بجدتها وبين سمتين في عائلتها: البراعة التجارية والنظرة الفنية.

شرعتُ في أخذ التاريخ العائلي، فأخبرتني مادلن أنها -بصفتها الطفلة الوحيدة لأبوين منفصلين- عاشت مع أبيها من منتصف مرحلة المراهقة -إثر رحيل أمها- حتى التحاقها بالجامعة. ثم تزوجت في العشرينيات من رجل اسمه جوي، ثم تطلقت بعد تسع سنوات.

ألقت مادلن قلمها فجأة عند هذه النقطة من روايتها وقالت: «هل يمكننا ترك هذا التاريخ ليوم آخر؟ سأفعل ذلك بالتأكيد، لكن لا بدَّ لي من إخماد بعض الحرائق النفسية أولًا»، وحينما أومأت بالموافقة بدا عليها الارتياح وقالت: «أنا محطمة، لطالما كنت أعاني القلق والسلوكيات الوسواسية القهرية، ولكنني الآن -منذ العام السابق أو نحو ذلك- أصابني الوهن، وهذا يؤثر على المكتب بأكمله، ولو انكسرتُ فسينهار هذا المكان بأكمله».

حينما طلبت من مادلن مثالًا على كيفية تأثير أعراضها على عملها أجابت قائلة: «لا يمكنني السفر أو السماح لأي شخص هنا بالسفر خوفًا من تحطم الطائرة، القضية هي أنني متيقنة من تحطمها، وأفكر في ذلك طيلة الوقت»، ثم قالت إنها كانت معتادة على السفر إلى جميع أنحاء العالم برفقة والديها في الإجازات، وبرفقة جدتها في رحلات الشراء دون أي تردد أو قلق، ورغم أن سلوكياتها القهرية لم تكن تعجزها في السابق فقد استفحلت في السنوات القليلة الماضية.

ثم قالت: «أخبرت جميع من في هذا المكتب أنهم إن لم يساعدوني فسنضطر ببساطة إلى إغلاق الأبواب»، ففهمتُ حينها سبب شعور الموظفين بارتياح شديد عند رؤيتي، وأثار اهتمامي أن مادلن كانت منيعة من ناحية وشديدة التعرض من أخرى، إذ أن رؤساء الشركات الذين يصلون إلى «مجلة فوربس» Forbes لا يعترفون عادةً لموظفيهم -بما في ذلك رجل الأمن- بأنهم ينهارون.

بحلول هذا الوقت صارت مادلين تلتقط أنفاسها بصعوبة، فطمأنتها بهدوء أن العلاج النفسي بمنزلة حل لغز غامض، وأننا نستطيع معًا اكتشاف منابع أعراضها وحل المشكلة، فقالت إنه **ينبغي** لها أن تتحسن لأن أناسًا كثيرين معتمدون عليها، فقلت: «من المثير للاهتمام أن همك الأول هو مسؤوليتك تجاه الآخرين وليس تجاه نفسك، سيقول معظم الناس: «يا دكتورة، أنا لا أستطيع العيش هكذا، **حياتي** جحيم»».

لكن ردها كان مذهلًا: «بصراحة، لا أحد يكترث لأمري، ولا أقول ذلك بأسلوب «أنا المسكينة»، وإنما أقول إن لدي أفواهًا بحاجة إلى الإطعام»، فأدركتُ من ذلك التصريح أن لديها حسًّا مفرطًا بالمسؤولية وتدنيًا في تقدير الذات.

بعد تحديد مادلن لجميع أعراضها رأيت بوضوح أنها تعاني الوسواس القهري والقلق، والوساوس هي أفكار اقتحامية مبغوضة تثير قلقًا، وقد كان لديها أفكار وسواسية متمثلة في أنها ستموت هي وطاقمها في حادث تحطم طائرة، أما القواهر فهي سلوكيات ينخرط فيها الشخص للتخلص من الوساوس وتخفيف القلق، وقد كانت مادلن تلغي الرحلات الجوية إلغاء قهريًا، مما قلل من وساوسها المتعلقة بحوادث الطائرات وخفف من قلقها، ولكنه أعاق تجاراتها.

لم يذكر دنكان ذلك الاضطراب رغم أنه أخبرني بقلقها، كان علاج القلق هو ميداني الرئيس، ودائمًا ما أحيل حالات الوسواس القهري إلى المتخصصين، لذا أوصلت مادلن بطبيب نفسي مشهور في مانهاتن، وقلت إنه يمكننا تجربة نهج مزدوج، بحيث تقابله لعلاج الوسواس القهري وتقابلني للقلق. كان الأمر غير تقليدي بعض الشيء، لكنني شعرت أننا مضطرون إلى معالجة الكثير من القضايا في زمن وجيز، وبينما كنا نناقش هذه الخطة العلاجية إذ انفتح الباب المزدوج لمكتب مادلن ليدخل دنكان قائلًا بمرح: «عظيم جدًّا، كاثي، أنت هنا!».

صاحت مادلن (متفاجئة): «ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟ لا ينبغي لك المجيء إلى مكتبي في منتصف جلسة **علاج نفسي**، اخرج! تمنعني من دخول **بيتك** وتظن أن بإمكانك اقتحام **بيتي**؟».

وحين لم يتحرك من مكانه صرخت قائلة: «أنا جادة، وإلا هاتفتُ الأمن!».

آنذاك رأيت أمام عيني رد الفعل الغريب ذاته الذي كنت قد رأيته قبل ست سنوات حين انهالت عليه كارين بتقريعاتها وتوبيخاتها، إذ قال دنكان (مبتسمًا في حيرة زائفة): «أنا من جلبت كاثي هنا».

ثم سحب كرسيًّا للجلوس، فازداد علو صوت مادلن: «أقسم إن لم تخرج من هنا لأحضرن رجالًا ينقلونك إلى بيتك كما يُنقل البريد، رغم فعلتك الشنعاء لا تتركني أتلقى العلاج النفسي من دون تصرفاتك الحمقاء، أخرق متسلط».

فرد دنكان قائلًا: «رائع»، ثم هم بالخروج وقال: «أترغبين في تناول العشاء فيما بعد؟».

فصعقتُ حين وجدتها ترد بهدوء تام قائلة: «حسنًا، فيما بعد»، ثم غادر، فأومأت مادلن رأسها تجاهي وحركت عينيها في ازدراء ثم قالت: «آسفة على المقاطعة، أين كنا؟».

***

استغرق الأمر أكثر من ثلاثة أسابيع لتجميع تاريخ حياة مادلن المعقد، ومن اللافت للنظر أنها من حين لآخر كانت تصيح عبر جهاز الاتصال الداخلي قائلة: «**طوارئ ستاربكس!**» فيهرع رجل وظيفته الوحيدة الركض إلى «مقهى ستاربكس» Starbucks وإحضار عبوات ضخمة من مشروبات ذات أسماء معقدة.

أخبرتني مادلن أن أمها، شارلوت، كانت رافضة الإنجاب مطلقًا، لكن دنكان تساءل عما سيفعلانه بأموالهما: لمن يتركانها؟ فقالت شارلوت -كما قالت كارين من بعدها- إنهما يستطيعان إنفاق كل شيء، مما أرعب دنكان، ثم حينما أشرتُ إلى غرابة أن تكون رغبة الناس في الإنجاب منحصرة في الاستفادة المالية قالت مادلن: «لماذا برأيك أنجبت عائلة روكفلر أطفالًا؟ يجب الاحتفاظ بالأشياء داخل العائلة وإلا ذهب كل ما عملت لأجله أدراج الرياح، أعني أنك تسمعين الناس طوال الوقت يقولون إنهم راغبون في «الحفاظ على نسل العائلة»، فما الفرق؟» ثم أضافت أن أمها على الأقل كانت صادقة: «لقد وافقت على طفلة واحدة لإرضاء أبي وجدّي، ثم صبت كل تركيزها على التسوق».

لقد وفت شارلوت بكلمتها، ثم كرست معظم وقتها للتسوق، وتم تقسيم الطابق الثالث بأكمله في قصرهم إلى أربع غرف ملابس (واحدة لكل موسم) ملأى بالثياب، والأحذية، والحقائب المتماثلة، هذا وكانت تحتفظ بمعاطفها في مخزن خلال الصيف، ويتطلب الأمر شاحنة لإعادتها كل خريف، إلى جانب أنها كانت تجدد الديكور باستمرار، اعترض دنكان ذات مرة محتجًا بأن أثاثهم بحالة جيدة، فقامت بتقطيعه بأكمله بشيفرة حادة، وبعدما صار شظايا متطايرة في مهب الريح قالت: «لم تعد حالته جيدة الآن»، فذكرني هذا بثوران كارين بين التحف بعد ذلك سنوات.

قالت مادلن إن أمها أذاقتها هي وأباها الأمرّين بطرق لا تعد ولا تحصى، كانت شارلوت تعاني فقدان الشهية العصبي، فلم يكن في البيت سوى قليل

من الطعام، كانت الأصناف الوحيدة في الثلاجة هي الليمون، والزيتون، والكرز لإعداد المشروبات، وكانوا يتناولون وجباتهم في المطاعم، ثم عبرت مادلن عن ذلك بقولها: «أعلم أن ذلك يبدو مستحيلًا، لكنها الحقيقة»، والغريب أن ذلك لم يكن غريبًا في نظري، لأنني أيضًا ترعرعت طفلة وحيدة لأب يعمل في مهنة دقيقة وأم استثنائية فلم يكن في المنزل طعام، وكنا نحن أيضًا نتناول جميع وجباتنا في المطاعم، من الواضح -من بعض النواحي- أنني ومادلن حبة فول انقسمت إلى نصفين، وربما لهذا السبب تركت تقاعدي الوجيز وتوليت قضيتها.

ثم تابعت لتخبرني عن قسوة معاملة أمها لها بعدما يغادر دنكان البيت، كانت مادلن تحاول إدخال رقائق البطاطس خلسة إلى غرفتها بين وجبات المطاعم، وكانت كل صباح تتسلل إلى المطبخ مستخدمة سلم الخدم الخلفي على أمل الإفطار قبل ذهابها إلى المدرسة، فتحييها أمها قائلة: «صباح الخير أيها الوحش»، ثم تلومها على التسلل وإخفاء الطعام، لكن حتى وجبات المطاعم لم تكن كافية بتاتًا، لأن شارلوت كانت تجبر مادلن على إعلان أنها ليست جائعة، وتقول لها: «يومًا ما، حين لا تجدين نفسك خنزيرة سمينة، ستشكرينني».

كانوا يأكلون في أروع مطاعم تورونتو كل ليلة، لكن شارلوت كانت تمضغ طعامها فحسب ثم تودع اللحم الممضوغ في منديل كِتّاني، وكانت مهمة مادلن تهريب المنديل من المطعم إلى القمامة، لكن في إحدى الأمسيات أمسك النادل بمادلن ذات السبع سنوات وهي تلبي طلب أمها، واتهمها بسرقة المنديل الكتاني المنقوش، فسألها دنكان -مذهولًا- عما تفعله به، قالت لي مادلن: «لم أعلم ماذا أقول، كنت متيقنة أن أمي ستعاقبني إن لم أتستر عليها، وصدقيني، عقابها متوحش، لكنني أيضًا لم أرغب في إحراج أبي، إثر قوله أنني ينبغي أن أصدقهم القول».

فعقبت بقولي: «يا لفظاعة هذا المأزق المزدوج بالنسبة لفتاة صغيرة».

أعلنت شارلوت أن مادلن «لصة صغيرة» سبق أن قُبض عليها في المدرسة أيضًا، ثم فتح النادل المنديل ليجد طعامًا ممضوغًا، ووصفته مادلن الموقف قائلة: «بدا عليه الاشمئزاز ثم حمله بإصبعيه بعيدًا»، وحينما سألتها بم شعرت قالت: «ماذا برأيك؟ بالخزي، والغدر، والخجل الشديد لأنني أحرجت أبي، ففي هذا المطعم يمكنك سماع صوت سقوط الإبرة»، ثم أضافت: «آه! لقد تذكرت

لتوي هذا الجزء: ثم التفتت أمي إلى جمهور الطاولات الذي يشاهد ما يحدث -وكانت تعرف بعضهم- وقالت: «إياك والزواج من رجل يدلل طفلته الوحيدة الغالية»، لقد **مثلت** دور الضحية».

حينما عادت الأسرة للبيت ذهب والد مادلن إلى غرفتها ليخبرها أن بمقدورها الثقة به بخصوص مشكلاتها، وأن حالها أشبه بالدابة المهملة وتحتاج إلى تناول المزيد من الطعام، ثم همَّ بالمغادرة، ثم تردد عند الباب وقال إنها بحاجة إلى قضاء المزيد من الوقت مع جدتها، عقبتْ مادلن على ذلك قائلة: «أظن أنه رأى أنني في أزمة، وعلم أن أمي لا تستطيع المساعدة».

فسألتها هل شك أبوها أن أمها لفقت لها هذه التهمة؟ فهزت مادلن رأسها قائلة: «مستحيل، كان يحسن الظن بأمي، بالإضافة إلى خوفه منها، كما أنها لم تكن تلعب وفقًا للقواعد المعتادة، أجل، أبي ماهر في التجارة، وقد ضاعف ثروة العائلة في المدة التي عاشها، لكنه كان متحليًا بمواثيق النبلاء، أما هي فلا، ربما يصل بها الأمر إلى خنقك في أثناء نومك، وقد كان يعلم ذلك».

حينما سألتها لماذا لم يطلقها قالت: «لم يسبق أن طلق أحد من عائلة أرلينغتون، ولقد صرح بأنه شيء لا تفعله عائلته»، فاختزنت ذلك في ذاكرتي، إذ لا بد من وجود ما هو أكثر من ذلك.

شرعت مادلن بعد جريمة المنديل في قضاء يوم كل أسبوع في منزل جدتها لأبيها - جامعة التحف- التي تعشقها مادلن، وعبرت قائلة: «بعد وفاتها أعطت وصيتها تعليمات لبيع قطع أثرية بالمزاد تكفي لتمويل بناء جناح جديد في أحد المستشفيات».

فسألتها: «كيف كانت طباعها؟».

فقالت: «رسمية، لكن لطيفة وطيبة، وفي الغالب أنها من أنقذت حياتي، ولقد علمتني كل ما أعرفه». فسألتها عن رأي جدتها في شارلوت، فردت قائلة: «لطالما عاملت أمي بكل أدب، لكنك تنتبهين لوجود رائحة الازدراء، الغموض هو تخصص الواسبيين».

***

رأيت في جلستنا التالية أن مادلن تلاقي صعوبة في مناقشة طفولتها، لقد رفضت البكاء، واكتفت بمسح الدمع من عينيها مدعية أنها لا تريد أن «يسيل

ماكياجها حتى يصل إلى «مدينة بروكلين» Brooklyn»، كما لاحظتُ بقعًا حمراء كبيرة على رقبتها، فأدركتُ أنها بحاجة إلى بعض الدعم، لذا سألتها هل سبق أن فعلت شارلوت شيئًا جيدًا لها، فطال تفكيرها في سؤالي، ثم قالت في نهاية المطاف إن أمها كانت غاية في القسوة معها لأنها لم تحبها قط (فتساءلتُ متى سنصل إلى الجزء المهم)، رغم ترتيب مادلن لسريرها وتنظيفها لغرفتها يوميًا فقد كانت شارلوت تنتقدها إن لم تكن الأمور مثالية، ووصفت مادلن ذلك قائلة: «كان يتحتم عليَّ ترتيب الدمى في صفوف وفقًا للحجم، وإن لم يكن أحد الأرانب في موضعه الصحيح تقول: «ما خطب ذاك الأرنب؟ يبدو متأهبًا للانقضاض»، لذلك حينما التحقت بالمدرسة كان أدائي مثاليًا على الدوام لأنني افترضت أن المعلمين يتعسفون في أدق التفاصيل مثل أمي، ورأيت أن من الأسهل القيام بالمطلوب بالكيفية الصائبة من أول مرة»، ثم ظلت مادلن جالسة في صمت لبضع دقائق ثم قالت: «كان الكسل محرمًا، أظن أن هذا معناه أن أمي قد أكسبتني أخلاقيات العمل نتيجة لذلك».

لا شك أن الآباء والأمهات الذين يغرسون الاجتهاد في أطفالهم يقدمون لهم معروفًا، لكن هذا الوضع مختلف، إذ أن سعي شارلوت المحموم نحو الكمال لم يعزز أخلاقيات العمل الصحية، بل عزز إدمان العمل، وإدمان العمل سلوك قهري آخر، إذ يعمل المرء بسبب شعوره بالقلق حين لا يعمل، بل يرى بعض الإخصائيين النفسيين أنه إدمان، ومما لا شك فيه أن ثقافتنا الحديثة تمجد من شأنه، فليس من الغريب أن تسمع أناسًا يفتخرون بأنهم لا يفعلون شيئًا سوى العمل، ولو استبدلت العمل بإدمان آخر في تلك الجملة، مثل: «أنا لا أفعل شيئًا سوى شرب الخمر» فلن يبدو بمثل هذه الفضيلة.

سبق أن أشار الموظفون إلى شدة اندفاع مادلن وصعوبة وتيرة العمل، لكنني لم أتحدث عن ذلك آنذاك، ليس لشيء سوى أن مادلن لم تدرج هذا في قائمة الأعراض التي تعاني منها، فرغم كل شيء فإن فن العلاج النفسي كامن في التعرف على النقطة المحورية: وهي الوقت الذي يكون فيه المريض مستعدًا للنظر إلى موطن مرضه (وهي نصيحة لم أُصغِ إليها في المرحلة الأخيرة من العلاج).

***

لم أصدق أن مادلن اقتدرت على تحقيق مثل هذا النجاح التجاري من دون شخص -في مكان ما- عزز كبرياءها، لقد كان أبوها داعمًا لها في بعض الأحيان، لكنه لم يكن قادرًا على حمايتها من براثن أمها، كما هجرها وجدانيًا مرة أخرى حين منعتها كارين من دخول منزلها.

بدا لي أن جدة مادلن هي أكثر المرشحين احتمالًا (نادرًا ما ذكرت جدها، باستثناء قولها إنه كان هادئًا، ولطيفًا، ويتابع الأسهم باستمرار)، كانت الجدة -صاحبة مال العائلة- تصطحب مادلن مرة كل أسبوع لتناول الغداء وشراء التحف، تقومان في تلك المناسبات بإعداد جدول مهام، ثم تشطبان كل مهمة إثر إنجازها، بالإضافة إلى تتبع التحف بالسفر إلى مدن مختلفة، حيث أدركت مادلن أن جدتها متفاوضة عظيمة، كما كانتا تذهبان إلى نيويورك معًا وتكتشفان عالم الفنون، هذا وكانت الجدة خلال الرحلة تصطحب مادلن لشراء الملابس، وتذهب معها إلى عروض الدمى المتحركة و«عروض برودواي المسرحية» Broadway Shows، وتسمح لها بالحصول على أي ما تريد.

كانت مادلن مذهولة وهي برفقة جدتها حيث كان بمقدورها الأكل كما تريد، وأخبرتني أنها ذات مرة -في كوخ لهم بإحدى الجزر، معروف بينهم باسم المجمَّع- خبزت مع جدتها كعك رقائق الشوكولاتة، فأكلت مادلن ثلاث كعكات على التوالي، ووصفت مادلن ذلك قائلة: «انتظرت منها مناداتي بالمسخ والخنزيرة، لكنها لم تقل سوى: «على مهلك يا عزيزتي، لك الحرية في الأكل بالقدر الذي تريدينه»، لقد ظننت أنني يجب أن أضعها كلهًا في فمي قبل أن يأخذها أحدهم بعيدًا».

- ألم تكن أمك تأتي إلى المجمع؟
- إطلاقًا، لم تكن تستملح جديَّ بتاتًا، كما كانت عاجزة عن الإفصاح عن ذاتها البشعة معهما، كانت تقول إنها من أمريكا وإن مجيئها إلى براري كندا سيئ بما فيه الكفاية، ولن تذهب إلى جزيرة برفقة ثلاثة متشددين، وطفلة شقية، وجيش من البعوض.
- لماذا وصفتْ أباك ووالديه بالمتشددين؟

فردت قائلة: «آه، لقد كان لديها مجموعة من الصديقات اللائي كن...»، ثم تنهدت مادلن وتلاشى صوتها، وبدا عليها الاكتراب، ثم بعد قليل تحفيز مني قالت: «اللائي كن **مستهترات** نوعًا ما، لعدم وجود وصف أفضل. كانت

صديقاتها كلهن يدخنَّ، ويشربن الخمر، وينفقن الأموال على البهرجة، كما أجرين عمليات شد الوجه في الولايات المتحدة قبل زمن طويل من اشتهار تلك العمليات، بل كن يثملن في نادي البلدة ويتبادلن الأزواج، هذا وقد تمت مقاضاة زوج إحداهن لإنفاقه الودائع المشتركة بينه وبين الآخرين، كما كانت بعضهن مطلقات. كان أعز صديق لأمي العزيزة أحد مصممي الديكور، كانا يذهبان إلى التسوق كل يوم، بل ذهبا ذات مرة «إلى روما في رحلة طارئة» لشراء بوفيه معين، وذات يوم عدت من المدرسة مبكرًا فوجدتها جالسة فوق فخذيه.

- يا لها من حجة جيدة.

- أعلم، وقد كان ذلك منذ ثلاثين عامًا، ما من أحد قال إنها ليست مبدعة.

- كيف تعاملتْ مع الموقف؟

أجابتني مادلن قائلة: «تخلصت من عشيقها فورًا ثم وصفتني بالمتجسسة القذرة وقالت...»، ثم نظرت مادلن أرضًا، وتجلى عجزها عن الإكمال، ثم اغرورقت عيناها بالدموع للمرة الثانية.

- ما الذي بلغ من السوء درجة تسبب لك ذلك الألم الشديد؟

«آه، هذا بشع، لقد قالت إنها ستخبر أبي أنني خلعت ملابسي ولعبت ألعابًا سيئة مع البستاني باسكال، وأنني من ابتدأت كل شيء، ثم خرجت عبر باب الفناء الخلفي وأخبرته فورًا أنه مطرود، ثم كتبت له ما أفترض أنه شيك ضخم»، كانت مادلن تحب باسكال حبًا جمًا، ووصفت علاقتهما قائلة: «كان من حين لآخر يلعب معي الغميضة، أو يقذفني في المسبح، أو يدفعني وأنا على لوح الغطس، أو يعطيني حلوى من جيبه خلسة، لكنني آنذاك بدأت أظن أنني قد فعلت شيئًا قذرًا ومثيرًا للاشمئزاز معه».

حينما احتجَّت مادلن -المذهولة- ردت أمها قائلة: «أحسنتِ أيتها المسخ الصغير، لقد تسببت للتو في طرد باسكال»، ثم أضافت (واشتد صوتها): «يستحق ما جرى له لجلبه لنا هذه الكلبة الغبية».

كانت كلبة باسكال قد أنجبت جراءً، فأحضر جروًا ليريه مادلن، فقال أبوها إنه لا مانع من الاحتفاظ به. ثم أخبرتني مادلن (بابتسامة صريحة لم أرها من قبل) أن هذا كان أسعد يوم في حياتها، سمُّوا الكلب فِريد، تيمنًا

بفريد أستير[1]، لأن أمها كانت تحثه على الرقص كل ليلة في مقابل إطعامه، ومن الواضح أن روتينه كان رائعًا إذ كان الجيران يأتون لرؤيته وهو يرقص، فأشرت إلى مادلن أن أمها فعلت بفريد ما فعلته بها بالضبط.

فقالت: «هذا صحيح، لا وجود لطعام مجاني». ثم تغيرت نبرتها وقالت متحمسة: «لقد ذهلت بأن هناك من أحبني»، تذكرتْ مدى السعادة التي تغمر فريد حين عودتها للمنزل من المدرسة، وأنه كان ينام في سريرها ليلًا، كما عبرت قائلة: «أعتقد أن جسده الدافئ قد أنقذني، ذات مرة رفعت أمي يدها لتضربني -وهو ما كانت تفعله من حين لآخر- فزمجر فريد نحوها»، غرقت مادلن في النحيب وهي تخبرني بذلك، مسندة رأسها إلى طاولتها الرخامية الأثرية.

- لماذا يؤلمك هذا بشدة؟

- لقد كان الشخص الوحيد الذي دافع عني (دائمًا ما وصفت فريد بأنه شخص).

- ماذا عن أبيك؟

- كان ينحاز إلى جانبي في بعض الأمور، لكن حين تفقد أمي صوابها لا يقحم نفسه في الأمر، ذات مرة طار عقلها فنزلتُ إلى البدروم لأجلس في غرفة المعدات وأتناول لوح شوكولاتة كنت قد أحضرته إلى المنزل من المدرسة، فوجدته هناك يأكل علبة معكرونة، فجلست بجانبه وأكلنا في صمت.

فسألتُها: «أكانت هي الآمر الناهي؟».

- كنا مرتعبين.

فقلت: «لماذا كان أبوك خائفًا منها إلى هذا الحد؟» كنت قد طرحت هذا السؤال من قبل، لكنه لم يزل مستغلقًا عليَّ، ثم أتبعته بسؤالي: «هل كان أبواه قاسيين؟».

- كلا، كانا سويين إلى حد كبير، وأخلاقيات العمل لديهما رائعة، وإلى جانب ذلك ودودين ويتبرعان بوقتهما بسخاء، إذ كانت جدتي في صغري تمضي ساعات عديدة تعلمني عن التماثيل، كما اصطحبتني

(1) راقص أمريكي، ومدرب رقص، وممثل، يُعد أكثر الراقصين تأثيرًا في تاريخ الأفلام. (المترجم)

إلى جميع أنحاء العالم وقضينا وقتًا كبيرًا معًا، ونتيجة لذلك صرت قادرة على التفريق بين المزهريات الصينية الأثرية والمزيفة وأنا لم أتجاوز سن الثالثة عشرة، وهذا دون مبالغة.

***

أهدت إلي مادلن في جلستنا التالية هدية كبيرة الحجم ومغلفة تغليفًا جميلًا بمناسبة الكريسماس، لكنني أوضحت أنه لا يجوز للمعالجين -لأسباب مهنية- قبول هدايا من المرضى، فلم أرَ منها احتجاجًا، أعتقد أن هذه الهدية الضخمة كانت بمنزلة اختبار وأنها شعرت بالارتياح حين لم أقبلها، فاختزنت ذلك الموقف للاستعانة به لاحقًا كوسيلة لمناقشة فكرة الثقة.

سألتها عما تخطط لفعله في عطلاتها فقالت إنها ستمكث في المنزل بمفردها، فتصورتُ مادلن وهي تتجول داخل شقتها الضخمة، وقلت إن كونها ممنوعة من دخول البيت الذي ترعرعت فيه لا شك أنه صعب عليها، خصوصًا في الكريسماس.

قالت مادلن إنها كانت تظن أن أمها فريدة من نوعها، واندهشت حينما ارتبط أبوها بكارين، وقالت: «إنها مجنونة مثل أمي، لكنها لم تكن بنفس ثباتها، ولا شبابها، ولا جمالها، فلم تستطع الانتصار في هذا التحدي، إلى جانب أنه لم يكن هناك ثروة عائلية للتخلص من قرفها».

حينما بدأت كارين في تدمير التحف قامت الخادمة -التي كانت تعمل في البيت منذ زمن- بمهاتفة مادلن، التي اتصلت بالشرطة ثم استقلت طائرة إلى تورونتو، وحين وصلت مادلن إلى المنزل وجدت أفراد الشرطة بانتظارها في غرفة المعيشة، يتصفحون المجلات، كانت الخادمة قد أعدت لهم القهوة، وفور رؤية كارين لمادلن نادتها باسم شارلوت، لا شك أنها كانت في حالة سكر أو ذهان، فلقد كان لديها تاريخ من كلتا الحالتين، أخبرت الخادمة مادلن أن كارين تذيق دنكان الأمرَّين، وأنه يضطر في بعض الأحيان إلى حبس نفسه في الحمام، فتواصل كارين قرع الباب بالقدور والمقالي، ثم أرت الخادمة الشرطة الخدوش في الباب، لم يتمكن أحد من العثور على دنكان طيلة هذا الهياج الأخير، لكن مادلن عرفت أين تبحث: «مرة أخرى، كان في البدروم، جالسًا على طاولة المعدات ممسكًا علبة حساء»، وحينما واجهته مادلن قال إن كارين ستهدأ وسيصير كل ذلك طي النسيان. «باختصار، غادرت الشرطة

فحسب، وخلاصة القول إنه انحاز لجانب كارين، ولم يُسمح لي بالعودة للمنزل منذ ذلك الحين».

عندما واصلت التحقيق في سلوكيات دنكان على مر السنين أوضحت مادلن أن لديها شعورًا بأنه قد عقد اتفاقًا معها: «قال إن كارين غير مستقرة وأنني صلبة، وأن علينا جميعًا تقديم تضحيات، كان هذا هو الخطاب النبيل ذاته الذي يلقيه عن أمي حين يجن جنونها، وهذا ليس صحيحًا في الواقع، إذ كان يعترف بأن أمي خطيرة وقد تتسبب في أضرار خطيرة»، ثم تابع أبوها قائلًا إنه ومادلن أرلنجتونيان أصليان وأن شارلوت دخيلة غبية، وعقبت مادلين قائلة: «وهذا صحيح، لم تكن شديدة الذكاء، لكنها كانت ماكرة، وشرسة، وغلبت أبي على أمره طوال الوقت».

طيلة العلاج لم أستطِع حل اللغز الذي جعل دنكان المهيب تمساحًا مفترسًا في العمل لكن خصيًّا وجدانيًّا مع شارلوت أولًا ثم كارين، لقد قضى حياته في براثن امرأتين عديمتي الحب، كما كان منزعجًا من منع ابنته من دخول المنزل لكنه أذعن لامرأة لا تمنحه شيئًا في المقابل، ثم صرحت مادلن بأن والدا دنكان -رغم اتسامهما بالرسمية وغياب التعبيرات الجسدية- لم يكونا قاسيين، حينئذ لم أفكر في شيء سوى أن دفء الأجداد وطيبتهم لا يلزم أن كانا موجودين حين تربيتهم للأبناء، فغالبًا ما يلين الناس بعد كبرهم.

بدا دنكان نفسه مهووسًا بالمال، باكتسابه أولًا ثم استخدامه كشكل من أشكال القوة، ورغم أنه ودود فإنه للأسف ذكرني بشخصية سكروج التي حاكها تشارلز ديكنز، وشخصية سيلاس مارنر التي حاكها جورج إليوت، كان حبه الصادق الوحيد متوجهًا لابنته، ولكنه لم يكن قادرًا على حمايتها لعجزه عن حماية نفسه.

***

كانت تلك نهاية عامنا العلاجي الأول، وهذا كثير جدًّا مقارنة بافتراضي أن العلاج لن يتجاوز ست جلسات! عندما يتعرض الناس لصدمات بالقدر الذي تعرضت له مادلن فإن تعافيهم لا يبدأ إلا بعد تخلصهم من آلامهم، لذا كنت موجودة للقيام بدور الشاهد، مؤكدة لها أن تحية «المسخ» كل صباح كانت شيئًا قاسيًا، وأنه لا صلة لذلك بها، وكنت موجودة لمساعدتها على التعامل مع آثار تلك الطفولة الأليمة.

3

الخوف من الطيران

أردت حل لغز خوف مادلن من السفر بالطائرات، ونظرًا لأن هذا لم يكن رهابًا ملازمًا لها طيلة حياتها فقد تمثلت وظيفتنا في اكتشاف سبب ظهوره مؤخرًا وكيفية التخلص منه.

كان من الجليِّ أن فيينا -مساعدة مادلن- معنا على الخط نفسه، لقد اصطحبتني جانبًا لتخبرني أن المحاسبين يرغبون في التحدث إليَّ لأن الشركة في حالة تعثر، لأن مادلن لا تسمح لأي من فريق الاستكشاف بالطيران ولو كانوا بحاجة إلى إيصال الطلبات، ولا يمكن شحن سلع معينة دون مرافق، ثم ختمت فيينا كلامها بقولها: «آسفة على تجاوز حدودي، لكن لن يطول الأمر قبل ثوران العملاء، لأنهم مزيج من الزوجات المدللات كثيرات الطلبات وعلماء الآثار كثيري التدقيقات، الذين يريدون أن يتم كل شيء البارحة، لو تفهمين قصدي».

إثر ذلك دخلت مادلن الغرفة مندفعة كالجواد الجامح، صائحة: «فيينا، **ماذا تفعلين هنا**؟ أتريدين أن تظن د. جلدنر أننا مجانين؟ أولًا أبي، والآن أنت؟ يا إلهي، اخرجي من هنا!».

لم يكن من فيينا إلا أن طرحت خصلات شعرها على كتفها، وابتسمت، ثم ودعتنا.

سألتني مادلن عما كانت تقوله فيينا، فبدأتُ بقولي: «إنها مهمومة بشأن الشركة، فهي قلقة من أن وساوسك المتعلقة بتحطم الطائرات تؤثر تأثيرًا سلبيًا على التجارة، هل كنت تزورين د.جولدبلات (إخصائي الوسواس القهري) بشأن ذلك؟».

كانت تزوره فعلًا، وقد أعطاها كتيبًا ضخمًا لتدون فيه مخاوفها، وهو جزء من برنامج مدته ستة أسابيع، لكنها اعترفت قائلة: «أنا عاجزة عن تحديد هل خوفي من تحطم الطائرة عبارة عن وسواس أم مجرد خوف عُصابي، فكما ترين يا د.جلدنر، حينما تسير الأمور على ما يرام أخشى أن يكتشف أحد أنني حقًا ...» ثم اعتراها التردد.

فسألتها: «ما الكلمة التي تبادرت إلى ذهنك؟».

بدا عليها الاندهاش، والذهول، ثم هوت في كرسيها كأنها أصيبت بقذيفة، وقالت: «مسخ».

- وصف أمك لك.

فأومأت بالإيجاب.

-إذن تشعرين أنك لا تستحقين سير الأمور على ما يرام، وتشعرين في قرارة نفسك أنك مسخ وتستحقين تحطم الطائرة التي تحمل على متنها أفضل موظفيك وتحفك.

بدا التشوش على مادلن هنيهة ثم عقبتْ قائلة: «بالضبط، هذه التجارة بأكملها أُنشأت بأيدي مسخ ذي ثوب مبهرج».

ظلت مادلن جالسة في صمت، تستوعب ما قرر لا وعيها إطلاق سراحه، ثم قالت: «أتعلمين، حين كنت رئيسة الطالبات والطالبة المثالية في المرحلة الثانوية كان الجميع يظنون أن أمي مثالية، وكانت الأمهات الأخريات يقلن لها: «شارلوت، مادلن فتاة جادة للغاية وشديدة الاجتهاد، كيف تمكنتِ من تحقيق ذلك؟» فتبتسم أمي فحسب وتقول: «كنت محظوظة ليس إلا»».

-هل كان لدى أمك وساوس؟

ردت مادلن بحماس: «أجل، وكنا جميعًا مضطرين إلى تحمل ذلك»، ثم وصفت نمص أمها لحاجبيها: «كانت في البداية تقتلع جميع الشعرات بيدها، وحين يجن جنونها تنزع الشعرات من جذورها، بل تنتزع جلد الحاجبين

بالملاقط حتى النزيف»، ثم يتعين عليها ارتداء النظارات الشمسية أسابيع عديدة لإخفاء قشور الجروح، ثم أردفت مادلن قائلة: «وحينما يطلب أبي منها التوقف تقول إنها تضطر إلى فعل ذلك بسببي، أنا المسخ، وبسبب أبي وأصدقائه وأفراد عائلته البخلاء المملين، وكانت تصرخ قائلة: «هل سبق أن سمعتَ عبارة **جعلتموني أشد في شعري**؟ في الواقع هذا ما فعلتماه بي، لقد تآمرتُما عليَّ، مع أبويك الغليظين الانتقاديين»».

أوضحت لمادلن أن أمها كانت مصابة باضطراب شائع اسمه هوس نتف الشعر، وهو إلحاح قهري لاقتلاع المرء لشعره (وفي بعض الحالات أكله بعد نتفه)، وهذا يؤدي إلى فقدان ملحوظ للشعر، وضغوط نفسية، وقصور في الناحية الاجتماعية أو الوظيفية، وغالبًا ما يكون مزمنًا وصعب العلاج لكونه اضطرابًا في التحكم في الاندفاعات.

خلال حديثي نظرت إلى حاجبي مادلن، أو بالأحرى عدم وجودهما، لقد اندهشت في لقائنا الأول أن الخطوط مرسومة في شكل أقواس غريبة، وشككت في أنها تعاني الاضطراب ذاته، لذا انتظرتها أن تقول شيئًا.

لكنها في نهاية المطاف، بعد صمت علاجي طويل، سألتني: «ماذا؟».

فغامرتُ بقولي: «ماذا بشأن حاجبيك **أنت**؟».

- ليس لدي تلك المشكلة، إنني أنمصهما بالملقط وهما رفيعان أصلًا، لكنني لا أقتلع الشعر مثلما كانت أمي تفعل تاركة قشورًا خطية، أما هذا الشكل فهو موضة.

لم أنبس ببنت شفة، وشككت أن هذه المرة الأولى التي تراوغني فيها مادلن، كان ذلك غريبًا، إذ لم تعترف طيلة العلاج ولو مرة بأنها مصابة بهوس نتف الشعر، سبق أن علق كاتب في مقالة عنها بإحدى المجلات على «ماكياج دمية الكيوبي» الخاص بمادلن، فتيقنت أنني لست واهمة، لكنها ظلت مستمسكة بنفيها.

اكتشفت في مهنة العلاج النفسي أنه يستحيل استنتاج سبب اعتراف بعض الأشخاص بارتكابهم سلوكًا مضادًا للمجتمع أو غير متحضر، أو سبب رغبتهم في تجربته، لكن رفضهم الاعتراف بأنهم ارتكبوا إثمًا اجتماعيًا بسيطًا نسبيًا.

كان هذا منعطفًا في العلاج اضطرني إلى توخي الحذر، علمتُ أن مادلن اختبرتني بمحاولتها إهدائي هدية الكريسماس الضخمة الثمينة، وبرفضي لها اكتسبتُ قدرًا من الثقة، وحين تحدثنا عن ذلك لاحقًا وصفتْ أن إخصائية المشورة الزواجية التي كانت تقابلها أرادت منها إعطاء تقييمات مجانية لبعض التحف التي كانت قد ورثتها، كما أخبرني دنكان -والد مادلن- أنه اندهش بأنني طوال جلساتنا لم أسأله قط عن سوق الأسهم، وأن طبيبه النفسي السابق كان يبدأ كل جلسة باستفسارات عن الأسهم، وكثيرًا ما وجدت أن الناس الذين تعرضوا «للاستغلال» بطريقة ما في طفولتهم يبحث عقلهم اللاواعي عن معالجين نفسيين يكررون ذلك النمط.

ورغم ذلك فالثقة لا تُكتسب بضربة واحدة في جميع الحالات، بعبارة أخرى، لا جدوى من مصادمة المنتفع رأسًا برأس، قد يعترف بالاضطراب العصابيِّ الذي تحاول تسليط الضوء عليه، أيًّا ما كان نوعه، لكن يكون هذا انتصارًا مكلفًا للغاية، والاستبصارات الحقيقية لا تحدث إلا حين يفسح المعالج الطريق بحيث يقتدر المريض على اكتساب معرفته النفسية الخاصة، فإذا كانت مادلن غير قادرة على الاعتراف بأنها تواجه المحنة ذاتها لأنها بحاجة إلى الانفصال الشديد عن أمها، فليكن ذلك، لذا قررتُ إزاحة قضية الحاجب جانبًا وأملتُ أن نعيد زيارتها لاحقًا، ورغم كل شيء فقد توصلت منذ زمن بعيد إلى أن عملية العلاج النفسي لا يلزم أن تكون كما يقول الكتاب، فالأهم هو أن تعلم مادلن أنني في صميم قلبي راغبة في الأصلح لها وأن بمقدورها الثقة بي لمساعدتها على التعامل مع شياطينها.

***

لاحظت أنني كلما دخلت مكتب منهاتن المزدحم لإجراء جلسة مع مادلن يأتي شخص مختلف للتحاور معي، ذات مرة أتاني رجل يرتدي بدلة أنيقة من طراز «إرمنجلدو زينيا» Ermenegildo Zegna، واقترب مني إلى حد غير مريح، ثم قال بأسلوب تآمري (باللهجة الغليظة الشرق أوروبية): «هي مجنونة قطعًا، فهي تعمل سبعة أيام في الأسبوع ولا تغادر هذا المكان إلا منتصف الليل، كما تضغط علينا بشدة، لدرجة أننا مستعدون للاستقالة».

فسألته: «ولم لا تفعل؟».

سكت هنيهة لتفاجئه من هذا السؤال، ثم قال: «لأنها تضغط على نفسها أكثر مما تضغط علينا، إلى جانب أنها تدفع لنا ضعف ما يمكننا الحصول عليه في أي مكان آخر، إنني مخلص لها رغم أنها تجعل حياتي جحيمًا مستعرًا، آمل أنك على علم بأنها مدمنة عمل»، ثم فرَّ كالفأر من أحد الأبواب الجانبية فور سماعنا قعقعة الكعب العالي لمادلن من ناحية الدرج.

فسألتني: «فيم كان زولتان يثرثر؟ غالبًا ما يتملكه الغيظ من أمور تافهة».

- لماذا تُبقين جميع هؤلاء الموظفين ذوي الطباع الصعبة؟

- كي أصدقك القول فإنهم يعطون عبارة «شديد الاهتمام بالتفاصيل» معنى جديدًا، هل تصدقين أنني اضطررت إلى شراء منقي هواء من أجل برتال؟ معظم المثمنين والمشترين الذين يعملون لديَّ هنجاريون، وكلهم مهووسون، تلك سمة شعبهم، لكنهم أذكياء وموسوسون مثلي فيما يتعلق بإنجاز المهمة على النحو الصائب، إنهم يدرسون التمثال الواحد عدة أيام متتالية، ويقضون وقتًا هائلًا في تقدير عمره، أنت بحاجة إلى الموسوسين إذا كنت تتعاملين مع المنتجات الفاخرة، لأن سمعتك ستتدمر للأبد لو وُجدت لديك قطعة واحدة زائفة.

- هل كلهم مثل زولتان؟

- أسوأ، فهو -على الأقل- يعمل بجد، بل يتناول دائمًا دواء للمعدة لأنه -على حد قوله- يشعر بـ «دربكة»، لكنه يواصل العمل، يجب عليكِ مقابلة أورليش، الأسترالي، الخبير العالمي في أثاث «بدريماير» Biedermeier، تفوح منه رائحة الملح حقًا، وإجازته لا تتجاوز يومًا واحدًا في الأسبوع -والله وحده أعلم بالسبب- ثم يعود يوم الأحد معللًا بأنه بحاجة إلى الهدوء، لا أدري ما الخطأ الذي ارتكبته معه.

ضحك كلانا من هذا لأن الشركة ملأى بالهستيريين التقليديين، بل إن عاملة التنظيف ذات مرة صاحت قائلة: «د. جلدنر هنا، الحمد لله!»، ثم أحضرت إليَّ كعكة عيد الفصح برفقة بطاقة دينية كتبتْ بها أنها تهدي دعوات الصلاة التساعية لي ولمادلن.

كنت في بعض الأحيان أقدم خدمات نفسية في القطاع الصناعي، وكثيرًا ما وجدت أن رئيس الشركة قد حظيَ بأبوين متطلبين ونرجسيين، لقد وظَّفت مادلين أشخاصًا لديهم نمط الشخصية ذاته وهي غير واعية بذلك، ثم أنهكت

نفسها في خدمتهم، رغم أنها صاحبة اليد العليا، إن الشركة عائلة من نوع ما، وقد تصبح الثقافة المؤسسية إعادة خلق للدينامية الأسرية.

***

ذات مرة جاءت مادلن متأخرة نصف ساعة عن موعدنا وسألتني عما إذا كنت قد رأيت الصحف، ثم قالت: «لقد تزوج زوجي السابق في عطلة نهاية الأسبوع المنصرمة»، كانت تلك هي المرة الأولى التي تذكر فيها جُوِي، زوجها السابق، باستثناء حين جمعي للتاريخ العائلي في الأسابيع الأولى، كانت مادلن قد أخبرتني أن سبب زواجها من جوي -الإيطالي الكاثوليكي الذي كان أبواه من المهاجرين الأوائل ويمتلكان مطعمًا ويديرانه- هو رؤيتها أنه مختلف عن البيئة الواسبية الثرية التي تعرفها حق المعرفة، وأنه سيجعلها «تكون نفسها».

كانَ جوي دائم البهجة والاهتمام بالعمل، كما كان حسن المظهر، وذا شخصية ساحرة، ولاعب كرة قدم سابق، وعلاوة على ذلك كله فلم يكن مهووسًا، هذا وكان دنكان مولعًا به، كان الرجلان يحبان الطائرات، والسيارات، والقوارب، وصيد الأسماك، ومتى ما قلقت مادلن من شيء يقول لها جوي: «لا تقلقي يا حبيبتي، سيكون كل شيء على ما يرام».

كان جوي متفطنًا للاتجاهات التجارية العالمية، وإثر زواجهما استقرض من دنكان مالًا لشراء حقوق التوزيع الكندية لشركة ستجعلها منتجاتها في نهاية المطاف من كبرى شركات العالم، كان هذا -على حد تعبير مادلن- قرارًا حاذقًا إلى حد باهر، ثم سدد المال لدنكان في غضون خمس سنوات.

فعقبتُ قائلة: «**حاذق** هي الكلمة التي استخدمتها لوصف أمك».

بدت مادلن متفاجئة من إنشائي لهذا الرابط.

فقالت: «رأيت أنني سأتزوج رجلًا يعلم حقيقتها، وكي أصدقك القول فإن نفور جوي من أمي لهو أشد ما جذبني له، لقد كان يكرهها كرهًا شديدًا، حين تقابلنا كانت أمي تعيش في «إقليم بالم بيتش» **Palm Beach** ولا تأتي لبلدتنا إلا للمال أو الحفلات».

- ألم يكن هناك من يعلم حقيقتها غيره؟

اغرورقت عين مادلن بالدموع، نادرًا ما سال الدمع من عينيها على مدار العلاج رغم القسوة التي تسردها، فعلمت أن أيًا ما كانت على وشك وصفه فلا شك أنه شديد الإيلام، ثم أوضحتْ أنها مضطرة إلى مناقشة موضوع خليلها الأول، باري، الذي كان بيته في شارعها ومن الفئة الاجتماعية ذاتها، كان كل منهما ملتحقًا بمدرسة خاصة ومنتميًا إلى النادي ذاته، ظل الاثنان يتواعدان لأربع سنوات، من الصف التاسع إلى الثالث عشر، وتلك فترة طويلة بالنسبة لمرحلة المراهقة، كما كانت مادلن متعلقة بعائلة باري الكبيرة السعيدة المشتملة على خمسة صبيان، كانت الأم تطبخ وتعد مأدبات عشاء ضخمة، إذ كانوا في كثير من الأحيان يقيمون حفلات عائلية في كوخهم، كانت الأم لطيفة مع مادلن، وكانتا تعدان معًا الحلوى الرائعة التي تعلم أن مادلن تحبها، وصفت مادلن أم باري بأنها دافئة وطيبة الشمائل وشخص لا يكترث بالماكياج المثالي، وعبرت قائلة: «كان الأخوة معتادين على ممازحتها ولف أذرعتهم حولها ثم حملها عاليًا، فتقول لي: «صبيان! صبيان!»، كان الوضع هناك أشبه بالجنة، وعلاوة على ذلك فلم تكن تتغزل بأحد أو ترتدي ملابس كاشفة أو أحذية الكعب العالي داخل المنزل».

فسألتها: «تتغزل؟ أمٌ تتغزل؟!»، حينئذ حان دوري للاندهاش.

كان باري يشعر بجمال أم مادلن، إذ كانت تتجول في المنزل مرتدية أثواب السباحة، وأحذية الكعب العالي، وتدخن السجائر، ثم صرحت مادلن قائلة: «لم أمارس الجنس مع باري قط، لم رد أن أكون مثل أمي، لذا كانت تقول له: «ماذا ستفعل أنت والآنسة المتشددة هذه الأمسية؟ لم القيام بالفروض المدرسية؟ لم لا تخرجان لرقص التانغو؟» ثم تؤدي رقصة التانجو أمامه»، هذا وقد رآها دنكان ذات مرة تتغزل بباري فنهاها، قائلًا: «لن ينشغل شاب في سن السادسة عشرة بامرأة في سن الأربعين».

فكان رد شارلوت: «حقًا؟ ستندهش»، فأثار ذلك الخوف في قلب ابنتها.

ذات مرة ذهبت مادلن إلى كوخ باري فوجدت الجميع يشربون الخمر عند مرسى القوارب، لم تشرب مادلن لأنها كرهت أن تصير سلوكياتها مشابهة لأمها، لكن باري -الذي لم يكن معتادًا على الشرب بكثرة- سكر آنذاك فأجهش بالبكاء، معبرًا عن أسفه الشديد، أنه لو عاد الزمان به ما فعل ذلك قط، فأدركت مادلن على الفور أن باري يشير إلى ممارسته الجنس مع أمها، كانت شارلوت قد استدرجته بأساليبها الإغوائية واستمرا على ذلك شهرًا

تقريبًا، تعرضت مادلن للخيانة من أمها وأول حبيب في حياتها، حاول كل من باري ومادلن -المتحابين- تجاوز الأمر، لكن الخيانة كانت قاسية للغاية، وكانت تلك نهاية باري.

تصف أسطورة «بياض الثلج» تلك التنافسية القاتلة التي تشعر بها الأم حين تكبر ابنتها، ويتجلى جمالها، وينزاح الشباب إلى صفها (المرأة في القصة الأصلية أم وليست زوجة أب، فلم يُطلق عليهما اسم «الأخوان جريم»[1] بلا مبرر)، وكما يقول برونو بيلتهم في كتابه «استخدامات السحر» The Uses of Enchantment، فإن التماس الأم الطمأنة من المرآة السحرية المعلقة بالجدار في بداية القصة يؤكد نرجسيتها، قبل زمن طويل من تفوق جمال بياض الثلج على جمالها، لا توجد حكاية أفضل من هذه في التعبير عن مدى الخطر الذي قد تشعر به مراهقة لديها أم نرجسية تنافسية، بل في حالة مادلن لم يكن هناك أقزام ودودون.

ترددت أصداء هذا الطيش الجنسي بعد شهر تقريبًا من انفصالهما، حين كانت مادلن وأبواها يتناولون العشاء في نادي البلدة وسأل أبوها عن سبب اختفاء باري في الآونة الأخيرة، فقالت مادلن إنهما انفصلا ولم تزِد، ثم وصفت لي ما حدث قائلة: «واصلت أمي شرب الخمر فحسب، لا أعرف ما الذي دفعني إلى قول ما قلته بعد ذلك، لكنني كنت محطمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ لم أفقد باري فحسب، بل فقدت عائلته أيضًا، ونظرًا لأنني تعلمت على يد المعلم الأعظم فقد قلت بنفس النبرة التي تستخدمها أمي حين تكون على دراية بشيء لا يعلمه غيرها: «من المحرج جدًّا له أن يزورني بعد ما حدث، إن منزلنا فسيح، لكن لا يوجد منزل فسيح بما يكفي لاستيعاب **ذلك**».

- ضحكت أمي فحسب وأومأت برأسها كأنني مجنونة، لكن أبي يعرف كلًّا منا حق المعرفة وأدرك أن هذا قد حدث حقًّا»، ولم يكن منه إلا أن

---

(1) الأخوان جريم: هما جيكوب جريم وفيلهيلم جريم، عالمان لغويَّان وباحثان ألمانيان في مجال الثقافة، جمعا العديد من القصص الشعبية والخيالية ونشراها. مثلُ قِصّة سندريلا، والأمير الضفدع، وهانسل وغريتل، ورامبيل ستيلتسكين، وبياض الثلج والأقزام السبعة، وذات الرداء الأحمر، ورابونزل، وأطلقا عليها اسم «قصص جريم الخيالية»، وقد لاقت شهرة واسعة بعد ذلك. (المترجم، مقتبس من www.hindawi.org و ar.wikipedia.org)

أومأ برأسه، ثم غادر الطاولة، ذاهبًا إلى غرفة جلوس الرجال ليدخن سيجارًا.

لم تنبس أمها ببنت شفة في صباح اليوم التالي، لكن حين عادت مادلن من المدرسة في ذلك اليوم اختلج بصدرها شعور مؤلم إذ لم يركض فريد إلى الباب بنباحه لاستقبالها، ثم سردت لي ما حدث: «وجدت أمي واقفة في المطبخ وقالت: «لقد اصطحبت فريد لقص شعره اليوم، فقال الطبيب البيطري إنه مصاب بالسرطان واضطروا إلى إماتته بالأدوية لإراحته من الألم، يا للأسف»».

- كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تصديتُ لها، فقتلت فريد.

فقلت لها: «لا عجب من ارتعابك أنت وأبيك منها» (ذكرني هذا الحادث بقتل آرت قط العائلة بعد توكيد ألانا لذاتها).

فردت قائلة: «لم يكترث أبي حقًّا بموضوع باري، أو بمعظم الأمور التي فعلتها، لكنه لم يسامحها قط، وكذلك أنا، عما فعلته بفريد» (لقد قرأت ملاحظات الطبيب النفسي السابق لدنكان، وقد اعترف الطبيب بأن أشد ما أحزن دنكان كان فقدان الكلب).

فقلت لها: «فهمت الآن لماذا كان عدم الانجذاب لأمك على رأس قائمتك عند البحث عن زوج»، ثم أخبرتني مادلن أن جوي صار مليونيرًا بين عشية وضحاها عبر زواجه من مادلن، فباستخدام أموال دنكان لتأسيس وكالة كندية ناجحة -وفقًا لقول مادلن- أصبح غاية في الثراء، ثم رغب في شراء جميع المنتجات الاستهلاكية المبهرجة إلى حد مخجل، ثم بحلول انتهاء عامهما الزواجي الأول بدأ في الشكوى من أن مادلن تعمل أكثر مما ينبغي، كانت وجهة نظر جوي معتبرة، ولكنه بمجرد حصوله على المال والشركة عين مديرين للتعامل مع المتاجر ليستيقظ من النوم ظهرًا، والمشكلة أن تلك لم تكن أخلاقيات العمل التي لدى مادلن وأبيها، بالإضافة إلى أنه كان شريكًا جنسيًّا فظيعًا.

- هل أخبرته عن إحباطك الجنسي؟

- مرات عديدة، لكنه لم يكن يقول سوى: «**أنا سعيد**»، ثم أخبرته أننا بحاجة إلى الذهاب للمشورة الزواجية فقال انسي الأمر، ثم قال كأنه يواسيني: «عزيزتي، لم أعدك قط ببستان زهور».

ثم أصبحت اختلافاتهما أكثر إثارة للشقاق، إذ رغب جوي في شراء الطائرات، وسيارات السباق، والقوارب الضخمة وما إلى ذلك، وهو ما لم تكن مادلن مهتمة به، كما رفض الذهاب إلى أي من الرحلات الأوروبية التي كانت مادلن تستمتع بها، ولم يكن راغبًا سوى في الذهاب إلى مشاهدة «سباقات جراند بريكس» Grand Prix، ولو أن مادلن لا تحبها فبإمكانها البقاء في المنزل، لم يكترث بسعادتها ولا رضائها الجنسي، بل قال إنه هو الآن من يقود الزواج وعلى مادلن أن تتحمل ذلك، وبهذا صار هو من يعيش في بستان زهور. أما هي فقد تركها للأشواك.

لم تكن أم مادلن مهتمة سوى بنفسها وبرغباتها. وسار جوي على نهجها برفضه تلبية احتياجات مادلن ووصفها بأنها أمور مزعجة، لقد أوقعت شارلوت دنكان في مصيدتها ثم قضت حياتها في إنفاق أمواله، ثم فعل جوي الشيء نفسه مع مادلن.

قلت لها: «لا عجب أن جوي أدرك حقيقة أمك منذ البداية، فلقد كان واعيًا بالقواسم المشتركة».

- ورغم ذلك فقد كنت أخشى أن يفارقني، لذا ظللت متشبثة به.
- لماذا كنت خائفة من الهجر؟ أعني أننا جميعًا نخاف منه، لكن لماذا البقاء برفقة زوج سيئ؟ أنت ثرية، وجميلة، وموهوبة.
- بادئ ذي بدء، لا أشعر أنني أي من تلك الأشياء، غنية ربما، لكن هذا لا يهم، لم يسعدني ذلك قط.

فسألتها: «هل تظنين أنني أختلق هذه الصفات؟».

فترددت ثم قالت: «لا ... ليس تمامًا، بصراحة، أنت تخيفيني لأنني أظن أنني خدعتك أنت أيضًا».

كان الخوف من الهجر يمثل قوة شديدة في حياة مادلن، وهو ما أبقاها برفقة زوج سيئ لسنوات، بل كانت تخشى أن «يهجرها» بعض موظفيها الراكدين الذين لا يكنون ولاءً لها، وظلت تدفع لهم رواتب أعلى مما يستحقون وتتحمل منهم الكثير، لكنني بعدما سمعت المزيد عن طفولتها أدركتُ أن مشكلاتها ناتجة عن تعرضها للإهمال لسنوات عديدة.

عندما كانت مادلن في المدرسة الثانوية وتذهب مع فريق التجديف نادرًا ما كانت أمها تأتي لاصطحابها في الوقت المحدد، فتصير هي الفتاة الوحيدة

المتبقية بعد التمرين، تقف متجمدة من البرد على مرسى القوارب في انتظار الأم التي تتأخر ساعة كاملة، ووصفت لي ذلك قائلة: «ثم حين أركب السيارة تقول: «لولاك أيتها **الآنسة المتذمرة**، لا عجب أنني أؤجل اصطحابك، فمَن يريد ترحابًا من هذا الوجه؟»»، ونظرًا لأنها كانت آخر من يتبقى في كل مرة فقد كان المعلمون يرسلون ملاحظات إلى البيت، معلنين إنهم لا يستطيعون البقاء لفترة طويلة ويطلبون اتخاذ الترتيبات اللازمة لاصطحابها، لكن أمها كانت تمزق الملاحظات حتى لا يراها دنكان، وتقول: «نحن ندفع مبالغ ضخمة لتلك المدرسة الخاصة، ينبغي لهم الانتظار مهما استغرق الأمر مني للوصول هناك، لماذا يرسلون هذه الملاحظات إلى البيت؟ لا شك أنك انتحبتِ لهم توسلًا للشفقة، أيتها المسخ الصغير، ربما لم يعلموا حقيقتك بعد، لكنني أعلم».

لا يرى النرجسيون الحقيقيون -كشارلوت- أنفسهم مخطئين أبدًا، فعندما يتفاعلون بهجوم مباغت يكونون على قناعة بأنهم يدافعون عن أنفسهم فحسب بالتصدي لمن يحاول إيذاءهم باستفزازاته الشنيعة، وعندما يشعرون بالتهديد يندفعون إلى الانتقام بأقصى سرعة، وبذلك يمكننا وصف النرجسية بأنها دفاع أهوج.

***

أخبرتني مادلن في الأسبوع التالي -وكنا لا نزال في استكشاف الهجر- أنها حين كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها ذهب والداها برفقة جديها في رحلة إلى روسيا لمدة ستة أسابيع، وبدلًا من أن تجلب شارلوت جليسة أطفال تركت لمادلن مالًا فحسب لسيارات الأجرة، والمطاعم، وصفت مادلن ذلك قائلة: «لكنني كنت مرتعبة من الخروج وظللت ملتصقة بفريد، كان المنزل فسيحًا، آنذاك كان مشتملًا على دار ضيافة، وحديقة ذات مستنبتات زجاجية، ومرأب، وحوض سباحة حوله كابينة».

في تلك الأثناء تناولت مادلن العشاء ذات ليلة في منزل صديقتها لورين المقابل لهم وذكرت بعفوية أن والديها في روسيا، ثم -حين كانت تحمل الأطباق من طاولة غرفة المعيشة- سمعت والدي لورين يتحدثان في المطبخ، وسردت لي ما حدث: «سمعت أمها تقول كلمتي **الإهمال وانتهاك الطفل**»، كانت مادلن مدركة أن أم لورين إنسانة طبيعية ولا تختلق الأمور أو تبالغ

بتاتًا، أما والد لورين فقد قال إن دنكان قطعًا لا يعلم أن مادلن بمفردها وإلا فلم يكن ليسمح بذلك إطلاقًا. وفي نهاية المطاف سألت أم لورين مادلن عن اسم عاملة التنظيف ورقم هاتفها، ثم اتصلت بها وجعلت ابنتها الكبرى أسونسيون -التي كانت في سن التاسعة عشر- تمكث في منزل مادلن حتى عودة والديها للبيت، وقالت لي مادلن بهدوء: «انحفرت عبارة **انتهاك الطفل** في ذهني، أظن أن بابًا صغيرًا قد انفتح في ذلك اليوم».

في الأسبوع الأول من سفر والديها امتلأ الجو بالعواصف ذات ليلة وهي في المنزل بمفردها، ثم انطلقت صافرة إنذار السرقة وانقطع التيار الكهربائي، فتملكها الرعب، لظنها أن أحدًا قد قطع الخطوط الكهربائية واقتحم المنزل ليقتلها، خافت مادلن من الاتصال بأي أحد، لعلمها بأنه أمها إن اكتشفت أنها «تنتحب» -وفقًا لتسميتها- و«تحرض الناس عليها» ستستشيط غضبًا، وسردت لي ما حدث قائلة: «انطفأت الأضواء في غرفتي باستثناء هاتف الأطفال الخاص بي، فاتصلتُ بالنجدة، كانت صافرة الإنذار مدوية، فاختبأ فريد تحت السرير مرتعدًا من شدة الخوف»، وفي نهاية المطاف جاءت الشرطة، ومن خلفها رجال الإنذار، اتضح لاحقًا أن جهاز الإنذار قد تفعَّل عندما أسقطت الرياح العاتية بعض الأشجار على الأسلاك الكهربائية.

شرح رجال الإنذار للشرطة ما حدث، ثم أراد الضابطان التحدث إلى والديها، لكن مادلن أوضحت أنهما قد سافرا لروسيا لستة أسابيع، فسألاها عمن يعتني بها فأجابت إنها بمفردها، فتبادل الضابطان النظرات، كانت مادلن خائفة، ومدركة أنها مضطرة إلى التستر على أمها، فأخبرتهم أن عاملة التنظيف تأتي مرتين في الأسبوع وبأنها قادرة على مهاتفة الناس لو شعرت بالتوتر.

فسألتها: «ألم تقل الشرطة أنه لا يجوز أن تبقي بمفردك؟».

فردت: «كلا، لقد ترددا ثم أبلغاني أن أتصل بالجيران إن حدثت أي مشكلات ثم غادرا»، آنذاك كان أحد الجيران واقفًا بالخارج مرتديًا روب الاستحمام، قلقًا بشأن كل هذه الجلبة، فتحدثت إليه الشرطة، ورأتهم مادلن من بعيد وهم يومؤون برؤوسهم إيماءات مفادها أن الوضع سيئ.

من المثير أن نتأمل الاختلافات الطبقية في هذا الموقف المنطوي على هجر طفل، المعوزون **ماليًّا** هم فقط من يُعتبرون في خطر، فلو ذهبت الشرطة

إلى مشروع إسكان ووجدت أطفالًا متروكين بمفردهم لستة أسابيع لبحثوا عن البيانات الشخصية للأبوين أو لنقلوا الأطفال إلى إحدى دور التبني، لا شك أن الشرطيين اللذين أتيا إلى قصر مادلن افترضا بطريقة ما أن الأثرياء لديهم سلطة أخلاقية، إنهم وإن تركوا ابنتهم بمفردها فهم على دراية بما يفعلونه، فرغم كل شيء فإنهم راشدوين «مسؤولون»، أو ربما خاف الضابطان من فضح إهمال كهذا في عائلة ثرية ذات نفوذ، لانتقم دنكان منهما، ولم يريدا الإقدام على انتحار مهني، لذا تركا طفلة في سن الحادية عشرة، طفلة لا تزن سوى 34 كيلو جرام، بمفردها لأكثر من شهر، ولم يتم الإبلاغ عن الحادث قط لأي من هيئات رعاية الطفل، ولم يتفقد أحد أحوالها ثانية.

ذكرت لي مادلن أنها -بعد سنوات- ذهبت برفقة جوي لمشاهدة فيلم «وحيد بالبيت» Home Alone، وقالت: «اضطررت إلى المغادرة لأنني شعرت أنني على وشك الإغماء، لقد صدمتُ من ضحك الجمهور، وشعرت بالرغبة في الصياح بهم للكف عن ذلك».

- لقد عشتِ ذلك وأدركت أنه ليس مضحكًا.

استقبلت ابنة عاملة التنظيف أبي مادلن بالباب فور عودتهما من روسيا وأخبرتهما أنهم تلقوا مكالمة قلقة من أم لورين، فدفع لها دنكان أجرها ورحلت، استشاط دنكان غضبًا (على غير عادته)، إذ حسب أن شارلوت قامت بالترتيبات لإحضار شخص للاعتناء بمادلن، وسألها ما الذي كانت تفكر فيه بحق الجحيم، وعلى حد وصف مادلن: «خاضا نزاعًا كبيرًا وقالت أمي: «عندما كنتُ في سن الخامسة عشرة كنت أتجول سعيًا وراء الشخصيات المهمة لجمع دعوات لعائلتي لحضور مناسبات هامبتون. لم يكن عليَّ فقط أن أكون متملقة، بل أجادل لتحصل عائلتي بأكملها على إجازة صيفية»، ثم بدأت تصيح، الصياح الذي يرهبك، لإدراكك بأنك ستدفع الثمن لاحقًا: «ومن طلب من الملكة الصغيرة فعل أي شيء؟ يا للسخافة! كل ما كان عليها فعله هو تناول العشاء في المطعم، لو كنت مكانها لغمرتني السعادة بدعوة خليلي للبيت، لكنها ليست كذلك، يجب أن تتصل بالشرطة وكل فلان وعلان في تورنتو لتفسد سمعتي ليس إلا، يا ربي، أنقذني من هذين الاثنين»، ثم صعدت إلى الطابق العلوي»، فصاح بها دنكان أن هناك فرقًا كبيرًا بين الحادية عشرة والخامسة عشر، وأضاف بأنه يرفض أن تمر ابنته بما مرت به شارلوت في طفولتها.

ثم أكملت مادلين: فقالت (وهي عند بسطة السلم مولية ظهرها): «إن كنت غاية في القلق هكذا بشأن طفلتك الغالية فلماذا لم تحضر لها جليسة أطفال؟ هذا واضح من اسمها: **أطفال**».

بعد سماعي لهذه القصة، وللعديد من أشباهها، سألت مادلن هل تشعر بأن التربية التي تلقتها صادرة من أم قررت تدميرها عمدًا أم من أم مفتقرة إلى المهارات التربوية.

ظلت تتأمل طويلًا، ثم قالت في نهاية المطاف: «أظن أنها مزيج من الاثنين، لست متيقنة هل كانت راغبة في تدميري أم لا، أظن أنني لم أكن مهمة بالنسبة لها، لكن فيما يتعلق بالمهارات التربوية فأنا على دراية بأنها منحدرة من أم بالسوء ذاته، إن لم تكن أسوأ»، تفاجأتُ حين علمتُ أن مادلن لم تلتق قط بجدتها لأمها، لكن شارلوت أخبرتها أنها كانت امرأة متذمرة ومخادعة، كرهها زوجها، وتركها مع شارلوت، ورفض مقابلة أي منهما مجددًا، ورغم أنه كان لديه المال فقد رفض منحهم قرشًا واحدًا، هذا وقد كان لدى دنكان أسباب وجيهة لعدم ذهاب مادلن لبيت حماته، وعدم ترحيبه بحماته في بيتهم، وعقبت مادلن قائلة: «كان هذا غريبًا، فهو لم يكن يضع أي قانون إلا فيما يتعلق بالمال، ليس لدي أي فكرة عما فعلَته، لكن لا شك أنه شنيع».

***

في جلستنا التالية رافقتْ فيينا مادلن إلى مكتبها ثم قالت: «لا أدري ماذا يجري هنا فيما يتعلق بالعلاج النفسي، لكن المحاسب أخبرني أن أبلغك أننا إن لم نبدأ في طيراننا بالمنتجات فسوف نطير نحو الإفلاس»، فنظرت مادلن إلى فيينا كأنها تريد خنقها، لكن فيينا واصلت تجاهلها وقالت: «ويحك، لقد أخبرتني ألا أتركك تكنسين ذلك تحت السجادة، إذن يا د. جوجو، نحن الآن في وضع الأزمات».

فصرخت مادلن: «فيينا، اخرجي!».

فردت فيينا: «حسنًا، حسنًا، سأرحل»، ثم ابتسمت ابتسامتها العريضة قائلة (وهي تنسحب من الغرفة وتغلق الباب المزدوج): «د. جوجو، لقد أحببت كتابك».

نظرت مادلن إليَّ نظرة مهزومة بعض الشيء، ثم قالت: «فيينا محقة، إنني أخسر الزبائن والأموال، لا بد لي من التعامل مع رهاب الطيران، لكنني

أسعى لذلك مع د. جولدبلات وأقوم بتدريباتي، كما أنني **قد** تمكنت بعض الشيء من تهدئة معدل نبضات قلبي».

- أظن أن صعود الناس على متن الطائرة ومفارقتهم لك يثير بداخلك مشاعر فياضة، لقد ناقشنا في الأسبوع الماضي الهجر الذي شعرت به عندما رحل والداك إلى روسيا، الهجر شعور جبار، ويبذل الناس الغالي والنفيس لتفاديه، حتى لو كان تعريض أعمالهم للخطر.

فردت مادلن: «لا، هذا ليس بسبب الهجر»، ثم جلست متفكرة في صمت خمس دقائق كاملة، ثم قالت: «مجددًا، إنه موضوع المسخ، عندما تسير الأمور على ما يرام أشعر أن عقابًا سينالني، أنا مسخ وسيكتشف الناس ذلك، وحتى لو لم يكتشفوا فستحدث أمور سيئة لأن المسوخ لا تستحق النجاح»، ثم ترددت وأضافت: «ولا السعادة».

«هل هذا كله من أمك، أم فعلتِ شيئًا أشعرك أنك وحش؟».

فاحمر وجهها وقالت: «كيف علمت ذلك؟».

ظللت صامتة، ولم تعرض أي شيء، فقلت: «إن أحد الأمور التي أعلمها يقينًا هو أننا جميعًا نفعل أشياء نخزى منها، حين نرتكب محظورًا يثور بداخلنا بركان الخزي، ولو قال أحدهم إنه لم يختبر الخزي فهو إما لم يعش وإما يكذب».

طوت مادلن ذراعيها أمامها ودنت ببصرها للمكتب ثم قالت: «منذ خمس سنوات، خلال زواجي، نمت مع رجل يعمل في قسم التوصيل الخاص بي، واستمر ذلك قرابة شهر، أكره نفسي بسبب ذلك، لقد بلغتُ بشاعة أمي».

- دعيني أنظر في هذا: لقد استغل زوجك أموال أبيك لتأسيس شركته، ثم لم يذهب إلى العمل، ولم يلتفت لما تستمعين به، وأخذ يشتري أشياء باهظة لا تهتمين بها، كالقوارب السريعة والطائرات، ولم يفعل قط شيئًا ثقافيًّا يروق لك، بل رفض ممارسة الجنس المُرضية للطرفين، وعندما أخبرته أنك لست سعيدة قال لك ببساطة إنه لا يبالي.
- رجاءً لا تبرري ذلك وإلا سأفقد الثقة في أنك معالجة نفسية جيدة.
- أنا لا أبرر الخيانة الزوجية، لا أقول سوى أن الخيانة ليست استجابة غريبة، لقد فعلت كل ما بوسعك لإعلام جوي أنك راغبة في أن تكون الأمور مختلفة، أردت التماس المشورة الزواجية فرفض، فذهبت

بمفردك لبضع جلسات، وطرحت أوراقك مكشوفة على الطاولة فقال ببساطة: «وإن يكن، أنا لا أكترث بمشاعرك».

بدا أن مادلن لا تزال غير مقتنعة، فقلت: «بالمناسبة، ما هي طباعه؟».

حينئذ بدا عليها الذهول، فأتبعتُ ذلك قائلة: «إنه شديد التبذير، وصرح بأنه غير مكترث لسعادتك، ثم حين ذكرتِ أخلاقيات العمل وصفك بأنك متحجرة العقل».

- أمي، **سحقًا**، لم أرَ ذلك قط، لقد كانا مختلفين ظاهريًا ويكرهان بعضهما بعضًا بحيث غفلتُ عن ذلك، يا إلهي، أنا الكليشيه، **لقد تزوجت أمي**.

سبق أن أشرت إلى مادلن إلى هذا التشابه، لكن من الجلي أنه لم ينفذ إلى الداخل، أحيانًا ما يحتاج المرضى إلى رؤية وسماع الأمور من زوايا عديدة، ومرات عديدة، حتى يطلق اللاواعي سراحها إلى عقلهم الواعي، وهذا أحد الأسباب التي تفسر لماذا يستغرق العلاج النفسي زمنًا طويلًا.

- ما الفرق بين جوي وأمك؟
- جوي ودود للغاية، ويحبه الجميع.
- وكذلك أمك مع الآخرين، كل منهما لديه العديد من الصداقات السطحية لكن ليس لديه أصدقاء حقيقيون.
- لقد شعرتُ أنني عاجزة عن مفارقته، فتوجب عليَّ البقاء لتسع سنوات بائسة.
- كما كنتِ عاجزة عن مفارقة أمك، فلقد كنت طفلة، وكانت هي كل ما لديك، لقد ارتبطتِ بعدم اكتراثها و-في بعض الأحيان- قساوتها، وكانت وظيفتك تحمُّل أعبائها والتستر عليها.
- يا إلهي، ذلك ما كنت أفعله مع جوي! كان مديرو المخازن يتصلون متسائلين عن مكانه فأتستر عليه وقلبي يعتصر، وكان يخبرني أنه بالخارج مع العمال لكنني كنت على دراية بأنه يكذب وأنه قد ذهب لشرب الخمر، ورغم ذلك لم أجابهه قط، فلقد كنت مرعوبة من مفارقته لي.

- كما فعلت أمك حين سفرها إلى روسيا، وحين تركها لك وحيدة بعد التجديف ومباريات الهوكي، ثم حين رحيلها في نهاية المطاف برفقة رجل آخر، لقد كنت عاجزة عن مفارقة جوي، وكنت مرتبطة بقساوته وعدم اكتراثه.

- **قساوته**؟ تلك مبالغة، لم يكن قاسيًا قط.

- حين يقول أحد إنه لا يبالي برضاك الجنسي ولا يأبه لاصطحابك إلى المطاعم الراقية بدلًا من سباقات السيارات فإنه على الأقل غير مكترث وقاسٍ، لقد كان لطيفًا في أثناء المواعدة وحتى حصوله على مال أبيك.

- لقد سدد المال لأبي حقًّا.

- أجل، لكن من دونه لم يكن ليحصل قط على تلك الملايين لاستغلال تلك الفرصة التجارية.

- ربما كل ما في الأمر أن الرجال لا يكترثون لسعادة النساء؟

- أظن أنك لا تعلمين ما هي الطيبة، أو ماهية السلوك الطبيعي للزوج تجاه زوجته.

- لقد كان أبي طيبًا.

شرحت لها أن دنكان قد قام بدور الأب على نحو أفضل بكثير من قيام شارلوت بدور الأم، وأنني أرى أن حبه لها صادق، ثم أشرت قائلة: «لكنه لم يكن بجانبك حين احتجته، إذ كان خائفًا هو الآخر ومرتبطًا -لأسباب لا أفهمها- بامرأة قاسية وغير محبة».

لقد اختبأ برفقة مادلن في غرفة المعدات بالبدروم حين توجب عليه حمايتها من أمها، وهو الآن منزاح للعدو مجددًا، ثم قلت لها: «مادلن، أنت ممنوعة من دخول بيتك، حيث دمرت كارين تحف جدتك، ثم وقف أبوك في صف كارين، فخانك مجددًا، لا عجب أنك تعانين الآن هذه الأعراض»، ثم قلت إنها سبق أن نجت من خيانة دنكان لها بعدم تصديه لأمها، لكن الخيانة الثانية -مع كارين- شديدة الثقل، وهذا شبيه بانكسار الكاحل في نفس الموضع مرتين، فلا عجب أنها تمشي عرجاء في حياتها النفسية.

لكن مادلن لم تكن منتبهة لما أقوله بشأن خيانات أبيها، إذ كانت لا تزال مذهولة من إدراكها أنه رغم جهادها للهروب من أمها فقد انتهى المطاف بها متزوجة نسخة منها.

ثم قالت: «شعرت أنني عاجزة عن مفارقة جوي، بل رأيت أنه من واجبي البقاء»، ثم ظلت صامتة لدقيقة، ثم عقبت (عابسة): «أتعلمين ما يدور ببالي؟ ربما من الأفضل أن أقوله، من سيود الزواج بمسخ سوى مسخ آخر؟».

فقلت: «السيد مسخ يتزوج السيدة مسخة»، فأومأتْ بالموافقة.

- لكنك على الأقل كنت راغبة في ممارسة راقية للجنس، لذا كانت هذه الخيانة، لست أناصر ذلك، ولكنك كنت يائسة.

- بالضبط، لقد **كنت** يائسة، لا أصدق أنني اخترت **ذلك** الرجل، يا إلهي!

بدأ الأمر ذات ليلة حين كان كل منهما يعمل لوقت متأخر، كان يجب نقل المنتج في الصباح الباكر وهو المسؤول عن التعبئة، سردت مادلن ما حدث قائلة: «طلبنا طعامًا من أحد المطاعم، ثم لمَّح برغبته فيَّ، كان لطيفًا ومكترثًا باستمتاعي، ثم بعد بضعة أسابيع أخبرته أن الأمر انتهى، فقال إنه سيقتل نفسه وغير ذلك من السفاهات الهستيرية المختلفة».

سألتها هل توجهت إلى أحد يساعدها في التعامل مع الأمر، فأدهشتني بقولها أن أجل: لقد توجهت إلى عالم آثار روسي اسمه أنتون، الذي يعمل معها وتثق به، وقالت لي: «أنتون هو أكثر شخص طبيعي هنا، لا يتحدث كثيرًا، وهذا ليس مفاجئًا من شخص مثله، وجدني أبكي في مكتبي، فتخلصتُ من تلك البهرجة الزائفة، مخبرة إياه أنني داعرة قذرة وأكره نفسي، فقال إن هذا ليس صحيحًا وأن جوي هو العديم القيمة في واقع الأمر، وأنه ينبغي لي التقليل من خسائري وطرد هذا الشخص **فورًا** من خلال تصفية حسابه أو فعل أيًا ما يتطلبه الأمر للتخلص منه»، لقد تدبر أنتون أمر النقال بأن استدعاه إلى مكتبه وأخبره أنه إن ذكر هذا الأمر ثانية لمادلن أو غيرها فسيتحتم عليه مغادرة الشركة، وأنه إن لم يتوقف عن سلوكياته غير اللائقة فسيفصل من عمله، ثم طمأن أنتون مادلن بأن النقال لن يقتل نفسه، وأن «الرومانيون دائمًا ما يقولون ذلك»، ثم أضاف أنه وإن فُصل من الشركة فلن يستعين بمحامٍ أبدًا لارتعابه من الشرطة وسلطات الهجرة.

كان أنتون محقًا في النهاية، إذ عاد النقال لوضعه الطبيعي، بل كان لا يزال يعمل هناك (تساءلت ما إذا كان هو الرجل الذي يشتري لنا القهوة)، ثم اتخذت مادلن خطوتها التالية: «أخبرت جوي أن علاقتنا انتهت، فلم يتفاجأ، كما لم يعترض حين أشرت إلى أنه قد جنى أموالًا كثيرة على مدار سنوات زواجنا»، طلقها جوي، ولم يمضِ على ذلك عامان حتى تزوج ثانية «فتاة إيطالية لا يتوقع أن يكون لها رأي في أي شيء، ناهيك بالجنس».

***

إن أحد الأشياء التي أحبها بخصوص كوني معالجة نفسية هو انحلال الألغاز وانبثاق الأمارات -أو التجليات- النفسية فور اتضاح الأمور للمرضى، حيث تصبح الصورة الكبرى في بؤرة العدسة، ولكن هذا ليس سهلًا كما يبدو، خاصة أن المريض نفسه يكون جزءًا من تلك الصورة.

كان التجلي الأول في حالة مادلن هو اعتقادها في قرارة نفسها أنها مسخ، وأن المسوخ لا يستحقون السعادة، فتبع ذلك -في ذهنها- أن أمورها لو سارت على ما يرام فعاجلًا أم آجلًا ستفقدها، وتجسد ذلك في قلقها من تحطم الطائرات.

أما التجلي الثاني فهو أن مادلن -مثل كثير منا- تزوجت نسخة من أحد أبويها ذي الطباع الصعبة، وهي على قناعة يقينية بأنها قد تزوجت العكس، لقد اختارت مادلن -المنحدرة من العائلة الواسبية المحافظة- جوي، الإيطالي الكاثوليكي المنحدر من الطبقة العاملة، ثم اكتشفت أن لديه صفات أمها ذاتها فور زوال القشرة الطبقية، فلقد كان -مثل شارلوت- أنانيًا إلى حد نرجسي، وكسولًا، وقاسيًا، ومنافقًا.

أما الثالث فهو أننا قابلنا تاريخ مادلن المتعلق بالهجر وعاودنا زيارة رعبها من بقائها «وحيدة بالبيت».

وبهذا آن الأوان لترتق مادلن الفتق بين تلك المواضيع وتكتشف سبب بقائها في براثن النرجسيين، في كل من حياتيها الأسرية والمهنية، وصرنا بحاجة إلى تجميع المعلومات لتكوين سرد جديد يساعد مادلن على التحرر من أعراضها المشلة.



4

الجزاء من جنس العمل

قد تظل تتعامل مع الأعراض أعوامًا عديدة في العلاج النفسي، لكن لا يتغير شيء حتى تنكشف القضية الأساسية، وفي حالة مادلن كانت الأم أصل المشكلة، لقد غرست عمدًا في ابنتها قناعة أنها مسخ.

في جلستنا التالية ارتعدت مادن خوفًا وهي تخبرني أن شارلوت -التي كانت تعيش آنذاك في فلوريدا- قد هاتفتها لتدعوها لزيارتها، إن آخر مرة سافرت فيها مادلن إلى هناك نسيت أمها اصطحابها من المطار واضطرت مادلن إلى البحث عن عنوانها في دليل الهواتف، ثم حين وصلت في نهاية المطاف إلى مسكن شارلوت، منزعجة بطبيعة الحال، قالت أمها: «لماذا الغضب من البداية؟ عادة ما يستغرق الأمر أربعة وعشرين ساعة لتكرهيني».

الأسطوانة القديمة ذاتها.

تعجبتُ من بقاء شارلوت في فلوريدا طوال العام فقلت: «لا أحد من الأثرياء يعيش في فلوريدا طيلة العام، إلا لو كانت على شفا طلاق سيئ ولم تحصل على شيء سوى بيت العطلات الشتوية».

فردت مادلن: «لقد اقتربتِ، لقد ارتكبت أمي العديد من الخيانات خلال زواجها من أبي، ولم تكن تبذل جهدًا للتستر عليها، كان هناك العديد من أعقاب السجائر في منفضة السجائر ورجال كثيرون يجيئون لـ «الزيارة

فحسب»»، حين كانت مادلن في سن الرابعة عشرة انخرطت شارلوت مع رجل اسمه جاك، وهو عضو في ناديهم، كان ثريًّا وخسيسًا، مستثمرًا عقاريًّا يتبدل بين الثراء الفاحش والاستدانة، ومتورطًا فيما أشارت إليه مادلن متشككة بأنه «قروض مرحلية[1]»، حين التقيا كان جاك في سن الخمسين وشارلوت في الخامسة والثلاثين تقريبًا، ففارقت شارلوت دنكان للذهاب مع جاك اللزج، لكن لم يسْعَ أي منهما في إجراءات الطلاق، ثم أشارت مادلن إلى أنها الآن في الثلاثة والثلاثين، السن ذاته الذي فارقت عنده أمها أباها.

كان الانفصال قد حدث منذ عشرين عامًا، والآن صار جاك في سن السبعين ومصابًا بسرطان البروستاتا، من بين أشياء أخرى، ومن ناحية أخرى انحبست شارلوت في دور مقدمة الرعاية، دور -على حد زعمي- ليس من طبيعتها، وحين ذكرتُ اندهاشي من اختيارها رجلًا مسنًّا قالت مادلن: «كان كل شيء لم يكُنه أبي، كان مثيرًا للحماس، ومنفلت اللسان، ومكتسبًا للثقافة المعاصرة، بل سافر ذات مر ة إلى «مدينة موناكو» للمقامرة فحسب، كما كان وسيمًا وسامة نجوم السينما».

هذا وقد كان كل من شارلوت وجاك مخادعًا ماكرًا، كان لدى عائلة دنكان شقة في المجمع السكني ذاته الذي تسكن به عائلة جاك بـ «بلدة بالم بيتش»، حين كان والدا مادلن يعيشان معًا كانت شارلوت معتادة على اتخاذ مادلن ذريعة للقاءات العشق: «كانت أمي تجرني إلى الشقة التي يعيش فيها جاك مع زوجته آنذاك، كانت هي وجاك يتشابكان الأيدي ويلامسان الأقدام تحت المنضدة، وكانت أمي تشتت الانتباه بقول أشياء عجيبة لزوجته مثل أنه ينبغي لأطفالهما التجمع ولعب التنس، كان أبناؤه في منتصف الثلاثينيات أما أنا فكنت في سن الرابعة عشر، كان هذا محرجًا إلى حد سخيف، وحين لا أتصرف بحماس تجاه مكائدها تصفني بأنني حجر لا يتزحزح من مكانه، بل تقول: «مادلن، أنت المولعة بلعب التنس مع أولاد جاك وأردت مني أن أسأل ما إذا كان بإمكانك اللعب معهم، يا إلهي، قولي شيئًا»».

قطع أولاد جاك الثلاثة علاقتهم بمادلن تمامًا بعدما فارق والدهم أمهم وخسر أمواله، وهو ما حدث في تزامن شديد، ثم أخبرت شارلوت مادلن بأن

(1) نوع من القروض قصيرة الأجل، تؤخذ عادة لفترة من أسبوعين حتى ثلاثة سنوات توقعًا لظروف مناسبة لتمويل أكبر أو طويل الأجل. (المترجم)

رد فعل أولاد جاك كان قاسيًا حين هاتفتهم لتخبرهم أنه أصيب بالسرطان، وأنهم لم يعاودوا الاتصال على الأقل، فقالت لي مادلن: «ملحوظة شخصية: إنهم شديدو المراعاة لمشاعر أمهم».

فتأملتُ قائلة: «هذا يدفعك للتساؤل أي نوع من الآباء كان، **الجزاء من جنس العمل**».

فانتصبت لورا في جلستها وتركت كوب القهوة على الطاولة وقالت: «قولي ذلك ثانية؟».

- الجزاء من جنس العمل.

فأخذت تردد بصوت مسموع، رويدًا رويدًا، كأنها لغة مختلفة: «الجزاء من جنس العمل».

ثم قالتها بنبرة عالية: «الجزاء من جنس العمل!»، ثم اتكأت في كرسيها وقالت: «حسنًا، إذا كانت تلك سُنَّة العلاقات، فلماذا أمنح أمي الكثير؟»، ثم أوضحت مادلن بأنها حين تتلقى مكالمة هاتفية من شارلوت تحاول الإنصات لها ومساندتها، بل لا تترك مناسبة خاصة إلا وترسل إليها زهورًا، رغم أن أمها لم تتذكرها في شيء ولا تعطيها شيئًا في المقابل.

سألتُ مادلن عن سبب إصرارها على المداومة، فقالت إنها لا تعلم السبب، لكنها اعترفت لاحقًا أنها لا تزال خائفة من أمها، وعبرت عن ذلك قائلة: «لقد اقتُلعتْ مخالبها إلى حد ما، لأن بمقدوري فراقها في أي وقت، لكن القطط لديها ما هو أكثر من المخالب».

اقترحتُ تجربة التداعي الحر بشأن تلك الفكرة فتذمرت مادلن بأنها ليست في عيادة فرويد، فقلت: «أعلم أن ذلك يبدو غريبًا بالنسبة لك، لكن اللاوعي في بعض الأحيان يستميت في سعيه للخروج، ليتك تعطيه الفرصة لالتقاط أنفاسه فحسب، لم لا تتصورين أنك تزيلين دفاعاتك كلها وتجلسين فحسب مع سؤال: «لماذا لا أزال لطيفة مع أمي؟» ثم تراقبين ما يطفو إلى ذهنك».

ليست مادلن الشخص الذي يفصح عن مشاعره، فرغم كل شيء فقد اضطرت إلى التجلد وإلا تدمرت، لراحت حينئذ ضحية لفقدان الشهية، أو إدمان المخدرات، أو الذهان، أو عدد من الاضطرابات المختلفة، ثم أظهرت مادلن الجلادة ذاتها خلال قتالها في معاركها الداخلية، وقد أكننت لها امتنانًا

شديدًا حينما توجهت نحو النيران، مغمضة عينيها، وطرحت ذلك السؤال على نفسها.

بعد دقيقة أو ما يقاربها انهمرت دموعها على ماكياجها المثالي، وفي نهاية المطاف لم تستطِع التقاط أنفاسها من شدة الانتحاب، ثم قالت: «كنت لطيفة في كل مرة لأنني ظننت أنها ربما ستحبني **هذه** المرة، لقد ظننت أن كل ما في الأمر أنني لم أصل إلى المقادير المناسبة لصنع الخلطة اللازمة، لطالما كانت هناك المرة القادمة، أردت أن أستيقظ ذات صباح واحد فقط وأنزل للطابق السفلي **فلا** تقول: «صباح الخير أيها المسخ»، لو اجتهدت بما يكفي لاكتشفت طريقة تجعلها تحبني».

فقلت: «لا يوجد طفل على وجه البسيطة لا يرغب في حب من أمه».

فصاحت (وهي تبكي محبطة): «يتلقى **البلهاء** حب أمهم! لم يفعل جوي شيئًا واحدًا لأمه قط، بل بعد حصوله على المال لم يشترِ لها فرنًا جديدًا تعد به المخبوزات التي تحتاجها، ورغم ذلك كان وجهها يستنير متى ما رأته، كما كانت أم باري تترك أيًا ما تفعله بمجرد دخوله من الباب وتُقبِّله، ثم تنفش شعره وتسأله عن يومه، لكنه لا يفعل شيئًا سوى الهمهمة المنزعجة، ورغم ذلك كانت تحبه حبًا جمًا».

نظرت إليَّ مادلن في أثناء تجفيفها لعينيها وقالت: «ما الخطأ الذي ارتكبته؟».

- هل أحبت أمك أحدًا؟
- **ربما** جاك، فقد كان يثني على جمالها طيلة الوقت، ومن يدري؟ لقد ظلت برفقته، لكنها الآن في الخمسينيات، أين بمقدورها الذهاب؟
- لقد ظلت برفقة أبيك خمسة عشر عامًا، هل أحبته؟
- لم تكن تطيقه، أتعلمين ما العجيب في الأمر؟ **لقد أحبها**، حين كانت تقدم له أدنى شيء -كالإمساك بذراعه أمام الناس- يتلألأ وجهه، لقد تعلمتُ الاشتياق إلى حبها، مثله بالضبط.
- يصعب فهم الحب، تأملي في مسرحية «من الخائف من فيرجينيا وولف» Who's Afraid of Virginia Woolf، كانت الزوجة تذيق زوجها الأمرَّين، وتخونه، ورغم ذلك ظل يحبها.

فقالت: «من العجيب أنك ذكرت ذلك لأنني شاهدت تلك المسرحية ذات مرة مع أبي في «برودواي»، ولم يرَ أي منا أن الزوجة بهذا السوء»، ضحكنا نحن الاثنان من ذلك.

- من الغريب أن أباك كان مستمرًا في الاشتياق إلى أمك غير المحبة، وخصوصًا أنه -على حد قولك- قد حظي بهذين الأبوين المحترمين، لكن ليس غريبًا على الإطلاق أنك كنت راغبة في حبها، فذلك ما يرغب فيه أي طفل -أو أي حيوان في هذا الصدد- من والده، هذا فطري.

ولتوضيح الفكرة أخبرت مادلن عن بعض الدراسات التي أجريت على حيوانات الغوريلا في «حديقة حيوان تورونتو» Toronto Zoo، من المعروف أن الغوريلا تقوم بدور الأب أو الأم على نحو جيد في البرية، لكنها في حديقة الحيوان لا تتناسل حتى، حيث تصاب بالاكتئاب في بادئ الأمر، ثم تصدر سلوكيات شعائرية وسواسية، انتبهتُ إلى أن الحيوية دبت في مادلن فور ذكر الوساوس، لم يكن لدى الغوريلا أي رغبة في الجنس، لقد صدرت منها سلوكيات تكاثرية في بعض الأحيان، لكن ليس برفقة شريك.

أراد مسؤولو الحديقة إحبال الإناث، لذا أحضروا ذكر غوريلا قامت أمه بتربيته داخل القطيع ويعلم ما ينبغي فعله (تعيش الغوريلا في البرية داخل مجموعات متألفة من ذكر راشد واحد برفقته إناث راشدات ونسلهن)، لكن الإناث اللائي لم يتربين في كنف أمهن أو داخل القطيع ارتعبن من الذكر حين حاول مجامعتهن، وظنن أنهن يتعرضن للهجوم فقاومن بشراسة، إذ لم يسبق لهن رؤية الجنس داخل القطيع، لكن الأهم هو أنه لم يسبق لهن رؤية المداعبة الجنسية، فرأين ذلك شكلًا من أشكال العدوان.

وقع حراس الحديقة في حيرة من أمرهم، فاستدعوا أحد إخصائيي السلوك الحيواني -وهو صديق لي- الذي قرر تلقيح الغوريلات صناعيًا، سقطت معظم الأجنة من أرحام الأمهات، لكن نجح الحمل لدى بعضهن وولدن فعلًا، لكن أولى الوالدات قتلت وليدها فورًا، إذ اعتبرته جسمًا غريبًا خرج منها، وبدا القلق عليها فور شروعه في الحركة، فأخذت تضربه حتى مات، كانت تلك صدمة للأطباء البيطريين والإخصائيين السلوكيين.

هؤلاء الإناث لم يسبق لهن التعلق بأمهاتهن، ولم يسبق لهن رؤية الترابط داخل القطيع، ولم يسبق لهن شهود ولادة أو رؤية وليد، لذا ارتعبن من ذلك.

وقع إخصائيو السلوك الحيواني في مأزق الولادات التالية: لقد أرادوا ارتباط الأم بوليدها لكنهم لم يريدوا المجازفة بقتلها له، لذا قرروا انتشال الوليد فور ولادته ثم إجراء لعب أدوار ترابطي بينه وبين امرأة مألوفة للأم تعمل مساعدة في الحديقة، لتشاهده الأم، على أمل أن تقلد ذلك السلوك الترابطي، كانت المرأة تحمل الغوريلا الوليدة وتحتضنها وتطعمها، لكن الأم لم تكترث لذلك (بل كانت أحيانًا ترمقها بنظرة كأنها تقول «الحمد لله أنني لست مكانك»)، بعد ذلك حاولوا إدخال الوليد إلى أمه تدريجيًّا فكانت تصفعه بعنف.

المحزن في الأمر أن الوليد ظل يواصل الحبو عائدًا إلى أمه، ساعيًا إلى الترابط، ولم ييأس، رغم أنها كادت أن تقتله بصفعه بعيدًا، ومن المفجع أنهم اضطروا إلى فصل الوليد عن أمه بالضبط كما فصلت الأم عن أمها، اعتلال متعدد الأجيال نراه مرارًا وتكرارًا في أحوال البشر.

عقبت مادلن بأن الغوريلا الأم كانت قاسية، فشرحتُ لها أن الأنثى لم يكن لديها أي فكرة عما ينبغي للأم فعله، نظرًا لأنها هي نفسها لم تعرف أمها قط، بل لم تعلم أنه ولدها، ولا معنى ذلك حتى، الغريزة الأمومية معقدة: إنها مزيج من الغريزة والتنشئة الاجتماعية المبكرة، والذي ينبغي أن يتضمن التعلق.

قالت مادلن: «لقد أخبرتك أن جدتي لأمي كانت شديدة السوء لدرجة أن أبي منعها من دخول منزلنا، يمكننا القول إنها كانت قوادة لابنتها، إذ كانت لا تغادر فراشها طيلة اليوم وتحرم عليها العودة للبيت إلا بعد حصولها على دعوات من الشخصيات المهمة، سألتُ أمي ذات مرة هل كانت أمها مريضة، فقالت: «كانت ثرية، ثم افتقرت، ثم استحالت أفعى»، لم تكن أمي شخصًا يثق بأحد، لا تعطيك إلا جملة واحدة، ولو سألتها عن المزيد تقول: «لا تحشر أنفك فيما لا يعنيك»».

جلسنا في صمت لبضعة دقائق، ثم قلت: «من الصعب أن تكوني الطفل الوحيد، لو كان لديك أخوة أو أخوات لرأيت في الغالب أنها لا تحب أحدًا، أو لساعدك أحد إخوتك، وربما اضطلع بدور أم بديلة لك (كنت أتأمل حماية ألانا لأختها الصغيرة)، لكنك كنت وحيدة مع أبيك، كان كل منكما في القبو، يأكل فضلات الطعام، مرعوبًا من شارلوت، رغم اشتياقه إلى الحب منها، من المؤسف أن أباك تصرف كطفل مرتعب بدلًا من أب مدافع».

- حسنًا، حسنًا، أرى أنني أستطيع رؤية أنها كانت عاجزة عن حبي، لكن لمَ كانت **تكرهني** وتدعوني بالمسخ؟

- لماذا كانت الغوريلا تضرب الوليد دون غيره؟

ظلت مادلن صامتة وقتًا طويلًا، ثم قالت: «كان الرضيع راغبًا فيما تعجز أمه عن منحه».

- أصبت، لقد فضحت أمك، تذكري حين سمعت أبوي صديقتك يتهامسان بعبارة **انتهاك الطفل**؟ إنك لم تطالبي بشيء سوى الحب الطبيعي وعدم الهجر، لا شك أن أمك قد رأت الأمهات الأخريات وكيف يتعاملن مع صغارهن، لا بد أنها كان لديها فكرة -وإن كانت مدفونة- بأنها لا تضطلع بمسؤوليات وصفها الوظيفي.

- أنت محقة، لأنها لم تكن تطيق أم باري، وكانت تصفها بأنها ربة بيت مفرطة الحماية تبقي أولادها في مرحلة الرضاعة، كما كانت تصف جميع الأمهات الأخريات اللاتي نعرفهن بأنهن يتدخلن في جميع شؤون أبنائهن وعاجزات عن تعليمهم الانضباط، ولقد صدقتُها نوعًا ما.

فسألتها (ساعية إلى التعمق أكثر): «هل صدقت ذلك في قرارة نفسك؟».

- صدقت ولم أصدق، ظننت أن الأطفال الآخرين كانوا مغنجين -وفقًا لوصفها- لكنني كنت **راغبة** أيضًا في التغنيج، أما الآن فقد أدركت أن أم باري والأمهات الأخريات كن أمهات محبات ليس إلا، لكن أمي لم تكن كذلك، وكما يقول د. جولدبلات فقد اختلط عليَّ التغنيج، السيئ، و**الحب**، الجيد.

فعبرت عن اتفاقي وقلت: «لم تقتنع أمك هي الأخرى بقصة التغنيج، في عقلها اللاواعي، كلما رأتك علمت أنها عاجزة عن القيام بوظيفة منحك الأمومة».

أشاحت مادلن بنظرها بعيدًا متأملة في الفضاء زمنًا طويلًا ثم قالت: «أجد صعوبة **شديدة** في تصديق أنه لم يكن خطئي، هل كانت قادرة على حب أحد؟»، وبدا عليها الارتباك، كانت لا تزال في صراع مع فكرة أن قساوة أمها لم تكن غلطتها، كانت هذه لحظة مهمة في العلاج، فأردت مساعدتها على توضيح ذلك السؤال.

فأجبتها قائلة: «لم تكن قادرة على حب شخص راغب في الحب، والمودة، والدفء، والتعاطف **الصادقين**، لقد سببت لها أمها جروحًا شديدة وهجرها أبوها بحيث افتقرت إلى ما يلزم لإنجاح الأمر، لقد كانت نرجسية، أو سيكوباتية، أو كلاهما، لكن هذه مجرد تصنيفات فحسب (هناك جدال كبير في ميدان علم النفس بخصوص هل النرجسيون والسيكوباتيون يولدون بهذه الهيئة أم يُصْنَعُون، وهو جزء من الجدل الجاري بشأن الطبيعة/ البيئة)، بيت القصيد هو أن شارلوت كانت مفتقرة إلى مقومات الأمومة، لكن كان من المتوقع منها القيام بتلك الوظيفة».

نظرت إليَّ مادلن نظرة حزينة ثم قالت: «للمرة الأولى في حياتي أكاد أشعر بالأسف عليها».

***

إن العلاج النفسي أشبه بزراعة شجرة، لا يبدو أي نمو ملموس طيلة السنوات القليلة الأولى، لكن بحلول السنة الثالثة، بعد رسوخ الجذور واقتدارها على حمل الجزع، تندفع الشجرة بسرعة شديدة نحو السماء، لقد حدث لدى مادلن بضعة تجليات مهمة بشأن سلوكها، كان الأول سنة الطبيعة البشرية: **الجزاء من جنس العمل**، لقد ساعدتها تلك العبارة، فلقد كانت غافلة عن أن لديها الحق في عدم منح أمها سوى ما تتلقاه منها، الذي كان أقل القليل.

أما التجلي الثاني فقد حدث حين أطلق عقلها الواعي العنان للفكرة -أو المعتقد الزائف- القائلة إن أمها لن تحبها إلا لو بلغت الكمال، لا شك أن هذا ليس صحيحًا، فلقد كانت أمها عاجزة عن حبها، والوصول إلى المثالية لن يغير تلك الحقيقة، فساعد ذلك الاستبصار على تحرير مادلن من سعيها المستميت لإرضاء أمها.

كان أهم التجليات في تلك السنة هو أن أمها كانت -مثل الغوريلا المأسورة- عاجزة عن الحب، لم تحصل هي نفسها على الأمومة قط، فلم يكن لديها نموذج تحتذي به، يعتقد كثير من الإخصائيين النفسيين أن اضطراب الشخصية النرجسية ينشأ في سن مبكرة جدًا، قبل بلوغ العامين على الأرجح، حيث يتعرض الطفل للإهمال ولصدمات نفسية فيتعلم أنه ينبغي عدم الوثوق بمقدم الرعاية الأساسي في تلبية احتياجاته، ويتجمد النمو الوجداني للطفل

في المرحلة العمرية التي يتعرض فيها للصدمات، ويصير عاجزًا عن اختبار المشاعر الناضجة كالامتنان، والتعاطف، والحب.

أزيح عبء ثقيل عن قلب مادلن حين أدركت أن عدم حب أمها لها لم يكن غلطتها، أن مادلن لم تكن «مسخًا» لا يُحَب، بل إن أمها عاجزة عن الحب.

أما التجلي الأخير فقد حدث حين عثرت مادلن على إجابة سؤالها الباكر: «ربما لم تحبني، إذن لم كانت تكرهني وتدعوني بالمسخ؟» كانت مادلن رمزًا للفشل بالنسبة لشارلوت، التي تدرك -في عقلها اللاواعي- أن ابنتها في حاجة إلى ما هي عاجزة عن منحه، لذا كانت تنفر من مادلن فور رؤيتها، فهي تذكرها بقصورها الشخصي، فرغم كل شيء فلا أحد يحب ما لا يبلي فيه بلاءً حسنًا.

اقتدرت مادلن -مستعينة بتلك الاستبصارات- على كسر نمطها السلوكي المعتاد، إذ توقفت عن زيارة شارلوت في فلوريدا، كما توقفت عن سعيها المستميت في إرضاء الزبونات الثريات (الرموز الأمومية) اللائي كن هن أيضًا متذمرات على الدوام، وبدلًا من ذلك صاغت تعاقدات جديدة تنص على أهداف محددة، ولم تقبل محاولتهن الرامية إلى تغيير شروط التعاقد أو التلاعب بها.

حين تتبدل من الخوف من أمك إلى الشعور بالأسف عليها فعادة ما يعني هذا أنك قد قطعت شوطًا طويلًا في طريق التعافي.

5

داء الغواص

تبين أن العام العلاجي الرابع كان مفعمًا بالعواصف لكلينا، سأقترف فيه خطأ جسيمًا في العلاج النفسي، خطأ سأدفع ثمنه غاليًا.

بدأت مارلين في الالتزام بحضور جلساتها في الوقت المحدد، محضرة معها قائمة بالأمور التي ترغب في تغطيتها، لكن في إحدى الجلسات بدا عليها الهلع وصاحت وهي داخلة من الباب: «قهوة، الآن! يا إلهي، ماذا ينبغي عليَّ فعله؟ أأنظف الأرضية وأقوم بتعبئة الطلبيات أيضًا؟» ثم ألقت بأوراقها على الطاولة وقالت: «هذه الطلبيات بحاجة إلى التسليم، ينبغي لأحدهم الذهاب إلى «متحف جيتي» Getty Museum في مدينة لوس أنجلوس بحلول يوم الخميس، أريد إرسال أنتون برفقتها لأنه أمر بالغ الأهمية، لكنني على يقين بأن الطائرة ستتحطم، متى سيتحسن هذا؟».

بدا أن مادلن قد انتكست غارقة في قلق مشل وأن وساوسها المستمرة بشأن تحطم الطائرات قد اشتدت، فأجبتها قائلة: «هناك ثلاثة خيارات في الواقع: الأول أن تسمحي له بالطيران ثم تعيشين مع قلقك، والثاني أن تتناولي الأدوية كي تسير التجارة كما ينبغي، وأما الثالث فأن تسعي إلى حل ذلك في العلاج النفسي، ولو كنت مكانك لاخترت تناول الأدوية والعلاج نفسه في الوقت ذاته».

كانت مادلن محبطة من وتيرة العلاج النفسي البطيئة ومزدرية لفكرة تناول الأدوية لتخفيف قلقها، وعبرت عن ذلك قائلة: «الأدوية مرفوضة، لا أريد أن أصير أمي، كانت تتناول كل ما ورد في الكتب من أدوية، مع شرب الخمر، وما زالت تفعل ذلك، يشرب أبي الخمر هو أيضًا، لكنه لا يزال قادرًا على أداء وظائفه، رغم أنه في السبعينيات من عمره فلا يزال يعمل ستين ساعة في الأسبوع ولا يستطيع الفتية مناهضته»، ثم بعد صمت طويل أسندت رأسها إلى المكتب وهمهمت: «جسدي غير قادر على تحمل المزيد».

نظرت إلى قوامها الطويل الرشيق فلم أتيقن مما ترمي إليه، كانت مفعمة بالطاقة في بعض النواحي لكن شديدة التحطم في أخرى، ثم قالت في نهاية المطاف إنها مصابة بأربعة سرطانات، وإنه لا صلة لأحدهم بأي من الآخرين، لقد شُخصت في سن الواحدة والعشرين بسرطان الثدي، ثم بسرطان الدرقية في الثامنة والعشرين، ثم بسرطان بطانة الرحم في الخامسة والثلاثين، والآن أصيبت بالورم الميلاني.

أومأت برأسي فحسب، كنت بالطبع على علم بالسرطانات الثلاثة الأولى من أبيها، لكنني تعجبت من أن مادلن نفسها استغرقت وقتًا طويلًا لتخبرني عنها، فسألتها عما تظن أنه السبب في إصابتها بهذه السرطانات المنعدمة الصلة في مثل هذا السن الصغير، فقالت: «حسنًا، في الواقع أحب الالتزام بالعلم والقراءة عن كل شيء، لكنني أظن أن جهازي المناعي قد استنفد في صغري ولم يتبق لي شيء أحارب به، ولا تكلفي نفسك عناء ذلك السؤال الواضح: «إذن فلماذا لا يصاب باقي الأطفال الذين لديهم أمهات متوحشات بمئات السرطانات؟»، **لا أدري**»، ثم ظلت تنقر بقلمها على المكتب، ثم قالت: «كل ما أعرفه هو أن عليَّ إجراء أشعة سينية للكلية في الأسبوع القادم، وأنا على يقين بأنهم سيجدون سرطانًا».

سألت مادلن هل كانت تعتقد أن هذه هي إحدى الطرق التي يعاقبها بها العالم على كونها مسخًا، وإذ بوجهها يتلألأ وتقول: «أنا سعيدة لأنك بدأت تفهمينني أخيرًا»، ثم قالت بوجه منعدم التعبير: «أظن أن الله قال: «سرطان الثدي ليس كافيًا، لنمنحها سرطان الدرقية، ثم لنشق طريقنا للأسفل كي لا تقدر على إنجاب أطفال»».

- لو لم تصابي بسرطان بطانة الرحم أكنت سترغبين في إنجاب أطفال؟

نظرت بحزن إلى النافذة ثم قالت: «لأحببت أن يكون ذلك اختياري أنا، لقد أنقذني السرطان حقًا من إنجاب أطفال من جوي، لذا أظن أنها منحة في المحنة».

- هل يعاقبك الله أم أنه القدر؟

فقالت مادلن (مقلدة لكنة أمها ببراعة): «إنه ما قالته أمي: «سيكتشف العالم حقيقتك وستحظين بحياة بشعة، المسوخ لا يمكنهم الاختباء»، ولعلمك، لم يعد تصديقي لذلك قويًا كالسابق، لكنني غير قادرة على التعامل مع كل تلك السرطانات المنعدمة الصلة».

سألتها عن رد فعل شارلوت حين أصيبت مادلن بأول سرطان في سن الحادية والعشرين، لكن بدلًا من إجابتها على هذا السؤال انتقلت إلى حين مفارقة أمها لأبيها حين كانت في أواسط مرحلة المراهقة: انتقل جاك وشارلوت إلى نيويورك، حيث افتتح شركة جديدة، وكانا يقضيان فصول الشتاء في فلوريدا داخل منزل ورثه دنكان من أبويه لكنه أهداه لشارلوت، ثم تذكرت ذلك الوضع قائلة: «كانت الحياة أفضل كثيرًا من دونها، كنت أذهب برفقة أبي لتناول العشاء خارجًا، كما واصل حضور اجتماعات «رابطة الآباء والمعلمين» Parent Teacher Association وحضور مبارياتي، بل جاء إلى مدينة أوتاوا لحضور المنافسة التي خاضها فريق المناظرة الخاص بي، كما كانت لدينا خادمة تسكن معنا في البيت، بِلسِندا، التي كانت منظمة، وودودة، وطيبة، لقد جاءت برفقتي إلى نيويورك منذ سنوات، وأنا متعلقة جدًّا بها».

تعجبت من تجاهل مادلن لسؤالي، فسألتها مجددًا، فأومأت برأسها كأنها تلاقي صعوبة في تذكر ذلك رغمًا عنها، وجزمتُ من تعابير وجهها بأنها لا تريد الذهاب إلى تلك البقعة، ثم قالت في نهاية المطاف: «أبلغها أبي فأرسلت بطاقة معايدة، ولا أزال أتذكر أنها كانت بنفسجية اللون مطوية في ظرف أبيض صغير، ومكتوب بها «أتمنى لك شفاء قريبًا» وتحتها توقيع **شارلوت**».

- ليس «أمك؟».

- كلا.

حينما أصيبت مادلن بسرطان بطانة الرحم بعد ذلك بأربعة عشر عامًا جاءت شارلوت لزيارتها في المستشفى: «صدمت حين رأيتها، كان أبي معي، لقد ظل برفقتي معظم الوقت، رأيتها تتجول مرتدية فستانًا ورديًّا وحذاءً

ورديًا، وقالت: «دنكان، قالت سكرتيرتك إنك ستكون هنا»، ثم عبرت عن تعاطفها معي بجملة واحدة لا غير»، وحين سألتها مادلن عن سبب تلك الأناقة الشديدة قالت بأنها جاءت للبلدة برفقة جاك -الذي كان منتظرًا في السيارة- لحضور حفل زفاف، ثم تابعت مادلن: «ثم قدمت لأبي أوراق الطلاق وغادرت، كانت تهدد بالطلاق متى ما احتاجت إلى المال، وبالمناسبة، فهو لم يطلقها قط، وإنما أرادت تقديم له الأوراق شخصيًا كما يقتضي القانون ثم ترحل، ولم تقصد زيارتي قط».

قلت إن ذلك محبط بالتأكيد، فأشارت مادلن قائلة: «محبط فقط لأن الأطفال -كما اكتشفت في العلاج النفسي- لا يفقدون الأمل، لكنني بصراحة أظن أنني الآن قد يئست، إنها أشبه بثمرة القرع المجوفة، لقد أفرغتها أمها من لبها ثم نقشت ابتسامة على وجهها، لو لم تكن جذابة لكانت سيكوباتية في أحد السجون المحلية».

- إذا كان ذلك هو شعورك الحقيقي -وأظن أنه تقييم منصف- إذن لماذا تتشبثين بلقب المسخ الخاص بها؟
- لست أصدقه من الناحية العقلانية، فهو رمز لما عجزتْ عن كونه، أم لابنتها، وقد كرهتني لذلك، ولكنه التعريف الوحيد الذي صيغ لي.
- ماذا عن أبيك؟
- أتعلمين، هو يأتي إلى نيويورك كل أسبوع ويقوم ببعض الأعمال لشركتي فيما يتعلق بالتجارات الدولية والرسوم الجمركية، وأود توظيف أحد غيره، فسيكون هذا أقل إزعاجًا.
- هو يمنحك كل شيء إلا السماح لك بدخول منزله.
- بالضبط.
- السؤال الأهم هو: هل خوفه من السيكوباتيات النرجسيات معناه أنه لا يحبك؟
- أشعر أنه يحبني، يمكن أن يكون المرء في حالة مزرية ورغم ذلك يحب ابنه، لقد سألني أنتون السؤال ذاته، كنت أتحدث معه مساء البارحة في أثناء عملنا متأخرًا.
- يبدو أنه أول شخص تثقين فيه.

- أجل، لقد عايش معي زواجي من جوي، وعلاقتي غير الشرعية، والزيارات الغبية لأمي برفقة أصدقائها، فهي تحب التباهي بنجاحي لأن ذلك يشير إلى أنها «أم مثالية»، لطالما اعتادت على قول أشياء لي أمام صديقاتها تشير إلى أنني أتعامل مع بعض الزبائن المشهورين، ولذلك تسميها فيينا «مهووسة المشاهير».

- هل رأى أنتون هذا السيرك بأكمله؟

- أجل، ولقد تمازحنا بشأن أن أبيه كان سيئًا بالقدر الذي عليه أمي، وأن كلًّا منا اضطر إلى أن يكون على أهبة الاستعداد طيلة الوقت»

ثم أكملت حديثها بوصف أنتون بأنه شخص نبيه وحساس، لكن ضعف إنجليزيته يمثل عائقًا له، كان يعيش برفقة أخيه ولا يتحدث في البيت سوى الروسية، أخبرتني مادلن -التي نادرًا ما تفصح عما بداخلها- أنه موهوب في علم الآثار، إذ بمقدوره تقدير عمر أي تمثال وإن لم يزد عمره عن خمس سنوات، من الواضح أنك كي تصير عالم آثار يتحتم ألا يكون لديك فقط دراية بالتاريخ وبالحرف اليدوية المتعلقة بمئات من الأشكال الجمالية، بل يجب أيضًا أن تكون لديك موهبة، أو عين مميزة، ثم ذكرت أن أنتون قد رأى مؤخرًا مزهرية صينية أثرية، يفترض أن يكون عمرها 600 عام، واكتشف أنها مزيفة، وهو ما لم تنتبه له كريستي ومادلن نفسها.

أردت الانتقال إلى التفاصيل المهمة فسألتها هل هو أعزب، فقالت إنه تزوج لفترة وجيزة في عشرينياته حين كان لا يزال في روسيا لكنه الآن مطلق، فسألتها هل تهتم بأنتون فأجابت بأنها لم تمارس الجنس معه، وقالت إنهما يعملان معًا على نحو جيد، رغم أنهما ليسا من نفس النوع وسلكا مسارات مختلفة، لقد نال أنتون شهادة الدكتوراه من أفضل جامعة في موسكو، لكن ليس لديه صلة سوى بالجالية الروسية الضخمة في نيويورك، ثم أثنت مادلن على حسه الفني، وشبهته بالكتالوج، ثم عبرت عن ذلك قائلة: «رأى ذات مرة في إحدى زياراتنا الميدانية ركنًا فارغًا في ردهة الزبون فقال: «ماذا عن الخزينة الفنلاندية الزرقاء التي حصلنا عليها منذ بضع سنوات في تلك الصفقة العقارية بإستونيا؟»، لطالما كان رأيه سديدًا»، ثم أضافت أن أنتون مفتقر تمامًا إلى الحس المالي، وأنها لا تسمح له بتسعير أي شيء أو الاقتراب من الحسابات، فأشرت إلى أنها لو كان ما ترغب به هو الحس التجاري لبقت برفقة جوي، وضحك كلانا على ذلك، حين أتيتها في الأسبوع التالي بدا عليها

الإنهاك، فقالت فيينا، التي كانت توجه عامل توصيل ستاربكس ليضع القهوة على المكتب: قبل مغادرتي، سأخبر د. جلدنر بعض الأشياء التي تدور في ذهني».

- فيينا، أدفع لك راتبًا زائدًا ولا تقومين بشيء يذكر إلا إزعاجي، رجاءً غادري.
- لا، د. جلدنر، لا أظن أن مادلن ستخبرك أن سبب وجود هالات سوداء تحت عينيها هو أنها ظلت تعمل 678 يومًا متواصلين، أعلم ذلك لأنني كنت هنا أيضًا، سيتسبب ذلك لأي أحد في السرطان، أنا قلقة عليها، يجب عليها نيل قسط من الراحة.
- لقد دفعت لك مقابل الإجازات، إلى جانب أنك كنت تحضرين ابنك معك في جميع عطلات نهاية الأسبوع.
- أنا لا أشتكي، وإنما أكترث لشأنك، هل سبق أن سمعت عن الاكتراث؟ يا إلهي. وفي أثناء ذلك خرجت بهدوء.

التقطتُ من فيينا التلميح الذي أحتاج إليه، فذكرت مادلن -وهي موسوعة أسباب السرطانات وعلاجاتها التي تمشي على الأرض- بنظرية الأحمال الزائدة على الجهاز المناعي، إذا عاش المرء في ضغط نفسي مستمر يؤدي الضغط النفسي إلى استنفاد الجهاز المناعي ولا يتبقى شيء لمحاربة السرطان (أظهرت الأبحاث العلمية أن الأطفال الذين يعانون الإساءات أكثر عرضة بنسبة خمسين بالمئة للإصابة بالسرطان من الأطفال الآخرين).

احتجت مادلن أن بقية الموظفين يعملون كل يوم هم أيضًا، ثم استدركت قائلة إن الأمسيات وعطلات نهاية الأسبوع لم يكن يحضر فيها سواها، وأنتون، وأحيانًا فيينا وابنها، ثم ابتسمت ابتسامة نادرة وأضافت: «نحن أشبه بأسرة صغيرة، إن جاكس -ابن فيينا ذا التسعة أعوام- مرح للغاية، كما أنه مهتم بالمهنة ولديه نظرة فنية فطرية»، كان أنتون يعلمه الكثير، بل ذهب مع فيينا لإجراء المقابلة بمدرسة الفنون الخاصة التي كانت مادلن تدفع تكاليفها.

- يبدو أن أنتون رجل شديد الطيبة، ومن الغريب أننا نأتي على ذكره كل جلسة.
- إنه من المهاجرين الجدد، أحيانًا -حين نأخذ استراحة في عطلة نهاية الأسبوع- نذهب مشيًا إلى ستاربكس، هنالك يضطر إلى الإشارة بيديه

إلى الحجم الذي يريده، لأنه لا يستطيع حتى التلفظ بالأحجام على النحو الصحيح.

فقلت بوجه خالٍ من أي تعبير: «يا لها من مأساة، عجبًا، لقد استوعبت ذلك الآن، كان ينبغي عليك إخباري بذلك من البداية».

فضحكت وقالت: «حسنًا، يبدو هذا بسيطًا».

- أنت مضطرة إلى الإتيان بشيء أسوء من ذلك بقليل قبل انصرافنا عن أنتون، الرجل المخلص الوحيد في حياتك.

-يا إلهي، حسنًا، إليك الصراحة الكاملة، لم سيرغب بي؟ أنا عبوسة، وكثيرة الصياح، وفشلت في العلاقات، وملأى بالسرطانات، كما إنني مهووسة للغاية، هذا مثير للشفقة.

- ما سبب بقائه حتى الآن؟

قالت مادلن إنه يتلقى راتبًا مجزيًا وفي وظيفة يندر الحصول على مثلها في هذا المجال، ثم ظلت صامتة لدقيقة ثم ابتسمت ابتسامة جعلت الإشراق باديًا على وجهها: «أحد الأمور التي أحبها هو أنه حين يغادر كل ليلة يلمس رأسي ويقول: «سبوك إرمينوي إن إرمشي موي زافيتني أودين»»، فسألتها عن معنى ذلك، فقالت: «لا أدري، في الغالب طابت ليلتك».

رأيت أن تلك جملة طويلة ليكون معناها طابت ليلتك فحسب، لذا بحثت عنها في هاتفي ونحن جالستان هناك، ثم قلت في أثناء بحثي: «غريب أنك لم تسأليه قط عن معناها أو تبحثي عنه، أعني أنك امرأة تتابع قيمة الين كل يوم وتستطيعين تحليل أي عقد في ثوان معدودة، شخص يقول لك هذا كل ليلة وما سألتِه قط؟»، ثم وجدت العبارة وقرأتها بصوت مسموع: «**طابت ليلتك يا حبيبتي**».

ساد الصمت، ظلت جالسة تحدق إلى مكتبها زمنًا طويلًا، ثم تقطب حاجبيها، وفي النهاية قالت: «اللعنة!»، بدا الدمار والإحباط الشديد على وجهها، كانت ألغاز الأحجية في طريقها إلى الانحلال.

لكنني حينئذ ارتكبت خطأً فادحًا: لقد أفرطت في التفسير وبدأت بقولي: «ترفضين ركوبه الطائرة، أليس كذلك؟، أنت مسخ، وتظنين أنه سيُأخذ منك، ستتحطم طائرته، أنت مرتعبة من فقدانك شخصًا طيبًا، ولطيفًا، ومكترثًا مثل

أنتون، هل خوفك الطاحن هو طريقتك الغريبة في إخبار نفسك أنك تحبين أنتون؟».

فصاحت مادلن: «فلتنصرفي من أمامي!» ثم غادرت الغرفة بهدوء، متمايلة في حذائها المتعدد الألوان ذي الكعب العالي.

بعد بضع دقائق اندفعت فيينا داخل الغرفة قائلة: «ماذا حدث هنا؟ كارثة كبرى، تقوم مادلن الآن بإتلاف أوراق كثيرة باستخدام ممزقة الورق، وأخبرتني أن أبلغك بأن العلاج النفسي قد انتهى تمامًا، وأن الشيك في البريد».

كان من المعهود من مادلن وأسرتها أن يقولوا -ولو في أثناء زلزال وجداني- **الشيك في البريد.**

***

ألغيت السيارة المؤجرة إلى المطار ثم تجولت في أرجاء شوارع نيويورك، متأملة في روعة الربيع خلال تجولي في «منتزه السنترال بارك» Central Park: كانت الشجيرات الأزلية قد أزهرت للتو، صابغة المرج باللون الوردي، وشجيرات الفورسيتيا -التي تعجز الكلمات عن وصفها- قد تفجرت بالأزهار العسلية على امتداد سيقانها، والأزهار المتساقطة متناثرة على امتداد المسارات كأنني في حفل زفافي.

لم تكن هناك فائدة من تساؤلي عن موضع الخطأ الذي ارتكبته في حالة مادلن، فلقد كان واضحًا وضوح الشمس، أنا -المعالجة المحنكة- قد ارتكبت خطأ مبتدئين: لقد اختلْت بما أعلمه، والآن **ظهر** الميناتور الذي كان ينبغي لي قتله منذ زمن بعيد.

كنت أسعى لدفع علاج مادلن إلى الأمام بوتيرة سريعة جدًّا، لذا أفرطت في التفسير، رأيت أنها تكترث لأنتون ولا تريد أن تفقده، لم تشعر بأنها تستحقه، فعادت للسطح كل ذكرياتها عن أمها التي تخبرها بأنها مسخ، ووقعت في قبضة أفكارها الوسواسية، فلم يستطع أحد الصعود على متن طائرة، لقد كانت وساوسها المتعلقة بتحطم الطائرات تحجب مخاوفها من التعلق الحقيقي، كان أنتون رجلًا طيبًا يكترث لأمرها، لكنه لم يعبر عن ذلك إلا بالروسية، كما كان يشابهها في حب الفن، والجمال، والاجتهاد في العمل، هل كانت وساوسها طاغية على مشاعرها الحقيقية تجاه أنتون؟

يوضح انهيار مادلن طبيعة الوساوس: إنها في الأساس آليات دفاعية تحمي المرضى من رؤية ما يرعبهم حقًا، **لقد** قالت مادلن إنها مرتعبة من تحطم الطائرات، لكنها في صغرها قد سافرت جوًّا إلى جميع أنحاء أوروبا دون أن تشعر بخفقان قلبها، لقد كانت هذه الوساوس مستجدة ولم تظهر إلا بعد وقوعها في حب أنتون، ما كان يرعب مادلن حقًّا هو أن تحِب وتحَب، فلقد سبب لها «الحب» الهجر، والإحباط، والخيانة، إذ كانت أمها تفعل بها أشياء قاسية ثم تقول: «لا أفعل ذلك إلا لأنني أحبك»، هذا وقد أحبها أبوها لكنه اختار امرأتين سيكوباتيتين نرجسيتين وفضلهما على سلامتها النفسية، وكما يقول إيلي ويسل: «السكوت يشجع المُعَذِّب، لا المُعَذَّب»، ثم اتضح أن زوجها جوي لم يكن سوى نسخة ألطف بعض الشيء من أمها.

لقد صارعت مادلن باستماتة للبقاء على قيد الحياة، إذ كانت تصطحب **نفسها** إلى المستشفى خلال سرطاناتها الأربعة كلها، فأنَّى لها إزالة دفاعاتها لتحب أحدًا، الحب مجازفة شديدة الخطر، مجازفة ترعبها، أجل كانت تجازف دائمًا مع شركتها، لكنها كانت مجهزة للنجاح بالتجارة، ولم يسبق أن فشلت بها، كما كان أبوها وجدتها يثنيان على نظرتها الفنية وفطنتها المالية.

لو أُخبرت أنك مسخ، ثم وقعت في حب أحد، تظن أن ذلك الشخص لن يبادلك الحب، ولا عجب أن مادلن رأت أن من الأفضل حجب مشاعرها تجاه أنتون.

كانت غلطتي الأولى عرض شيء (حب أنتون) باعتباره شيئًا جيدًا حين كانت مادلن تراه مرعبًا، أما الثانية فإن فرويد لم يكن غبيًّا حين اكتشف الآليات الدفاعية وميَّزها، إن احتياجاتنا اللاواعية شديدة، شديدة لدرجة أنها تسحقنا، نحن جميعًا نرغب بشدة في أن نُحَب، ولم تكن مادلن استثناءً، لكنها كلما سعت إلى أن تُحَب وتبذل الحب فلم ينتج عن ذلك إلا الألم، لقد لقبتها أمها بالمسخ، وحظرها أبوها من دخول البيت، ولم يكترث جوي بها، لذا لم تستطع المجازفة بألم فشل جديد في الحب، ثم حين أحبت أنتون خافت من فقدانه في أحد حوادث تحطم الطائرات، لقد شعرت بأنها غير جديرة بالحب، وكانت جميع وساوسها المتعلقة بالسفر تحجب اشتياقها لأن تُحَب، بل كانت تحجب أيضًا مخاوفها من أن تُحَب، ينتج قلق شديد حين ترغب في شيء بشدة وفي الوقت ذاته تشعر بالرعب منه، إذ يمثل شدًّا وجذبًا مستمرًا للنفس.

إن تسليك أنابيب العقل اللاواعي مشابه إلى حد ما بالغوص في عمق البحر باستخدام أنابيب التنفس، لا ينبغي لك الصعود للسطح بسرعة، بل يجب عليك الصعود رويدًا رويدًا للتأقلم مع الضغط الجوي الجديد وإلا أصابك داء الغواص[1]. لقد أصيبت مادلن بداء الغواص النفسي، فقد أطلقتُ عليها قذيفة سريعة متكونة من مواد شديدة الإيلام، وكانت دفاعاتها -المتمثلة في رعبها من السفر بالطائرات- بالغة الأهمية لها لدرجة أنها مستعدة لخسارة آلاف الدولارات كل شهر وتعريض تجارتها للدمار، كان ذلك مشيرًا إلى مدى رغبتها في حماية نفسها من مشاعر الحب التي بداخلها، الحب معناه التعرض، فمن يحبك يستطيع كذلك إيذاءك، ولذلك تعريض النفس هو غاية الشجاعة، إنه مخيف، وهو أحد الأسباب التي تفسر لماذا يستغرق العلاج النفسي زمنًا طويلًا، فلقد شيد المريض تلك الدفاعات على مدار حياته، ولا يستطيع المعالج أن يمزقها عن بكرة أبيها بكل بساطة، وإنما يجب انتزاعها رويدًا رويدًا، وفي حالة مادلن لم تكن المشكلة متمثلة في المدة التي قضتها في العلاج النفسي، فخمس سنوات مدة كافية، بل كانت المشكلة هي فرط التفسير المندفع المفاجئ الذي قمت به.

إذا ارتكب المعالج النفسي خطأ يتوجب عليه فحص دوافعه، كنت مدركة أن لدي مجموعتي الخاصة من مشكلات التحكم في الاندفاعات، لكنني كنت واعية بأن عيادتي ساعدتني على ارتداء سترة العلاج النفسي الفولاذية الكاملة، كما كان لدي في تورونتو ما أسميته «الكرسي المنفصل»، أما في نيويورك فلقد رضخت لضغط دنكان بخصوص علاجي لابنته ثم أذعنت للاحتياجات غير النفسية (الخوف من الإفلاس، ضغوط العمل، إلخ) التي يعاني منها الآخرين في بيئة العمل لدى مادلن.

كما كان هناك عامل آخر متمثل في أنني قد تماهيت بشدة مع مادلن، إذ أنني -أيضًا- كنت الطفلة الوحيدة، لم تقسو عليَّ أمي قط لكنها هي نفسها كانت تقول إن الأمومة ليست من مواطن قوتها، لو لم يكن ذلك في الخمسينيات، حين كان من المتوقع من النساء أن يمكثن داخل البيت، لصارت على الأرجح أستاذة جامعية، كما أن أمي -شأنها شأن أم مادلن- كانت تقول

---

(1) حالة مؤلمة وخطيرة تنتج عن تكون فقاعات غازية في مجرى الدم وأنسجة الجسم، نتيجة انخفاض الضغط الجوي المحيط بالجسم بمعدل شديد السرعة. (المترجم)

أشياءً مثل: «أفضل وضع جمر ملتهب في عيني على أن أستضيف حفلة عيد ميلاد لأطفال في سن السابعة»، لذا كنت أرتب جميع الحفلات وأطلب السندويتشات والكعك من المطاعم، كما فعلت مادلن بالضبط، لقد استوعبت قلبًا وقالبًا كيف أنها اضطرت إلى أن تكبر قبل أوانها، وأتذكر أنني انصدمت في صغري حين قالت أم صديقتي إن أمي مهملة، لقد رأيت أنها لا تتدخل في شؤون غيرها ليس إلا، وافترضت أن جميع الأمهات ينبغي لهن ذلك.

حين قرأت مادلن كتابي: «على مقربة شديدة من الشلالات»، تأثرتْ من أن حياتينا متشابهتان في جوانب عديدة، إذ لم تقم أي من أمَّينا بإعداد وجبة طعام قط، ولا تناول أي منا طعامًا داخل البيت قط، لكن أمي كانت داعمة حين تعرضي للانتقاد أما أم مادلن فقد كانت مدمرة، ذات مرة وبختني راهبة في المدرسة لأنني «أتظارف وأسعى لأن أكون محط الأنظار»، فقالت أمي: «فلنترك إذن الأخت أجنيس تروِّح عن الصف، كي أكون صريحة معك فتلك الراهبة لن تتعرف على أي فنان كوميدي حتى لو ارتطمت به في الطريق».

***

جلست في «السنترال بارك» على مقعد بجوار طبيب يلبس ثوب المستشفى، كان لا يزال مرتديًا غطاء الرأس الخاص بالعمليات الجراحية، لا شك أنه قد جاء مباشرة من «مستشفى ماونت سايناي»، كان طاويًا ذراعيه بين ركبتيه وناظرًا إلى الأسفل تجاه قدميه، اللتين يرتدي بهما حذاء المستشفيات، فقلت: «ساءت العملية؟».

- فقدت أحد التوأمين.

ورغم اختلاف حجم المأساة قلت: «أنا أيضًا فقدت للتو مريضة، أنا معالجة نفسية».

- كان حجمهما جيدًا وضربات قلبهما قوية قبيل الولادة، لكن أحدهما لم يكن مستعدًا فحسب، لا أزال غير مستوعب كيف ساءت الولادة، ماذا حدث لمريضتك؟

- طردتني، أُلغيت المهمة.

- وكيف ذلك؟

- أحيانًا لا يكون المرء مستعدًّا لإدراك أشياء عن نفسه، تمامًا كما لا يكون الجنين مستعدًا للخروج، الأمر بأكمله متمحور حول التوقيت.

فقال (وهو يمدد ذراعيه للأعلى في أثناء نهوض كل منا للمغادرة): «ينبغي لك مواصلة المسير».

آنذاك كنت قد مشيت عدة أميال من تريبيكا، وعلى وعي تام بأنني قد ارتكبت خطأ، لا سبيل لمحوه، فكرت في مهاتفة مادلن، لكن ذلك كان احتياجي أنا، وليس أفضل شيء لها، لقد ساعدتها في بعض الجوانب، والآن من الأفضل أن أنسحب وآمل أن يلتئم الجرح الذي تسببت فيه.

وصل الشيك بالفعل في اليوم التالي عبر البريد الدولي، خاليًا من أي ملحوظة، مادلن فقط هي من يدفع تكاليف تسليم دولي في اليوم ذاته كي تنفض يديها مني ليس إلا.

6

تجليات

كلما تفكرت في حالة مادلن تعجبت كيف دخلتُ تلك المتاهة الغريبة، لذا توجهت إلى أحد مشرفيَّ، د. ميلش، أستاذ الطب النفسي وواحد من أفضل المعالجين النفسيين الذين عرفتهم، آنذاك كان في الثمانينيات من عمره، وكنت قد قضيت ساعات عديدة في ملاحظة شرائطه المسجلة لجلساته مع المرضى ومشاهدته شخصيًا عبر حائط زجاجي أحادي الرؤية، لقد كان د. ميلش لاجئًا يهوديًّا ألمانيًّا قدم إلى كندا عبر نيويورك في ثلاثينيات القرن الماضي، كما كان أحد آخر العظماء الذين عملوا برفقة -ويقتبس كثيرًا من- مؤسسي نظرية التحليل النفسي، وكنت أحب التفكير في أن بيننا رابطة خاصة، لذا هاتفته طالبة منه النصح، رغم أنه متقاعد، فوافق على مقابلتي في بيته.

جلست قبالته في مكتبته الضخمة وسردت له الحالة بأكملها، من بدايتها الغريبة إلى وصول الشيك الدولي، فلخص د. ميلش ذلك قائلًا (بلكنته الغليظة): «حسنًا يا **عزيزتي**، لقد أخبرت هذا الرجل -دنكان- أنك لا تقومين بالمشورة الزواجية، ثم وافقت على فعل ذلك، كما أخبرته أن يأتي فردًا، فجلب معه خليلته، كان يمنع ابنته من دخول بيتها لكنك اخترت التركيز على قساوة خليلته المضطربة بدلًا من الأب، ثم رفضت القيام بالعلاج النفسي لابنته،

لأنك تقاعدت، فتتبعك إلى المطعم، مطاردًا، وهنالك وافقت على الطيران إلى نيويورك كل أسبوع، إلى محل عملها، بل لم تطلبي أن تأتي هي إليك، يبدو لي أن هذه الحالة كانت محكومًا عليها بالفشل منذ البداية، قبل أن تقابلي المريضة حتى، لماذا حطمت كل القواعد من أجل هذا الرجل، رجل بالكاد تعرفينه؟».

أصبت بالذهول، لقد كنت مدركة بادئ ذي بدء أن لدي طرحًا مضادًا على دنكان، لكنني لم أكن واعية تمامًا بآثاره، لقد كان دنكان مشابهًا لأبي بعض الشيء، كان يتحدث بالجراءة الأمريكية ذاتها، ويرتدي القمصان الرسمية ذاتها، كما كان -كوالدي تمامًا- رجل أعمال جذاب، جعلني د. ميلش أستوعب الأثر الخبيث لهذا الطرح المضاد: لقد أخفقت في البحث التفصيلي عن السبب الذي دفع دنكان إلى هجر ابنته وجدانيًا، لم يكن لدي أي فكرة عما جعله قادرًا على إدارة شركة بها مئات الموظفين في مختلف أنحاء البلاد ورغم ذلك مضطرًّا إلى الاختباء في البدروم كلما فقدت زوجته الهزيلة صوابها، وظل السؤال الأهم: لماذا استمر حبه لها، أو بالأحرى: لماذا ظل مغرمًا غرام المراهقين بتلك المرأة القاسية؟ ولماذا كرر ذلك السلوك مع كارين؟

لم أستطع حل أي من هذه الألغاز، ولا حملته حقًّا -في عقلي اللاواعي- مسؤولية ذلك.

ذكرني د. ميلش أنني أمتلك خبرة خمسة وعشرين عامًا في العلاج النفسي، وقد درَّست في الجامعة، وقدمت الإشراف العلمي لطلاب علم النفس، لذا فإن وجود طرح مضاد كهذا لديَّ يشير إلى وجود صدمة نفسية أو على الأقل بعض الاضطراب في علاقتي بأبي، فطمأنتُ د. ميلش بأن علاقتي به كانت رائعة، وأنني في صغري كنت مسرورة بعملي بجانبه في متجر الأدوية الطبية الخاص به.

لكن د. ملش لم يتلطف وقال بصراحة إنه يرغب في وصف ما شعر به عقلي اللاواعي تجاه أبي، ثم قال: «لقد ظل رجلًا ناجحًا للغاية، ونبيهًا، ومحبوبًا من الجميع إلى أن بدأ في فقدان صوابه حين كنتِ في باكورة المراهقة، ثم تسبب في إحراجك بفعله أشياءً غريبة، كقيادة السيارة إلى المطاعم وتفويت شباك الطلبات، كما خسر كل أموال الأسرة في استثمارات فاشلة، مما أدى بك وبأمِّك إلى الفقر المدقع، بل الغرق في الديون، فاضطررت إلى العمل بوظيفتين في أثناء المرحلة الثانوية، إلى جانب أنه خانك برحيله عنك، ثم هجرك وتركك

برفقة أم لم تستطع مواكبة الأمور، لقد قال ببساطة: «أنت في الرابعة عشرة من العمر، لكنك الآن ستتحملين مسؤولية جميع الأمور»».

اعترضت على ذلك التقييم، قائلة بأن أبي أصيب بورم دماغي حين كنت في باكورة المراهقة، وأنه لم يكن مسؤولًا عن أي من ذلك، فأومأ د. ميلش بيده عاليًا إيماءة التوقف، ثم أشار إلى أن العقل اللاواعي لا يكترث مطلقًا بالحقائق: «إنه لا يعرف سوى **شعور** الهجر»، ثم شدد على أن العقل اللاواعي لا يعترف بالواقع (حقيقة أن أبي أصيب بسرطان غير قابل للاستئصال ثم مات)، وإنما يعترف بالأثر الوجداني (أنني تعرضت للهجر)، لقد دون عقلي اللاواعي الخوف من تولي زمام أسرة فقيرة متهشمة: «سافر أبوها إلى روسيا كما هجرك أبوك في المرحلة العمرية ذاتها بالموت»، فأومأت بالموافقة.

ثم قال د. ميلش: «والآن، بإدراكك لهذا، أخبريني ما الذي كان يعنيه دنكان بالنسبة إليك».

تأملت زمنًا طويلًا ثم استوعبت ذلك في نهاية المطاف، فقلت: «كان يمثل أبي حين كان ناجحًا ومتصدرًا العالم، قبل الورم الدماغي، وقد رغبت في إعادة خلق ذلك الوقت، لقد ارتبطت بمرح دنكان وبريقه، اللذين كانا لدى أبي بالضبط».

فاتفق معي وقال: «لقد أردتِ تجميد الزمن، حين كنت الابنة المعشوقة من أب محب ناجح».

رأيت أنني كنت ألعب دور الابنة الراغبة في الإرضاء بدلًا من المعالجة التي لديها حدود وتستكشف مواطن المرض لدى مريضتها، من الجلي أنني كان ينبغي لي المجيء لد. ميلش باكرًا، لا يستطيع الناس التغلب على كل مشكلات ماضيهم بمفردهم، ولقد أخطأت بظني أنني فوق الحاجة إلى المساعدة، فرغم الجانب الجيد لأن تكون معالجًا نفسيًّا متمرسًا، أنك قد رأيت كل شيء واكتسبت الحكمة، فإن الجانب السيئ هو العُجْب المتغذي على ذلك.

ثم تجلى لي ارتباط آخر بعد زمن طويل، في أثناء تأليفي لهذا الكتاب: رغم أنه من الغير المألوف أن تتربى الفتيات على يد أبيها فإن النساء اللائي اخترت الكتابة عنهم -لورا، وألانا، ومادلن- قد تربين في الغالب على يد آبائهم، ولم أدرك ذلك إلا بعد وقت طويل، كانت صدمة كبيرة: من بين آلاف النساء اللائي قابلتهن في العلاج النفسي فقد اخترت بلا وعي ثلاث نساء كن

-في أحد الجوانب المهمة- قد تربين مثلي، لا عجب أنني تماهيت معهن، وهذا مثال نموذجي على المعالج النفسي الواقع تحت سيطرة عقله اللاواعي ولا يدرك ذلك.

***

بعد ستة وثلاثين يومًا هاتفتني فيينا وحجزت جلسة في موعدنا المعتاد، وقالت: «يا إلهي، لقد ذقنا الأمرين هنا، سوف أزودك بالمعلومات حين تصلين» (كانت فيينا تتحدث باللهجة الفرنسية، إذ غالبًا ما كانت تملِّح كلامها بالتقريبات الفرنسية)، ثم أردفت: «لقد تغير كل شيء في وادينا، فقد صار لدينا محللو نظم، وخبراء حاسوب، بل تم تجديد الجدران أيضًا، تغييرات كبيرة!».

بعد وصولي دخلت مادلن مكتبها متروية مرتدية زيًّا من طراز «أرماني» مع قرط ذهبي لامع من طراز «بولجاري» Bulgari، وشعر مصفف على الطريقة الفرنسية، ورموش مرفوعة وشفتين مدققتين، ثم جلست وقالت: «حسنًا، لقد كنت محقة، كان من الصعب سماع ذلك، واضطررت إلى فعل ذلك، فلو كلما سمعت شيئًا مرعبًا انهرت لانتهى بي المطاف في مستشفى الأمراض العقلية في سن التاسعة، يسيل لعابي من فمي وأنا مرتدية سترة المجانين، لقد اشتد عليَّ المرض حتى كنت على شفا الموت أسبوعًا كاملًا، وأكتفي بقولي إن كل فتحة في جسمي كانت تخرج شيئًا ما، لكنني نجوت، ونهضت، وأعددت قائمة بما يجب فعله»، ثم بدأت مادلن في القراءة (بنبرة انفجارية متقطعة) من اللوح الجلدي الوردي المطرز ذي الفيونكة الجلدية، فقالت: «النقطة الأولى»، لقد وظفت مادلن استشاريين في نظم المعلومات، الذين نصحوها بإنشاء نظام جرد رقمي يستطيع جميع الموظفين الولوج إليه، كما وظفت أشخاصًا لتصميم موقع إلكتروني أفضل، وكانت آنذاك توظف أشخاصًا في الصين والمجر للاستكشاف، وقالت: «سيتوجب على جميع الموظفين هنا الحصول على دورات تدريبية لأي شيء يفترض منهم فعله، كما تجري الآن إعادة فهرسة المكتبة بأكملها، وباختصار: **لقد تعلمت التفويض**».

كما قالت إنها ضجرت من عدم الثقة بأحد، وأنها وأنتون قد ضاقا ذرعًا بالبقاء في المكتب حتى منتصف الليل في حين أن مساعديها الذين يتلقون

أجورًا عالية، ويزعمون أنه لا أحد على دراية تامة بالسلع غيرها، يغادرون لتناول العشاء، وقالت الآن إما أن يتعلموا وإما أن يرحلوا من الشركة، فهي لم تكن تبقي عليهم إلا لأنها تظن أنها مسخ ولا أحد غيرهم سيود العمل لديها، وعلى حد قولها: «يتلقون جميعًا أجورًا أعلى من الأجور في أي متحف، لذا يجب عليهم الشروع في تقديم ما يقابل ذلك».

فأومأتُ وبدأت في الاستجابة، لكن مادلن قاطعتني قائلة: «د. جلدنر، لقد قلتِ بما فيه الكفاية، هذه جلستي أنا».

ثم تابعت القراءة: «النقطة الثانية: لقد أصبت بانهيار تام وأخذت ألهث بشدة لدرجة أنني اضطررت إلى التنفس داخل كيس ورقي، كنت قد تعلمت كيفية فعل ذلك حين كنت في الصف الثامن»، ثم تهدج صوتها، لكنها مضت قدمًا: «صحيح، لقد أخبرت أنتون أنني أحبه» (رغبت في معرفة رد فعله، لكنني كنت حكيمة بما يكفي فلم أسأل)، ثم أخبرته أنني **أرجو** أنه يبادلني الحب، فقال إنه كذلك.

«النقطة الثالثة: النظام الجديد، لقد انتقل للعيش في شقتي، كما أخبرت أبي أننا وأنتون نحب بعضنا، لم أرد سماع كلمة واحدة عن أنه ليس من نوعي، إذ كان نوعي هم الحمقى الذين يركبون سيارات المازيراتي، أما أنتون فلديه دراجة، ويقرأ الكتب، ويرسل المال إلى أمه» (من حسن الحظ أن دنكان قال إنه مسرور لها طالما أنها سعيدة).

ثم تابعت مادلن وأخبرتني أن جميع الرحلات الجوية التجارية عادت من جديد، وأنهم في الواقع لديهم ثلاث عشرة رحلة جوية في ذلك الأسبوع، ورغم ذلك قالت إنها في بعض الأحيان تبكي وتعبر لأنتون عن رجائها في ألا تتحطم به الطائرة، فيحتضنها، ويطمئنها بأنها ليست مسخًا (ويشير إلى أن احتمال تعرضه للقتل أكبر في أثناء مشيه إلى ستاربكس)، كما أبلغت مادلن الطاقم بأكمله أنه بالرغم من أن الشركة تسير على قدم وساق فيجب عليهم تحمل قلقها حتى يهدؤوا، هذا ولم تعد قلقة بشأن الزبائن، إذ بمقدورها تدبر أمرهم على أي حال.

كانت تخطط للسفر جوًا مع أنتون إلى بالم بيتش برفقة بعض الخزفيات الصينية وقررت عدم زيارة أمها، «إنني أفعل ما قلتِه، إنني «أجزيها من جنس عملها»، لن يكون منها سوى نسيان المجيء إلى المطار أو قول شيء شنيع

بخصوص أنتون، يمكنني تحمل ذلك، لكنني أريد حمايته، فهو لا يستحق هذا».

رفعت مادلن يديها في وجهي بإيماءة التوقف قائلة: «أعلم أنك ترغبين في قول «ولا أنتِ»، وأنا أعمل على حل تلك القضية، اتفقنا؟».

لم تكن مادلن قادرة على تناول أي طعام دون أن تتقيأ، لذا كانت تلسندا -خادمة البيت التي لازمتها طيلة حياتها- تعد لها طعام الرضع، وقالت مادلن: «**لكنني سأنجح**، لا يقدر الرعب على إيقافي، الآن أرتدي أحذية مسطحة لأن قدمي تهتزان كثيرًا، كنت شبيهة برضيعة ترتدي حذاء الكعب العالي في ساقها الدقيقة، لكن أنتون حثني على عدم ارتدائه، وقال إنها تحدث ثقوبًا في الأرضية وفي قلبه أيضًا حين يرى مدى إيذائها لقدمي».

ثم حان دوري للتكلم أخيرًا، فقلت معتذرة: «آسفة لتسببي في ألم طاحن لك في جلستنا الأخيرة، لقد كانت تلك غلطتي».

لوحت مادلن بيدها وقالت (بنبرة جافة واقعية): «ليس بالأمر الجل، لقد ذقت الإرهاب على يد خبير، وتوجب عليَّ إعداد خطط حربية طيلة حياتي»، ثم أضافت (بنبرة غليظة): «هذا موطن قوتي».

***

إن البيان الذي أدلت به مادلن يطابق تمامًا تعريف البطل، فوفقًا لبروس ماير، مؤلف كتاب «الأبطال: من هرقل إلى سوبر مان» Heroes: From Hercules to Superman: «بأدق تعبير ممكن، يمكننا تعريف البطولة بأنها لحظة في أثناء السرد تُظهر فيها قوى الحياة أنها أكبر من الموت».

كانت مادلن مرتعبة، ترتجف ساقاها بشدة لدرجة أنها اضطرت إلى التبديل إلى الأحذية المسطحة، ورغم ذلك ظلت تندفع بجسارة داخل المعارك، هذه امرأة تعرضت لصدمات نفسية نتيجة الانتهاك الوجداني منذ ولادتها وصارعت للبقاء على قيد الحياة، لم تكن امرأة خاضت معركة واحدة وهزمت العدو، بل كانت طفلة صغيرة تحارب كل يوم لئلا تفقد عقلها، وكان عدوها أمها التي ولدتها، كانت مضطرة إلى تهريب اللحم الممضوغ داخل المطعم، والتستر على خيانات شارلوت، والاصطبار على خيانة أمها لها بنومها مع خليلها، وتحمُّل وصفها لها بالخنزيرة السمينة متى ما رغبت في اللحم وهي هزيلة، كانت أمها تناديها مسخًا حين كانت طفلة راغبة في اهتمام أمها، كما

تعرضت للهجر عدة أسابيع متصلة، وكان أبوها عاجزًا عن حمايتها، فقد كان خائفًا مثلها بالضبط.

ذات مرة حين كانت في سن الثامنة التفت إليها دنكان وهما جالسين في السيارة وقال: «مادلن، كيف سننجو من ذلك؟»، إن جزءًا من خوف مادلن من شارلوت التقطته من خوف دنكان منها، هذا ولم تضطر فحسب إلى الاعتناء بنفسها، بل اضطرت إلى الاعتناء به هو أيضًا.

لكن مادلن قامت بكل شيء، لقد تبرعت بثروة العائلة، بمنح شيكات الصناديق الائتمانية إلى الأبحاث العلمية عن السرطان، مما أثار غيظ أبيها، لقد أوصت جدتها بأن تحصل مادلن على مبنى تريبيكا وتحفها الأثرية، لكن بخلاف ذلك كانت مادلن تعيش من مالها الخاص، شيدت مادلن شركة ضخمة تجاوزت إلى حد كبير قيمة مجموعة التحف الأثرية التي تركتها جدتها، وظلت تعمل ليل نهار ولم تقل يومًا: «أنا ثرية، لست بحاجة إلى العمل، لقد أصبت بأربع سرطانات قبل سن الأربعين، أظن أنني سآخذ استراحة لبقية حياتي، إن لم تكن تلك بطلة، فمن إذن؟».

***

ذلك الأسبوع الذي أصيبت فيه مادلن بالانهيار، أو على حد تعبيرها «حين استشاطت غضبًا»، تغيرت حياتها للأبد، وأهم ما حدث أنها أفصحت عن حبها لأنتون، لقد صارت علاقتهما رائعة منذ ذلك الحين، ولم أسمع منها مجددًا كلمة واحدة تشير إلى القلق أو التناقض بشأن هذه العلاقة، الجنس، والحب، والحميمية، كانوا موجودين أجمعين، كما كان لديهما نفس الاهتمامات وأخلاقيات العمل، وساعد في ذلك أن أنتون كان صديقًا قبل أن يصير عشيقًا.

ذات مرة إثر مغادرتي لمكتب مادلن وركوبي السيارة الليموزين لتوصلني إلى المطار إذ برجل طويل ونحيف أشقر وسيم للغاية يطرق نافذتي المعتمة بالستار، ثم أومأ إليَّ بإبهامه صانعًا إشارة الإعجاب مع ابتسامة عريضة جميلة، وحين لم أنزل النافذة (حتى الرجال ذوو الجمال الفاتن ذوو الشعر الأشقر يمكن أن يطلقوا عليك النار في نيويورك) قال: «أنا أنتون» وانطلقت الليموزين، ولقد ذكرني بباريشنكوف، لكن من دون الساقين الطويلتين، ولم أستغرب من أن مادلن لم تخبرني قط عن مدى حسنه، لكنني حين قابلتها

في المرة التالية ذكرت لها ذلك، فنظرت إليَّ بسخرية وقالت: «ربما أكون مهووسة، لكن ذوقي ليس سيئًا».

كانت مادلن تشير إلى الجلسات العلاجية التي أجريناها بعد الانهيار بأنها «ما بعد نهاية الدنيا»، من المنظور الديني تتضمن نهاية الدنيا رؤية مفاجئة لانفتاح السماوات وانكشاف أسرارها، أسرار تسهل استيعاب الحقائق الدنيوية، وبالنسبة لمادلن فقد سهل كل شيء، تغيير تلو الآخر، مع كوني الشاهدة.

بدأ أنتون ومادلن يأخذان إجازة في عطلات نهاية الأسبوع ثم شرعا في السفر إلى أوروبا للاستمتاع، كما كانا يذهبان للتزلج على الجليد في «مدينة أسبين»، مصطحبين معهم ابن فيينا الذي صار آنذاك مراهقًا، وقد سامحت أباها، وكان يطير إلى المدينة كل أسبوع لتناول العشاء معها هي وأنتون.

لقد مر ما يزيد عن أربع سنوات منذ سفري الأول إلى نيويورك بواسطة الطائرات ذات الأجنحة المقاومة للثلوج وعبر مكبات النفايات، لأعمل مع مادلن ساعتين كل أسبوع، آنذاك صرت أعرف كل من في الشركة، ثم حين انتبهت لأنني بدأت في تمييز أنواع معينة من الخزف الصيني أدركت أن بقائي هناك دام بما فيه الكفاية.

لم تكن صحة مادلن النفسية في حالتها المثلى بحلول نهاية العلاج النفسي، لكن ينبغي للمعالج معرفة أوان انتهاء جل العمل، هذا يشبه التربية بعض الشيء، حيث يجب معرفة الفرق بين الدعم والاعتماد، وحين نظرت إلى الموضع الذي بدأنا منه، رغم الأخطاء على مدار الطريق، كنت فخورة بما أنجزناه، لكن الانتكاسات كانت لا تزال موجودة، فلقد كانت مادلن مثل كل سجناء الحرب السابقين الذين يعانون اضطراب كرب ما بعد الصدمة، حين تصير منهكة، ومضغوطة نفسية، أو يحدث أحد المحفزات، أو تواجه بعض المحن، تعاود أعراضها الظهور، وغالبًا ما تتجلى في إدمان العمل.

لقد تغلبنا على العائق الأكبر حين قدرت مادلن وأنتون على السفر بالطائرة معًا، كان يرغب في أن يريها «متحف هيرم تاج في سان بطرس بيرج» St. Petersburg's Hermitage Museum بالإضافة إلى المواضع الأخرى التي يعشقها في روسيا، ما الأفضل من رؤية عجائب العالم بعيني شخص تحبه؟

خلال جلستنا العلاجية الأخيرة، في أثناء شربي لقهوة بالحليب منزوعة الكافيين، دخلت فيينا وعانقتني، وبكت، وأخبرتني وهي تنتحب أنهم سيفتقدونني، لكن مادلن قالت (بطرافتها الجافة المعتادة): «لا تقلقي، فبحظي المعهود ستعود».

***

يزعم الناس أن الأثرياء لديهم كل شيء، لذلك غالبًا ما يتعرضون لسوء الفهم أو الأحكام الخاطئة، ذات مرة وصف أحد الصحفيين مادلن بأنها «متعالية» لأنها لا تبتسم ولا تجري اتصالًا عينيًا، لو كانت فقيرة لربما وصفها بأنها «خجولة»، كان مزعم الصحفي خاطئًا تمامًا، إذ لم تكن مادلن تجري اتصالًا عينيًا لأنها خائفة من أي شكل من أشكال الحميمية أو الاهتمام، ولم تكن تبتسم لأن أمها كانت قد أخبرتها أنها حين تفعل ذلك تبدو مثل ضبع راقص ذي لثة أرجوانية.

مادلن هي بطلتي، وإنني لأعتبرها سجينة حرب تعرضت لغسيل الدماغ داخل بيتها، لقد حظيت بأم سيكوباتية نرجسية ترتدي قناعًا متقنًا، أحيانًا تكون الصعوبة التي يلاقيها المرء مع أم مثل شارلوت، المقبولة اجتماعيًا وفي الخفاء قاسية مع ابنتها، أشد من التي يلاقيها حين يحظى بولي أمر مجنون تمامًا ويراه المجتمع كذلك، ففي الحالة الأخيرة على الأقل يدرك الطفل أن الإساءات ليس لها صلة شخصية به.

في سجنها ذي الخمس نجوم كانت أم مادلن تردد على مسامعها أنها مسخ، وأنها مدللة، وعبوسة، وكسولة، وبدينة، لكن في واقع الأمر مادلن كانت جميلة، ورئيسة صفها، وبطلة تنس، ورئيسة الطالبات، حين رأيت صور طفولتها كانت أشبه برسم عَصَوِي يرتدي فستانًا فاخرًا، لكنها -مثل جميع الأطفال- صدقت وصف أمها لها، هذا وفي المناسبات النادرة التي كانت تشير فيها مادلن إلى نجاحاتها كانت شارلوت تقول إنها لا ترى سوى المسخ الحقيقي.

أدركت شارلوت بغريزتها كيف تغسل دماغ ابنتها، بكل الطرق، لقد وضعت عالمة النفس مارجريت سينجر، الخبيرة في غسيل الدماغ، القواعد الأساسية لذلك في كتابها «الطوائف بين ظهرانينا: الصراع المستمر ضد خطرهم المستتر» Cults in Our Midst: The Continuing Fight Against Their Hidden Menace:

1. **احرص على عدم وعي الشخص بما يجري وبالمحاولات الرامية إلى إشراطه[1] سيكولوجيًّا خطوة خطوة.**

ظلت أم مادلن تناديها بالمسخ كل صباح طيلة السنوات التي عاشتها برفقتها.

2. **أنشئ حس العجز داخل الشخص إنشاءً منهجيًّا.**

جميع الأطفال عاجزون وجميع الأمهات قادرات على كل شيء، وبهذا تنبني تلك التركيبة السلطوية داخل الأسر النووية.

كانت شارلوت شديدة القوة لدرجة أن زوجها -الذي يشرف على مئات من الموظفين- كان يرتعد خوفًا في البدروم برفقة ابنته.

3. **تستخدم الطائفة نظامًا تلاعبيًّا متمثلًا في المكافئات، والعقابات، وعيش الخبرات، كي تعزز تعليم أيدولوجية المجموعة أو منظومتها العقدية، أو السلوكيات المقبولة داخل المجموعة.**

كانت هناك أيدولوجيتان متنافستان داخل بيت مادلن: كان الأب ممثلًا للحقيقة، والسلوك الحضاري، وأولوية العقد الاجتماعي (ورغم ذلك فقد كان أحد الإهمالات الكبرى عدم حمايته لابنته من الأم المفترسة)، أما الأم فقد استهزئت بقواعد الأب، ووصفت افتقاره للسلوك المنحل بأنه «متشدد» ووصفت مادلن بـ «الرضيعة» لعدم نومها مع خليلها المراهق، هذا وقد أسمت شارلوت سلوكها السيكوباتي «مرحًا» وسلوك دنكان الأخلاقي «مملًّا وثقيلًا»، كما كانت أشد شراسة، لذلك انتصرت أيدولوجيتها داخل البيت، لاستطاعت غسل دماغ المرشح المنشوري[2] ولأقنعت العالم بذلك.

***

(1) مصطلح في علم النفس السلوكي يصف أحد أشكال التعلم الترابطي. (المترجم)

(2) المرشح المنشوري: شخصية في رواية شهيرة بالاسم ذاته متمحورة حول جندي مخضرم يتعرض لعملية غسيل دماغ بعد وقوعه في الأسر. كلمة منشوري يقصد بها الخائن الذي يعيش في دولة ويعمل لصالح دولة أخرى. (المترجم)

مرت أربع عشرة سنة على آخر مرة رأيت فيها مادلن وعشرون سنة على آخر مرة رأيت فيها دنكان، وذات مرة كنت أتتبع مغامراتها التجارية عبر المجلات المختلفة ورأيت لها إحدى الصور الرائعة وهي مرتدية فستانًا طويلًا وممسكة بذراع أنتون، الذي يرتدي بدلة رسمية، كان كل منهما مبتسمًا ابتسامة عريضة في حفل لأحد المستشفيات الخيرية.

أخبرتني مادلن خلال مراسالاتنا عبر البريد الإلكتروني أنها لا تزال تعيش في سعادة مع أنتون، وأن سرطاناتها لم تعد، وأنها صارت أقرب لأبيها، أصيبت كارين بالشيخوخة وتحتم عليها دخول دار المسنين، آنذاك صارت مادلن حرة في دخول بيت طفولتها متى ما شاءت، وبمرور الوقت سامحت أباها على عجزه عن التصدي لأمها ولكارين، وقد سعي في تعويضها عن ذلك، وسمحت له بذلك.

رغم أن شارلوت صارت أكثر طيبة مما كانت في شبابها (يميل السيكوباتيون إلى الاحتراق) فلم تتحول إلى شخص جديد تمامًا، في معظم الأحيان لا يكون السيكوباتيون على ما يرام حين يبلغون الكبر، نظرًا لأنهم يكونون قد فشلوا في بناء العلاقات الطويلة الأمد، أحد الأغراض الكبرى للوجود الإنساني، لقد كانت شارلوت جميلة، وثرية، واستمتعت بمكانة زوجها الاجتماعية، ورغم ذلك فقد مات رفيقها المساكن، جاك، مفلسًا، كما فقدت حسنها بسبب تقدم العمر، والتدخين، وتسمير البشرة، وشرب الخمر، وعدم ممارسة الرياضة، وفجأة -ولا عجب- رغبت في قضاء وقت أكثر مع ابنتها، لكن مادلن لم تثق في تلك المودة الوليدة، ولم تفعل لها سوى ما تفعله البنت البارة، كانت هي وأبوها يعطيان لشارلوت المال لكنهما رفضا بذل المزيد، فلقد تعلموا كيفية حماية نفسيهما، وعلى حد قول مادلن: «حمدًا لله على العلاج النفسي وخدمة إظهار الرقم».



خاتمة

تذكرت أن العالم الحقيقي فسيح، وأن هناك ميدانًا ذخيرًا بالآمال والمخاوف، بالمشاعر والبهجات، ينتظر أولئك الذين تحلوا بالشجاعة للخوض في فساحته، لالتماس المعرفة الحقيقية عن الحياة في خضم مهالكها.

شارلوت برونتي، «رواية جين آير» Jane Eyre

لقد كان هذا كتابًا عن أشخاص أعتبرهم أبطالًا من الناحية النفسية، لا جدال أن المعارك التي خاضوها تركت لديهم ندوبًا، لكنهم انتصروا انتصارًا **حقيقيًا**، لقد انتقيت الفائزين، الذين انحدروا من خلفيات مضطربة دون الوقوع في براثن الإدمان أو الأمراض النفسية المشلة، وذلك لأنني لطالما آثرت الإلهام على التراجيديا (حين كنت في سن التاسعة قرأت كل النسخ المتاحة لـ «مذكرات فتاة صغيرة» **The Diary of Anne Frank** في المكتبة العامة المحلية التي أرتادها، آملة في العثور على نسخة لا تنطوي على موت آن في النهاية).

لقد أبلغنا أرنولد توينبي -أحد فلاسفة التاريخ- أن مهمة البطل هي الخلود والعودة، يصل البطل إلى الكمال عبر فعل فريد تتجسد به الشجاعة، به يولد البطل من جديد، ثم يعود، بإطلالة جديدة، ليعلمنا -نحن الناشئين- الدروس التي خبرها، وكتابي هذا هو أسلوبي للإشادة بهؤلاء الأبطال المنتصرين، وتصويرهم وهم يسردون حكاياتهم المرعبة المثمرة، حين تحتم على كل منهم قتل وحش مختلف، وفي ذلك استخدم كل واحد منهم سلاحًا مختلفًا، واستعان باستراتيجية حربية مختلفة.

للوهلة الأولى قد يبدو هؤلاء الخمسة غاية في الاختلاف، لكننا نكتشف، بعد تقشير الطبقات الاقتصادية والثقافية، أن احتياجاتهم اللاواعية متشابهة إلى حد مدهش، وأنهم جميعًا كانوا بحاجة إلى الشعور بأنهم محبوبون ليعيشوا حياة طيبة.

ما يعلمه لنا هؤلاء الخمسة هو أن **كل واحد منا** يستطيع أن يكون بطلًا، فهم يظهرون لنا كيفية الغوص في أعماق أنفسنا وتسليط الضوء على جوانبها الخفية، واكتشاف ما يقبع في تلك الزوايا المظلمة، ثم جره إلى الضوء جرًا، وأخيرًا مواجهته، لقد ساروا في رحلتهم بكل بسالة وسلكوا الطرق المجهولة سعيًا للتغيير، وثابروا في وجه العقبات، وبذلك يذكروننا بأننا نستطيع

التغلب على مخاوفنا وكسر الحدود التي فرضناها على أنفسنا حين التبس علينا السجن بالأمان، وأخيرًا يبثون الإلهام في قلوبنا بتبيينهم أن كل مراجعة للنفس إنما هي الشجاعة بعينها.

هؤلاء الشجعان تركوا بداخلي أثرًا لا يمحى في أثناء وجودهم بالعلاج النفسي -ولا أزال أتفكر فيهم أحيانًا- وآمل أن تلهمك شجاعتهم كذلك.



امتنان

أوجه شكري لأبطال هذا الكتاب الذين لم يستسلموا قط وواصلوا القتال، فألهموني، من دونهم ما كان هذا الكتاب، فهم لم يكونوا أبطالًا فحسب، بل وافقوا بكرم على مشاركة قصصهم، كما أشكر القارئين الأولين، جون ريدفيرن وليندا كان، فلقد وضعاني على المسار الصحيح.

أشكر وكيلتي الأدبية الدؤوبة، هيلاري مكماهون، التي لم تقتصر في اقتراحاتها على التغييرات مهمة، بل أوجدت للكتاب موضعه المثالي في «شركة بنجوين» Penguin، كما أود شكر محررتي الأدبية ديانا توربايد، التي جعلت عملية التحرير خالية من الصعوبة إلى حد عجيب، وبفضل أسلوبها المذهل في الفتق والرتق، إلى جانب عبارتها المتكررة «مثير للاهتمام لكن غير ضروري»، صار هذا الكتاب أفضل كثيرًا وأشد تركيزًا، وأشكر مدققتي اللغوية، كارين أريستون، التي التقطت الأخطاء الدقيقة للغاية من دون أي تغيير في المعنى.

وأخيرًا أود شكر مايكل، زوجي لثمانية وأربعين عامًا، الذي دائمًا ما يستمع إلى أفكاري كأنه لم يسمعها من قبل، ولم تكن تلك أحد مواهبه الفطرية.

صباح الخير أيها الوحش

"مُفجع، ومُدهش، ومُلهم، وعميق".

- لوري جوتليب، مؤلفة كتاب «ربما عليك أن تكلم أحدًا»

"لم تسرد جلدنر حالاتٍ جافة، بل صاغت رواياتٍ مؤثرةً لأشخاصٍ يحاولون التعامل مع صدمات طفولتهم. تلك الرحلات الاستكشافية مُدهشة ومُثيرة للتفكُّر والتأمُّل، وكما تصِف جلدنر: "إن علم النفس يشبه علم الآثار في كثيرٍ من النواحي، فحين تحفُر وتتعمَّق في الطبقات، ثم تنفض الغبار بحرص عن الأثريات المستخلصة، تعثر في النهاية على عالَم مدفون، عالم أشد غرابة من الخيال".

- كريمور إيكو



د. كاثرين جِلدِنر

جلدنر إخصائية نفسية حصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه ومارست مهنة العلاج النفسي 25 عامًا، ثم تفرغت للكتابة الأدبية، وهي مؤلفة عدد من الكتب الأكثر مبيعًا، ومنها:

- Too Close to the Falls (1999).
- Seduction (2005).
- After the Falls (2010).
- Coming Ashore (2014).

صباح الخير أيها الوحش

هـذا كتاب عن خمسـةِ أشـخاصٍ أعتبرهـم أبطالَ حروبٍ نفسـيةٍ، لا جـدالَ أن المعارك التي خاضوها تركت لديهـم ندوبًا، لكنهـم انتصروا انتصارًا حقيقيًا.

إن مَهمَّة البطـل هـي الخلـود والعـودة، أيْ إنَّ البطـل يصل إلى الكمـال عبر فعـلٍ فريدٍ تتجسـد بـه الشـجاعة، وبـه يُولـد البطـل مـن جديـد، ليعلِّمنـا -نحن الناشـئين- الـدروس التي خبرهـا، وكتابـي هـذا هـو أسـلوبي للإشـادة بهـؤلاء الأبطـالِ المنتصرين، وتصـويرهم وهـم يسـردون حكاياتِهـم المُرعبـة المُثمـرة، حين تحتَّـم على كلٍّ منهم ضرب عنق وحش مختلـف، حيثُ اسـتـخدم كلُّ واحـد منهـم سلاحًـا مختلفًـا، واسـتعان باسـتراتيجية حربية مختلفة.

للوهلـة الأولـى قـد يبـدو هؤلاء الخمسـة غاية في الاختلاف، لكننا نكتشـف، بعد تقشـير الطبقـات الخارجيـة، أن احتياجاتهـم اللاواعيـة متشـابهة إلى حدٍّ مُدهش، وأننـا جميعًا في حاجة إلى الشعور بأننا محبوبون لنعيش حياةً طيبةً.

مـا يُعلِّمُـه لنـا هؤلاء الخمسـة هو أن كلُّ واحد منا يسـتطيع أن يكون بـطلًا، فهم يظهرون لنـا كيفيـة الغـوص فـي أعمـاق أنفسـنا وتسـليط الضـوء علـى جوانبهـا الخفيـة، واكتشـاف ما يقبع في تلـك الزوايا المظلمة، ثم جرِّه إلى الضوء جرًّا، وأخيرًا مواجهته.



لقـد سـاروا فـي رحلتهـم بكل بسـالة وسـلكوا الطـرق المجهولة سـعيًا للتغيير، وبذلك يذكروننا بأننا نسـتطيع التغلُّب على مخاوفنا وكسـر الحـدود التـي فرضناهـا علـى أنفسـنا حيـن التبـس علينـا الانحبـاس والأمـان، وأخيرًا يبثون الإلهام فـي قلوبنا بتبيُّنهم أن كل مراجعة للنفس إنما هي الشجاعة بعينها.

هـؤلاء الشـجعان تركـوا بداخلـي أثرًا لا يُمحى في أثناء وجودهم بالعلاج النفسي، وآمل أن تلهمك شجاعتهم كذلك.

غلاف: عبد الرحمن الصواف









aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb